رواية



كأنها نائمة

الياس خوري

دار الآداب

الياس خوري

كأنَّها نائمة

رواية


دار الآداب ـ بيروت

كأنّها نائمة

الياس خوري / روائيّ لبنانيّ
الطبعة الأولى عام 2007
الطبعة الرابعة عام 2013
ISBN 978-9953-89-015-9

الأحداث والشخصيّات والأماكن والأسماء، في هذه الرواية، من خلق الخيال. وإذا وجد أي شبه بين أشخاصها وأسمائها وبين أشخاص واناس حقيقيِّين، او بين اماكنها وأحداثها، وأماكن وأحداث حقيقيّة، فلن يكون ذلك إلاّ محضَ صدفة، ومن غرائب الخيال، وخالياً من أيّ قصد.

«الموت نوم طويل لا هبوب له   والنوم موت قصير بعثه أممُ»

أبو العلاء المعري

«لم تمت الصبيَّة لكنَّها نائمة»

لوقا : 52:8

الليلة الأولى

انشقت أهداب ميليا عن عينين يغطيهما النعاس، فقرَّرت أن تغمضهما من جديد وتتابع المنام. رأت شمعة صغيرة بيضاء يرتجف نورها الشاحب في الضباب. منصور يحمل الشمعة ويمشي أمام سيارة التاكسي، والهواء يضرب معطفه الطويل، لكنَّها لم تستطع أن تتبيَّن ملامح زوجها. مدَّت يدها إلى كوب الماء الذي تضعه في العادة على الطاولة إلى جانب سريرها، فلم تجد الماء. أحسَّت بالعطش، وتكسَّر الجفاف على لسانها وفي سقف حلقها. سحبت ذراعها اليسرى الممدودة تحت رأسها فوق المخدة من أجل أن توقف التنمّل الذي امتدَّ من أعلى الذراع إلى العنق. تقلَّبت في الفراش. استلقت على ظهرها، مدَّت يدها إلى كوب الماء فلم تجد الطاولة. انتفضت فوجدت نفسها جالسة، تراجع جذعها إلى الخلف، وأسندت رأسها إلى حافة السرير الخشبيَّة. أين اختفى الحائط الأبيض الذي كانت تسند إليه رأسها، وتشعر بطلائه المتقشّر يتفتَّت تحت شعرها الطويل ويتداخل به؟ ألصقت ذراعيها بصدرها فلامستا ثدييها العاريين. جاءها الخوف، وتسلَّلت البرودة إلى فخذيها. مدَّت إليهما يدها اليمنى كي تخفِّف من ارتعاشتهما، فلامس باطن كفِّها فخذين عاريين، صعدت بكفِّها إلى أعلى الفخذين، فأحسَّت دمًا باردًا يتخثَّر عند أسفل بطنها.

«هذا هو الزواج»، قالت بصوت منخفض، وأغمضت عينيها من جديد.

حفظت ذاكرة ميليا مشهد ضهر البيدر، كأنّه خيال ظلّ مرسوم باللون الأسود. زوجها منصور حوراني يحمل شمعة صغيرة، ويمشي أمام السيارة ببدلة العرس السوداء، والمعطف الزيتي الطويل. جلست الفتاة بثياب العرس البيضاء في المقعد الخلفي من السيارة، تغطّت بالعتمة وهي تشاهد صلعة السائق تلتمع بالقشور البيضاء. سوف تقول لزوجها عند وصولهما إلى مدينة الناصرة في الجليل أنّ صورته انطبعت في عينيها شبحًا أسود يتداعى أمام السيارة التي لم تستطع أضواؤها الأماميَّة أن تشقّ الضباب الكثيف الذي غطّى مرتفع ضهر البيدر، في تلك الليلة المثلجة.

في الثالثة من بعد ظهر السبت ١٢ كانون الثاني ١٩٤٦، تزوَّج منصور وميليا، في كنيسة الملاك ميخائيل، وبارك إكليلهما الكاهن بولس سابا. عندما انتهت الصلاة، وقف العروسان أمام باب الكنيسة، وحولهما أفراد عائلة ميليا من أجل تقبُّل التهاني. انهمرت الدموع من عينيّ ميليا فلم ترَ أحدًا من المهنِّئين. كانت دموعها تقفز من عينيها كأنَّها تطير، قبل أن تحطّ على خديها الأبيضين. منصور الذي احتلَّت ابتسامة عريضة شفتيه الرفيعتين، كاشفة عن أسنان صغيرة بيضاء، لم ينتبه إلى بكاء عروسه إلاَّ حين سمع أمها تنهرها قائلة: «عيب يا ميليا شو نحن بدفن، هيدا عرس». وعندما غادر جميع المدعوين حاملين علب الملبس الفضيَّة، ولم يبقَ في باحة الكنيسة سوى أفراد العائلة، اقتربت الأم من ابنتها وضمَّتها إلى صدرها، وارتجفت المرأتان بالبكاء. أزاحت الأم ابنتها

وقـالـت: «ولو يا بنتي رح تقطعـيلي قلبي، خلّي البكي علينا، إنتِ لازم تفـرحي». ابتـسـمت العـروس وهي تشـرق دمـوعـهـا، وبكت الأم، قـبل أن ترتفع زغـرودتها، وأحاط أشقاء ميليا بالعـروسين. رأت العروس شقيقها موسى وبؤبؤاه يتصـاغـران داخل عينيـه، فـأحسـّت بالخطر، رفـعت يدها بشكل لا إرادي كأنَّها تغطِّي وجه زوجها، وتحميه من نظرات أخيها.

فتحت ميليا عينيها فلم ترَ سوى الظلام. قرَّرت متابعة هذا المنام الغـريب، وهي تشـعـر بشيء من الأمـان على الرغم من خوفـهـا. أخيـرًا عادت المنامات إلى ليلها. ميليا ترى نفسها في المنامات فتاة صغيرة، في السابعـة، سمـراء، ذات شعـر أسود قـصيـر ومجعَّد، تـركض بين الناس وترى كلّ شيء. وحين تنهض في الصبـاح، تروي مـا تشـاء، فينظر إليها الجـميع بخوف وذهول لأنَّ مناماتها تشبـه النبوءات التي تتحقَّق دائمًا. أمـا هنا، في هـذا السـريـر الغـريب، ووسط العـتمـة التي تتـراكم على عينيها، فقـد حلمت نفسـها امرأة في الرابعة والعشـرين، تتمدَّد عـارية على سرير ليس سريرها، وتضع رأسها على وسادة ليست وسادتها.

فتحت ميليا عـينيها من أجل ترتيب المنام، قبل أن تعود إلى النوم من جديد، فلم ترَ سوى عينين مفتوحتين على الظلام.

فتحت عينيها فرأت عينيها، وخافت.

استنـد الرجل إلى جذع شجـرة الزنزلخت، وقال لهـا إنَّ لونًا أزرق فـاتحًـا ينتشـر في بيـاض عينيـهـا ويعطيـهـمـا مـسـحـة سـمـاوية. قـال إنَّ بشـرتهـا البـيـضـاء، وعنقـهـا الطويل، وعـينيـهـا العـسليـتين، وشـعـرها الكستنائي الذي يتهدّل على كتفيها، أتت به من مدينته البعيدة من أجل أن يتزوَّجها. وقال إنَّه يحبُّها.

أين قال هذا الكلام؟

ولماذا حين تستيقظ من هذا المنام يبقى المنام ولا ترى سوى عينين مفتوحتين على العتمة؟

قرَّرت ميليا أن تنهض من السرير وتجلب كوب ماء، فرأت عريها الأبيض منعكسًا في مرآتي عينيها، أغمضتهما، وقرَّرت أن تطلب من الرجل الذي ينام إلى جانبها في السرير، مديرًا لها ظهره، العودة إلى السيارة لأنَّها تخاف عليه. أغمضت فرأت نفسها تنزلق وتدخل في الغمام الأبيض. نسيت عطشها حين رأت امرأة عارية مستلقية، وأمامها زجاج سيارة مغبَّش بالأنفاس، ورجل يمشي أمام السيارة حاملاً شمعة مرتجفة، كأنَّه يخترق الضباب، ببدلته السوداء، ومعطفه الزيتي.

صمت، وامرأة عارية، وسيارة تتحرَّك ببطء شديد وسط الضباب، وسائق ينحني على المقود محاولاً أن يرى الطريق من خلال زجاج مليء بالبقع البيضاء، ورجل يمشي أمام السيارة حاملاً شمعة بيضاء، يغطِّيه ضباب أبيض.

انطفأت الشمعة، أو هكذا بدا لها. وقف الرجل في منتصف الطريق فاتحًا معطفه، كأنَّه يحاول أن يخبِّئ الشمعة في داخله من أجل أن يشعلها من جديد. تقوَّس ظهره وانحنى، وتطاير معطفه في الهواء، لكنَّ الرجل بقي جامدًا في مكانه. أنفاس السائق ترتفع. السائق يفتح نافذة السيارة، يخرج رأسه ويصرخ بكلام غير مفهوم.

ميليا بردانة، وألم حادّ يخترق بطنها. حاولت أن تتغطَّى، إلتفَّت بالمعطف البني، ضمَّت يديها إلى صدرها، وسمعت أسنانها تصطك. تغطَّت بالمعطف والعتمة، وفكَّرت أن لا لزوم للشمعة. قرَّرت أن تخرج من

السيارة كي تقول للرجل إنَّ الأضواء الأماميَّة للسيارة عاجزة عن اختراق الضباب، فماذا تستطيع الشمعة أن تفعل؟ سوف تقول له أن يعود إلى السيارة، لكنَّها لا تجرؤ على الخروج لأنَّها عارية وبردانة.

من وضع السرير في السيارة؟ ولماذا تعرَّت؟

فهي حين تنام تلبس قميص نوم أزرق طويلاً يصل إلى كاحليها، ولا تخلع صدريَّتها. قرَّرت أن لا تخلع صدريّتها حين رأت ثديي جدتها الطويلين المتهدلين، خافت من تساقط ثدييها على بطنها، فقرَّرت أن تشدَّهما كلَّ الوقت، حتى حين تنام. لكنَّها الآن بلا قميص نوم وبلا صدرية. أنفاس السائق ترتفع، صدره يستند إلى المقود، وعيناه تلتصقان بالزجاج الأمامي للسيارة، وميليا خائفة. الرجل الذي يتراءى لها من خلال الضباب يبتعد كأنَّه يطير. انتفخ معطفه بالهواء، وبدا كأنَّه يرفرف وحيدًا فوق الوادي.

رأت ميليا نفسها بيضاء في المنام، ولم تفهم من أين جاءها هذا البياض. الجسد الذي تلبسه في النهار ليس لها، إنَّه إنعكاس لعيون الناس. أمّها أرادت ابنة بيضاء ذات جسد ممتلئ، فابيضّ جسد ميليا وامتلأ من أجل أمها. أما في الليل فجسدها لها. إنَّها في السابعة، سمراء، رفيعة القدّ، عينان واسعتان تحتلان الوجه، شعر أسود ومجعَّد، أنف صغير ودقيق كأنَّه مرسوم تحت حاجبين طويلين رفيعين، تلبس بنطلونًا قصيرًا وتركض حافية. عيناها تستعيران بؤبؤين أخضرين بدل البؤبؤين العسليين اللذين يراهما الناس في النهار. والبؤبؤان يسبحان في بياض يتخلَّله أزرق فاتح يكاد لا يرى.

ميليا تحبّ الليل وتركض في شوارعه الضيّقة. تستلقي على سريرها وتفتح عينيها، فيرتسم الليل من حول أجفانها. وعندما تكتمل العتمة تغمضهما وتذهب إلى مناماتها. وفي الصباح، لا تمسح المنامات عن عينيها، تتركها دوائر مرسومة بحبر ممحو كي تعود إليها حين تشاء. يكفي أن تغمض حتى تمحي الأصوات وتندثر الأضواء، فتذهب إلى حيث ترى كلّ شيء، وتكتشف الأسرار.

لم تخبر ميليا أحدًا أنّها تخبّئ مناماتها في مكان عميق تحت العتمة. تحفر في العتمة وتضع مناماتها. تذهب إلى الحفرة حين تشاء، تخرج ما تريد من مناماتها وتحلمها من جديد.

هذا المنام يأتي من لا مكان. ففي حفرة المنامات لا وجود لهذه الميليا. ميليا الليل ليست ميليا النهار. من أين أتت صور النهار؟ ألأنّها تزوّجت؟ هل هذا هو الزواج؟

تشعر ميليا بالاختناق وترتجف من البرد. صار الليل بئرًا، وهي في قعر البئر. أنفاس السائق ترتفع وتلفح عنقها. كأنّه يئنّ من الألم. حاولت أن تسأل السائق الأصلع ما به، لكنّ صوتها اختفى. حاولت أن ترفع رأسها عن الوسادة، لكنّ رأسها صار ثقيلاً. وفجأة نزل السائق من السيارة. السائق اختفى ومنصور اختفى، والمرأة العارية وحدها في السرير، الضباب يحاصرها والثلج يتساقط من حولها. حاولت أن ترفع قدمها اليسرى التي جمدت من البرد، لكنّها لم تستطع. أحسّت أنّها تسقط من السرير. ضربها ألم فظيع بين فخذيها، سكين يطعنها، ودم. صرخت، أرادت أن تصرخ بأنّ السائق يغتصبها، لكنّ صوتها اختفى، وامتلأ فمها بالقطن.

ميليا وحدها في العتمة والبرد. قرَّرت أن تفتح عينيها وتخرج من هذا المنام، فرأت وجهًا أبيض ذا جناحين أبيضين. مدَّت إليه يدها اليمنى، فالتصق الريش على أطراف أصابعها. صرخت طالبة منه أن يخلِّصها، لكنَّه لم يسمع صوتها، أرادت أن تقول أنَّها تريد العودة إلى بيتها، وأنَّها لم تعد تريد الزواج، لكنَّها لم تقل. الوجه ذو الجناحين يحلِّق فوق السيارة وفوق الوادي وفوق الرجلين. يبتعد والريش يتساقط منه. ريش أبيض يشبه ندف الثلج الصغيرة التي تتساقط أمام ضوء السيارة الخافت.

قالت ميليا إنَّها لا تريد تمضية شهر العسل في شتورة. الثلج يتساقط فوق ضهر البيدر والبرد. قالت أن لا لزوم لفندق «مسابكي» ولا لزوم للعسل. «نبقى في بيروت يومين عند أهلي ثمّ نذهب إلى الناصرة».

أمها قالت إنَّه كانون، وفي كانون لا يعسِّل أحد هناك، «ارجعوا، واعملوا العسل كلّه في الصيف».

الراهبة ميلانة قالت إنَّ من الأفضل عدم الذهاب إلى شتورة في هذا الطقس البارد، لكن لا وجود لايّ خطر. «مغامرة غير نافعة من الأفضل تأجيلها».

منصور أصرّ، «ما بصير»، قال. أراد شهر العسل في شتورة، لأنَّ الزواج والعسل لا يصيران إلاَّ في فندق «مسابكي».

قطّب موسى حاجبيه، وقال لأخته أن لا مشكلة. «الرجل يريد شتورة فليكن، اذهبي معه إلى هناك».

ركبت في السيارة الأميركيَّة، جلست بثوب العرس الأبيض الطويل إلى جانب منصور في المقعد الخلفي، وكانت الزغاريد تصمّ أذنيها عن

سماع صوت أمها، التي انحنت على شباك السيارة ووشوشتها كلمات وداعية ونصائح نسائيَّة. اقترب موسى من السيارة، ورمى لهما معطفين: معطفه الزيتي ومعطف أمه البني، ونظر طويلاً في عينيّ ميليا قبل أن يلتفت إلى منصور ويقول: «مبروك يا عريس»، ويمضي.

مشت السيارة وسط صمت لا يخترقه سوى شنين المطر البيروتي الذي يشبه الحبال. أغمضت ميليا عينيها، ثم فتحتهما على شفتيّ منصور تقبِّلان عنقها. أبعدت شفتيه وقالت «بعدين، مش هلق»، وعادت إلى النوم. تهادت السيارة في المنعطفات الجبليَّة التي تقود إلى شتورة. نامت متَّكئة على باب السيارة، وفتحت عينيها على صوت منصور يأمر السائق بالمتابعة. كانت السيارة متوقِّفة وسط ضباب أبيض يغطِّي كلَّ شيء، فأغمضت عينيها، لكنَّ صوت منصور المرتفع أجبرها على فتحهما من جديد.

قال السائق إنَّه لا يستطيع متابعة الطريق لأنَّه لا يرى الطريق.

فتح منصور باب السيارة الخلفي وقفز إلى الشارع. مشى خطوتين حتى صار أمام السيارة، التفت إلى الخلف وأشار إلى السائق أن يتبعه. مشى بضع خطوات كأنَّه ينزلق على الجليد، ثم عندما لم تتحرَّك السيارة، عاد إلى المقعد الخلفي، لبس معطف موسى الزيتي، وقال للسائق إنَّه سيمشي أمامه، وإنَّ على السيارة أن تتبعه.

قالت ميليا إنَّه اختفى لأنَّها لم تره إلاَّ بعد ثوان. لفح الهواء البارد وجهها، وانتشرت ندف الثلج التي تتساقط فوق ضباب لا نهاية له. أضاعت ميليا زوجها، ثمّ رأته من خلال زجاج السيارة الأمامي كأنَّه شبح يتسلَّق الهواء.

«عفوًا يا عروس»، قال السائق، «العريس مجنون شو بعمل»؟

كان جسد ميليا يرتجف بردًا وخوفًا فلم تجاوب.

«قولي لي شو بعمل»؟ سأل السائق مجدًّدًا.

«امشي وراه»، قالت ميليا بصوت مختنق.

«والعروس كمان خوتا، يا اللَّه شو هالعلقة»، قال السائق قبل أن يدوس على البنزين فبدأت السيارة تنزلق فوق الجليد.

رأت منصور يحمل شمعة منطفئة في يده اليمنى ويمشي، بينما انحنى السائق على زجاج السيارة الأمامي، وقادها ببطء شديد خلف معطف زيتي منتفخ بالهواء.

برم السائق رأسه إلى الخلف، فرأت ميليا بؤبؤيه الأسودين، وكأنَّهما جمرتان منطفئتان. وخزتها عيناه، وأخافها صوته المتحشرج. طلبت منه أن ينظر أمامه، ويمسك بالمقود جيِّدًا لأنَّ السيارة تتزلق. لكنَّه لم يتوقف عن النظر إليها، بينما تابعت السيارة إنزلاقها البطيء، وتابع السائق كلامه غير المفهوم.

«شو عم بتقول»، صرخت ميليا.

«حدا بعسِّل بشتورة بكانون، زوجك بلا عقل». قال السائق، فخرج صوته بطيئًا ومتكسِّرًا. بحلقت ميليا في الظلام أمامها، فاكتشفت أنَّ ما اعتقدته بؤبؤين كانا نقطتين محفورتين في مؤخرة رأس السائق الأصلع، الذي امتلأ بما يشبه نقاط زيت تخرج منها رائحة العفونة. انسحب احمرار الخجل عن وجنتيها، وعاد البرد إلى عظامها، وبدأت أسنانها تطقطق. شدَّت على شفتيها، وأغمضت عينيها.

لا تدري ميليا ماذا قال السائق، لكنَّها تذكر أنَّه تكلَّم كثيرًا، وشتم كثيرًا. فتح باب السيارة مرَّات عدة كي يرى، وكان صوت الثلج المتساقط يشبه الهمس، والهواء البارد يلفح وجه العروس التي تجلس في زاوية المقعد الخلفي.

قرَّرت ميليا أن تنهض من هذا المنام، وتتكلَّم مع الرجل الذي اختاره منام آخر زوجًا لها. فتحت عينيها، فركت خديها بكفَّيها، لتجد نفسها في السيارة. منصور ليس إلى جانبها، إنَّه هناك يمشي بعيدًا وسط رياح عاتية، بينما يصوِّب السائق بؤبؤيه إليها.

«الله يخليكِ ما تنامي»، قال السائق.

نظرت إليه ميليا بعينين مفتوحتين إلى أقصاهما، رأت بؤبؤيه الأحمرين يتحرَّكان في مؤخرة رأسه، وخرجت صرخة من بين شفتيها: «يا عدرا يا أم النور، خلّصي عبيدك يا والدة الاله»، قالت، قبل أن تعود إلى السقوط في النوم.

لم ترَ ميليا ماذا جرى، ولم تسمع السائق وهو يقول «عجيبة»، ولم تلحظ كيف استدار زوجها ووقف إلى جانب الطريق في انتظار السيارة.

في اللحظة التي صرخت فيها ميليا انقشعت الرؤية، واخترقت الضباب ثقوب الضوء، وتوقف سقوط الثلج. أوقف السائق سيارته في انتظار صعود منصور إليها، إلتفت إلى الوراء كي يرى وجه المرأة التي صنعت الأعجوبة بصوتها. لكنَّ ميليا كانت مغمضة العينين، والمنامات تتشكَّل دوائر من حول أجفانها. قال لها السائق إنَّها أعجوبة، فتململت في جلستها، مسحت عينيها بكفيها وابتسمت. في تلك اللحظة فتح منصور باب السيارة وجلس إلى جانب السائق.

«شو هالبرد»، قال منصور.

«وأنا كيف بدي إرجع على بيروت»؟ قال السائق، بينما كانت السيارة تكرج نزولاً في اتجاه سهل البقاع.

«الغطيطة كانت على ضهر البيدر»، قال منصور. «هلق مشي الحال».

«وأنا وين بدّي نام»؟ سأل السائق.

«خفت طير، والله طرت»، قال منصور، والتفت إلى الوراء حيث تكوّمت زوجته على المقعد الخلفي، يغطّيها معطف بني يرتجف على جسدها.

«العروس»، قال السائق.

«مالها العروس»؟ سأل منصور.

«بسّ صرخت يا عدرا دخيل إسمك راحت الغطيطة، ووقف التلج، العروس عملت عجيبة»، قال السائق.

«ميليا»، قال منصور وبدأ يعطس، قبل أن تجتاحه نوبة من الارتعاشات، وبدأت أسنانه تصطكّ، وصار يصدر أصواتًا كأنّها تنهُّدات خارجة من أعماقه.

«أفرك إيديك»، قال السائق.

عطس منصور وتأوه، كأنّه يقاوم الإغماء، وكان جسمه يرتعش ويهتز من دون توقف.

«بسيطة»، قال السائق. «لازم تتحمّل، إنت كان بدَّك تكمّل المشوار، شدّ حالك».

حاول منصور أن يشدّ حاله، لكنَّ قواه خانته، الارتجافات ضربت عضلات صدره وذراعيه وفخذيه، وشعر بالاختناق يصعد إلى الأعلى. صرخ السائق بميليا أن تنتبه إلى زوجها لأنَّ لون وجهه صار أزرق، ولأنَّه صار عاجزًا عن الكلام.

تململت ميليا في جلستها، مدَّت يدها ولامست شعر منصور، «روق يا حبيبي هلق منوصل على الأوتيل ومندفا».

بدأ الرجل يهدأ، انتظم تنفُّسه، واستطاع أن يقول لزوجته أن لا تخاف. «ما تخافيش أنا قوي، وصرت أحسن». وبدأ يعطس في شكل متواصل، طلب محرمة، فناوله السائق محرمته، أشاح منصور يده عنها، فمدَّت زوجته يدها بمحرمتها. ناولته المحرمة البيضاء المخرَّمة التي ورثتها عن جدتها، وتركتها في خزانتها كلّ هذا العمر من أجل يوم عرسها. أخذ المحرمة، انحنى رأسه بها، وبدأ يتمخط ويتنحنح ويبصق.

لا تعرف ميليا كيف وصلوا إلى الفندق، تذكر أنَّ الضباب والرياح العاتية والثلوج حاصرتهم في وسط مرتفع ضهر البيدر، وأنَّها رأت كيف خرج زوجها من السيارة ومشى فابتلعه الضباب. تذكر كيف توسَّل إليه السائق في مدخل قرية صوفر، وقال إنَّه لا يستطيع العبور إلى شتورة في هذا الطقس المثلج، وكيف أصرَّ منصور على متابعة الرحلة مهما حصل. تذكر أنَّ السائق استنجد بها، لكن حين همت بالكلام انفرست عينا منصور في شفتيها وأقفلتهما. رأت شاربيه الأسودين الكثيفين يرتعشان فوق شفته العليا، وتخيَّلت طربوشًا أحمر على رأسه، وأحبَّته.

وسط الرياح التي حاصرت السيارة، وصوت استغاثة السائق بأنَّه لا يستطيع إكمال المشوار، جاء الحب الذي انتظرته ميليا طويلاً.

سقط الحب في قلبها، وأحسَّت وجعًا في ضلوعها، كأنَّ قلبها وقع. أرادت أن تشهق بالخوف، لكنَّها لم تجرؤ. صمتت وقالت إنَّه الحب. في البداية لم تشعر بأيّ عاطفة نحو هذا الرجل الذي رأته واقفًا تحت شجرة النخيل في الحديقة المجاورة لمنزلها. تطلّ من النافذة، فتراه يقف جامدًا ينظر في عينيها، محاولاً انتزاع ابتسامة من شفتيها. كان دائم الابتسام، لا يخفض بصره عنها إلاَّ حين تختفي وقد اصطبغ خداها بأحمر الخجل.

«ماذا يريد هذا الرجل الغريب»؟ سألتها أمها.

ميليا لم تكن تعرف شيئًا عن الرجل، ولم تكن في وارد أن تحبّه، شعره دائم اللمعان كأنَّه مغطًّى بالزيت، أما فوداه الأبيضان، فيشيران إلى أنَّه بدأ ينحدر إلى الكهولة. لم ترَ فيه صورة عاشق منتظر، بل صورة أب يبحث عن ابنته الضائعة. وحين وافقت، لم تقل لأحد عن سبب قبولها به زوجًا.

قالت لموسى إنَّها موافقة لأنَّ العريس يشبهه.

قالت لأمها إنَّها تعبت من الانتظار وتريد أن تتزوج.

قالت للراهبة ميلانة إنَّها ذاهبة هربًا من جوّ البيت الخانق، بعد هجرة شقيقها سليم إلى حلب، واستفحال أمراض أمها.

حين كلَّمته للمرة الأولى، قالت له إنَّه ختيار.

«أنا»؟

أشارت إلى الشيب في فوديه.

«أنا شبت لمن كان عمري عشرين سنة، بتعرفي إيش يعني الشيب، يعني نحن أسود، بالحيوانات ما حدا بشيب إلاّ الأسد». قال إنَّه في السابعة والثلاثين، وسوف يتزوَّج قبل الأربعين. «مرق عمر النبوة الأول وما تزوَّجت، بس ما رح خلّي العمر التاني يفلت منّي، وإلاّ بتروح عليّي».

لم تفهم ميليا ماذا يقصد لكنَّها ابتسمت، فتشجَّع الرجل وقال إنَّه يحبُّها ويريدها، وسألها إذا كانت تحبُّه.

«كيف بدّي حبك وأنا ما بعرفك».

«أنا بحبّك من دون ما أعرفك»، قال، «حاسس فيك من جوّا، إنت عم تحسّي فيي»؟

أومأت برأسها ليس من أجل أن تقول نعم، بل لأنَّها لا تدري، ففهم منصور الإيماءة باعتبارها موافقة ضمنيَّة.

«يعني ممكن»؟ سأل.

نظرت إلى البعيد وأغمضت عينيها.

لم تفهم ميليا ماذا قصد منصور بعمرَي النبوة إلاّ في فندق «مسابكي» في شتورة. اقترب منها في ليلة العرس الثانية، وأراد أن يأخذها.

«لا. أنا تعبانة»، قالت، وأدارت ظهرها وغفت. تركها تسبح في تنفُّسها العميق، ثمّ تسلَّل نحوها من الخلف، وبدأ يداعبها، برمها وصار فوقها، ونام معها. أحسَّت ميليا، في تلك الليلة، كيف تبلَّلت وتبلَّل الشرشف، وضربتها ارتعاشة برد. أرادت أن تنهض إلى الحمام فشعرت بانحلال ركبتيها، أغمضت عينيها وحاولت أن تنام من جديد.

«قومي، قومي، حدا بنام هلق».

فتحت عينيها، أسندت رأسها إلى الحائط، ورأته عاري الجذع والسيكارة بين شفتيه، وعيناه تلتمعان.

«شفتي ما أحلاك، تطلّعي بالمراية، الحب بخلّي المرا تصير أحلى».

أغمضت عينيها وسمعته يروي عن أعماره. قال إنّ عمر المسيح فاته، لكنّه لن يسمح لعمر النبي محمد أن يفلت منه.

لم تفهم ميليا، لكنّها لم تسأل. شعرت بالاحتراق في أسفلها، وأرادت ان تشرب، لكنّها خجلت من النهوض من السرير بسبب قميص نومها المبلّل.

«المسيح انصلب لمن كان عمره تلاتة وتلاتين سنة، ومحمد ظهرت نبوّته لمن صار عمره أربعين. الرجال لازم يصير رجال بواحد من هالعمرين وإلاّ بتروح عليه. راح العمر الأول، وبالتاني لاقيتك».

«الشوفير كان معه حقّ»، همست ميليا، «إنت مجنون».

في السيارة جاء الحب، فأغمضت ميليا عينيها، بحثت عن طربوش خالها متري كي تضعه على رأس منصور، فوجدته في حفرة مناماتها.

رأت منصور يلبس قمباز خالها الحريري الأبيض، ويعتمر طربوشًا أحمر مائلاً إلى الأمام، ويلاحقها بقضيب رفيع من الخيزران. القضيب يلامس قدمي ميليا السمراوين والرجل الذي يلبس قمبازًا يصرخ بها أن تأكل عروس اللبنة. ميليا ببنطلونها القصير تترافص تحت ضربات القضيب، والنار تشتعل في قدميها. يتراجع القضيب، تجلس الفتاة أرضًا وتبدأ في التهام سندويش اللبنة وزيت الزيتون، وتشعر بطعم البصل الأبيض والنعناع الأخضر. ميليا تأكل، والسندويش لا ينتهي. تلتفت إلى

خالها متري وتدعوه إلى مشاركتها في طعامها. يقترب الرجل ويلتهم السندويش بلقمة واحدة. ميليا تسرق القضيب من يد الرجل، تركض والرجل يركض خلفها. ميليا في حديقة مليئة بالأعشاب الخضراء، تقفز فوق حفر مليئة بالماء، وصوت الرجل يرجوها أن تتوقف وتعيد له قضيب الخيزران. تسقط أرضًا، الخال يلهث فوقها، تفتح عينيها، يمّحي الخال ويختفي الطربوش، وتجد نفسها في السيارة وسط الضباب.

اختفى الخال تاركًا طيف ابتسامة على شفتيّ المرأة، وطربوشًا أحمر مائلاً إلى الأمام على راس رجل قرَّرت أن تحبَّه، وامرأة مستلقية على المقعد الخلفي في سيارة تاكسي أميركيَّة، فاستسلمت لها، وغرقت في منام معتَّم لم تستفق منه إلاَّ حين وصلت إلى فندق «مسابكي».

لم ترَ وجه منصور الكحلي، حيث اختلط أزرق البرد بسمار بشرته، إلاَّ حين وصلا إلى الفندق قبيل منتصف الليل. هزّها منصور من زندها، وسمعت صوتًا يقول: «يللا وصلنا». استفاقت كمن يخرج من إغماءة وقالت: «شو... وين»؟ قبل أن تتذكَّر أنَّها عروس آتية إلى شهر عسلها. انفتح باب السيارة، وكان منصور يقف في انتظارها حاملاً الحقيبة. أشار إلى باب الفندق، فمشت إلى جانبه، ثمّ التفتت إلى الخلف فرأت صلعة السائق، الذي ينحني فوق المقود، ويداه مسترخيتان كأنَّه نائم.

«والشوفير»؟ سألت.

«إسّى منشوف»، قال منصور.

قادها إلى باب خشبي مستطيل. قرع منصور الباب طويلاً قبل أن يفتح لهما صاحب الفندق جورج مسابكي، ببيجامته البيضاء وعباءته البنيَّة. نظر الخواجة جورج إليهما بعينين صغيرتين، وقد ارتسمت علامات

الدهشة على وجهه، كأنَّه كان عاجزًا عن التصديق بأنَّ هذين الكائنين الغريبين هبطا عليه في هذه الساعة من الليل من أجل تذوُّق عسل الزواج.

«أنتم العرسان»، قال صاحب الفندق، مداريًا سعاله الذي يبتلع نصف كلامه، بكُمّ عباءته.

أومأ منصور رأسه، قبل أن يلتفت إلى السيارة المتوقِّفة في الخارج.

«أهلاً أهلاً، الحمدالله على السلامة، أنا قلت مش رح تجوا بهالبرد والتلج، تفضّلوا، تفضّلوا، الغرفة بتجهز خلال دقايق». تركهما أمام الباب وصرخ: «وديعة، وديعة، اجوا العرسان». فرك يديه أمام الوجاق المشتعل كأنَّه يكلِّم نفسه: «يا عيني على هالليلة، وينك يا وديعة، شعلي الوجاق بغرفة العرسان، وتعي، بتعرف يا أستاذ...»

التفت إلى منصور فلم يجده، رأى ميليا تقف أمامه بمعطفها البني الذي يغطِّي جزءًا من ثوب العرس الأبيض، وعينيها الواسعتين الناعستين، وخدَّيها اللذين بدآ يتلوَّنان بالأحمر.

«شو إسمك يا عروس»؟

التفتت ميليا إلى اليمين كأنَّها تبحث عن الشخص الذي يخاطبه صاحب الفندق، رفعت يدها إلى صدرها وسألت إذا كان السؤال موجَّهًا إليها.

«لكن مين عم بسأل، مش إنت العروس»؟ قال جورج مسابكي، واجتاحته موجة من السعال أجبرته على الانحناء. جلس على الكنباية وأشار إلى العروس بالجلوس إلى جانبه. بقيت ميليا واقفة في انتظار عودة منصور. لا تدري لماذا انتابها شعور صاعق بأنَّ منصور سيهرب

الآن. رأته يعود إلى سيارة التاكسي يجلس إلى جانب السائق ويطلب منه أن يقوده إلى بيروت.

«وأنا شو بعمل»؟ قالت ميليا بصوت خافت.

«تفضَّلي حدِّي»، قال جورج مسابكي، «هلق بتجي وديعة وبتطلعوا على الأوضة».

وضعت ميليا كفَّيها على عينيها، وسمعت منصور يطلب من صاحب الفندق غرفة ثانية.

كانوا أربعة في بهو الفندق الفسيح، طاولة صغيرة سوداء في المدخل، وخلفها علاّقة مفاتيح الغرف. لاحظت ميليا أنَّ العلاّقة ممتلئة، وخمّنت أنَّ الفندق فارغ. ثلاث كنبايات تشكِّل نصف دائرة من حول الوجاق، مغطاة بقماش مخملي أحمر. سجادة عجميَّة مطرزة بصور الحيوانات الأليفة تحتلّ أرضيَّة البهو، ويغلب عليها اللَّون الأحمر، وصور معلَّقة بشكل عشوائي على الحائط المقابل. وقف الزوار الثلاثة في البهو، بينما بقي السيِّد مسابكي جالسًا. نادى وديعة مرة ثانية، قبل أن يقف ويبدأ في تسلُّق السلم الحجري الموصل إلى الغرف، في الطابق الثاني.

سرت الحرارة المنبعثة من وجاق التدفئة المعدني في أجسام الرجلين والمرأة، الذين وقفوا في انتظار وديعة. تقدَّم منصور من إحدى الصور المعلَّقة على الحائط وأشار إلى زوجته، «تعالي شوفي فيصل، هدا الملك فيصل الأول». تقدَّمت ميليا ببطء إلى حيث يقف زوجها، ورأت إطارًا مذهَّبًا في داخله رجال يعتمرون الطرابيش، يتحلَّقون حول رجل قصير القامة، ذي وجه مستطيل شاحب، ينظر إلى البعيد كأنَّه لا يرى.

«هدا فيصل»، قال منصور مشيرًا إلى الرجل النحيل.

«هو كمان عمل شهر العسل بشتورة»؟ سأل السائق ساخرًا.

«إنت إيش بفهمك»، قال منصور. «بكرا منسمّي الصبي فيصل»، ونظر في عينيّ زوجته، «إيش رأيك»؟

لم تجاوب، فهي كانت تعتقد أنّ منصور سيسمّي ابنه البكر شكري، على إسم والده. «شو بعرّفني»، قالت.

«وإنت إيش رأيك»؟ سأل منصور السائق الذي فرك يديه أمام وجاق التدفئة، ثم وضعهما في جيبي بنطلونه، كأنّه يخبّئ الحرارة فيهما.

«العمى شو هالبرد، واللّه نيّالك يا عريس».

نظر السائق إلى ميليا التي وقفت إلى جانب زوجها تحت صورة ملك سورية، الذي طرده الجيش الفرنسي من الشام، فأسّس له الإنكليز مملكة أخرى في العراق. «نيّاله زوجك يا عروس». قال وارتمى جالسًا على كنباية مجاورة.

ظهر صاحب الفندق وإلى جانبه امرأتان قصيرتان، الأولى بيضاء، تبدو نصف عمياء، في الستين من عمرها، والثانية حنطيّة اللون في حوالى الثلاثين، لكنّهما متشابهتان كتوأمين.

«وديعة خدي العريس والعروس على الغرفة رقم ١٠»، قال الخواجة جورج.

تحرّكت المرأتان كأنّهما شخص واحد. تقدّمتا من السائق، «يللا إلحقني يا عريس»، قالت وديعة الأولى، بينما عقدت الدهشة عينيّ وديعة الثانية وسألت، «مين فيكم العريس»؟

«هيدا، هيدا»، قالت وديعة الأولى، مشيرة إلى السائق نصف النائم، الجالس على الكنباية.

«أنا، أنا العريس»، قال منصور.

«لا تواخذني يا أستاذ، إفتكرته هو العريس لأنّ العرسان دايمًا هيك، بشعين وختيارية وصلع، وبطلعوا أحلى بنات على الغرف، يا حسرتي على النسوان». قالت وديعة الأولى.

«وديعة اسكتي»، قال صاحب الفندق وهو يتثاءب.

«هو العريس كنت عارفة»، قالت وديعة الثانية الحنطيّة اللون، وأمسكت ساعد منصور من أجل أن تقوده إلى غرفته.

«وأنا»؟ سأل السائق.

«إنت مين»؟ سألت وديعة الأولى.

«أنا حنّا عرمان»، قال.

«تشرّفنا بس يعني مين»؟

«يعني هو الشوفير يللي وصّلنا، ولازم ندبره»، قال منصور.

نظرت وديعة الأولى إلى وديعة الثانية، ثم نظرت إلى الخواجة جورج مسابكي الذي تمتم: «الغرفة رقم ٦، شعلوا الوجاق بالغرفة رقم ٦». التفت إلى العروسين وتمنّى لهما ليلة سعيدة.

انحنى الخواجة جورج على الوجاق وأطفأه، وغادر إلى غرفته، التي تقع في طرف بهو الفندق، بينما لحق الثلاثة بالمرأتين اللتين صعدتا بهم درجًا طويلاً أوصلهم إلى غرفتين متواجهتين.

فتحت وديعة الثانية باب الغرفة الأولى وأشارت إلى العروسين، بينما وقفت وديعة الأولى إلى جانب السائق بالقرب من باب الغرفة رقم ٦ وهما يتوشوشان.

دخلت ميليا إلى الغرفة الفسيحة، فوجدت سريرًا كبيرًا، ومرآة تحتلّ الحائط المقابل. طاولة مربعة في الوسط مغطاة بشرشف برتقالي، وضعت فوقها زجاجة شمبانيا، ورغيفي خبز مرقوق، وصحن مليء بقطع الجبن الأبيض. الحمّام إلى يسار السرير، والوجاق يشتعل إلى جانب الطاولة. أقفل منصور باب الغرفة بالمفتاح، وسمعت ميليا وشوشة السائق مع وديعة الأولى، وصوت قهقهاتهما العالية.

لا تذكر ميليا في شكل واضح ماذا جرى في الغرفة. رأت منصور يخلع معطفه ويعلّقه خلف الباب. رأته يقترب من الطاولة ويعالج قنينة الشمبانيا ويفرقعها، والرغوة البيضاء تطفو على الكأسين اللتين صبهما. أعطى عروسه كأسًا ورفع كأسه.

«كاسك يا عروس».

أخذت ميليا شفة من كأسها، ابتلعت الحبيبات البيضاء الطافية على سطحها، وأحسَّت غثيانًا خفيفًا يصعد من معدتها. وضعت الكأس على الطاولة، وقالت إنّها تريد فنجان شاي ساخنًا. لكنَّ منصور بدا كأنَّه لم يسمع. أكل لقمة جبنة، وأعدّ لقمة لعروسه. أبعدت يده وقالت إنَّها ليست جوعانة، فالتهمها، وشرب الكأس التي صبَّها لنفسه دفعة واحدة. صبَّ كأسًا ثانية، وبدأت ترتسم على عينيه أشباح غريبة. ابتسمت ميليا وهي تتذكّر كلام أمّها عن الهبل الذي يصيب الرجال في ليلة الدخلة.

أمسكها الرجل من يدها وقادها إلى السرير، شعرت بحلقها ناشفًا، هذه هي اللحظة المنتظرة، وعليها أن تكون شجاعة.

جلسا على طرف السرير، وضع منصور رأسه على عنقها وقبَّله. سرت قشعريرة خفيفة في جسد العروس، وأرادت أن تستلقي على السرير. تراخت إلى الوراء قليلاً، ورأت نفسها تطير بين ذراعيّ منصور. الآن سوف يحملها بين ذراعيه ويطير بها قبل أن يحطها على السرير من جديد ويأخذها.

تراخت ميليا على السرير وانتظرت، تراجعت القبلات عن عنقها، وبدأ الرجل يرتعش. أرادت أن تضمّه إليها من أجل أن تهوِّن الأمر عليه. لكنّه قفز واقفًا، وبدأ يخلع ثيابه. توقعت ميليا كلّ شيء إلاّ هذا. أن يقف العريس في وسط الغرفة ويبدأ في خلع ثيابه ورميها أرضًا. وجهه يتقلَّص كأنَّه يضع قناعًا، والشعر على كتفيه وصدره يصير مثل جلد سميك أسود.

الآن سوف يهجم ويفتحني، فكَّرت ميليا، وسيطر عليها شعور غريب، كأنَّها تقف على شرفة عالية وتنتظر من يرمي بها إلى الأسفل، مستسلمة لانتظارها. أغمضت عينيها على صورة السقوط المخيف، واليدين اللتين سوف تلقيان بها على السرير، وتشلّحانها فستانها، قبل أن تمزّقا ثيابها الداخليَّة.

طال الانتظار، وبدأ النعاس يحاصرها، استندت إلى مرفقها الأيمن، وتسرَّب إليها ما يشبه النوم الخفيف المتقطِّع، وبدأ ضباب الطريق يولد في عينيها. انتفضت وفتحت عينيها، فلم ترَ منصور يقف عاريًا في

وسط الغرفة. الرجل اختفى، رأت ثيابه المجعلكة مرمية على الأرض، وتذكّرت منظره وهو يتخالع مع ثيابه. البنطلون يتداخل بالحذاء، والقميص يلتفّ حول العنق، والجورب يلتصق بالقدم. رأت شاربيه الأسودين الكثيفين يرتجفان فوق شفته السفلى، وعاودتها ابتسامة الانتظار. سمعت ما يشبه الأنين الخافت في الغرفة، ثم انتبهت إلى أنّ الأنين يأتي من الحمام. تصاعد الأنين الذي ترافق مع صوت القيء والحشرجة. لكنّها بدلاً من الذهاب إلى الحمام كي ترى ماذا حلّ بزوجها، استلقت على السرير وتغطّت باللحاف من دون أن تخلع فستانها.

«شو هالعسل»؟ قالت ميليا بصوت مرتفع معتقدة أنّ العريس الجالس على كرسي المرحاض يسمعها. وعندما لم يجاوب شعرت بالخوف، وتراءى لها الرجل الذي يبتلعه ضباب قمة ضهر البيدر، ويرتجف راكضًا إلى السيارة، مصدرًا أصواتًا تشبه النباح المغطّى بالأنين. يفتح باب السيارة ويجلس إلى جانب السائق وهو يرتعش ويتنهد. نهضت من فراشها، اقتربت من الوجاق، رأت ناره خابية، ووضعت بعض قطع الحطب فيه، وانتظرت ارتفاع اللهب. تقدّمت من باب الحمام ونادته، لكنّ منصور لم يجاوب. قرعت على الباب مرات عدّة، فلم تسمع سوى أنينٍ خافت كأنّه آتٍ من مكان بعيد. انتشر الدفء على جسمها وأحسّت بالحاجة إلى خلع فستانها. انحنت على الحقيبة وأخرجت قميص نومها الأزرق الطويل ولبسته. سمعت الرجل يناديها. اقتربت من الباب، «إفتح لي يا منصور، أنا ميليا». لكنّ الصوت الذي ناداها صار أكثر انخفاضًا، كأنّه يوشوش.

هل نده ميليا أو يا أمي؟

«إفتح لي الله يخليك».

«وطّي صوتك، هلق بيسمعك الشوفير»، قال الرجل بصوت مبحوح.

«بدّك نجيب حكيم»؟

«روقي، دخيلك روقي».

انقطع الكلام وصارت تأوهاته غريبة. تيقنت ميليا من أنَّ الرجل سوف يموت وبدأت تتداعى أمام الباب. وجدت نفسها جاثية تقرع. أمسكت مقبض الباب كأنَّها تتسلّقه، وسمعت منصور ينادي أمه بالهمس. رجته أن يفتح، واستمعت إليه متحشرجًا بالقيء. جثت دهرًا، وشعرت أنَّها وحيدة وعاجزة ولا تستطيع شيئًا.

«أنا نازلة إسأل صاحب الأوتيل عن أقرب حكيم».

«وطّي صوتك هلق بيسمعنا الشوفير وبيضحك علينا».

خرج صوت منصور كأنَّه من بئر عميقة ليقول لزوجته أن لا تخرج من الغرفة، وأن لا شيء.

«أسبقيني على التخت وأنا لاحقك».

لا تعلم كيف نهضت، ولا كيف استلقت على السرير، وتغطَّت باللحاف، ونامت.

لماذا هي عارية الآن؟

ولماذا هذه القشعريرة التي تضربها؟

قرَّرت ميليا أن تفتح عينيها لأنَّها أحسَّت بالموت. والموت لا يأتي إلاَّ على شكل منام طويل لا ينتهي. «الموت منام»، قالت لشقيقها موسى. «تعا شوف ستّك كيف عم تحلم». كانت الجدّة ممدَّدة على سريرها وسط الملاءات البيضاء، والنساء يجلسن من حولها وصوت بكاء خافت.

لم يجرؤ أحد على النحيب على ملكة شلهوب حين أغمضت عينيها ومضت. الجدّة لم تكن تحبّ البكاء على الأموات. «الموتى ما بموتوا، ما حدا يبكي»، صرخت بهم ملكة حين ماتت ابنتها. يومها، وبعد حلول الظلام سمع الناس صراخ زوجها نخلة، الذي كان يجعر مثل ثور مذبوح. وسرت شائعات في الحي، إنّ الرجل مات بعد أسبوعين من وفاة ابنته بحسرة دموعه، لأنّ زوجته منعته من البكاء على ابنته سلمى.

لم تروِ ميليا لشقيقها موسى أنّها رأت خالتها في المنام. كان موسى في الثالثة، ولا يستطيع أن يفهم هذه الأشياء.

عشية موت الخالة فتحت ميليا عينيها على عويل أمها، فقرّرت أن تعود إلى منامها من أجل أن تنقذ خالتها. لكنّ الخالة الصبيّة التي كانت في العشرين من عمرها، بقيت مستغرقة في النوم ورفضت أن تفتح عينيها. كان المنام غامضًا، ولم تفهم ميليا معانيه إلاّ بعد أعوام، حين جاءتها العادة الشهرية وحلمت أنّها تطير.

حين روت ميليا المنام لجدّتها كان كلّ شيء قد انتهى. حبست الجدّة دموعها وطلبت من الطفلة أن تروي منامها للناس. في ذلك اليوم، تعلّمت ميليا أن تحكي عن الأشياء الغامضة التي تراها في الليل. اصطبغ خداها باللون الأحمر، امتدّ لسانها من بين فجوة أسنان الحليب الأماميّة التي تساقطت، لدغت بكلّ الأحرف، وحكت. قالت إنّها رأت خالتها سلمى تسقط في بركة الماء في الحديقة، وتتخبّط مستغيثة وسط الأسماك الصغيرة الحمراء. وإنّها مدّت لها حبلاً، أمسكت سلمى الحبل وحاولت أن تصعد، لكنّ الحبل أفلت من يديْ ميليا. كانت الخالة ممدّدة على أرض مليئة بالحشائش الخضراء، اقتربت منها ميليا

وحاولت إيقاظها، فسمعت جدَّتها تقول: «ما توعّيها اتركيها عم تحلم». استيقظت ميليا وهي ترتجف خوفًا، وحين عادت إلى النوم من جديد، سمعت صراخ أمها، فنهضت مذعورة من سريرها، وفهمت أنَّ خالتها سلمى ماتت.

لم تقل ميليا الحقيقة، كذبت على الجميع لأنَّها خافت أن تروي بقية منامها، خافت أن تقول إنَّها دخلت في منام خالتها وحلمت حلمها. من يصدِّق أنَّ أحدًا يستطيع دخول منام إنسان آخر؟ ميليا أيضًا لم تستوعب ما حصل، ولن تفهم معنى أن تدخل في منام إنسان آخر إلاَّ لحظة موتها، حين رأت ما لم يره أحد، ولم تعطِ سرَّها إلاَّ للطفل الذي خرج من بطنها.

استلقت ميليا إلى جانب خالتها فوق الحشائش الخضراء، حيث غطَّت غمامة بيضاء عينيّ سلمى المغمضتين. رأت نفسها تدخل في الغمامة، وترى خالتها تطير فوق وادٍ سحيق. سمعت خفقات قلب المرأة التي تطير، وشاهدت الخوف في عينيها. كانت سلمى تلبس فستان العرس، والطرحة الطويلة البيضاء ترفرف خلفها. فجأة سقطت الطرحة في البركة، وتساقط المطر حبالاً. حاولت ميليا اللحاق بها، لكنَّها لم تستطع. ركضت فتعثَّرت بقدميها وسقطت. نزف الدم من ركبتها اليمنى، نظرت إلى الأعلى فرأت سلمى تبتعد وتصير نقطة بيضاء. سمعت ميليا بكاء أمها، فتحت عينيها ورأت سعدى تنتحب في زاوية الغرفة. عرفت أنَّ الموت جاء، وفهمت أنَّه منام طويل، كما تقول جدَّتها، وأنَّها استطاعت التسلُّل إلى منام الموت وتذوُّق طعمه المائي وهي في السابعة من عمرها.

لم يكن موت سلمى مفاجئًا، فالصبية التي رفضت جميع عروض الزواج في انتظار ابراهيم حنانيا، الذي سافر إلى البرازيل، ووعدها بأن يعود غنيًا ويتزوجها، أصيبت بالحمّى الصفراء التي كانت لا تزال تجرجر نفسها في شوارع بيروت. الجميع كان يعرف أنّ سلمى سوف تموت. ملكة اشترت فستان عرس أبيض كي تلبسه لابنتها في النعش. ميليا سمعت شيئًا من هذا الكلام من أمّها التي ساهمت في دفع جزء من ثمن الفستان. غير أنّ الأمور اختلطت في ذهن الفتاة. سمعت أمّها تقول إنّ عرس سلمى اقترب، ورأت الجدّة، التي جاءت لزيارتهم في أحد الصباحات، تبكي صبا ابنتها الضائع. لكنّها لم تفهم معنى هذا الكلام إلاّ حين رأته في منامها. وحين نطق لسانها بالحكاية التي كانت تتسلّل من شقوق أسنان الحليب، وروت لجدتها كيف رأت ما لم يره أحد، خافت من ردّ جدتها. «ما تحكي هيك يا بنت، منامات الأموات ما بشوفها إلاّ الأموات». رسمت الجدّة علامة الصليب على جبين حفيدتها وطلبت من الله أن يحميها، «صليب الروم يحرسك يا بنتي».

وفي المنام رأته.

قالت ميليا لأمّها وجدّتها أنّها رأت إبراهيم حنانيا يمشي خلف نعش سلمى. رجل قصير مدعبل، يلبس معطفًا طويلاً أخضر اللون، ورأسه منحنٍ كأن عنقه الصغير عاجز عن حمله. قالت إنّه كان يلبس حذاءً بنيّاً وأبيض، يمشي كمن يترنّح ولا يجد ما يستند إليه. قالت إنّه كان وحيدًا، وحكت معه. لا، هو الذي حكى. اقترب منها وقال أن لا أحد تعرّف إليه. قال إنّه تغيّر كثيرًا في البرازيل. «لم أكن قصيرًا هكذا، لكنّي سمنت، والسمنة تقصّر الإنسان، يمكن ما حدا عرفني منشان هيك». ابتسم عن أسنان صفراء، وسألها إذا كانت هي سلمى.

«سلمى ماتت، وأنا ما خصّني».

«بعرف بعرف»، قال، «بس إنتِ سلمى مش هيك».

حين حاولت أن تردّ عليه علق لسانها في فجوة الحليب، وأحسَّت أنَّها عاجزة عن تكوين الكلمات، وأنَّ ما يصدر من فمها ليس سوى غمغمات غامضة، وبدأت تبكي.

أرادت أن تسأله لماذا لم يرجع من البرازيل قبل موت سلمى. أرادت أن تعرف إذا كان قد صار غنيّاً مثل جميع اللبنانيين الذين هاجروا إلى تلك البلاد البعيدة. أرادت أن تقول إنَّ خالتها ماتت بسببه، لكنَّها لم تستطع. أحسَّت بالكلمات تتفرط قبل أن تتشكَّل، وبأنَّها تختنق ولا تستطيع أن تحكي.

انطبعت صورة ابراهيم في ذاكرتها في وصفه رجلها الأول. أحسَّت أنَّها تحبُّه، وفهمت من الدموع العالقة في عينيه أنَّه أضاع كلّ شيء حين رجع إلى بيروت ليكتشف أنَّ المرأة التي جاء من أجلها تحتضر.

هكذا كانت ستروي لمنصور لو روت. منصور حكى كلّ الوقت، ولم يترك متَّسعًا لكلام الصمت الذي يختبئ في ملامح زوجته البيضاء. وحين حاول أن يستمع إليها، كانت ميليا عاجزة عن الكلام، وتصرخ بالألم. تستدعي أمها التي لم تأتِ كي تنقذها من منامها الطويل.

عندما أخبرت جدَّتها وأمّها عن لقائها بابراهيم حنانيا، أمرتها أمَّها بالسكوت، «خلص حكي يا بنتي، ومش فاضيين نسمع مناماتك كلّ الوقت».

«ابراهيم حنانيا كان ببيروت! ابن الكلب إجا وما مرق علينا، نطر البنت حتى ماتت، وبعدين شرّف»، قالت الجدّة لابنتها وهي تكفكف دموعها.

«شو بكي يا أمي، صدّقت منامات ميليا. شو هالحكي»؟

«مبلى مبلى، صار قصير ومبروم وصوته مش طالع، بس ليش ما إجا شاف البنت قبل ما تموت، هيدا مش حقّ»، تابعت الجدة.

«عيلة مجانين»، قالت الأم.

«إنت المجنونة، ميليا شافت الرجّال، وأنا شفته كمان».

«كيف يعني شفتيه يا أمي، الزلمة بالبرازيل، وإجا أخوه وقال إنّ ابراهيم زعلان كتير، وما رح يقدر يجي على لبنان».

«لا، لا، كان هون وما شاف البنت، وحرق قلبها وقلبي».

قال لها إبراهيم إنّه خاف من الموت. «مش انت سلمى»؟ سألها.

«لا، أنا ميليا».

قال إنّه لم يجرؤ على زيارة خطيبته حين كانت على فراش الموت، وصار يبكي.

«خلص يا بنتي»، قالت سعدى.

نظرت ميليا إلى أمها بخوف، وتوقفت عن الكلام. غادرت الليوان إلى الحديقة، ألصقت النبريش بحنفيّة الماء الموجودة فوق البركة، فتحت الماء وسقت الأشجار.

كان موسى في السابعة عندما وقف ممسكًا بيد شقيقته أمام سرير الجدّة الميّتة. لم يفهم الصبي معنى الموت، ولا معنى أن تسافر

جدَّته داخل مناماتها. سمع أنين النساء المتحلّقات حول سرير المرأة البيضاء، المغطّاة بشرشف أبيض، فامتلأت رموشه بما يشبه الماء. لم يبكِ أو يتنهد. وقف في انتظار أن تمسح أخته رموشه برؤوس أصابعها، وتنحني كي تقبّله في عينيه. كانت ميليا تمسح رموش موسى وتقبّله في عينيه حين تشعر أنّه خائف. مسحة الرموش هذه، تعيد الفتى إلى نفسه، وتخرجه من حال الخوف التي تنتابه في الليل. كان موسى يخاف من كائنات الليل وأشجاره. ميليا أخبرته أنّ أشجار الليل تملأ الفضاء بعد مغيب الشمس. وأنّ المنامات تبني أعشاشها فوق أغصان الليل. وكان الفتى يخاف الليل وأعشاشه. حين يستيقظ في العتمة، تزحف قدماه الحافيتان إلى سرير أخته. تزيح ميليا قليلاً من دون أن تفتح عينيها، فيتكوّم الفتى حدّ أخته، تمدّ يدها وتمسح أجفانه برؤوس أصابعها، ثمّ تقبّله في عينيه، فيسقط موسى في نوم عميق.

جاء موسى وكان في العشرين، وأخبر شقيقته أنّ منصور حوراني يريد الزواج منها. وقف الشاب أمام أخته التي كانت تجلس على طرف السرير، تنحني على جورب ترتقه. وقبل أن يحكي رأت رموش عينيه مبللتين بالدموع. قال عن منصور فلم تقل شيئًا. وضعت الجورب المنتفخ بالبيضة الخشبيّة على السرير، ووقفت أمامه. مدّت يدها ومسحت أجفانه بأناملها. انحنت وقبّلت عينيه وشعرت بطعم الدموع. رأته وقد عاد صغيرًا بعينيه الخائفتين، وارتعاشة شفته السفلى، وقالت وهي تقبّل عينيه إنّها موافقة على كلّ ما يريد.

«مش هيك إنت بدّك»؟ سألته.

استطال الفتى وعاد رجلاً، قطّب حاجبيه، ونظر إلى شقيقته من أعلى عينيه، وقال نعم.

«متل ما بتريد»، قالت.

لم يسألها عن علاقتها بالرجل، ولم يقل إنَّ منصور قال، حين طلب يدها، إنَّ ميليا موافقة، وإنَّها باحت له بحبّها. فشعر بالخيانة، لكنَّه لم يستخدم هذه الكلمة حين سأل أخته عن رأيها.

«يعني بتحبيه»؟ سألها.

نظرت إليه كأنَّها لم تفهم ماذا يقصد، ابتسمت وقالت إنَّها موافقة لأنَّ منصور يشبهه.

«بتعرف كأنَّه إنت»، قالت.

«أنا»! أجاب مستهجنًا.

«إنت أحلى منه، بس بيشبهك، كأنَّه خيّك».

عبس موسى وتمتم شيئًا عن كيد النساء.

«شو عم بتقول؟ ما سمعت»، قالت ميليا.

«مبروك يا أختي».

في ذلك اليوم شعرت ميليا أنَّ عليها أن تكتشف الحياة من جديد. كأنَّها ولدت في تلك اللحظة، أو كأنَّها وهي تنحني على رموش شقيقها الصغير، ثم تنتصب واقفة أمام الشاب الذي اكتمل بالعشرين، والتمعت بعض الشعرات الرماديَّة في وسط رأسه، عبرت حياتها كلّها كمن يعبر منامًا. وضعت راحتيها على عينيها، ثم مدَّت ذراعيها إلى الأمام من أجل أن تلتقط المعنى الذي خرج من بين شفتيّ أخيها.

قال إنّها ستسافر إلى الناصرة بعد الزواج مباشرة.

«متل ما بتريد»، قالت ميليا التي أحنت رأسها، فانكسرت نظرتها على البلاط المعرّق بأزهار مرسومة بخطوط سوداء.

قال موسى إنَّ المصوِّر سوف يأتي غدًا. «بدي ياك تضللي عندنا، رح علّق صورتك على الحيط هون».

الصورة التي علقت على الجدار الأبيض في الليوان سوف تبقى في مكانها. موسى الذي ورث البيت عن أمه، ترك الصورة كأنَّها صارت جزءًا من الحائط. الصورة المطبوعة على ورقة كبيرة بيضاء، والموضوعة في إطار خشبي أسود، تُظهر ملامح ميليا بشعرها الطويل وعينيها اللوزيتين العسليتين، وأنفها الصغير، وشفتيها المكتنزتين، وعنقها الطويل، وخدّيها الضامرين، وحاجبيها الرفيعين المقفلين. صورة نصفية صنعها المصوّر شريف فاخوري، الذي أدخل رأسه في علبة خشبيَّة مغطَّاة بقماشة سوداء، وأوقف ميليا أمام الحائط الأبيض ساعتين كاملتين، كي يختار لها الوضعيَّة الأجمل. بدت ميليا في الصورة كأنَّها تنبثق من الحائط الأبيض. امرأة بيضاء وملامح سوداء، والتماعة ضوء تخرج من العينين.

موسى كان متيقّنًا من وجود شيء غريب في الصورة. كلّ شيء فيها مرسوم بخطوط سوداء منحنيَّة، ما عدا البؤبؤين اللذين رسما بما يشبه اللون الأخضر.

جلب موسى الصورة إلى البيت قبل العرس بثلاثة أيام. دقَّ مسمارًا وعلَّقها على الحائط. تراجع ثلاث خطوات إلى الوراء، ونادى أخته. هرعت ميليا إلى الليوان لتجد موسى أمام الصورة، والدهشة تملأ عينيه.

«شايفي»، قال.

«شكرًا، شكرًا، حلوة كتير»، جاوبت.

«شايفي العيون، وشايفي اللون، كأنّه في ضوء أخضر بقلب اللون الأسود، شايفي».

نظرت الفتاة إلى صورتها وضربتها المفاجأة، وأحسّت بالدموع. غطّت الدموع عينيها وتفتّتت الصورة داخل حقل مائي شاسع، وخافت من أن يكون ملاكها الحارس قد تخلّى عنها. كيف استطاع المصوّر الزحلاوي التقاط سرّ عينيها الخضراوين؟ عيناها ليستا خضراوين إلاّ في مناماتها، حيث تصير ميليا صغيرة وسمراء وذات شعر قصير أسود مجعّد. كيف وصل المصوّر إلى سرّ عينيها؟ هل فضحتها عيناها؟ ألهذا لم تعد ترى المنامات، وصار نومها منذ لحظة موافقتها على الزواج يشبه السقوط في حفرة عميقة معتمة.

صارت ميليا تخاف النوم، تستلقي على سريرها وتفتح عينيها وتقاوم النعاس. وحين يبدأ النوم في التسلّل إلى رؤوس أصابع قدميها، ينتفض جسمها دفعة واحدة كي يبدّده. لكنّ النوم يلتفّ من حولها، يأتيها من الخلف ويسرقها، نازلاً بها إلى عتمته. صار ليلها شاهدًا على ارتعاشات جسدها. ينتفض فخذها كأنّها أصيبت بضربة، تشعر بالسقوط فيرتعش كتفاها، تسترخي وتحاول ترتيب حكاية صالحة للنوم، لكنّ الحكاية تهرب منها ويلفّها الظلام.

أضاعت ميليا المغارة حيث تخبّئ مناماتها، ولم تفهم لماذا إلاّ حين فضحت الصورة سرّ عينيها.

وقف موسى حائرًا أمام أخته. لماذا كرهت ميليا الصورة الجميلة التي علّقها على الحائط؟

«وقفي قدامها وشوفي، كأنّها مرايتك»، قال.

تأمّلت ميليا الصورة ورأت كيف انطبعت ظلال اللون الأخضر داخل الحبر الأسود. أشاحت وجهها وخرجت من الليوان. وقف موسى أمام الصورة وأحسّ أنّها تكلّمه، وأنّه يستطيع الموافقة الآن على زواج أخته. ميليا لن تذهب مع هذا المنصور إلى الناصرة، بل ستبقى معلقة هنا على الحائط ولن يشتاق إليها.

التفت موسى فلم يجد شقيقته، لحق بها إلى الحديقة، فرآها جالسة على الأرجوحة الخشبيّة المعلّقة في أغصان شجرة التين الضخمة. رأى كيف ترتعش أخته بالبكاء، فلم يقترب منها. عاد إلى الليوان، وجلس على الصوفا أمام الصورة.

لم تروِ ميليا لمنصور أنّها بكت بكاءً مرّاً حين جلست على الأرجوحة. أحسّت الدموع في شفتيها، وتذوّقت طعمها، واكتشفت أنّ طعم البكاء مختلف عن اسمه. الدموع مالحة، لكن حين نصف طعمها نطلق عليها صفة المرارة. شربت ميليا دموعها المالحة وتذوّقت طعمًا مرّاً جاءها من منام لم تحلمه، وفكّرت أنّ لون المرارة أخضر، مثل البؤبؤين الصغيرين اللذين اختفيا من شاشة أحلامها.

على سرير حديدي أبيض، وُضع إلى جانب الحائط الأبيض حيث علّق موسى صورة شقيقته، ولدت ميليا، في الساعة الثانية عشرة من ظهر الإثنين ٢ تموز ١٩٢٣، وكان يومًا حارّاً ورطبًا. شمس بيروت الرصاصية تقرع الشوارع بحبال من نار. الشراشف الصفراء التي علقتها

الداية ندرة سلوم على نوافذ الليوان، كانت تحترق بالضوء الذي يخترقها جاعلاً الغرفة أشبه بكتلة ناريَّة صفراء. على السرير استلقت سعدى تئنّ بآلام الطلق. ندرة، القصيرة، السمراء، ذات الجسد المكتنز والوجه المستدير، التي تلتصق السيجارة المشتعلة بشفتيها، تسخر من المرأة التي تمدَّد نصفها الأعلى على عرض السرير، والعرق يغطي وجهها، ويبقّع قميصها الأبيض بسائل بدا أصفر اللون، من أثر وهج الشمس.

«روقي يا أختي، هيدا مش أول بطن، وما في لزوم للصريخ». قالت ندرة وهي تقف مكتوفة اليدين، تمضغ عقب سيجارتها المشتعل، في انتظار المولود الجديد.

كانت سعدى تضع مولودها السادس. سلم لها ثلاثة صبيان، ابنها الأول سليم، وابنها الرابع نقولا، وابنها الخامس عبدالله. ومات لها ولدان، الثاني الذي بقي من دون اسم، وصار اسمه الصبي الأزرق، لأنَّه وُلد وحبل السرة ملتفّ حول عنقه، فاختنق بلونه الأزرق. والثالث نسيب الذي أصيب باليرقان بعد ولادته بأسبوع، ودخل في ذاكرة العائلة في وصفه نسيب الأصفر.

سعدى مستلقية على السرير في انتظار ابنها الرابع، الذي قرَّرت أن تسميه موسى. بعد الولادتين الأوليين، صارت تضع بسهولة، كأنَّ الطفل ينزلق من رحمها. تشعر بآلام الطلق، تجلس على كرسي الولادة بين يدي ندرة، ويلفّها البخار المتصاعد من وعاء الماء المغلي الموضوع على الأرض في الليوان. تشعر بالانزلاق، ويأخذها ما يشبه الدوار، وتزحط مع الكائن الصغير الذي يخرج من أحشائها. تسحب ندرة الطفل، ترفعه من قدميه، وتربت على مؤخرته كي يصرخ. وحين

ترى الحمامة ما بين فخذيه، تطلق زغرودة طويلة، فيفهم يوسف أنّ صبياً جديداً أضيف إلى عائلته.

في ذلك الصباح التموزي القائظ، حيث وصلت حرارة الجو إلى ٣٤ درجة مئويَّة، كانت سعدى ممدَّدة على السرير والألم يضربها. صراخها يرتفع، واللون الأصفر ينتشر على وجهها ويديها. في العادة، حين كان ماء الرأس يسيل، وتبدأ آلام الطلق، يذهب يوسف راكضاً إلى منزل ندرة. تفتح الداية مرحبة، وتقول إنَّها ترى صبياً على وجه يوسف. ينبعث من البيت دخان كثيف يتشكَّل مثل دوائر متداخلة. يستمع يوسف إلى سعال المعلم كميل، وجلبة اصدقائه الذين يملأون المكان بقرقعة نراجيلهم، وصخبهم في لعب الورق. يهرع إلى خلف باب الدار، يحمل كرسي الولادة، ويمضي. فتتبعه ندرة والسيجارة في فمها.

أما في ذلك اليوم، فقد انفتح الباب، ولم يكن دخان أو أصوات نراجيل أو صخب لاعبي الورق. المعلم كميل لم يكن هناك، وندرة في المطبخ تعدّ طعام الغداء. انحنى كي يحمل الكرسي ويمضي بها، فلم يجد الكرسي. وقف ساكناً لا يدري ماذا يجب أن يفعل، شدَّته ندرة من ذراعه، وأمرته أن يتبعها.

«الكرسي انكسر»، قالت، «ومن هلق ورايح رح نخلّف بطريقة إفرنجية».

لم يسألها ماذا تعني الطريقة الإفرنجية، مشى خلفها، وصعدا الدرج الطويل الذي يصل شارع أبو عربيد، حيث تقيم ندرة، بشارع زاروب الطويل، حيث تنتظر زوجته. استلقت سعدى على السرير مثلما أمرتها ندرة، لكنّ الداية نهرتها، «نامي بالعرض وارفعي إجريكِ، بدنا نعرف نشتغل».

غيّرت سعدى من وضعيتها في السرير والألم يعتصرها، وقالت كلمة واحدة: «وين»، ولم تستطع إكمال جملتها، لأنَّها بدأت ترتجف بالألم.

«ما في كرسي»، قالت ندرة، «اليوم بدنا نخلّف بطريقة مودرن، إرفعي إجريك على التخت، وشدّي منيح».

لكن سعدى بدأت تبكي.

غسلت ندرة يديها بالماء والصابون، اقتربت من سعدى، وقالت لها أن لا تخاف.

سعدى التي كانت تتلوّى في فراشها لم تسمع كلمات ندرة، شعرت أنَّها في حاجة إلى الهواء، تشدّ فيختنق الهواء في رئتيها، تفتح فمها مستجدية الأوكسيجين فشعر بيد ندرة خلفها تحمل منشفة صغيرة تلتقط بها العرق الذي تجمّع على جبين سعدى وعنقها.

«روقي يا سعدى».

لكنَّ الطفل رفض أن يبدأ رحلة خروجه إلى العالم. ركعت ندرة بين فخذي المرأة الممددة على السرير، مدَّت يدها كي تتحسَّس الرأس الذي اتخذ شكلاً عمودياً استعداداً للهبوط، حاولت الإمساك به، فلم تستطع.

«شدّي، شدّي».

«هوا، دخيلكم هوا، عم بختنق»، قالت سعدى وهي ترتعش، ضربتها ارتجافة عنيفة وبدأت أسنانها تصطك.

«دخيلكم رح موت».

«ما تخافي، ما رح يصرلك شي»، صرخت ندرة.

أغمضت سعدى عينيها ولم تعد تسمع. ارتفع الطنين في أذنيها، وتركت نفسها لارتجافات تعصف بكلّ أنحائها. هرعت الداية إلى الخارج، جلبت ماءً باردًا في وعاء صغير، وبدأت تضع كمّادات ماء على جبين سعدى. خفّت الارتعاشات، وبدا أنّ المرأة الحبلى استعادت قدرتها على التنفّس.

«هلق رح إنزل لتحت»، قالت ندرة، «ولمن بتحسّي بالطلق شدّي، رح نشدّ مرة واحدة، وانشالله خلص».

ركعت الداية، وبدأ العرق ينتشر على فستانها الأزرق القصير، وأحسّت هي أيضًا بالاختناق. كانت تريد أن تشتم، «كسّ أخت هالشغلة من أساسها»، لكنّها تمالكت نفسها، وصرخت: «شدّي». شدّت سعدى بكلّ ما تملك من قوة. «شدّي بعد»، لكن جسد سعدى تراخى فجأة.

عادت الارتجافات إلى جسم المرأة الحبلى الممدّدة على السرير، ولم تجد الداية ما تفعله. وقفت تنتظر، ثمّ بدأت ترى ذلك اللون الغريب. صارت سعدى تسبح في اللون الأخضر. الأخضر يزحف على خديها وعينيها، وكلّ شيء فيها يتلاشى. البقع الخضراء تنتشر على الوجه واليدين والفخذين والقدمين. لم يسبق لندرة خلال مهنتها الطويلة أن رأت لونًا يشبه هذا اللون. عندما دخلت إلى الغرفة وأمرت يوسف بأن يغطي النافذتين المطلتين على حديقة آل رحّال الملاصقة للبيت بالشراشف، شعرت بالنار تنبعث من اللون الأصفر.

«شو هاللون هيدا، غيّر هالشراشف».

لكنّ يوسف لم يتحرّك من مكانه، «هيدا الموجود»، قال.

«برا، اطلع لبرا»، أمرته.

«كأنّنا في فرن»، قالت ندرة للراهبة ميلانة وهي تودّعها على باب البيت.

«شيلي هالسيجارة من تمّك»، قالت الراهبة ميلانة وهي تغادر البيت، رافعة يديها إلى الأعلى، كأنّها تُشهد الدنيا إلى أنّها هي من قامت بعملية الولادة.

انتشر اللون الأصفر في المكان مثل حريقة تلتهم كلّ شيء، ثمّ جاء الأخضر. أخضر فاتح بدأ يتغيّر تدريجيّاً حتى صار غامقًا، وامتدّ مثل دوائر على يديّ المرأة الحامل وقدميها. تراخت أطرافها، واختلط دمعها بالعرق الذي يتساقط من جبينها، وصارت كتلة من الأنين. لم تصدّق ندرة عينيها، انحنت على وجه سعدى، مسحت عنه العرق والدموع بمنشفة صغيرة بيضاء، ورأت كيف تلوّنت المحرمة بالعرق الذي صار أصفر.

خافت ندرة وسقط قلبها بين قدميها. «وقع قلبي يا ماسور، شو بعمل»؟ نظرت الراهبة إلى المشهد بهدوء، ثمّ بدأت في إعطاء الأوامر، وانتهى كلّ شيء.

ندرة التي وقفت أمام هذا الأخضر الذي زحف بثقوبه التي تشبه العفن على كلّ شيء، تيقنت من أنّها لم تعد تستطيع شيئًا. الفكرة الوحيدة التي خطرت في بالها، أن تفتح باب الليوان وتهرب من هذه الجحيم.

قالت لميليا مرة إنّها من شدّة خوفها من لون سعدى، كانت على وشك الهروب تاركة الفتاة في بطن أمها.

«يعني كنت بعدني هلّق ببطن أمي»؟ سألت الفتاة الصغيرة.

«لا يا حبيبتي مش قصدي، بس هيدا معناة الحكي».

هزّت ميليا رأسها كأنّها فهمت، لكنّها لم تفهم، ثم اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أنّ معنى الحكي هو اللامعنى. حين تركها ذلك الرجل لسبب تجهله، فهمت أنّ الحكي بلا معنى، وأنّ الناس يتكلمون كي يملأوا الفراغات التي تفصلهم عن الآخرين ويعبئوا أرواحهم بأصوات الكلمات.

حلمت ميليا شذرات من ولادتها، لكنّها رفضت أن تخبّئ هذا المنام في حفرة ليلها، رأت اللون الأصفر ينتشر، انتفضت، فتحت عينيها بعدما سمعت صرخة انفجرت في داخلها، ووجدت نفسها تنهض من فراشها، وتذهب إلى النوم إلى جانب شقيقها موسى.

فتحت ندرة باب الغرفة فتصاعد منها الغبار. اقترب رجل طويل ونحيل من فتحة الباب وهمس: «طمنيني». طلبت منه ندرة أن يذهب بسرعة إلى بيت الدكتور كريم نقفور، ويأتي به حالاً.

«المرا تعبانة ولازمها حكيم هلّق».

«شو القصة»؟ سأل يوسف.

مدّت ندرة يدها وأغلقت فمه، فأحسّ بطعم يمتزج فيه الدم والعرق والبراز. استند إلى الباب كي يداري الغثيان والدوار.

«شو باك واقف متل الأهبل»، صرخت الداية، «يللا عند الحكيم».

ركض الرجل إلى منزل الطبيب، وقف أمام الباب وقرع، ولم يفتح أحد. احتار ماذا يفعل، كان طعم الدم عالقًا في شفتيه والدوار يلفّه، وأحسّ بالخسارة. هبطت عليه الخسارة من جميع الجهات، وصارت قدماه عاجزتين عن حمله. جلس على درج البيت في انتظار الطبيب، ثمّ تذكّر أنّ امرأته تموت، وأنّ عليه أن يفعل شيئًا. حمل

نفسه وبدأ يركض تحت شمس حارقة إلى دير الملاك ميخائيل. لا يعلم لماذا ذهب إلى الدير، فهو لا يحب الحاجة ميلانة، ويكره سحرها الذي تمارسه على زوجته. لعنها عشرات المرات، وهدَّد زوجته بترك البيت إذا لم تستجب لرغبته في مضاجعتها. سعدى قالت لا، «الحاجة ميلانة قالت لي إنَّ هيدا حرام بالصوم». وبقي خمسين يومًا في انتظار نهاية الصوم الأربعيني المقدس وقيامة المسيح كي يتسنَّى له مضاجعة زوجته. صباح عيد الفصح اقترب منها وأخذها، فأحسَّها مثل عود يابس، ولم يشعر بطعم الأشياء، وغابت الينابيع التي كانت تغمره حين ينام معها. انسكب ماؤه من دون أن يرتوي. هذا الشعور بعدم الارتواء سوف يلازمه بعد ذلك طوال حياته. دخول سعدى في طقوس هذه الراهبة الغريبة الأطوار حطّم حياته الجنسيَّة. صار يرى الخجل في عينيّ زوجته كلَّما اقترب منها، ولم تعد تسمح له بأن يمدّ يديه إلى نهديها، وتتململ حين يقترب فمه من شفتيها. صار النوم معها مجرد دعوة كي ينتهي ويخرج. تهرع إلى الحمام وتغتسل كأنَّها تزيل آثار الخطيئة.

«كلّ الحقّ على الراهبة، هيدي شيطانة مش قديسة»، قال لزوجته وهو يشعر بالألم في عضوه بعد ممارسة هذا الجنس المتخشّب. «أنا بكرهها وما بدّي شوف خلقتها، إسمعيني منيح، الحاجة ميلانة ممنوع تجي على هالبيت».

كانت سعدى تدير ليوسف أذنًا صمَّاء، تزور الدير كلَّ يوم، وتأتي بالراهبة إلى البيت كي تمسح الأولاد بالزيت المقدس، وتتضرَّع إلى اللَّه كي يغفر لزوجها خطيئة عدم حبّه للراهبة القديسة.

لسبب يجهله، وجد يوسف نفسه أمام الباب الحديدي الكبير الذي يتوسّط سور الدير، ويده تقرع، وصوته يصرخ: «دخيلك افتحي يا حاجة ميلانة».

فتحت الراهبة الباب وخرجت وهي تقول: «سعدى وبنتها، إمشي ورايي على البيت».

عقدت المفاجأة لسان يوسف، كان يريد أن يقول إنَّه لا ينجب سوى الصبيان، لكنَّه وجد نفسه يمشي خلفها متفيئًا الظل الكبير المتحرِّك الذي رسمته على الأرض. الشمس تحترق على الطريق الترابي الذي يصل دير الملاك ميخائيل بمنزله، ورائحة الأرض المتشققة تملأ الفضاء. مشى يوسف لاهثًا. العرق يتصبَّب من ظهره وثيابه تلتصق بجسمه. الراهبة الطويلة، العريضة المنكبين، ذات العجيزة الضخمة، تمشي أمامه مهرولة بثوبها الأسود الطويل. يوسف يمشي في الظلّ الضخم الذي يتمايل فوق الطريق الترابي، ويتمرَّج على الصخور، يصعد إلى حديقة آل شبّوع، وينزلق هابطًا إلى حقل الزيتون، ويشعر أنَّ الهواء الذي يتنفَّسه يحترق في صدره.

في تلك اللحظات أحسَّ يوسف بالموت وخاف على سعدى. قال إنَّه يقبل بما تريده، وأنَّه مستعد للتوقُّف عن مضاجعتها إذا أرادت، شرط أن لا تموت.

مشى في ظلّ الراهبة وركبته فكرة الخوف من الموت، ورأى نفسه يتمتم الدعاء الذي تردِّده زوجته كلّ يوم: «يا رب لماذا كثر الذين يضطهدون نفسي، كثيرون قاموا عليّ، كثيرون قالوا لا خلاص له بإلهه، أما أنت يا رب فعاضدي وناصري ورافع رأسي»..

«شو عم بتقول»؟ سألت الراهبة.

«ماشي، ماشي»، جاوب يوسف، وهو يرى ظلّ الراهبة يتمايل أمامه، وجسدها الضخم الذي يواجه الشمس، ويتذكّر ملامح الرجل العجوز التي ترتسم على وجهها. حاجبان كثيفان، عينان جاحظتان ونصف مغمضتين، جبهة عريضة، شفتان رفيعتان، أنف ضخم، وبشرة زيتونيّة كامدة. وجه لا شيء فيه سوى الأنف الكبير بالشعرات الثلاث في وسطه كأنّها عرف الديك، وشاربان رفيعان بنفسجيان كأنّهما رسما بقلم كوبيّا.

قال يوسف لسعدى إنّ الراهبة ليست امرأة بل رجل متنكّر في شكل امرأة، وقال إنّه يكرهها، فحجمها ليس متناسبًا مع قداستها. القديسون والقديسات يمتازون في العادة بالنحول، الجسد يذوب من أجل أن تتلألأ الروح. أما هذه المرأة فإنّ جسدها الضخم يقتل روحها النحيلة، جاعلاً منها أشبه برجل يمتلك صوت امرأة.

في ذلك القيظ التموزي نسي يوسف كلّ شيء، ولم يفكّر إلاّ بالموت. وجد نفسه في الظلّ الأسود كولد صغير يتبع أمه ويتفيأ ظلّها.

عندما وصلت الراهبة إلى مدخل البيت، التفتت إلى الخلف، وأشارت بحاجبيها إلى يوسف كي يتقدّمها. ركض يوسف وتسلّق الدرجات الحجريّة الخمس، ومشى وسط حديقة الزنزلخت. فتح باب البيت وأشار إليها بالدخول. هرولت الراهبة نحو الليوان ودخلت إلى الغرفة الصفراء، فانتشر ظلّها الأسود فوق كلّ شيء. لم تعطِ الراهبة ندرة فرصة أن تشتم مثلما كانت تفعل دائمًا. ابتلعت الداية الشتيمة في منتصفها: «وين الحكيم الأخو الشر»... كأنّ ظلام ثوب الراهبة ابتلع الكلمة قبل أن تخرج من شفتيها. الغرفة الكبيرة الملوّنة بأصفر الشراشف المسدلة على النوافذ

امّحى لونها. كأنَّ الشمس انطفأت. أما جسد سعدى المرتجف فقد سكن عندما غطّاه اللون الأسود الذي سال من ثوب الراهبة.

«لونها، دخيلك يا حاجة، لون المرا صار أخضر، وما بعرف شو لازم أعمل، لازم نجيب حكيم».

«لشو الحكيم»؟

«بسّ لونها».

«وين الأخضر»، سألت الراهبة، «ما في أخضر».

اختفى اللون الأخضر عن جسد سعدى، واحتلّه لون أزرق شاحب ما لبث أن انزاح، وعادت سعدى إلى بياضها الناصع، بياض حليبي كأنَّه مخمل أبيض يغطّي الجسم، ويخبّئ الضوء في ثناياه. هذا اللون سوف ترثه ميليا ويكون عنوان جمالها الذي سحر منصور، وجعله يأتي من بلاد الجليل كي تشرب عيناه البياض الذي يشعّ من جسم حبيبته البيروتيَّة.

«ما في أزرق ولا أخضر»، قالت الراهبة، «كان جسم المرا تعبان، وهلّق مشي الحال».

هدأت سعدى، وتوقفت عن الارتجاف. رأى يوسف دموعًا لم يشاهد مثلها في حياته. كانت دموع سعدى تكرج على خديها وتتساقط على قميص نومها، وتصل إلى أسفلها العاري. بحلق يوسف في المكان الذي لم يره في حياته إلاّ كبقعة مظلمة يتحسَّسها بحثًا عن اللذة التي وهبها الله لبني البشر، حين سمع صوت ندرة يأمره بالخروج.

«أتركيه هون»، قالت الراهبة بصوتها الرفيع الذي خرج من أنفها. «أتركيه حتى يشوف قديش المرا بتتعذب».

استدار يوسف استعدادًا للخروج حين سمّره صوت الراهبة في مكانه.

«ما تتحرك من مطرحك، خلّيك هون».

أمرت الراهبة ندرة بالنزول كي تسحب الطفل.

«يلله يا سعدى يا بنتي يا حبيبتي، شدّي مرة واحدة وخلص»، قالت الراهبة.

«شدّي»، قالت ندرة بصوت منخفض، وركعت على الأرض، ومدَّت يدها تتحسَّس الرأس الصغير الذي يستعد للنزول.

غرقت الغرفة في الصمت، كأنَّ سعدى استسلمت للنوم، ارتخت عضلات وجهها، واجتاحها البياض. رأى يوسف وجه زوجته يتمدَّد في البياض، ويغتسل بحبات العرق التي انتشرت فوقه.

كوّرت ندرة كفَّيها من أجل استقبال الطفل الذي سقط من الرحم إلى يديّ الداية. ضمَّت ندرة الطفل إلى صدرها، ونسيت في دهشتها وانفعالها أن تمسك به من قدميه وتقلبه.

«ارفعيها»، صرخت الراهبة.

وقفت الداية متثاقلة، رفعت الطفل من قدميه، بعدما قطعت حبل السرّة، وقبل أن تضربه على قفاه خرجت زغرودة من شفتيها.

قالت سعدى لابنتها إنَّها لم تبكِ حين ولدت كما يفعل جميع الأطفال. «ندرة نسيت تضربك على طيزك، فحملتك الراهبة القديسة، ما حدا بيبكي لمن بكون بين إيدين القديسين».

يوسف له رأي آخر. «الراهبة ضربتها على طيزها، والبنت ما عادت توقف بكي، بس إنتِ ما بتسمعي يا مرا، لمن بتكون الراهبة مدري كيف، كأنَّه حدا منوِّمك».

أمسكت الراهبة ميليا التي كانت مبلَّلة بالدم، ورفعتها إلى الأعلى كأنَّها تلصقها بالحائط. «مبروك إجت ميليا». قالت. وأمرت ندرة بأن تغسلها بالماء والملح.

«لشو الملح»؟ قالت ندرة. «نحن ما منغسل بالملح».

«مي وملح»، جاوبت الراهبة.

التفتت إلى يوسف طالبة منه أن يجلب قنينة زيت زيتون. غسلت ندرة ميليا بالماء والملح ثم مسحتها الراهبة بالزيت، وقمطتها بقماشة بيضاء، ورفعتها بيديها فوق السرير كأنَّها تلصقها بالحائط الكلسي الأبيض.

«مبروك إجت ميليا، اللّه يكبِّرها ويحرسها ويردّ عنها»، قالت الراهبة. وضعت الطفلة على صدر أمها وخرجت. ركض يوسف وقبَّل يديها شاكرًا. فانطبع طعم الملح والزيت على شفتيه، انحنى على سعدى وباسها على جبينها.

«إجت ميليا»، قالت سعدى وهي تنظر إلى الحائط، حيث رأت صورة ملتصقة فوق الكلس الأبيض، في المكان الذي ارتفعت فيه يدا الراهبة بالطفلة.

«شو هالاسم ميليا، لا.. أنا بدِّي سمِّيها هيلانة». قال يوسف.

«إسمها ميليا، خلقت وإسمها معها، ما شفت الراهبة شو عملت، وكيف قالت إسمها.. يعني خلص»، جاوبت سعدى.

بعد ذلك اليوم بأربعة وعشرين عامًا، سوف تقف سعدى مشدوهة أمام الصورة التي علّقها موسى على الحائط في الليوان، في المكان نفسه الذي رفعت فيه الراهبة جسد ميليا المغسول بالماء والملح وزيت الزيتون. سوف تقول الأم لابنها إنّها رأت الصورة نفسها يوم مولد ابنتها، وسوف ينظر إليها موسى بعينين حائرتين، مُقفلاً حاجبيه كي يسكتها.

سعدى لن تروي الحكاية إلاّ بعد سنة، حين صارت الصورة هي كلّ ما تبقّى لها من ابنتها.

«لمّن رفعتها الراهبة صارت البنت صورة. هيدي هي الصورة، أنا شفتها، شفتها لمن خلقت ميليا، وقريت تحتها هالحكي يلّي عم تكتبوه هلق. «لكنّها نائمة». وقتها شفت كلّ شي قدامي كأنّه هلق. يا اللّه! ليش ما فهمت؟ كان كلّ شي مرسوم بالأسود، وكانت الراهبة عم بتمتم الكلام يللي مكتوب تحت الصورة».

الصورة التي علّقها موسى على الحائط في الغرفة التي تعرف باسم الليوان بقيت في مكانها، ولم تسقط عن الحائط إلاّ عندما قرّر موسى هدم البيت العتيق من أجل أن يبني على أنقاضه بناية جديدة. البيت الذي يشبه منزلين متلاصقين، بحديقته الكبيرة، حملته ميليا معها في يقظتها ونومها حين رحلت إلى بلاد الجليل. قالت لمنصور إنّها جلبت معها الرائحة، وإنّها تشمّ البيت العتيق كلّ صباح. البيت الذي يقع على تلّة ترابية تشرف على منحدر يقود إلى دير الملاك ميخائيل، كان يحتمي من

أسراب البرغش التي تجتاحه صيفًا بأشجار الزنزلخت، التي كانت أوراقها الخضراء النفّاذة الرائحة، تحرس البيت من جميع أنواع الحشرات.

لكنّ البيت كان نصف بيت، ولم يكتمل إلاّ حين تزوّج يوسف. البيت الأصلي الذي اشتراه سليم شاهين، والد يوسف، كان يتألف من دار كبيرة واسعة تفصلها عن غرفة الليوان قناطر ونوافذ زجاجيّة، إضافة إلى مطبخ صغير معتّم، وحمام يقع في نهاية الممرّ الذي يصل المطبخ بالحديقة التي تظلّلها شجرة تين كبيرة لها ثلاثة جذوع، فيها علّق موسى وميليا أرجوحة خشبيّة مستطيلة تطير بهما إلى السماء.

اضطرّ يوسف من أجل عينيّ سعدى أن يضيف إلى البيت غرفة نوم وغرفة طعام وحمام، بناها بحجر الباطون. فبدا البيت أشبه برقعتين متّصلتين. القسم الكبير القديم المبني بالحجر الرملي الأصفر، والقسم الجديد المبني بحجر الباطون. سقف القسم الأول خشبي مغطّى بالتراب وبقشرة رقيقة من الكلس الأبيض، بينما سقف القسم الثاني من الإسمنت. صار البيت بيتين متجاورين: بيت يلعب فيه الهواء صيفًا ودافئ شتاءً، وبيت حار صيفًا وبارد شتاءً. أقام الصبيان الأربعة في الغرفة الجديدة الباطونيّة، بينما أقامت ميليا مع والديها في غرفة الليوان، قبل أن يتحوّل الليوان إلى المكان الذي أقامت فيه مع أمها بعد وفاة الأب. هذا التوزيع الجغرافي للعائلة تمّ بعد وفاة الجدّة. إذ أقامت حسيبة في الليوان ومعها أقام الأولاد كلّهم. وبعد وفاة الجدّة، قرّرت سعدى تغيير المشهد بأسره، أعطت الصبيان الغرفة الباطونيّة، وقرّرت الانتقال مع زوجها إلى غرفة الليوان الفسيحة. ولم يجد أحد حلاً لمعضلة ميليا. الأم اقترحت أن تنام البنت في غرفة الليوان مع الزوجين،

لكنَّ موسى أصرَّ على أن تبقى ميليا معه في غرفته، وصارت ميليا في لا مكان، أمها تدعوها إلى النوم في غرفتها، وموسى يدعوها إلى النوم إلى جانبه أو على صوفا صغيرة موضوعة في غرفة الصبيان. ميليا كانت تفضِّل أن تفرش على الأرض وتنام في غرفة الطعام، لكنَّها بقيت عملياً في لا مكان، تنام هنا على الصوفا وهناك على سرير حديدي وضعته أمها في غرفة الليوان، تحمل مناماتها من هنا إلى هناك، وتعيش تشرُّدها الليلي، ولم تنحلّ المشكلة إلاّ حين توفي الأب فاحتلَّت سريره.

مات يوسف عندما كانت ميليا في التاسعة. نقولا وعبدالله تسلما دكان والدهما بينما تابع الابن الكبير سليم دراسة الحقوق في جامعة القديس يوسف الفرنسيَّة، وبقي موسى الصغير في مدرسة مار الياس بطينا.

رأت ميليا منام ولادتها بعد ثلاثة أيام من وفاة والدها. أصيبت ابنة التاسعة بما يشبه الخرس حين رأت يوسف ممدَّدًا بالموت، وسمعت صيحات النساء وكلامهن الغامض.

«إجت حبيبته»، صرخت إحدى النساء.

رأت الفتاة نفسها واقفة بين جموع النسوة المتَّشحات بالسواد، يلوِّحن بمناديلهن البيضاء فوق جثة الرجل المسجّى على السرير في الليوان. فهمت ميليا أنَّها الحبيبة المقصودة، لكنَّها لم تكن تعرف ماذا تفعل الحبيبات حين يموت الرجل. انطعجت قدماها، ورأت نفسها مرمية على الأرض. حلمت هذا المنام مرات لا تحصى، قدمان تنطعجان، وفتاة صغيرة تسقط، فتأتي الراهبة وتعلّقها على الحائط. رأت نفسها ملفوفة بالقماش الأبيض، ويدان تقومان برفعها إلى الأعلى، ثم تهوي.

لم تستطع ميليا الاقتراب من والدها والنظر في عينيه المغمضتين. لم تصل لأنَّها وقعت، وأحسَّت بطعم الحريق في داخلها. عاد هذا الطعم حين رأت نفسها تقترب من الرجل النائم في السرير إلى جانبها. تريد ان تصل اليه كي تغطّي ارتجافة جسده باللحاف، وتربت على كتفيه وتقول له أن لا يخاف. لكنَّها تسقط. تفتح عينيها كي تزيح المنام، فترى الضوء يتسلَّل من شقوق الستارة الصفراء التي تغطِّي النافذة. تنظر إلى اليمين، منصور ينام على ظهره، فمه منفرج، وصوت شخيره يعلو. تبتسم مطمئنة وتقرِّر أن تنام من جديد.

نهضت ميليا في الصباح، لبست ثيابها وجلست على طرف السرير تنتظر. نظرت إلى زوجها، فرأت منصور وقد تحوَّل نصف دائرة. ركبتاه مطعوجتان، يده اليسرى ممدودة تحت رأسه، يتنفَّس بعمق، وتصدر عنه بين فينة وأخرى تنهيدة قادمة من أعماق منطقة النوم. أحسَّته طفلاً صغيرًا، انحنت فوقه لكنَّها تراجعت إلى الخلف، وخرجت إلى الحديقة الصغيرة في الفندق.

«كان بدّك تبوسيني»، قال منصور.

«أنا، لا، كان بدّي غطّيك».

«طيِّب ليش ما بتخلّيني»؟

«شيل إيدك، بدّي نام».

«بس أنا بدّي نام معك».

«الله يخلّيك ما تقول هالكلمة، أنا نعسانة».

لم يفهم منصور لماذا تستعجل زوجته النوم، ما إن تضع رأسها على المخدّة حتى تغفو، وترتسم على وجهها علامات الاسترخاء العميق.

ثمّ اعتاد على أخذها نائمة. حين يشعر أنّ تنفُّسها بدأ يعلو، وأنّها دخلت إلى عالمها الليلي، يقترب منها ويبدأ في مداعبتها، يعلو شيئًا فشيئًا، ويدخلها. تتأوه شفتاها المنفرجتان، لكنّها لا تفتح عينيها. تكون كمن يحلم، كلّ شيء فيها يطفو، ومنصور يطفو فوقها، كأنّه حين يدخل في مائها يصير كمن يسبح في المنام.

«مبارح نمت معك»، قال لها.

«شو»!

«ما بتتذكري»؟

«الله يخليك بلا هالحكي».

وقف منصور على عتبة بيته استعدادًا للذهاب إلى العمل. حمل بيده فنجان القهوة التركية العثملية، أخذ رشفة أخيرة، وضع الفنجان على الطاولة، نظر في عينيّ ميليا العسليتين المرسومتين بألوان الضوء، وسألها ماذا رأت في منامها.

«إرجعي إحلمي منامك من جديد»، قال. «بدّي ياك تكوني رايقة اليوم، نامي شوي قبل ما إرجع المسا على البيت، واحلمي من جديد، وبيمشي الحال الليلة كمان».

اعتقد منصور أنّ ميليا مصابة بالخوف بسبب أحداث فلسطين، رغم أنّ مدينة الناصرة كانت بعيدة عن موجات الاضطرابات التي عمّت البلاد، والانتفاضات المتوالية ضدّ الانتداب البريطاني والهجرة اليهوديّة. لم تكن تسأله في السياسة أبدًا، وهو، رغم اهتماماته السياسيّة الصغيرة، ومناقشاته الصاخبة مع أصدقائه في المقهى، وخوفه من ضياع

فلسطين كلّها، لم يكن يتحدَّث في الموضوع مع زوجته إلاّ لمامًا، وفي شكل عَـرَضـي. لم يدر في باله أنَّ المرأة لا تبـالـي بهـذه الأحـداث، ولا تـعي دلالاتها، لأنَّها تعيش تجربتها الخاصة مع الحمل ومع مدينة الناصرة. المنام الذي أتى بها إلى هنا، وأقنعها بالزواج من منصور، كان يتكرَّر في ليلها. والشعور بأنَّ كلّ شيء يهتزّ في هذه المدينة التي عاش فيها السيّد المسيح منذ ألف وتسعمئة عام، جعلها تعي أن كلّ شيء موقت، فانصرفت إلى النوم، وإلى العيش داخل عالم تسوّره حيطان الليل.

ابتسمت لزوجها حين طلب منها أن تحلم حلمها من جديد، وقالت «حاضر». قال إنَّه أحب حلمها رغم أنَّها لم تروه له، لأنَّها كانت لطيفة معه في الليل. «كنتِ متل السكّر يلّي بِدوب بالتم»، قال. ميليا لا تذكر شيئًا، أو هكذا ادّعت. تحلم كلّ ليلة وتعيد رسم صورتها في مرايا العتمة في وصفها طفلة السابعة، بشعرها القصير الأسود، وعينيها الخضراوين الواسعتين، وإحساسها بأنَّ فتنة الليل تمتدّ إلى النهار، فتتابع منامها بعد استيقاظها من النوم، وتدمج حقيقة ما يجري بحقيقة مناماتها، مما أثار قلق زوجها، إلى أن أوضح له كاهن رعية «سيدة الرجفة» في الناصرة، السوري ميخائيل معوض أنَّ ما تراه زوجته من عوارض الحمل، ولا لزوم لشغل البال، لأنَّ ميليا سوف تخرج من حياة الليل بعد أن تضع مولودها الأول.

خرجت ميليا من غرفة الفندق إلى شمس الحديقة الصغيرة. كان الثلج المتناثر أشبه بجزر بيضاء وسط اللون الرمادي الذي يغطّي الأشجار. لفحة هواء باردة، وشمس تتداخل بالغيوم المتناثرة في السماء. غسلت منامها بالضوء والهواء، ومشت في الحديقة وهي تشعر كيف بدأ

حوضها يتَّخذ شكلاً دائريّاً. كلّ شيء فيها صار مدوَّرًا وحارّاً. جلست على حافة البركة الصغيرة في وسط الحديقة، مدَّت يدها اليمنى إلى الماء البارد، فانطفأت حرارة أصابعها. امتدَّت رعشة الماء إلى أعلى كتفيها، قبل أن تنحدر إلى ثدييها، وجاءها ألم الحليب. رأت الحليب يخرج من الثديين كنقاط تتشكَّل في خيوط دائريَّة، والدموع تفرّ من العينين وتسقط فوق ثديين كبيرين، فيختلط الحليب بالدمع.

كانت ميليا في الرابعة حين جاءت حنة للعمل خادمة في بيتهم. لكنَّها لم تمكث طويلاً، جاءت الراهبة ميلانة وأعطت سعدى قطنًا مغمَّسًا بالزيت المقدس، وبقيت معها في غرفة الليوان ثلاثة أيام بلياليها حتى شفيت. قالوا إنَّ الأم شفيت، لكنَّها لم تشفَ، «صارت امرأة أخرى» قال يوسف للراهبة التي نظرت إليه بعينين ساهمتين، تنحنحت وقالت له: «عيب يا معلم يوسف». ارتسم العيب فوق رأس الرجل الأشيب مثل هالة رآها جميع أولاده. ولم تمّحِ العبارة التي اتخذت شكل دائرة ملتصقة بشعر الرجل إلاَّ لحظة وفاته. إنحنى الأبناء على جبين والدهم المسجَّى وقبَّلوه، ورأت ميليا كيف امّحت الدائرة، ونام الرجل بسلام في رحلته الأخيرة إلى زميله في المهنة.

«يا كارك يا كار المسيح»، قالت سعدى وهي تبكي وتولول، حين رفعوا الرجل الميت إلى التابوت.

«عيب هالحكي»، قالت الراهبة.

«بسّ هو نجار، والمسيح كان نجار»، قالت سعدى.

«عيب هالحكي، المسيح كان يحب السمك وكان صيّاد»، قالت الراهبة.

«بس كان نجار كمان»، قالت سعدى، «الله يسامحك يا يوسف كيف تركتني، سلّم لي على بيي».

لم ترَ ميليا منام والدها الأخير. كذبت على الجميع حين قالت أنَّها رأته في المنام، حاملاً عدّة النجارة، وإلى جانبه شاب جميل ملتحٍ، وهما يتداخلان في غيمة سوداء حجبت ضوء النهار. وحين اقتربت منه كي تقبّله سقطت فحملتها الراهبة وأخرجتها من الغرفة.

قالت الراهبة «عيب يا معلم يوسف»، معلنة شفاء سعدى من مرضها الغريب.

لم يعرف أحد طبيعة المرض الذي أصاب الأم. صارت شبه عاجزة عن المشي، تنهض في الصباح، ولحظة تضع قدميها على الأرض تشعر بالدوار وتصير عاجزة عن الوقوف. تصرخ بكلمة «آخ» مليئة بالجروح، فيهرع أحد أبنائها إليها ويُنهضها من السرير، تمشي متّكئة على الحيطان، وحين تدخل إلى المطبخ تبدأ في التقيؤ، وتتداعى من جديد.

جاءت حنة من أجل ذلك المرض، لكنَّها لم تمكث طويلاً. سعدى شفيت بفضل أعجوبة الراهبة، ولم يعد هناك من حاجة إلى خادمة. لكنّ سعدى بقيت مريضة، صحيح أنَّها صارت قادرة على القيام من فراشها من دون مساعدة أحد، وبدأت تتخلّى عن الأعمال المنزليَّة، وصار على ميليا الصغيرة أن تطبخ وتنفخ وتغسل الثياب وتنظّف البيت.

دخل مرض الأم في الحكاية العائليَّة وكأنَّه بدأ بعد موت الوالد، أو بسببه. يوسف مات عندما كانت ميليا في التاسعة، وحنة جاءت عندما كانت في الرابعة، أمّا تحوُّل ميليا إلى سيّدة البيت المطلقة، فقد تمَّ بعد وفاة الوالد. العائلات تخترع حكاياتها وتصدّقها.

عاشت ميليا حكاية أنّ مرض الأم حصل بعد وفاة يوسف وصدّقتها. ولم تتسرّب حنة من شقوق ذاكرتها إلاّ عندما وجدت نفسها وحيدة تحت شمس تختفي أشعتها تحت غمام أبيض يغطّي السماء. مدّت يدها إلى مياه البركة كي تطفئ اشتعال أصابعها، فرأت كيف كشفت حنة عن ثدييها تحت شجرة الزيتون وبدأت في عصرهما وهي تبكي، والحليب يتدفّق منهما. كانت حنة قصيرة ومدوّرة، وجهها عريض وأبيض، وعيناها غائرتان تحت حاجبيها الكثيفين، وشفتاها غليظتان. جلست حنة تحت شجرة الزيتون وأعادت ثدييها إلى داخل فستانها الأسود الفضفاض، فرأت ميليا تقف بالقرب منها، بعينين حائرتين. أشارت لها أن تقترب، اقتربت الفتاة بخطوات متعثّرة، وسمعت حنة تقول بصوت باكٍ إنّها اشتاقت إلى ابنها.

لم تفهم الصغيرة الكثير من الحكاية المتقطّعة التي روتها الخادمة الآتية من قرية بعيدة تدعى جاج، في بلاد جبيل. لكنّها شعرت بالدم يقفز إلى وجنتيها وهي تركض مهرولة إلى البيت. اليد في الماء، وظلّ ابتسامة حائرة يرتسم على شفتيّ ميليا، وهي تحاول ترميم ذاكرة تلك المرأة. تتذكر أنّها روت عن طفل مات بعد ثلاثة أيام من ولادته، وعن زوج اختفى من القرية، وعن ثديين مليئين بالحليب.

سمعت ميليا صوت حنة كأنّه آتٍ من مكان خفي في داخلها يقول: «البزاز بيوجعوا»، وأحسّت ببحّة خفيفة في صوت المرأة التي سألتها إذا كانت تحب تذوّق طعم الحليب.

لا، لم تكن الأمور هكذا، هل سألتها حنة هذا السؤال؟ لا تدري، لكنّها أحسّت بتحلّب شفتيها، وبخوف غامض دفعها إلى

الهـــرب. هل ذاقت الحليب؟ لماذا بقي طعــمــه المليء بالسكّر تحت لسانها، فصارت كلما انتظرت نجيب تشعر بذلك الطعم يصعد من نهديها إلى شفتيها؟

لم تعد ميليا تجرؤ على الخروج إلى الحديقة، حين تكون حنة واقفة تحت شجرة الزيتون، مديرة ظهرها للبيت العتيق، ومعرية نهديها، والحليب يتساقط على العشب.

ما حكاية حنة؟ ولماذا طردتها الراهبة من البيت؟

صار شبح المرأة ذات النهدين الكبيرين يتكرّر في مناماتها، وفي الخلفيَّة يظهر وجه يوسف الأسمر، وهو ينظر بنهم إلى الحليب المتدفق. هل؟ لا تدري، لكنَّها تعرف أنَّ حنة تركت قريتها وجاءت إلى بيروت وعملت خادمة في بيتهم، وأنَّ طفلها الوحيد مات بعد ولادته بثلاثة أيام.

روت حنة عن طفل أشقر الشعر، عاش ثلاثة أيام، ثمّ صار شعر رأسه الذي يشبه زغب العصافير ناشفًا مثل الشوك، فعلمت أنَّه مات.

ولكن لماذا طردتها الراهبة من البيت؟

هل لأنَّ ميليا أخبرت عن الثديين؟ وهل كانت وحدها من رأى المرأة تتألَّم من ثدييها المنتفخين بالحليب؟

هنا على حافة البركة في فندق «مسابكي»، شعرت ميليا بالحليب وآلام الثديين. اجتاح اللون الرمادي السماء، فأغمضت عينيها، وتذكرت.

كانت وحدها، تشعر بالحر الشديد وتحوم عارية حول حديقة البيت. كان ظلام، لكنَّ العتمة لم تكن كاملة. لماذا نسيت هذا المنام المتقطّع وسط زحمة منامات الليلة الأولى بعد الزواج؟

ميليا الصغيرة تقف عارية أمام البركة في حديقة البيت البيروتي العتيق. كانت شجرة الزيتون، وكان الثلج يتساقط أبيضَ، ويتناثر فوق سطح الماء، وهي تشعر بالحر وتكاد تختنق.

سقط فستانها البرتقالي القصير الذي يرتفع فوق ركبيتها، كأنَّ يدًا فكت السحّابة الطويلة التي تمتدّ من العنق إلى أسفل الظهر. اليد نفسها امتدَّت إلى ثيابها الداخليَّة ونزعتها، ورأت الفتاة الصغيرة نفسها عارية وسط بركة الماء، والثلج يتساقط عليها ساخنًا، وهي تضمّه إلى صدرها. أحسَّت بالعطش وبدأت في التهام قطع الثلج. أكلت الثلج وهي تسبح، تأكل ولا ترتوي، تسبح ولا تبترد. منام لا ينتهي، وعطش لا ينتهي، ونوم لا ينتهي، وثلج لا ينتهي، وماء. كلّ شيء يسبح في الماء، وميليا الصغيرة تسبح وتأكل وتنام، والثلج يغطِّيها والحرارة تشعّ من داخلها.

سحبت ميليا يدها من الماء، بعدما انتشرت القشعريرة من ثدييها إلى بطنها، ورأت وجه والدها يوسف. كانت عيناه نصف مغمضتين، وكان يبتعد ويقترب، وهي تحاول أن تقول شيئًا، لكنَّ صوتها لا يخرج من حنجرتها.

روت حنة لثدييها المنتفخين بالحليب كيف طلّقها زوجها وخطف الطفل من بين يديها. الطفل لم يمت إذًا، بل خُطف. لماذا قالت حنة إنَّ شعره صار ناشفًا مثل الشوك؟ هل قتله والده؟

«شو يعني طلّقها»؟ سألت ميليا والدتها.

«ما تقولي هالكلمة، نحن ما عنّا طلاق، الطلاق حرام».

اختفت حنة واختفت قصتها، وميليا لم ترو الحكاية لأحد. موسى كان صغيرًا، معه وحده تستطيع أن تحكي، وعندما كبر دخلت القصة في العتمة والنسيان.

بعد موت زوجها، أصيبت الأم بذلك المرض الدائم الذي جعلها تمضي أغلب أوقاتها في دير الملاك ميخائيل، في صحبة الصلوات والأيقونات والراهبات. وعندما ستصير جدّة سوف تصير قديسة أو ما يشبه ذلك، لا تأكل سوى الخبز، وتعدّ القطن المغمس بالزيت وتعطيه للمرضى من أفراد العائلة، ولن يكون في مقدور أحد الادّعاء بأنّه لم يشفَ، إذ لن يصدّقه أحد. جميع أفراد العائلة، كبارهم وصغارهم، آمنوا بعجائبيّة سعدى التي استمدّتها من علاقتها الخاصة بالراهبة ذات الجسم الضخم والصوت الرفيع الناتئ.

شعرت ميليا بالماء، وبدأ برد شتورة الصباحي يتسلّل إلى جسمها، فقرّرت العودة إلى الغرفة. دخلت إلى بهو الفندق، حيث فُرشت مائدة الفطور، ورأت السائق يجلس وحده أمام المائدة، يلتهم بيضًا مقليّاً ولبنة وجبنة. حين رآها قادمة من الخارج، فرك يديه ونظر إليها بطرف عينيه وابتسم. رأت الكلمات تحوم حول شفتيه كأنّه يريد أن يحكي، لكنّه تابع مضغ طعامه، بينما تابعت شفتاه انفراجهما الساخر. صعدت ميليا الدرج الحجري على رؤوس أصابعها، فتحت باب الغرفة المسدلة الستائر والغارقة في العتمة، فشمّت رائحة غريبة تشبه رائحة البركة في المنام، وأحسّت بالنعاس. خلعت ثيابها، لبست قميص النوم، واندست في الفراش إلى جانب منصور، الذي كان متدثرًا باللحاف ومتكوّمًا حول نفسه كأنّه نصف دائرة. اقتربت من عينيه المغمضتين وشعرت نحوه بحنان صاحبه ألم خفيف هبط من كتفيها إلى أسفل ظهرها.

لن تقول ميليا إنَّه الحب. هنا في السرير، وهناك في السيارة أحسَّت شيئًا غامضًا لن تكتشف اسمه إلاَّ في الناصرة. كلمة حب لم تستخدمها إلاَّ مرة واحدة، وكان ذلك بعد عودتها من الكنيسة إلى البيت، ببطنها المنتفخ ورائحة البخور التي ملأت ثيابها. كان منصور في الحديقة يدخِّن سيجارة، ويشمّ رائحة التراب التي أيقظها المطر. التفت إليها وقال: «بتعرفي يا ميليا، رح تخلّفي على عيد الميلاد، بأواخر كانون الأول».

كانت في شهرها الخامس، ومطر أوائل أيلول أسكرها برائحته. كانت تعرف بالضبط متى ستضع مولودها، وفي أي ساعة. لكن حين لفظ منصور كلمة الميلاد أحسَّت ارتعاشة في أسفل بطنها، كأنَّ الجنين تحرَّك، ورأت غمامة بيضاء حول عينيّ زوجها، فتذكَّرت عينيه المغمضتين في ذلك الصباح في فندق «مسابكي»، وقالت إنَّها تحبه.

«إذا بتحبّيني، طيِّب ليش ما بتخلّيني نام معك»؟

وضعت أصبعها على شفتيه كي تطلب منه أن يسكت. لماذا يحكي هكذا، مستخدمًا هذه العبارة؟ قالت له ألف مرة إنَّها لا تحب أن تسمع هذا الكلام، وإنَّ الجنس وُجد من أجل إنجاب الأولاد، وإنَّها حبلى والحمدللّه.

بدأ منصور يحكي ولبسها الصمت. كانت كأنَّها تضع على وجهها حجابًا من السكوت. تمشي في البيت على رؤوس أصابعها، ترتّب الأشياء، تعدّ الطعام، وتنتظر زوجها. لم تكن تسأله سؤالاً واحدًا، يستطيع أن يتأخر كما يشاء، ويعود متى يشاء، وهو متيقن من أنَّ زوجته لن تشكو ولن تسأل.

قال لها عن الحب، وكيف افتتن بجمالها حين رآها، فابتسمت وخفضت أهدابها. حكى كثيرًا قبل أن يقول لها إنَّ الزواج يعطِّش.

«وأنا كمان، أنا بضلّ عطشانة»، قالت.

لم يقل إنَّ سبب عطشه هو صمتها واضطراره إلى ردم الفراغات التي يصنعها غياب الكلام. لم يسألها لماذا تدّعي النوم حين يضاجعها، فهو يعرف أنَّها تتلوى لذَّة، وأنَّ أنينها ليس أنين ألم أو رفض. أنينها الخفيض الذي يخرج من بين شفتيها المطبقتين، يشعل مسامه كلّها، ويجعله كمن يسبح في البحر. ينتظر العتمة، يغمض عينيه على ألوان الرغبة، ويمضي في موج خفيف يصعد به، يلفّه هواء ساخن داعيًا إيَّاه إلى البقاء. لحظة ينتهي يشعر أنَّ كلّ شيء فيه يتروّس، وأنَّه يريد المزيد، لكنَّ المرأة المغمضة العينين تغلق فخذيها وتسعل، تستدير إلى اليسار، وتتركه يلملم عضوه، ويذهب به إلى الحمام.

هذا الأنين الذي يخرج منها ويتلوَّن بمناماتها، أعاده إلى لحظة العشق الأولى، ونسي أنَّه لم يستطع أن ينام معها كما يجب في الغرفة رقم ١٠ في ذلك الفندق الصغير. هناك شعر بأنَّ كلّ قواه خانته، وأنَّه اقترب من الموت. المشي في الضباب لأكثر من ساعة، زخات الثلج التي كانت تتدور في العاصفة الهوجاء، خوفه من أن يطير ويسقط في الوادي، وشعوره برجولته. هناك وسط الضباب مشت رجولته أمامه واثقة من نفسها، وسار خلفها مترنِّحًا، يكاد يهوي، والماء حول عينيه. أراد أن يغمض عينيه من أجل أن يوقف احتراق البرد فيهما. نظر إلى الخلف كي يراها، فلم يرَ سوى شبح السيارة التي تسير ببطء السلحفاة. عندما خرج السائق من السيارة في منتصف مرتفع ضهر البيدر قائلاً

إنَّه لم يعد يستطيع الاستمرار، وإنَّه سيعود بهما إلى بيروت، صرخ به منصور وقال إنَّه سيقود السيارة بنفسه، وبرم كي يرجع، فرأى السائق يركض أمامه ويجلس خلف المقود، مشيرًا إلى أنَّه سيسير خلفه.

«مشي الحال»، قال منصور، فضاع كلامه في الهواء العاصف. لكنَّ الحال لم يمشِ، فالطريق كانت مليئة بالمخاطر. انزلق مرات عدة، وانزلقت السيارة خلفه. وحين انقشع الضباب، عاد منصور إلى السيارة ليجد ميليا نائمة متدثرة بمعطف أمها، وتصدر عن جسدها ارتعاشات متقطِّعة. حاول أن يحكي معها، أراد أن يقول لها شعرًا. كان قد أعدّ أبياتًا كثيرة من الشعر العربي القديم كي ينشدها وهو يشرب الشمبانيا في غرفة الفندق، قبل أن يضمّ هذه المرأة إلى ذراعيه، لكنَّه لم يجد سوى هذين البيتين:

«وجبال لبنان وكيف بقطعها
وهو الشتاء وصيفهن شتاءُ
لبس الثلوج بها عليَّ مسالكي
فكأنَّها ببياضها سوداءُ».

فتحت المرأة عينيها ثمّ أغمضتهما من جديد، يبدو أنَّها لم تسمع أو لم تفهم ما سمعت. شعر منصور بالخيبة. كان يخبِّئ لزوجته مفاجأة الشعر. قرَّر أن يبدأ معها بقصائد غزليَّة من الشعر القديم. سوف يقول لها إنَّه شاعر على طريقته، لأنَّه حفظ مئات الأبيات، وقد أعدَّ لليلة عرسه مائدة من القصائد، وتخيَّل نفسه في غرفة الفندق يشرب ويفرش الكلمات على الأرض أمام هذه المرأة التي سرقت قلبه، وجعلته يمضي أوقاته مسافرًا بين الناصرة وبيروت.

لم يكن منصور يعلم أنَّ ذلك اللقاء العابر في الحديقة، سوف يقلب حياته، ويحوِّله إلى مسافر دائم. رأى فتاة بيضاء، ذات شعر طويل مربوط كذيل حصان، تنحني كي تسقي حوض الحبق، فطار عقله. كان قد أتى إلى بيروت من أجل أن يشتري أقمشة لمحله التجاري الذي فتحه في الناصرة. قرَّر أن يكون تاجرًا مستقلاً بعد الخلاف الذي نشب بينه وبين شقيقه أمين حول إدارة مشغل الحديد في يافا الذي ورثاه عن والدهما. قرَّر أن يبدأ كلّ شيء في مكان جديد.

«الخطة أن أجمع المال وأعود إلى يافا»، قال لزوجته عندما وصلا إلى منزلهما في الناصرة.

أحنت ميليا رأسها وقالت إنَّها كانت تفضّل بيت لحم.

«إيش فيها بيت لحم»؟ سألها.

لم تجاوب ورأت الهالة الذهبيَّة ترفرف بين أهدابها. لم تخبر أحدًا منامها. ماذا تقول؟ هل تقول إنَّها رضيت به زوجًا من أجل المنام؟ وأنَّها صارت هنا لأنَّها سمعت هاتفًا يقول لها إذهبي إلى الناصرة. الأمور تتداخل في رأس ميليا، المرأة التي رأتها في المنام كانت تحمل طفلاً صغيرًا، أعطت الطفل إلى ميليا واختفت في داخل فستانها الأزرق الطويل. رأت ميليا كيف تموّج الأزرق واحتلّ الوادي. تركت المرأة الطفل بين يديّ الفتاة الصغيرة. طفل أسمر البشرة، عيناه مغمضتان، مقمّط بما يشبه الكفن، وضوء يتشكّل هالة فوق رأسه الصغير. ضوء أزرق وضع على ركبتي فتاة في السابعة، تجلس أمام نصب حجري بالقرب من الوادي. خلفها مبنى قديم مهجور، كأنَّه كنيسة عتيقة مبنية من الحجر الصخري الأبيض. المرأة أتت من لا مكان، ثمّ اختفت تاركة ثوبها يمشي

خلفها مغطيّاً الوادي. وقفت ميليا كي تمسك بأطراف الثوب، فأحسَّت أنَّها تهوي. ضمَّت الطفل إلى صدرها وبدأت تتراجع إلى الخلف، تعثَّرت بحجر، وحين بدأت تسقط فتحت عينيها وتنفَّست بعمق. كان ضوء قنديل الزيت المشتعل أمام صندوق الأيقونات الخشبي المعلَّق في زاوية الليوان العليا، على وشك الانطفاء. الفتيل يتوهج باللون الأزرق، والمرأة الزرقاء التي غادرت عينيها تدخل في الصندوق، الذي يتراءى لونه البني كأنَّه مزيج من اللونين الأحمر والذهبي. أغمضت عينيها، لكنَّ المرأة الزرقاء عادت، وضعت الطفل على ركبة ميليا واختفت من جديد داخل ثوبها الأزرق. الثوب يغطِّي الوادي، ميليا تتقدَّم من الوادي حاملة الطفل، تمدّ يدها كي تلتقط طرف الثوب الأزرق، تخاف، تتراجع، وتسقط.

في صباح اليوم التالي، جاء موسى وأخبرها عن العريس، وقال بيت لحم، فأحنت رأسها موافقة. قال لا، «أنا غلطت، هو من الناصرة، مش من بيت لحم». فأحنت رأسها مرة ثانية وقالت نعم.

هل سمعت إسم المدينتين في منامها؟ هل أخبرتها المرأة الزرقاء إسم المدينة؟ لا تذكر ميليا أصواتًا، لكنَّها عندما ابتسمت لزوجها بعدما سألها إيش فيها بيت لحم، أحسَّت أنَّ إسمي المدينتين طلعا من قعر منامها وأنَّها لا تستطيع أن تجاوب على سؤاله.

هل صحيح أنَّها قالت للرجل النصراوي أنَّها تحبُّه؟

ترى نفسها بعينيّ منصور، تنحني على حوض الحبق، منتشية بالرائحة الطالعة من مزيج التراب والماء والعطر. رآها الرجل من الخلف، وقرَّر أن لا يغادر بيروت من دونها.

«لَمّن بشوفك بحسّ بالعطش»، قال.

«شو رأي القمر بالقمر»؟ قال.

«أنا واقف هون حتى أحرس ريحة الحبق»، قال.

سمعته، التفتت إلى الخلف، فرأت وجهًا يشبه وجه شقيقها موسى، وشعرت نشوة آتية من مزيج رائحة الحبق ورائحة الكلام. صار لكلام الرجل رائحة تشبه رائحة الحبق، ولوقع خطواته في الحديقة المقابلة خشخشة تستثير فيها قشعريرة تنحدر من عنقها إلى أسفل ظهرها. لكنّها لم تتكلم معه فعلاً إلاّ مرة واحدة. كان تشرين يسقي الأرض بالمطر الأول، وكانت ميليا تقف بتنورتها النيليّة الطويلة وقميصها الأبيض، وتتفرّج على الأشجار تتعرّى، حين سمعت صوتًا طالعًا من بين الأشجار يقول: «إنتِ هي».

«أنا شو»؟ سألت.

«إنتِ عارفة عن شو عم بحكي»، قال.

«أنا»!

«أنا بحبك»، قال.

«ليش»؟ سألت.

«بحبك وبدّي ياكِ».

«أنا»!

التفت ببياضها ودخلت إلى البيت. هكذا سيصفها منصور، سوف يقول إنّها التفت ببياضها ودخلت فيه، أحنت رأسها، وقالت إنّها موافقة.

أحسّت حين اختفت في البيت العتيق أنّ عينيه صارتا مسامير انزرعت بين الكتفين في أعلى ظهرها، وآلمها عنقها. وحين قال لها

موسى معاتبًا أنّها عرفت الرجل وأحبّته من دون أن تخبره، لم تجد ما تقوله، وضعت يدها على أعلى ظهرها كي تزيل المسامير، وقالت نعم.

كان منصور نائمًا، وميليا تحاول أن تنام، أغمضت عينيها وشعرت بارتجاج في أسفل قدمها اليسرى، كانت تسقط على الدرج، وموسى يقول لها أن لا تخاف. كان درج خشبي طويل، وكان شاطئ، وكان بحر. كلّ شيء يتلوّن بالأزرق الفاتح. ميليا تتسلّق الدرج، الراهبة ميلانة تقف في الأسفل تمسك الدرج الخشبي وتهزّه. ميليا فوق، والدرج يرتجف تحتها، وهي تتمسّك به وتحاول متابعة صعودها. تنظر إلى الأسفل، ترى الموج والزبد، وفجأة سقطت على الدرج كبهلوان يقوم بحركات رياضيّة. سقط رأسها أولاً، فامتدت على الدرج كأنّها مستلقية، ثمّ بدأت تتشقلب. كان السقوط سريعًا، لكنّ الدرج لا ينتهي. خرجت الراهبة من الصورة، موسى يمدّ ذراعيه كي يتلقاها بهما. سقط موسى في الماء وابتلعه البحر. تقف ميليا على صخرة وسط الأمواج، بنطلونها القصير ملوث بحشائش البحر، وعيناها تحترقان بالملح. تبحث عن شقيقها بين الأمواج ولا تجده. امتدّت يد ورمتها في اليم، أحسّت أنّها تغرق وبدأت تختنق. فتحت عينيها، لحست الملح عن شفتيها ولم ترَ سوى العتمة.

جلست ميليا على طرف السرير، وضعت كفّها على صدرها كي تسكت ضربات قلبها المتلاحقة. كان قلبها يخفق في كلّ أنحائها، أحسّته في عنقها وصدغيها وأسفل قدميها. كلّ شيء فيها كان يرتجّ بعنف.

لماذا هذا الخوف؟ وممّ تخاف؟

ارتسم ظلّ ابتسامة على شفتيّ المرأة المغطاتين بالعتمة، وتذكرت منامها القديم الذي غادرها قبل ثلاثة أعوام، حين التقت نجيب كرم

للمرة الأولى وأحسَّت أنَّ هذا الشاب سوف يمسح المنامات عن عينيها، ويدخلها في الحياة الحقيقية. لكنَّ نجيب اختفى من حياتها وأخذ منام الدرج والبحر معه، وها هي تجلس الآن على طرف السرير في الغرفة رقم ١٠ في فندق «مسابكي» في شتورة، تسأل وتعرف الأجوبة وتخاف.

«وقعت بالمنام وإجري عم توجعني»، قالت ميليا لأمّها، وسمعت الأم تصرخ بها: «خلصينا من حكي الخرفانين تبع ستك، إنتِ صرتِ صبية، وصار لازم تلاقي عريس».

انتفض جسد المرأة البيضاء، نهضت، انحنت على الأرض، التقطت قميص نومها الطويل، لبسته وجلست على طرف السرير، وسمعت من جديد صوت أمها الجاف الذي يخرج من أعماق حنجرتها مشبعًا بدخان النرجيلة. هذا الصوت سوف يرافق ميليا في الناصرة، وسوف يكون الصوت الأخير الذي تسمعه قبل أن ترى ذلك الفتى الذي يجلس تحت صورتها، ويحاول أن ينقل الكلام المكتوب بحروف صغيرة داخل إطار الآية الانجيليَّة المرسومة بالخط النسخي.

لماذا تبدو غرفة شهر العسل على هذه الحال؟

الرجل يدير لها ظهره، وهي تفتح عينيها على منام لا يشبه مناماتها. أين ذهب المنام القديم؟

كانت ميليا تعيش على إيقاع مناماتها، تنهض في الصباح، تمسح المنامات عن أجفانها، وتتابع الحكاية. تحلم أنَّ نجيب يجلس مع فتاة أخرى في حديقة منزلها، تقف بعيدًا وتراقب كيف يمدّ الرجل يده إلى شعر الفتاة، ثمّ ينحني ويطبع قبلة على عنقها، قبل أن يختفيا تحت شجرة التين الكبيرة. فترفض أن تجلس معه أو أن تكلّمه حين يأتي

لزيارتهم في اليوم التالي. ولا تعود الأمور إلى سابق عهدها إلاّ حين يمحو منام جديد منامها السابق.

«شو كان بكِ مبارح»؟ سألها نجيب.

ابتسمت ولم تجاوب.

«مش عم بفهم، صار شي»؟

«إسأل حالك».

تتفجر ضاحكة، «إنت ما خصك، حلمت منام مش حلو، وكان مزاجي معوكر، إنسَ».

لا يفهم نجيب، وحين يصرّ على معرفة السبب، ويستمع إلى اتهامات الخيانة، وإلى حكاية علاقته بفتاة سمراء لا تعرف ميليا اسمها، يغادر غاضبًا.

حين اختفى نجيب من حياتها، ومضى إلى الزواج بتلك المرأة السمينة، حلمته في الليل وهو يقول لها إنَّه هربان من مناماتها، «كيف الواحد بيقدر يعيش مع مرا متلك».

«يلّي حلمته طلع مزبوط، شفتك وكان لازم أتركك، وما خلّيك إنت تتركني، الحق عليي أنا».

رأته إلى جانب تلك المرأة السمينة التي يسدّ قفاها الحديقة، وإلى جانبهما يقف شقيقها سليم.

«أنا بكرهك»، قالت لسليم، «عامل حالك آدمي وقديس، يا عيب الشوم عليك».

رأت نفسها على الدرج، وبدأت تتشقلب وتصرخ، وموسى يقف في الأسفل، مادّاً ذراعيه في انتظارها، ترتطم بالأرض، وتشعر أنَّ عظامها تحطَّمت.

«وين رحت يا موسى وتركتني، بعدك زعلان على المصاري مش هيك».

حلمت أنَّ موسى سرق القروش القليلة التي تخبِّئها تحت فراشها. نهضت في الصباح، فلم تجد المصاري، وعندما عاد موسى من المدرسة وبّخته. اصطبغ وجه الفتى باللون الأحمر، حاول نفي التهمة، قبل أن ينهار بين يدي شقيقته ويعترف بجريمته. طبعت ميليا قبلة على أهدابه وسامحته.

كانت ميليا تلعب مع نفسها لعبة المنامات، وحين لا تذكر منامها تواصل إغماض عينيها مدّعية أنَّها نائمة، في انتظار أن ترى شيئًا يتَّكئ عليه نهارها. يبدأ ليلها حين ترسم مناماتها قبل أن تغفو. لا لم تكن الأمور بهذا الوضوح. لكنَّها كانت تقرِّر أمكنة الحلم، وغالبًا ما كانت مناماتها على شاطئ البحر أو أمام الوادي. حتى في عزّ الشتاء، كانت تذهب إلى الشاطئ، تتغطَّى باللحاف وتغمض عينيها على اللون الأزرق، وتجد نفسها في الماء.

كان الأخوة الأربعة يذهبون كلّ يوم، في الصيف، للسباحة على شاطئ بيروت الصخري، وكانت تذهب معهم في بعض الأحيان. تقف على الشاطئ وتتفرَّج عليهم يسبحون في الماء.

«إنتِ بنت، والبنات عيب يسبحوا»، قال شقيقها الكبير سليم.

«ليش عيب»؟ سألت ميليا.

«لأنَّك بنت»، أجاب سليم.

«أنا مش بنت»، قالت.

«ليش عندك حمامة»؟ سأل موسى.

«اسكت ولا حمار»، صرخ به سليم، «وإنتِ خلّيكِ هون وتفرّجي علينا».

مرة أمرت موسى أن يأخذها إلى البحر. لم يكن أحد في البيت، الأم كانت في الدير تلحوس الأيقونات، كما كان سليم يصف زيارات أمه الدائمة إلى الدير، سليم عند الآباء اليسوعيِّين، وهي في البيت مع موسى. كانت في الثانية عشرة، رجته، ثمّ أمرته، وذهبا. خلعت ثيابها ولبست المايوه الذي أخذته من خزانة شقيقها سليم، وأحسَّت بنظرات موسى إلى ثدييها الصغيرين اللذين بدآ في التكوُّر. كانت ترتجف عارية أمام الأزرق اللامتناهي، وقفت واستعدت للنزول إلى بركة صغيرة ممتدةً كلسان صخري داخل اليابسة. رأت نظرات شقيقها تتفرس في ثدييها وأحسَّت بهما. كانا مثل كوزين صغيرين من التين، يرتسمان على صدرها الأملس. لم تلاحظهما مليا قبل ذلك، وسوف تحاول أن تتساهما، حتى بعدما كبرا وصارا تفاحتين، بلونهما النهدي الذي ينفجر فيه البنفسجي داخل الأبيض، وبالحلمتين الورديتين النافرتين.

منصور سوف يكتشف النهدين في الظلام، ويأخذهما داخل النعاس الأبدي لزوجته. ويقول لها إنَّ التفاح أطيب من الإجاص.

«شو عم بتقول»؟

«عم بحكي عن البزاز، أنا بفضل شكل التفاح، النجاص ما بيشكي من شي، بس التفاح مدوّر وبعبّي الإيد، يا عيني على تفاحاتك».

«الله يخلّيك خلص».

يتركها تغفو في سريرها بعدما يئس من إقناعها بأنَّ الجنس ليس حرامًا أو عيبًا. المشكلة كانت في تمنُّعها الذي يشعله، فيحاول أخذها عنوة، ثمّ يتراجع أمام الماء الذي يغطّي وجهها. صار يخاف حزنها، وجلوسها منحنيةً على طرف السرير، تلتقط دموعها بطرف الشرشف الأبيض.

كانت تتباطأ في الاستجابة حين يريدها، تطلب منه أن يبتعد عن سريرها، تتلوى في الفراش، تنهض، تذهب إلى الحمام، تعود وتطفئ الضوء طالبة منه تأجيل المسألة إلى الغد، فينتظر حتى تنام. عيناها مغمضتان وجسدها هامد لا يتحرك. يأخذها فيبدأ ماؤها في التدفق، ويغرق. يشعر أنَّه لم يعد منتصبًا، كأنَّها حين تأخذه إلى داخلها تذيبه في عالمها المرسوم بالعتمة والعيون المغمضة. يتلاشى جسدها بين يديه، يُخرج النهدين ويبدأ في تقبيلهما، يمتصّ الطعم الذي يمتزج فيه الياسمين برائحة التفاح، يسمع أنينها الخافت، ويبدأ رحلة انزلاقه إلى داخلها وذوبانه في مائها. وحين ينتهي، ويقرّر أن يتابع، تسعل، فتطرده من داخلها، تتقلب على جنبها الأيسر وتغرق في نوم عميق.

وفي الصباح، لا يجد في تعابير وجهها أي أثر لما فعلاه. وجهها الأبيض الذي يتدوَّر بالحمل يفيض ضوءًا. هل تنتظره حتى يغفو ثمّ تدخل إلى الحمام وتغتسل أم أنَّها تكون فعلاً نائمة ولا تغتسل إلاَّ في الصباح الباكر؟

مرة واحدة ارتكب خطأ كبيرًا. كانا يجلسان في الصالون، منصور يستمع إلى الراديو، وميليا تشتغل بالصنارة كنزة صوف للطفل المنتظر. نهض واقترب منها، ووضع يده على ثديها الأيسر، وانحنى مقبّلاً القميص الذي يغطّي الثدي، وحين مدَّ يده إلى الداخل انتفضت.

«خلّيني بوسه»، قال.

وبينما كان يُخرج الثدي من ثنايا القميص، ويلتقط الحلمة الزهرية بشفتيه، ارتسم الألم على وجهها. كان منصور غائبًا في عبق التفاح حين سمع صرختها: «خلص». امحى الألم عن وجهها، شهقت بالهواء وقالت خلص، ونهضت.

لم يجرؤ منصور أن يتبعها إلى الغرفة حيث التفّت بنفسها ونامت. لم يقترب من ثدييها في تلك الليلة، أخذها كلّها وكانت ساخنة وطرية. وفي صباح اليوم التالي قالت له إنّ هذا لا يجوز، «الثديان للطفل وعليه أن يفهم». وبعد ثلاث ليال، سمع الأنين القديم نفسه وهو يحتضن نهديها، غرق في نعاس الحب، ولم يعد إلى محاولة اكتشاف النهدين في الضوء، مكتفيًا باللون النهدي يخترق ظلام الغرفة، فاتحًا له أبواب الليل.

حجبت ميليا نهديها بذراعيها، ورمت نفسها في البحر، واجتاحها طعم الملح. هذا الطعم سوف يعود إلى شفتيها في ذلك الصباح الشتائي البارد، حيث وجدت نفسها في السرير داخل غرفة صغيرة في فندق «مسابكي». امتصت شفتيها، وعادت إلى النوم. لكنّها هناك على شاطئ بيروت الصخري، أغرقت ثدييها بالماء المالح، ووقفت تتفرَّج على موسى وهو يقوم بألعابه في الماء، يسبح تحت الماء، فتشعر أنَّه غرق ولن يعود. وفجأة يبرز في الجهة الثانية من البحر الكبير، تلوّح له بيديها، لكنَّه يبتعد.

أغمضت عينيها وأنزلت رأسها في الماء، وفتحتهما على الأزرق الذي يتحوَّل إلى أخضر فاتح يمتزج بالرمادي، وأحسَّت أنَّ أعماق البحر تمتلك عيونًا خضراء، وأنَّ الأخضر الذي يغلّف ليلها آتٍ من مزيج هذه

الصخور والألوان. رفعت رأسها إلى الأعلى، فاجتاحتها موجة خفيفة من البرد، وأحسَّت بالألم في عينيها. صرخت لموسى، لكنَّ موسى كان بعيدًا، يسبح ويجدِّف بيديه، ورأسه غارق في الماء والموج.

حين عاد موسى رآها واقفة في الماء والجَزَع في عينيها، أمسكها من يدها كي يساعدها على الخروج من البحر، سحبت يدها من يده، تكتّفت مغطِّية نهديها، وتبعته. لبست ثيابها، وشعرت بالجوع. ضربتها ارتعاشة من البرد. كانت شمس تموز تلتمع فوق الماء، وميليا ترتجف تحت فستانها القصير الذي يغطي شورت البحر المبلول الذي لم تجرؤ على خلعه. اشترى موسى كعكة بزعتر، اقتسمها مع أخته، وبدأ يلتهم حصّته منها، وهي تتفرَّج عليه وتأكل لقيمات صغيرة من كعكتها.

في تلك الليلة حلمت الخروف وتذوَّقت قبلاته، وجاءها دم الحيض. أمها قالت لها إنَّها صارت امرأة الآن وعليها أن تتصرف كالنساء. خافت ميليا من الدم، ولم تفهم لماذا تنفجر البيضة التي تكوّنت في أحشائها بهذا الشكل الدموي. «يعني البيضة بتموت»، قالت لأمها. «يعني كلّ شهر في حدا بموت جواتي أنا»؟

«هيدا حكي بلا طعمة، هيدا مش موت هيدا الطبيعة»، قالت سعدى.

فهمت ميليا أنَّ الطبيعة هي الموت، ونما في داخلها شعور يتكرَّر مع اقتراب الموعد الشهري. تتباطأ حركتها، تشعر أنَّ هناك شيئًا يتكوَّر في بطنها، ويضربها التوتر. تضع يديها على أسفل بطنها كأنَّها حامل تريد حماية الجنين من السقوط. ولا يأتي الدم إلاَّ مع ظهور الخروف الصغير، ووسط الكثير من الأوجاع. ظلّ هذا الشعور بالخوف من سقوط البيضة يلاحقها إلى أن حملت. هناك في المدينة الصغيرة والبعيدة، لم

تعد ترى الخروف الصغير جاثمًا فوقها. هناك صارت تمشي كلّ يوم في الأزقة والشوارع حتى تتعب قدماها، ثمّ تعود إلى البيت وتنام. تحلم بالمرأة الزرقاء تقترب منها قبل أن تختفي في الوادي، واضعةً الطفل بين يديها. تضمّ الطفل إلى صدرها، وتترك له أن يمتصّ الحلمة البرتقاليَّة. تنتشي ويتقلّص رحمها، ويفيض ماء غزير من أحشائها.

لم تقل لمنصور أنَّها تخرج من البيت وتمشي في الأزقة. تشعر في الصباح أنَّها مكتملة كدائرة، وتمشي. لكنَّ منصور رآها. اقتربت من كنيسة «سيدة الرجفة»، وجلست على حجر أبيض يشرف على حقل من الزيتون، وسرَّحت نظرها في البعيد. رآها منصور صُدفة، مشى خلفها، كان خارجًا من دكانه من أجل تدخين نرجيلته الصباحيَّة في مقهى سليمان. رأى ظلّها من الخلف، كانت مثل دائرة تكرج مسرعة، عرفها وتبعها. جلست على الحجر الأبيض، اختبأ خلف الحائط، ولم يقترب منها أو يكلّمها. جمُد في مكانه، حابسًا أنفاسه في صدره. وحين وقفت وبدأت تمشي في اتجاه البيت، ذهب إلى المقهى. وفي المساء، عاد إلى المنزل، فوجدها نائمة كالعادة. أيقظها، أعدَّت له طعام العشاء، وعادت إلى النوم، من دون أن يتكلَّما.

في صباح اليوم التالي، وبينما تعدّ له القهوة، اقترب منها يريد تقبيلها، فابتعدت، كلَّمها فلم تجاوب، بل نظرت إليه معاتبة. كان منصور متأكّدًا من أنَّها لم تره في الكنيسة، ولم يكن مستعداً لتصديق حكاياتها عن المنامات. كان متأكّدًا من أنَّها تدّعي المنام كي تأخذ حريّتها في تأويل الأشياء كما تشاء. سألها ما بها، فلم تجاوب، أحسّ بالاختناق، اعتاد الصمت، واعتاد العيش مع امرأة تشبه الطيف، لكنَّه لم يكن قادرًا على تحمُّل حردها أو حزنها.

«قولي لي شو القصة»؟

«إنت بتعرف».

«لا ما بعرف، قولي».

«ما شي»، قالت، وبرمت ظهرها وخرجت من المطبخ إلى الصالون. لحق بها، وضع يده على كتفها، فالتفتت إليه وقالت: «شيل إيدك الله يخليك».

«شو القصة، أنا شو عملت»؟

«إنت كنت لاحقني».

«أنا»!

«أيوه إنت، وقفت ورا حيط الكنيسة وما قرّبت، أنا شفتك».

«أيمتى»؟ سأل.

«ما بعرف، يمكن مبارح يمكن من كم يوم».

«كيف شفتيني»؟

«شفتك من ضهري».

«ما حدش بشوف من ضهره»، قال.

نظرت إلى منصور فرأته يتّخذ شكل موسى، رأت ارتجافة شفته السفلى، والدمع معلّق تحت أهدابه. انحنت، مسحت عينيه بأطراف أصابعها وقبّلته عليهما، «ما بقى تكذّب عليّ، وعدني إنّك ما رح تكذب، يلله قول شي».

«بوعدك»، قال منصور معترفًا.

يومها خاف منصور من هذه المرأة، وسمعها تناديه باسم موسى، فلم يقل شيئًا. كان ينتفض ويصرخ بها ان كفى حين تناديه باسم شقيقها. «أنا إسمي منصور، ليش لاحقتيني باسم خيّك»؟

«شو بعرّفني»، قالت، «يمكن لأنّي مشتاقة».

«اشتاقي زي ما بدّك، هدا أخوك، بسّ أنا إسمي منصور».

«منصور»، قالت، «خلص إنت منصور».

لكن اسم موسى لم يغب. مرة سمعه أو اعتقد أنَّه سمعه حين كانت نائمة. كان يهمّ بالاقتراب منها حين سمع الاسم فتراجع إلى الخلف وحاول أن ينام، لكنَّه لم يستطع، عاد إليها وأخذها وهو يكذّب نفسه ويقول إنَّه سمع الاسم خطأ. لكنَّه أحسّ بغربة شديدة، كانت هذه المرأة غريبة هنا، ولم يعد يعرف كيف يحكي معها. صوتها الخفيض يشعره برهبة الأصوات، وعيناها الناعستان لا تنظران إلاَّ إلى البعيد، فيشعر أنَّه لا يستطيع اللحاق بهما.

في ذلك الصباح، حين انحنت ومسحت رموش عينيه وقبّلتهما، شعر منصور أنَّه صار مثل طفل أمامها، واعترف لها أنَّه رآها صدفة وتبعها، ووقف يتفرَّج عليها جالسة على حجر أمام درج الكنيسة.

«صحيح كيف شفتيني»؟

قالت إنَّها رأته من ظهرها، لأنَّها ترى كلّ شيء في المنام. حدثته عن الجهات الأربع التي يراها المرء حين يحلم، وسألته عن مناماته.

قال إنَّه لا يرى منامات.

«مش معقول»، قالت، «إنت ما بتتذكر مناماتك»، وشرحت له أنّ على الإنسان تدريب ذاكرته، لأنّ المنام هو امتداد الحياة، «الانسان بيعيش بالليل قد ما بيعيش بالنهار، ويللي ما بيقدر يتذكّر مناماته بعيش نصف حياة».

وسمعت صوت جدّتها يخرج من حنجرتها، وهي تشرح لها عن أهمية المنام في حياة الانسان.

«أنا مش هيك»، قال منصور، «أنا ما بحلمش أبدًا».

«كلّ الناس بتحلم»، قالت.

منذ ثلاثة أشهر وميليا تستدير بالحمل والنعاس والعطش. ثدياها يكبران، ووجهها يزداد إشراقًا.

سألها لماذا تمشي كلّ يوم وحدها؟ لماذا لا تأتي معه كي يتمشيا في المساء، حين يعود من العمل؟ سألها إذا كانت حزينة لأنّها تعيش بعيدة عن أهلها؟

نظرت إليه ولم تجاوب، ثمّ قالت إنّها تريد أن تعرّف الصبي على المدينة.

«أي صبي»؟ قال منصور. «وبعدين يا ريت، أنا قلبي حاسسني إنّها بنت، أمي بتقول إنّ المرأة الحبلى إذا تحلّت يعني معها بنت، وإنت عم تتحلّي».

«قلت لك صبي يعني صبي»، قالت.

في ذلك اليوم، عندما غطت ثدييها الصغيرين بزنديها، اكتشفت ميليا أنّها ذهبت إلى مكان بعيد لن تعود منه. فضحها ثدياها العاريان،

وسط البركة الصخريَّة داخل البحر. في تلك الليلة جاءها الخروف الصغير. تكرَّر هذا المنام كثيرًا، بحيث لم تعد ميليا قادرة على روايته. تذكره في صحوها كأنَّه حقيقة، وتراه في نومها كزائر شهري. خروف صغير أبيض يتهادى فوق حقل من العشب الأخضر. ميليا تنام تحت شجرة تين كبيرة. عيناها مغمضتان، وجسدها الصغير الأسمر يتَّخذ شكل نصف دائرة. يقترب الخروف الصغير، يقف إلى جانبها، يضع خده على خدها، تتقلّب الفتاة وتستلقي على ظهرها، يتراجع إلى الخلف، ثمّ يركض في اتجاهها، يتسلَّقها، يضع قدميه الأماميتين على صدرها، يحني رأسه كأنَّه يأكل العشب. الفتاة الصغيرة النائمة لا ترى سوى أشعة الشمس. الشمس تخترق الصوف وتنصبّ في عينيها المفتوحتين، يقترب فم الخروف الصغير من عينيها، فتغمضهما. تخاف من أن يعتقد أنَّ عينيها الخضراوين جزء من عشب الحديقة، فيلتهمهما. تغمض عينيها، تحسّ لسان الخروف الصغير على عنقها، وتشمّ رائحة الشمس. خروف الشمس يرتعش، والحرارة تفيض منه. الوجع في أسفل بطنها، والعشب الأخضر حولها، عيناها مغمضتان، والألم يمتدّ من العينين إلى أسفل الظهر. تشدّ عينيها على العتمة، تشدّ اكثر فتستيقظ من النوم. عينان مغمضتان، وميليا تستيقظ من دون أن تجرؤ على فتحهما. الحرارة تلفّها، والدم الساخن يسقط على فخذيها. تنهض، تغسل فخذيها بالماء البارد، تضع فوطة ما بينهما، وتعود إلى النوم.

خروف الشمس، كما سمّته، كان يأتي وحوله هالة زرقاء تشع ضوءًا. يظهر بأشكال مختلفة، مرة يركض فوق جسدها الصغير الذي يصير في حجم حقل لا نهاية له، ومرة يجلس فوق صدرها ويقبّل كتفيها، ومرة يفرس رأسه في عنقها، لكنَّها كانت دائمة الخوف على

عينيها. مع الخروف الصغير كانت، وخلافًا للعادة، تستيقظ حين تغمض عينيها بدلاً من أن تفتحهما.

اختفى الخروف الصغير حين بدأ الجنين يتكوَّر في بطنها، ولن يظهر من جديد إلاَّ في أواخر كانون الأول عام ١٩٤٧، حين ستستمع ميليا إلى صوت الطبيب يطلب منها أن تشدّ، وتدخل في منامها الطويل. يومها سوف يعود الخروف الصغير، وسوف تشعر نحوه بمزيج من الشوق والخوف، وتنسى أنَّ عليها إغماض عينيها كي تحميهما منه، فتحاول فتحهما، قبل أن يغطيهما الصوف الأبيض، راسمًا من حولهما هالات زرقاء.

الرجل النائم إلى جانبها غارق في أنفاسه المتقطِّعة، التي يخترقها صفير يخرج من أعلى الأنف. مسحت عن عينيها آثار رحلة الضباب في السيارة، وحاولت أن تستجمع ذاكرتها.

ميليا لم تكن تعرف هذا الرجل. بلى، يعني، عرفته في وصفه زوجها المقبل. حكاية الغرام التي عاشها منصور مرت إلى جانبها من دون أن تشعر بها. حين روى لها، في الليلة السابقة للعرس، أجزاء من الحكاية، أحسَّت أنَّها أضاعت القصة الوحيدة التي كانت تستحقّ أن تعيشها.

جاء في الليلة السابقة للعرس من دون أن يتوقَّعه أحد. في العادة يختفي العريس في اليوم السابق، ويذهب مع أصدقائه الذكور إلى حفل وداع العزوبية. هكذا يسمُّون حفلة التعريص الأخيرة التي يسمح العريس لنفسه بها قبل أن يدخل قفص الزواج. لكنَّ منصور لم يكن هكذا، لا لأنَّه رجل آدمي، بل لأنَّ لا أصدقاء له في بيروت. ظهر منصور في تلك الليلة الباردة من كانون الأول في منزل آل شاهين كي

يعتذر، لأنَّ أهله ليس في وسعهم المجيء إلى العرس، بسبب الأحداث في فلسطين، وتمنّى على أهل العروس عدم تأجيل الزفاف. موسى كان يجلس في الدار إلى جانب أمه مع الضيف المفاجئ، بينما كانت ميليا تعدّ القهوة في المطبخ. قطّب موسى حاجبيه مفكّرًا، وسكتت الأم. دخلت ميليا بصينية القهوة إلى الصالة الغارقة في الصمت، وضعت الصينيةً على الطاولة أمام الضيف، صبّت الفناجين الأربعة من الركوة، وقالت كأنَّها تتابع جملة بدأتها من قبل: «ما في مشكلة».

«ما في مشكلة»، قال موسى.

«على بركة الله»، قال منصور بصوت مرتعش، ووقف كي يغادر. تثاءبت الأم ووقفت تودعه. «اقعدوا»، قالت ميليا، «خلّي الزلمة يشرب قهوته»، قالت لأمها وهي تشدّها من ذراعها وتجلسها على الكنباية.

جلس منصور على طرف الكنباية كأنَّه يستعد للنهوض في أيّ لحظة، وشرب شفة من فنجان القهوة، بينما جلست ميليا قبالته، تنظر إليه، كأنَّها تنتظر منه أن يروي حكاية.

«بتعرفي»، قال منصور.

«بعرف»، جاوبت ميليا، «الأحوال مش ولا بد».

«مش قصدي»، قال منصور.

خيّم الصمت الذي لم يقطعه سوى خروج موسى من الصالة. كان قنديل الزيت يرتعش بالضوء وميليا تلبس فستانًا أصفر، وتسند خدها بكفّيها في انتظار الكلام الذي سيقوله الرجل. انسلّت الأم من الصالة، وامتزج الصمت بالصمت.

أرادت أن تقول له إنّه هو أيضًا يخطّط للهرب في اللحظة الأخيرة، لكنّها لم تقل. ارتسم ظلّ ابتسامة حزينة على شفتيها، وأزاحت بيدها أشباح ذكريات تسلّلت إلى عينيها، وجلست للمرة الأولى في غرفة شبه معتمة مع هذا الرجل الذي سيصبح زوجها بعد ساعات قليلة. أحسّت بخوفه، كيف ستقول له إنّها كانت تعرف أنّه سيأتي في هذا المساء ويخبرها أنّ أهله لن يأتوا من الناصرة.

«الطريق مقطوعة، الجيش الإنكليزي قطع الطريق من تلات أيام»، قالت.

ارتعش فنجان القهوة في يد منصور، ورأى ما يشبه الأشباح الهائمة فوق أشجار الزنزلخت. لم يسألها كيف عرفت عن أحداث فلسطين، ولا كيف سمعته يقول عن عدم قدرة أهله على المجيء، وضع فنجان القهوة على السكملة، التي حُفر على أطرافها كتابات بالخط الكوفي حاول أن يقرأها فلم يستطع.

«شو مكتوب هون»، سأل.

«شو بعرّفني، لازم تسأل موسى، بفتكر هيدا شعر، موسى قال إنّه واحد صاحبه جابها هدية من الشام».

حملق منصور في الطاولة، حاول أن يقرأ، «لا هيدا مش شعر، هيدا آيات من القرآن».

فرك يديه كي يقاوم البرد. نهضت ميليا ووضعت قطعة من الحطب في الصوبيا، وجلست من جديد. سرى الدفء في المكان، وعاد الكلام إلى حنجرة منصور، أزال ارتباكه بحركة من يده، معتقدًا أنّ الفتاة لم تلاحظ خوفه، أمسك يدها، قبّل الخاتم الفيروزي في إصبعها، تنحنح وقال:

«لاعبتُ بالخاتم انسانةً
كمثلِ بدرٍ في الدُجى الناجمِ
وكلّما حاولتُ أخذي له
من البنانِ المترفِ الناعمِ
ألقتهُ في فيها فقلتُ انظروا
قد اخفتِ الخاتمَ في الخاتمِ»
وروى حكاية حبِّه.

كان ليل، والأشجار تتّكئ على الأشجار، ورياح كانون تبلل النوافذ بالمطر. رجل في السابعة والثلاثين يجلس في القاعة التي يسمّيها آل شاهين الدار، ويفرك يديه استعدادًا للكلام. حيطان عالية، وسقف خشبيّ بنيّ اللون، في الركن صوبيا يشتعل فيها الدفء، وأربع كنبايات زرقاء مضلّعة بخطوط سوداء، وامرأة في الرابعة والعشرين تشعّ باللون الأصفر، وبياض بشرتها الحليبي ينتشر على أصابعها الطويلة. الرجل ينظر إلى الأرض ويتخيَّل الزندين الأبيضين العاريين. يتابع من طرف عينيه حركة اللهب في قنديل الكاز المعلَّق في السقف، ويروي بصوت منخفض. الناظر إليه في جلسته على الكنباية، وهو منحنٍ قليلاً إلى الأمام، لن يلاحظ الكرش الصغير الذي يتدلَّى فوق حزامه الجلدي، لكنَّه سوف يرى كتفيه المنحنيتين، وعينيه المغطاتين بحاجبين كثيفين أسودين، ووجهه المستدير الأسمر، وشاربيه الأسودين.

عندما رأته ميليا للمرة الأولى اعتقدت أنَّها ترى شقيقها موسى. وهذا ما دفعها للقبول به زوجًا، أو هذا ما ستقوله لشقيقها. أما الحقيقة فمختلفة. منصور يشبه موسى من البعيد، أو في العتمة، أو

تحت القنديل الشاحب. أما في ضوء النهار، فإنَّ الفرق بين الرجلين يصير واضحًا وجليّاً. ملامح موسى أكثر دقة ونعومة. صحيح أنَّ حاجبيه كثيفان، لكنَّهما لا يتهدلان على العينين، ولا يحجبان رموش موسى التي مرت فوقها أصابع ميليا عشرات المرات. قامة موسى مربوعة لكنَّ جسده رياضي ولا أثر للتكرش على بطنه. عضلات ذراعيه بارزة، بينما هناك تهدّل في ذراعي منصور وانحناءة خفيفة في كتفيه، وهي انحناءة لن يلحظها أحد الآن، لكنَّها سوف تكون علامة حياته الأخيرة، حين سيشار إليه في وصفه الرجل المقوَّس الكتفين. وجه موسى مستدير على استطالة في الحنك، وأنفه كبير لكنَّه يعاني التواء خفيفًا إلى اليمين، كأنَّ عظمة الأنف مكسورة ونافرة في مكان الالتواء وعنقه طويل. أما وجه منصور فمدوَّر وأنفه كبير ومتناسق مع شفتيه. وحدهما الشاربان الأسودان الكثيفان، يتطابقان في شكل مذهل.

من يرى الرجلين يعتقدهما شقيقين، ثمّ يكتشف تدريجيّاً أنَّ منصور نسخة مضخّمة عن موسى. نقطتا التشابه كانتا الصوت والقفا. صوت موسى رخيم ويخرج من أسفل الحنجرة، وكذلك صوت منصور، وقفاه أملس كأن لا لحم في أعلى فخذيه، وهذا ما استوقف ميليا عندما برم منصور وغادر الحديقة، فرأت مؤخرته الملساء، وقالت في سرّها إنَّ هذا الرجل هو توأم شقيقها.

لاحظت ميليا نقاط التشابه والاختلاف، ووافقت على الزواج من دون تردُّد.

الأم قالت إنَّ الفتاة تعذَّبت كثيرًا، وآن لها أن تتزوَّج بعد تجربتين فاشلتين.

موسى وافق بعد تردُّد، «الناصرة بعيدة يا أختي، لوين بدّك تروحي»؟ لكنَّه اقتنع بمنصور لأنَّه «رجّال آدمي»، كما قال.

سمعت ميليا ميلانة تأمرها بالخروج من الغرفة، كي تُعالج سعدى. «الشيطان»، قالت الراهبة، «أنا عم شمّ ريحة الشيطان»، والتفتت صوب الصبية التي كانت تمسك بيد أمها، وتحاول تهدئة جسدها المحرور.

دخلت الراهبة إلى الليوان، فعبقت رائحة البخور. كانت تمسك في يدها مبخرة نحاسيَّة صغيرة، تتصاعد منها رائحة نفّاذة مغطاة بغبار أبيض. سدّت الراهبة الباب بجسمها الضخم وهي تبخّر وتتلفّت يمينًا وشمالاً. اقتربت من المريضة ببطء وبدأ صوت تنفُّسها يعلو. إلتفتت إلى ميليا وقالت إنَّه الشيطان.

«اطلعي لبرّا يا بنت».

نظرت إليها ميليا بلا مبالاة ولم تجاوب.

كان الدكتور نقفور قد زار المريضة وفحصها، وقال إنَّها نزلة صدريَّة، ووصف لها الدواء. لكنَّ سعدى رفضت ابتلاع الدواء المرّ. ميليا كانت تجبر أمها على فتح فمها وابتلاع الدواء، لكنَّ المريضة تبصقه وتتقيأ.

«طوّلي بالك علينا يا حاجة، المرا تعبانة»، قالت ميليا.

«بعرف، بعرف، نقولا إجا وخبّرني، ومنشان هيك جيت، بس إنتِ اطلعي لبرا، ما بقدر اشتغل بحضور الشيطان».

«أي شيطان»؟

«إسألي حالك ومناماتك وخطّابك يلّي بيهربوا منك، أحسن لك تتوبي وتجي على الدير».

وقفت ميليا كالمشدوهة، وهي ترى كيف انحنت الراهبة فوق سعدى، ووضعت في فمها قطنة مغموسة بالزيت وأمرتها بابتلاعها.

«ما فيها تبلع»، قالت ميليا.

«إتِ اسكتي واطلعي من هون».

سكتت ميليا لكنّها لم تغادر الغرفة، بقيت إلى جانب أمها كي تشهد كيف ابتلعت المرأة القطنة وهي مغمّضة العينين، وكيف سكن جسمها على إيقاع التمتمات التي كانت تخرج من شفتيّ الراهبة.

هل صحيح أنّ مناماتها من فعل الشيطان؟

قالت الراهبة إنّ الشيطان يتسلّل إلى المرأة لأنّها تمتلك جسداً جميلاً ومكتملاً. «الله خلق المرأة مكتملة، لكنّها اختارت النقصان، أنظروا إلى ستّنا مريم عليها السلام، هل كانت في حاجة إلى رجل كي تكتمل؟ طبعًا لا، اكتملت بالروح القدس، لأنّها مكتملة أصلاً».

«بسّ مش كلّ النسوان مريم العدرا»، قالت ميليا.

«إنتِ يا ميليا مش ملاحظة كيف عم تتبشّعي»؟

«أنا»!

«أيوه إنتِ، يا بنتي ليش ما بتجي عالكنيسة مع أمك حتى نطرد الشيطان منّك»؟

ماذا ستقول؟ هل تقول إنّها تخاف من الكنيسة؟ وإنّها حين تجد نفسها هناك مع جموع المصلّين، تحت الأيقونات البيزنطيّة ووسط

رائحة البخور، تشعر بالخوف، كأنّ الكنيسة مقبرة. الناس تنحني على أيقونات رجال ونساء ماتوا منذ أعوام طويلة، وتتكلّم معها. كأنّ المسافة بين الأحياء والموتى امحت، بحيث يصير الجميع أمواتًا. ميليا كانت تخاف من هذه المساحة المفتوحة على الموت، تذهب إلى الكنيسة في يوم الجمعة العظيمة، وتبكي مع الباكين على المسيح مصلوبًا، أما في بقية أيام السنة فكانت تصلّي وحدها في البيت، وتطلب من اللّه أن يفتح أبواب الحياة المقفلة في وجهها.

لا، الراهبة لا تقول الحقّ. مناماتها ليست من فعل الشيطان. من أين عرفت الراهبة عن مناماتها؟ الحقّ على سعدى. منذ وفاة الأب صارت سعدى مثل خاتم في إصبع الراهبة، تتلاعب به كما تشاء. وانتقلت جميع حكايات العائلة إلى الراهبة من خلال سرّ الاعتراف، وهذه قصة عجيبة لا سابق لها.

لم تكتفِ القديسة ميلانة بالسيطرة على راهبات دير الملاك ميخائيل، بل امتدّ تأثيرها إلى كاهن الدير نفسه، الخوري بولس سابا، الذي سمح لها بأن تقوم بمراسم سرّ الاعتراف. الاتفاق الذي جرى بينهما أنّها كانت تعرّف النساء ثمّ ترسلهن إلى الخوري من أجل نيل المغفرة، وأنّ الخوري نفسه، كان يعترف عند الراهبة، وهذا خارج كلّ التقاليد الدينيّة، لكن أعاجيب الراهبة وقدرتها على شفاء المرضى، سمحت لها بتجاوز الحدود.

عن طريق الاعتراف صارت كلّ قصص عائلة شاهين وأسرارها ملك الحاجة ميلانة. لم تعد ميليا قادرة على تحمّل نظرات الراهبة التي رأت فيها مزيجًا من الشفقة والاحتقار، وفهمت أنّ حكايتها مع نجيب

ووديع انكشفتا، وأنَّ سرَّها صار مرمياً إلى جانب ألوف الاسرار التي يمتلئ بها رأس القديسة.

هدأت الأم وبدأ جسمها يتعرق وانتشر الزيت على قميص نومها.

«هلّق بعد ما روح إفركي جسمها بالسبيرتو، خلص المرا طابت».

غادرت الراهبة، توقفت أمام الباب ونادت ميليا بصوتها الرفيع.

«نعم»، قالت ميليا.

وضعت الراهبة يدها على كتف الفتاة وانحنت ووشوشتها، وقالت لها أن لا تخاف، «العريس رح يجي، وأنا شايفي قدّامي سفر، بس إنتِ لازم تروقي وتصلّي حتى الله ينجّيكِ من الأعظم، إنسي نجيب، وهيداك التاني يللي ما بعرف شو إسمه، العريس رح يجي عن قريب، ما تخافي، بسّ أهم شي وقّفي قصة هالمنامات. المؤمن يا بنتي ما بيحلم، وإذا حلم ما بيتذكّر، وإذا تذكّر ما بخبّر. الليل هو رحلة العتمة وتمرين على الموت. وحدهم الأنبياء والقديسين بيشوفوا رؤيا بالليل، أما الإنسان العادي فبيغرق بالعتمة وقت ينام. اللّه سبحانه وتعالى خَلق النوم منشان تمرين الإنسان على الموت. عالم الليل وعالم النهار ما بيلتقوا، الله نور والشيطان عتمة، لازم يا بنتي تنسي مناماتك وأنا أكيدة أنَّ ربنا رح يفتحها بوجهك».

«بسّ أنا»...

لم تسمح لها بإكمال جملتها، سعلت بصوت مرتفع، وقالت إنَّ المنامات هي وسيلة الشيطان كي يوقع الإنسان في الخطيئة. «بعدين خلص إنت كذابة، ما حدا بيقدر يتذكر مناماته كلّها، كلّ يوم على وجه الصبح بتصير أمك ترجف من الخوف وهي عم تتسمّع على مناماتك، منشان هيك صارت تهشل من البيت وتجي على الدير. حرام، شو ذنب

أمك، الحقّ على خيّك سليم هي ما دخلها بقصة نجيب، خلص يا ميليا إنتِ متل بنتي، أنا سحبتك من بطن أمك، وحملتك لفوق حتى تكوني قريبة من الله، خلص وقّفي هالحركات».

مضت الراهبة من دون أن تستمع إلى جواب ميليا. كانت الفتاة تريد أن تقول إنَّه مش صحيح، وأنَّها لا تروي مناماتها لأمّها كلّ يوم، وأنَّ مناماتها ملكها، وليست إيحاءات من الشيطان، وإلا ما زبطت. أخبرت أمّها عن منام نجيب لأنَّها شعرت بالقهر والذلّ وارادت أن توحي أنَّها لا تهتمّ. الراهبة مضت، وميليا تقف عارية في كلمات الراهبة. اكتشفت فجأةً أنَّ قصصها لم تعد ملكها، وأنَّ أمها أعطت الحكاية كلّها للراهبة.

كان ليل، والأشجار تستند إلى عتمة الأشجار، والمطر يقرع سطوح البيوت بحباله. فتحت ميليا عينيها ومسحت المنام عن أهدابها لتجد نفسها في الماء. السقف في الليوان يدلف، وقشعريرة البرد تنتشر على ذراعيها. لكنَّها بدل أن تنهض، وتبدأ في رفع البسط عن الأرض، ووضع الأوعية تحت ثقوب السقف التي يتسرّب منها المطر، أغمضت عينيها من جديد، لأنَّها لم تصدّق عينيها، وعاد إليها المنام مثلما رأته منذ دقائق. رأت نفسها فتاة صغيرة سمراء، تجلس على حافة صخرية أمام وادٍ عميق، وخلفها مبنى أبيض كأنَّه كنيسة. كانت وحيدة ولا تعرف أين هي، تستمع إلى وشوشات الوادي وأصوات الأعشاب البريَّة. اقتربت منها امرأة تغطّي شعرها بملاءة زرقاء، وتلبس ثوبًا طويلاً أزرق.

المرأة الزرقاء التي أتت من لا مكان، تحمل بين ذراعيها طفلاً رضيعًا ملفوفًا بقماشة بيضاء تشبه الكفن، وضعت الطفل بين يديّ ميليا واختفت. ميليا وحدها، تحمل طفلاً صغيرًا أسمر يتنفَّس بعمق. بدأت أنفاس الطفل تتسلَّل إلى عنقها. رفعته كي تضمَّه إلى صدرها،

فرأت عينين كبيرتين تحتلان وجهه المدوّر، ورأت نفسها تدخل في ظلال البؤبؤين، وتصير في مكان شاهق. نظر إليها الطفل وأخذها إلى عينيه، حيث حاصرها الماء من كلّ جانب. حاولت أن تخرج من ماء العينين، مدّت يديها فشعرت بالغرق. فتحت عينيها فرأت المطر يتساقط في الليوان، وأحسَّت بالبرد في ذراعيها، أغمضت عينيها وغاصت في عينيّ الطفل الأسمر. لم يسبق لميليا أن رأت عينين تشبهان هاتين العينين. أبيضان كبيران يسبح في مائهما بؤبؤان أسودان. مرآة سوداء داخل مرآة بيضاء. أخذها الطفل إلى عينيه، ولم تكن الفتاة الصغيرة قادرة على مقاومة جاذبية الدموع المتلألئة حول البؤبؤين الأسودين الكبيرين.

عندما نهضت على صيحات أمها تدعوها إلى وضع الأوعية تحت ثقوب السقف، كانت ميليا ترتجف بالانفعال. العرق البارد يغطي ثدييها وفخذيها، والشوق يعصف بها. أحسَّت شوقًا لا مثيل له، لا لم يكن يشبه شوقها إلى نجيب، أو إلى ذلك الرجل الآخر الذي يُدعى وديع، أو إلى الطبيب الذي عالجها حين انكسرت ساقها. الرجال الثلاثة كانوا جزءًا من اللسان والأنف والذاكرة. الحب بالحكي أو الحب بالرائحة أو الحب بالمؤجّل، أما هذا الشوق فهو شوق القلب.

رأته ثلاث مرات في ليلة ماطرة، وفهمت أنَّ عليها أن تذهب إليه.

حكاية الطبيب الأرمني أرهقت مراهقتها. فتاة في السادسة عشرة، تكسر ساقها اليمنى بعد سقوطها من الأرجوحة المعلَّقة في شجرة التين، لتجد نفسها بين أيدي طبيبين أرمنيين في برج حمّود. زافين هوفنانيان وشقيقه هاروت لم يكونا طبيبين، بل كانا مجبّرين عربيين مثلما يُدعى الطب الشعبي القائم على الخبرة المتوارثة. هناك،

في بيت معتم مقفل النوافذ والستائر، شمّت ميليا رائحة غريبة، ولم تستطع أن تفهم أحاسيسها الغامضة.

شعرت ميليا أنَّها تغيَّرت كثيرًا، أمسكت حبل الأرجوحة، مدَّت قدميها الطويلتين إلى الأمام، وصعدت إلى الأعلى والهواء يبعثر شعرها الكستنائي، وسقطت. لا تذكر كيف أفلت الحبلان من يديها، ولا كيف وجدت نفسها على الأرض، والألم في ساقها اليمنى. حاولت أن تقف فلم تستطع، كان الألم يصعد من قصبة ساقها إلى عنقها، فسقطت مرة جديدة، وصرخت لموسى. لكنَّ موسى لم يأتِ. وكان عليها أن تحاول النهوض وحدها، وأن تقفز على قدمها اليسرى كي تصل إلى الدرجات الأربع التي تصعد من الحديقة إلى المطبخ، وتتسلّقها جالسة مستندة إلى قدمها ويديها.

حين طارت بها الأرجوحة لاحظت ميليا كيف تغيَّر كلّ شيء. بين يوم البحر حين أخفت ثدييها الصغيرين عن أعين الصبيان وحلمت بالخروف الصغير، ويوم الأرجوحة، مرت أربع سنوات. لم تلاحظ ميليا كيف استطال جسمها المستدير، واتَّخذ حنكها شكله متحرِّرًا من استدارة الوجه، وصارت ساقاها طويلتين ورفيعتين، وامتلأ ردفاها باستدارة صغيرة، وكبرت عيناها، وامتدّ عنقها.

على الأرجوحة، وبينما تمدّ قدميها وتشد يديها كي تطير إلى الأعلى، صارت امرأة. رأت شعرها الكستنائي يتلوَّن بالشمس، وبياضها يرتطم بالأوراق السميكة الخضراء التي تنتشر فوق أغصان شجرة التين. الفتاة السمينة التي كان يسخر منها أخوتها الصبيان، لأنَّها مستديرة مثل طابة، صارت ممشوقة القدّ، جميلة القوام، ممتلئة من دون سمنة، عيناها واسعتان وعسليتان، وفوق هامتها يتطاير شعر

كستنائي تتشكّل فيه مجموعات من التموُّجات اللونيَّة التي يمتزج فيها الأسود والأحمر والأشقر. لم تقل لفتاة المنام السمراء أنَّها صارت اليوم جميلة، لأنَّها لا تريد أن تتخلَّى عنها. فتاة المنام التي كانت تظهر وتختفي ساعة تشاء، كانت أكثر حرية من الفتاة المستديرة التي برز نهداها في ملح البحر، وتحت أعين الصبيان النهمة. فتاة المنام ذات ساقين رفيعتين، وجسد دقيق مطواع، كأنَّه جسم بهلوان، يسمح لها بأن تدّعي بأنَّها لا تختلف عن الصبيان، تذهب إلى حيث تريد، تظهر وتختفي، وترى الدنيا بعينين يمتزج فيهما الأخضر بالرمادي.

عندما سقطت ميليا من الأرجوحة، ضربتها المفاجأة وهي تكتشف أنَّها خلعت صورة الماضي التي جعلتها تكره نفسها، وترفض الوقوف أمام المرآة، وتنفر من البثور الصغيرة في خديها.

رأت نفسها على الأرجوحة وكأنَّها تنظر في مرايا الماء، صارت أوراق الأشجار التي تطير من حولها مرايا مائيَّة خضراء تعكس صورًا لا عدد لها لفتاة جميلة رمت رداء الطفولة، وخرجت من ليل جسدها القديم لتلتصق بجسدها الجديد وتصيره.

هل سقطت عن الأرجوحة لأنَّها نسيت نفسها وهي تنظر إلى صورتها الجديدة؟ أم لأنَّها أغمضت عينيها من أجل أن تقارن بين الصورة التي كانتها، وبين صورتها الممتدة على ساقين بيضاوين، يعريهما الهواء مع صعود الأرجوحة وهبوطها؟ أم لأنَّها مدَّت جذعها إلى الأمام من أجل إيقاف الأرجوحة، تمهيدًا للدخول إلى البيت والوقوف أمام المرآة كي تتأمَّل نفسها؟

طارت ميليا وتغيَّر فيها كلّ شيء. هكذا سوف تتذكّر نفسها ابتداءً من الآن. سوف تقول إنَّها صارت امرأة في الأرجوحة.

أمها قالت لها عن الخروف. لا.. الأم لم تعرف بمنام الخروف، لكنَّها رأت آثار الدم على فخذي ابنتها القصيرتين المدعبلتين. أمها قالت لها إنَّها صارت امرأة، وإنَّ عليها الاستعداد للزواج والأمومة. لكنَّ ميليا لم ترَ نفسها إلاَّ كتلة من اللحم والعظم يخترقها جرح مفتوح. رأت نفسها أمام جرحها الشهري الذي سوف يرافقها طوال حياتها، وأحسَّت بالخجل.

«وإخوتي الصبيان بيصير معهم هيك»؟ سألت أمها.

رأت كيف ارتسم التعجُّب على عينيّ الأم، ففهمت أنَّه جرحها وحدها. فتاة وحيدة بين أربعة صبيان، تعيش ما سمّته القديسة ميلانة الدنس الشهري. تتنفخ وتستمع إلى مزاح أشقائها الذين يصفونها بالطبلة والناصحة. وحده موسى كان يدافع عنها. قال لها إنَّها جميلة عندما بكت في الحديقة، بعد حفلة اضطهاد قادها سليم، واصفًا إيَّاها بالطبلة. اقترب منها موسى وأمسكها من يدها، وقال لها أن لا تبالي بكلام سليم، لأنَّها أجمل فتاة في العالم، فلم تصدّقه، لكنَّها قبّلته بين عينيه وابتسمت له.

كانت تشعر بالدم قبل أن يأتي، يهبّ فيها الغضب والتوتر، ويبدأ الخروف الصغير في زيارتها كلّ ليلة في مناماتها، لكنَّه لا يقفز على صدرها إلاَّ في اليوم الأخير، حين يشتدّ الوجع في خاصرتها اليسرى، ويمتدّ إلى ساقيها، معلنًا أنَّ ساعة خروج شيطان التوتر قد أتت.

في ذلك اليوم، حين سقطت ميليا عن الأرجوحة، وكسرت قدمها اليمنى، اكتشفت أنَّها لم تعد تلك الميليا المدوّرة التي تكره النظر إلى نفسها في المرآة.

جلست بين الطبيبين، زافين يمسك بقدمها اليمنى ويمسّدها بالزيت الساخن، وهاروت يقف خلفها ممسكًا بكتفيها. سألها زافين كيف سقطت، فلم تعرف أن تجاوب. هل دندلت قدميها صوب الأرض، وقرّبت جذعها كي توقف الأرجوحة، فتعثّرت، وقذفتها الأرجوحة المندفعة إلى الأمام، فسقطت على الألم؟ أم سقطت عندما كانت في الأعلى، وبعدما أفلتت يديها عن الحبلين، مثلما كانت تفعل في الكثير من الأحيان، فلم تجد نفسها إلاّ وقد هوت إلى اليمين، وسقط ثقل جسمها كلّه على قدمها اليمنى؟

حاولت أن تتذكر، لكنّ يد الدكتور زافين المليئة بالزيت سحبت روحها إلى الأسفل، وجعلتها تشعر أنّ كلّ شيء فيها يزحط، تلتقط الوجع، وتعلو به إلى الكتفين، حيث كانت يدا الطبيب الآخر تمسّد كتفيها.

أين أمها؟ وأين موسى؟

شمّت تلك الرائحة الغريبة، رائحة تتصاعد من حولها وتلفّ الوجع الذي يخرج من عظامها. ما اسم تلك الرائحة؟ ولماذا كلّما تذكرتها أحسّت بمزيج غامض من الرغبة الخرساء والتقزز؟

في ذلك اليوم، أخذوا الفتاة إلى برج حمّود، وهناك عاشت شيئًا لم تستطع أن ترويه لأحد، لكنّه رافقها في مناماتها. كان يأتي على شكل صور غامضة ملفوفة ببخار يتصاعد من إناء موضوع إلى جانبها، يجعلها تشعر بالدوار. وحده شقيقها نقولا، لمح الخوف وأشباحه في عينيّ شقيقته، فرافقها في مشوارها الثالث والأخير إلى الطبيبين، وكسر الرائحة التي عبقت في أنف الفتاة، والتي لن تستطيع أن تتخلص من آثارها. حتى ليلة عرسها، والبرد والضباب يلفان السيارة الأميركيّة التي تصعد مرتفع ضهر

البيدر، ومنصور يجلس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق، وجسمه يرتجّ بالصقيع، فتحت نافذة السيارة، وسمعت صراخ السائق.

«سكّري الشبّاك»، صرخ السائق.

«الريحة»، قالت.

«بلا ريحة بلا بطيخ، سكّري الشبّاك رح نموت من البرد».

«ريحة البسطرما»، قالت، وهي تُغلق النافذة.

«شامم ريحة بسطرما يا عريس»؟ سأل السائق، وهو يضحك.

لم تسمع ميليا جواب زوجها، رأت نفسها تزحف على الدرج، وحين وصلت إلى باب المطبخ صرخت لأخيها موسى. في تلك اللحظة برزت الأم من خلف طنجرة كبيرة تغلي فوق بابور الكاز. ركضت الأم صوب ابنتها الجالسة على الدرج، وشاهدت من خلال عتمة المطبخ الدم النازف على الركبة. نادت موسى طالبة منه أن يركض إلى الدير ويطلب من الراهبة أن تأتي.

«لشو الراهبة يا أمي»؟

انحنت سعدى على الجرح، ومسحته بمنديل مبلل بالماء، تحسّست الساق المكسورة بيدها، فصرخت ميليا من الألم.

«دخيلك يا الله»، تمتمت الأم، تراجعت إلى الوراء، وطلبت من ابنتها أن تقف. حاولت ميليا الوقوف لكنّها لم تستطع. كانت أسياخ الألم تصعد من قصبة ساقها إلى عينيها. انهمرت دموعها وهي تتّكئ على الحائط، وجلست من جديد، وقالت بصوت متقطّع إنّها لا تستطيع. وصلت الراهبة حاملة مبخرتها المعدنية. انحنت القديسة على ساق

الفتاة، جسّته بأصابعها القصيرة الثخينة، «هيدا كسر»، قالت. «قومي خديها عند الأرمني»، وبرمت ظهرها كي تغادر.

لحقت بها سعدى من أجل أن تسألها عن عنوان الطبيب. ثمّ طلبت من موسى مساعدتها على إيقاف شقيقته على قدمها اليسرى. وقفت ميليا بين أمها وشقيقها، اتّكأت على كتف أخيها الصغير، ومضوا بها إلى سيارة التاكسي التي أوصلتهم إلى منزل منعزل في أحد أزقة برج حمود. إستقبلتهم امرأة قصيرة القامة، تتحدر على وجهها إحدى خصلات شعرها البني، الذي يتخلّله الشيب، وطلبت منهم الانتظار.

في الغرفة شمّت ميليا رائحة غريبة. سوف تقول إنّها لم تستوعب ماذا جرى، لأنّها كانت تتألم. وسوف تقول إنّها اكتشفت، في زيارتها الثانية للعيادة، كيف اكتسحها شعور غريب بتموجات غامضة تجتاح كتفيها وصدرها. كانت رائحة لحم مطبوخ مليء بالبهار تمتزج برائحة تخرج من جسدي الرجلين. الأول الطويل العريض المنكبين، يجلس عند قدمها، يتحسّس باطن القدم، يصعد إلى الركبة، ويمسك الصابونة في يده. شعرت ميليا أنّ الزغب في أعلى فخذها يتموّج كأنّه يستيقظ من سبات عميق، وينتظر يدًا لا تأتي. بينما وقف شقيقه القصير خلفها، ممسكًا كتفيها، وطالبًا منها أن تتنفّس بعمق.

الأم وموسى خرجا من الغرفة بإشارة من حاجبي الطبيب الأول، وجلسا في غرفة الصالة المعتمة، التي يوشحها نور النهار المتسرّب من نافذة خشبيّة مضلّعة ومغلقة. ميليا في الغرفة الثانية بين أربع أيدٍ وروائح غريبة. لن تفهم معنى تلك الرائحة إلاّ حين أحبّت نجيب كرم. أحبّت كلامه وضحكته المجلجلة وسخريته من كلّ شيء. شمّت تلك

الرائحة من جديد عندما كانت مع نجيب في الحديقة، وضربها الألم في قدمها اليمنى. اقترب منها، وكان المساء ينشر ظلاله، وأصوات كائنات الليل تملأ الفضاء، والخفافيش العمياء ترتطم بالأشجار، وتحوم فوق شجرة الفتنة التي تتوسط الحديقة. كان نجيب يخبرها نكاتٍ وكانت تضحك، قال إنَّه سيكلِّم شقيقها سليم.

«الأسبوع الجايي»، قال.

«شو يعني»؟ سألت.

«يعني بتصيري خطيبتي، وبعدين منتزوج».

«إتزوجك إنت»!

«طبعًا أنا، ليش مش عاجبك».

«مبلى، بس»...

«بس شو»؟

«بس يمكن سليم ما يقبل».

«سليم صاحبي، وأكيد رح يقبل».

«يعني شو»؟

«يعني أنَّه، أنا بحبك»، قال، واقترب منها. مدّ يديه، أمسك بها من خصرها، واقترب أكثر. في تلك اللحظة، وبينما كانت ميليا بين ذراعي نجيب، صعدت الرائحة إلى أنفها، وشعرت أنَّ ساقها اليمنى أصيبت بالشلل. تراجعت إلى الوراء كي تتَّكئ على جذع شجرة الزنزلخت، فالتصق بها نجيب وشدَّها إليه. «آخ»، همست صارخة، لكنَّ الآخ لم توقف نجيب، بل جعلته أكثر تصميمًا، كأنَّ شيئًا اشتعل في

داخله. شدَّ الفتاة إليه، ووضع شفتيه على عنقها الأبيض الطويل. انشلّت حركة ميليا، لأنَّ الرائحة امتزجت بالوجع، ولأنَّها شعرت بالدوار، ولأنَّ الشاب الذي عبطها بدأ يرتجّ، كأنَّ حمّى ضربته، تراجع إلى الخلف، حمل الرائحة وركض إلى الحمام.

كانا وحدهما في البيت، الأم في الكنيسة تشترك مع الراهبات في صلاة الغروب، وأشقاؤها الأربعة في الخارج. جاء نجيب، أعدّت له كوبًا من ماء الورد المحلّى بالسكّر، وجلسا في الحديقة. يحكي وتستمع. وقفت كي تذهب من أجل أن تعدّ له القهوة، فاقترب منها وخرجت تلك الرائحة التي أعادت الألم إلى ساقها. وما إن أخذها بين ذراعيه حتى بدأ يرتجف، ثمّ ذهب راكضًا إلى الحمام.

عندما عاد رآها مستندة إلى جذع شجرة الزنزلخت الضخمة، اقترب منها كي يضمّها من جديد، فأشاحت وجهها وقالت «بكفّي هالقد».

«إنت بتحبّيني»؟ سألها.

...

«بتعرفي شو يعني نتزوج»؟

...

«يعني بدّك تتزلطي وتنامي حدّي، وأنا بنام معك».

مدّت يدها كي تغلق فمه، التقط اليد وقبّل راحتها، ثمّ قبّل أصابعها واحدة واحدة، وامتصها بشفتيه، ولحسها بلسانه. هبَّ الحريق في داخل الفتاة، وشعرت أنَّها ستقع. سحبت يدها واستندت إلى

الشجرة، وقالت بصوت مرتجف: «الله يخلّيك روح، لازم تروح، هلّق بترجع أمي من الكنيسة».

«بشلحك تيابك» قال، «بحمّمك أنا وعم نام معك، وإنتِ بتصيري متل السمكة».

عبق المساء برائحة غريبة، وانقطع الهواء، وألقت الرطوبة فوق المدينة غطاءً سميكًا من العتمة والضباب. أحسَّت بالحرّ والبرد في آن واحد، وطلعت رائحة الطبيب الأرمني.

الدوخة التي أصابت رأسها، صاحبها غثيان خفيف، والرغبة التي خرجت من أصابع يديها أصابتها بتصلّب في الكتفين. نجيب يحكي، وميليا تريد أن تهرب. قال وقال وقال، لكنَّها لم تعد تستمع، رأت نفسها تقف في بركة ماء، والحشرات تطنّ في أذنيها، تريد الخروج من الماء اللزج الذي يلتصق بقدميها، لكنَّ كلام نجيب يشلّها في مكانها.

قال عن الرمانتين، وكيف سيقطف من بستانها كلَّ أصناف الفاكهة.

«خلص»، قالت. ورأت نفسها في الحديقة وسط الظلام. كيف حلَّ الظلام بهذه السرعة. كانت الخفافيش تصطدم بالأشجار في طيرانها الأعمى، رفعت يديها كي تحمي رأسها من الكائنات العمياء، ومن برازها الذي يتطاير على الحيطان. أرادت أن تقول له أن يدخل إلى البيت كي يحتمي من العتمة والطنين وخراء الوطاويط، لكنَّها خافت منه، وخافت من نفسها، وخافت من البركة المليئة بالمياه. هربت إلى الداخل وسمعت صوته يسألها إلى أين، لكنَّها لم تجاوب. دخلت إلى البيت، وقبل أن تقفل الباب وراءها قالت له مع السلامة.

«بسّ أنا ما بدّي روح»، قال. «رح أنطر سليم بالجنينة، إنتِ فوتي على البيت إذا بدّك».

اختفت في الداخل، جلست على الصوفا وجسمها يرتعش، والطعم المرّ تحت لسانها يمتزج بالرائحة الغريبة التي فاضت من ساقها المكسورة. أغمضت عينيها فرأته. ضحكته تكشف عن أسنان بيضاء تلتمع في عتمة الليل. الأشجار ترشح ماء، كأنّها تغتسل بالندى الذي التصق بأوراقها. اقترب منها، أمسك يدها وقرّبها من بنطلونه المنتفخ رغبة.

«هون هون، حطّي إيدك هون اللّه يخلّيكي، شايفي، متل العصفور، عمرك مسكتي عصفور بإيديك، عمرك حسيتي فيه عم يرجف».

ارتجف العصفور في يدها، وأحسّت بالماء يتسرّب من البنطلون، ولفّها الدوار، وسقطت في البركة. التفّت خيوط العنكبوت حول صدرها وعنقها. قالت إنّها تختنق، وكانت الراهبة. الراهبة تحمل المبخرة، والغرفة مضاءة بالشموع. أبو سليم شاهين ممدّد على السرير وحوله النساء الباكيات. حملت الراهبة المبخرة النحاسيّة وقرّبتها من وجه ميليا. الجمر يلتهب في المبخرة، وحبّات البخور تذوب. الراهبة تنفخ الجمر وتطلب من ميليا أن تقرّب فمها وتنفخ معها. «مش لازم الجمر ينطفي يا بنتي، لازم تنفخي كلّ الليل، حتى البخور يغطّي الموت. روح الإنسان لازم توصل عند ربنا ملفوفة بالبخور، إنفخي».

نفخت ميليا، تطاير الرماد ودخل في عينيها، مسحتهما بيدها، لكنّ الرماد توغّل عميقًا في بياضهما، ثمّ صار كلّ شيء بلون الرماد. الطفلة الصغيرة تقف أمام الرجل ذي الأسنان البيضاء، تمسك عصفورًا أكبر حجمًا من يدها، والراهبة تأمرها أن تنفخ في الرماد، وأصوات نباح كلاب، وليل.

انتفضت ميليا لترى نفسها جالسة على الصوفا، والعرق يتصبب من ظهرها، أحسَّت قشعريرة برد، وسمعت أمها تقول «إنَّ الراهبة سألت لماذا لم تأتِ إلى صلاة الغروب».

«وين سليم»؟ سألت ميليا.

«ما بعرف، جيت وما لقيت حدا غيرك، الحاجة ميلانة بعتت لك بخور، قال لازم تتبخري كلّ يوم قبل الخطبة».

«أيّ خطبة»؟

«مبارح كنّا عم نحكي عن نجيب، المحامي صاحب خيّك سليم، قال ناوي يخطبك، ما كلنا عارفين إنّه بيحبّك وإنّك بتحبيه»؟

«أنا»!

«إي إنتِ، إنشالله بعده راسك مشغول بوديع صاحب الفرن، هيدا واحد أزعر وانكشفت لعبته، قال كان بدّه حصتك من البيت قبل ما يتزوّجك».

دخلت الأم إلى الليوان، تاركة ميليا وحيدة في الدار. اتّكأت الفتاة على يدها اليمنى ونظرت إلى البعيد. أحسَّت ارتعاشة العصفور في يدها، ورأت الطبيبين الأرمنيين، وشمّت الرائحة من جديد. ذاكرة الطبيبين تأتي ملفوفة بلون أسود، كأنّها مجموعة من الأشباح والظلال. رجل طويل، عريض المنكبين، ينحني على ساقها المكسورة، ويمسّدها بأصابعه الممتلئة. يضع إبهامه المستدير على مكان الوجع، تتأوّه ميليا من الألم، فتشعر بيدين على كتفيها، وبتنمّل في أسفل عنقها، وتسمع صوت الطبيب الطويل يأمرها أن تضع ساقها الثانية على الكرسي. تمدّ ساقها،

فتشعر بدبيب الأصابع. ألم وأصابع ورائحة ورَجلان. يقف الأول خلفها ممسكًا بكتفيها، بينما ينحني الآخر على ساقها. الزيت ينزلق على الساق، وأصابع الرجل الذي يقف خلفها تعلو بها. كأنَّها معلَّقة بين شجرتين، وكأنَّ رائحة أوراق شجرة التين تتداخل بلحمها. أغمضت، وأحسَّت كيف بدأ الوجع ينسحب من بطة قدمها، وكيف ارتفعت محمولة على الأصابع. وجاءت رائحة البهار، كأنَّهم يطبخون، أو كأنَّهم يتنفَّسون البهار. مزيج من الروائح الحارة، جعلت الدموع تتساقط من عينيها. كانت عاجزة عن مسح دموعها، لكنَّ الأصابع امتدَّت إليها والتقطت حبات الدموع، ثمّ مدَّ لها الطبيب المنحني محرمة، تناولتها منه وتمخطت، فانزاح عنها جبل الألم.

«إجري متل الجبل»، قالت لأمها حين سألتها بماذا تشعر، وكرَّرت العبارة نفسها أمام الراهبة وأمام الطبيبين. الراهبة برمت ظهرها وأشارت إلى ضرورة أخذها إلى العيادة، أما الطبيب الطويل فابتسم قبل أن يقول لها إنَّه سيزيح الجبل عن ساقها.

ماذا جرى في الزيارات الثلاث إلى العيادة؟

حين تحاول ميليا استجماع ذاكرتها، تشعر أنَّها في مكان معتَّم. لماذا إذًا؟ لماذا جاء نقولا معها في الزيارة الثالثة مقطَّب الوجه، ودخل إلى الغرفة مع الطبيبين. لم يلمسها الطبيب الأحمر الوجه، الذي وقف خلفها، واكتفى الطبيب العريض المنكبين بأن فكّ الرباط من حول ساقها، ومسح لحم الساق بمنديل مبلل بالزيت ورائحة الزعفران، وطلب منها الوقوف. وقفت ومشت.

«إجري ضعيفة»، قالت.

«المهم أن ما في وجع»، جاوب الطبيب.

«ما في وجع»، قال نقولا.

حين عادت ميليا إلى البيت، ومدَّت ساقها على السرير، جلس موسى إلى جانبها، ومسَّد الساق بيده اليمنى، فشعرت أنَّ أصابعه تطفو بها قليلاً، وأنَّ الرائحة تتلاشى.

لم تصدِّق ميليا حكاية الطبيبين كما روتها أمها سعدى. اجتاحتها الرائحة الغريبة من جديد ورأت نفسها في العتمة. كان ذلك في زيارتها الثانية للطبيبين، بعد أسبوع من وضع الرباط على ساقها. شعرت بفجوة في بطنها، واحسَّت أنَّ سرَّتها تغرق في الماء. رأت سرّتها الصغيرة المضمومة مثل وردة لم تتفتَّح، وقد أحاط بها الماء من كلّ جانب. وكان كلّ شيء فيها يرقّ ويصير مائياً. الطبيب العريض المنكبين يمسِّد الساق، والطبيب القصير النحيل، الذي امتدَّ ظلّه فوقها من الخلف، يمسك بالكتفين وأعلى الظهر. تأوهت، ابتسم الطبيب المنحني، اجتاحتها الآهات، ولم تعد تستطيع، يجب أن تطلق صرخة عالية، لكنَّها أغلقت فمها بيدها، «رخّي حالك»، قال الطبيب المنحني على الساق. «موجوعة»؟ سألها، حرّكت راسها إلى الأسفل كي تقول نعم، وخرج من بين شفتيها ما يشبه الصرخة. وبدلاً من أن تقول، صرخت «دخيلك يا حكيم». وسمعت وقع قدميّ أمها وجلبة شقيقها الصغير موسى، توقف التيار الذي عصف بها، ورأت أمها تقف إلى جانبها.

«شو يا حكيم»؟ سألت الأم.

«خلص»، قال، وهو يلفّ الساق برباط أبيض، «جيبيها بعد تلات أسابيع حتى نفكّ الربطة، الحمدلله على السلامة».

عادت ميليا إلى البيت مع كلمة الحمدالله على السلامة، لتجد نفسها وسط دوامة الروائح، ووسط شعور بأنّها تستند إلى ظلّين متلاصقين، يأتيانها في مناماتها، على شكل رجل واحد برأسين، أحدهما أصلع، والثاني كثيف الشعر، يدخلان إلى غرفة نومها، يضعان أربع إيدٍ على كتفيها وساقيها، فتستفيق والعرق يرشح من كلّ جسمها.

في هذا المنام، ترى ميليا نفسها أصغر من الكفّ التي تمتدّ إلى أعلى ظهرها. تجد نفسها في العتمة، مستلقية على عشب يابس قرب بركة ماء. الأشواك في ظهرها، وتشمّ رائحة حريق بعيد. وفجأة يظهر الرجلان، يقتربان منها، ويتحوّلان رجلاً واحدًا برأسين وعنقين. عنق طويل وعنق قصير، والأيدي تمتدّ إلى الجسد الصغير الناحل النائم على العشب، وشيء من الألم، وأصوات غمغمة. لا يتكلم الرجلان معها، يقتربان، ويبدآن في تدليك أعلى كتفيها، فيجتاحها الألم، وتخرج منها صرخة مكتومة. تفتح عينيها الخضراوين، لتجد نفسها في سريرها، غارقة في الخوف.

كيف تقنع أمها بأنّ الحكاية غير صحيحة، وبأنّه يمكن التشكيك في كلام القديسة ميلانة.

«القديسة لا تكذب»، قالت الأم.

«الحكيم أزعر وزملكّ»، قال نقولا.

لكنّ الليل يقول لها أشياء لا تعرف كيف تضعها في كلمات.

«هذا هو سرّ الحياة»، قالت لمنصور عندما سألها بعد سنوات لماذا تنام حين يمارس معها الجنس.

«ليش ما بتردّي عليّي لمّن بحكيكِ».

«لأنّه ما في كلمات بتقول يللي بدّي قوله».

هكذا فهمت ميليا الكلام، وكانت لا تصاب بالسحر إلاّ حين تستمع إلى منصور ينشد أبيات الشعر التي حفظها. يضع أمامه كأس العرق، يهزّ الكأس بين أصابعه، فتمتلئ أطراف الكأس بوشاح حليبي.

«هيدا هو العرق المزبوط، مقطّر تلات مرّات حتى يصير نقي متل دموع العينين، تطلّعي الحليب على أطراف الكاس كأنّه غطيطة، حب وحليب ودموع».

ينظر إلى عينيّ زوجته، فيراهما وقد توشحتا بزرقة خفيفة تلوّن بياضهما.

«يظلّ يجيء الذي قد مضى

لأنّ الذي سوف يأتي ذَهَبْ».

يشرب منصور شفّة كأنّه يقبّل أطراف الكأس بشفتيه، ويبدأ في الكلام.

«بتحبّي المتنبي»؟

«لعينيكِ ما يلقى الفؤاد وما لقي

وللحبِ ما لم يبقَ مني وما بقي

وما كنتُ ممن يدخل العشق قلبه

ولكن من يبصر جفونك يعشقِ»

تنهمر أبيات الشعر القديم من شفتيه، يمزج الغزل بالخمريات والرثاء بالمدح، ويقول إنّه سيسمّي ابنه البكر عمروًا.

«عمروا مش حلو هالاسم».

«لا يا مرا، عمرو، الواو ما بتتلفظ بس بتنعّم الراء، على اسم الشاعر عمرو بن كلثوم، هيدا كان من سادة بني تغلب، ولولا الإسلام لأكلت تغلب العرب. وهيك بتصيري أم عمرو، وبيصير أقدر أتغزَّل فيكِ متل ما لازم، إسمعي:

يا أم عمروٍ جزاكِ اللهُ مغفرةً
ردّي اليّ فؤادي كالذي كانَ
إنَّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ
قتلننا ثمّ لم يحيينَ قتلانا»

«أنا»!

«طبعًا إنتِ، لكن مين، اشربي».

قرّب كأسه من شفتيها، شربت قليلاً، وشعرت بحاجة إلى السعال، لكنَّها لم تسعل. التفتت إلى منصور وقالت له معاتبة: «أنا، أنا عيوني حول»؟

«لا، لا، حَوَر، الحور يعني الجمال، يعني البياض، يعني أحلى شي بالدنيا، بياض وبقلبه سواد، متل دعد، بتتذكريها، لهفي على دعدٍ، بتتذكري القصيدة».

«الله يخلّيك، ما بحبّ هالحكي».

«ولها هنَّ رابٍ مجسّته
صعبُ المسالكِ حشوهُ وقدُ

فـــاذا طعنتَ طعنت في لُبـــدِ

واذا نـزعـتَ يـكـادُ ينسـدُ»

«بتعرفي شو يعني هنَّ»؟

«بلّشنا»، قالت، «يلله انا بدّي نام».

«الحَوَر يا حبيبتي يعني البياض والجمال».

«بس إنت ما بتفكّر إلاّ بالزعرنة».

«لمّن شفتك تحت شجرة اللوز وحدّك رجال»...

«إنت شفتني»!

«طبعًا شفتك، وكان زهر اللوز عامل متل تاج فوق راسك، كأنَّه شال حرير أبيض، وكنتِ واقفة حدّ زلمي بيشبهني، قرّيت صوبكم، وما قدرت إسمع ولا كلمة، بسّ شفت شفافك كيف كانت عم تتحرّك، قلت عسل، طعمة عسل، وصرت أبلع ريقي وقول بكرا، وسمَّيتك أم عمرو، أمي رح تزعل بدها تسمّي الصبي على إسم بيّي شكري، قلت لها بس يا أمي خيي سمّى ابنه الكبير شكري، قال شو عليه، بيصير عنّا شكريين، شايفي كيف عقلها راكب، ما حبت بيّي إلاّ من بعد ما مات، مش مهم. ما قلت لي حبيتِ أمي؟ هي حبتك كتير وقالت ملاك. قالت لي شوف يا إبني إنت وقعت على ملاك نازل من السما. قلت لها بس هالملاك بيضلّ نايم. ميليا عم تسمعيني، ليش مغمضة عيونك ما نحن قاعدين».

وضعت كفيها على عينيها وأحسَّت أنَّ الكلمات مقفلة، وأنَّها لا تستطيع أن تحكي. الكلمات مثل أزرار تقفل ثوبًا طويلاً يغطّي جسمها، عليها أن تفكّ الأزرار كي تدخل إلى العالم وتتكلَّم لغته، لكنَّها لا تستطيع.

رأت نفسها محاصرة بالأزرار، وجورج الناشف يجلس في دكانه ويتثاءب، والأزرار تتساقط من حوله. ميليا تقف، تحمل زرًا في يدها تمدّه إلى البائع، يتناول جورج الناشف الزر من الفتاة، يفتح الجارور ويُخرج منه كومة من الأزرار يضعها أمامه على الطاولة. يمتلئ الدكان بالألوان والدنيا تمطر ازرارًا. الفتاة الصغيرة تقف وحيدة تحت مطر الأزرار، جورج الناشف يضحك. أيدٍ تمتدّ لتلتقط الألوان، وميليا تحت الأيدي، تشعر بما يشبه الاختناق، تفتح عينيها، فتكتشف أنّ الغطاء قد انزاح عنها، وأنّها ترتجف بردًا. تغطي نفسها وتنام، فترى الدرج الطويل، تسقط فيحملها شقيقها نقولا إلى عيادة الطبيبين، رائحة البهار تخنقها، والزيت الساخن يندلق على قدميها. تفتح عينيها من جديد، فتستمع إلى شخير شقيقها الصغير موسى، الذي ينام إلى جانبها.

لم تعرف ميليا كيف تروي هذا المنام، ولا كيف تعيش معه. استمعت إلى وشوشات أمها مع جاراتها عن وقاحة الرجل، وإصراره على غواية جميع النساء، وكرمه مع الجميلات.

لماذا تأتي الأزرار بحكاية الطبيبين؟

أرادت أن تقول لمنصور إنّ الكلمات مثل الأزرار التي تُقفل ثوبًا طويلاً، وإنّها لا تستطيع فكّها، لذا لا تحكي كما يريدها أن تفعل. حفظت الأشعار التي يرددها زوجها، لكنّها اكتشفت أنّ الأوزان تتكسر بين شفتيها، وأنّها كمن يمشي فوق زجاج مكسور، وأنّ الكلمات تجرح قدميها.

«ليش ما بتحكي»؟ سألها منصور.

كان طعم الدم تحت لسانها، والرائحة تعبق في أنفها، «شو بدّك ياني قول»، نظرت إلى بطنها المستدير وأحسّت أنّها سوف تغفو على الكرسي، فنهضت.

«رايحة تنامي»؟ سألها.

«معليش خلّي كلّ شي مطرحه، أنا بكرا بضبّ، بس هلّق نعسانة كتير».

«لا ما في نوم، كلّ ليلة أنا بسهر وإنتِ بتنامي، بعدين لمن بقرب لحدّك»...

مضت إلى غرفة النوم، لبست قميصها الأزرق الطويل، استلقت على السرير، وأغمضت عينيها على الأزرار.

لاحق شبح الطبيبين الأرمنيين ميليا حتى لحظاتها الأخيرة. لم تدرِ الفتاة ماذا جرى بالضبط، لكنَّ الحكاية كما روتها أمها، انحفرت في ذاكرتها، وأخذت الأمور إلى شكلها الغامض والأليف في آن واحد.

هل جرت الأمور هكذا؟ أم اختلطت في ذاكرة ميليا واتّخذت شكل قصة خرجت من حنجرة الراهبة القديسة التي لعنت الطبيبين، قائلة إنّهما خانا أمانة الطب المقدّسة، وإنّهما لقيا المصير العادل في السجن.

بكت ميليا وأقسمت بجميع القديسين أن لا شيء حدث. الأم صرخت وولولت، وجلس الأشقاء الأربعة حول ميليا في شبه دائرة، وبدأوا في استجوابها. كان موسى خائفًا ومرتبكًا، أما سليم فكان مكفهرًا وعابسًا، وكان وجها نقولا وعبدالله أبيضين بلون الطبشور.

لم تقل ميليا إنَّها لا تذكر شيئًا، لأنَّها تذكر كلّ شيء، لكنَّها لا تعرف ماذا أو كيف تروي.

«ما صار شي»، قالت، وأخبرت عن الطبيب الذي مسّد ساقها، وشقيقه الذي وقف خلفها ممسكًا بكتفيها.

«وبعدين»؟ سألت الأم.

«بعدين ما شي»، قالت ميليا.

كيف تشرح لهم هذه «الما شي»، التي اتَّخذت أشكالاً لا تستطيع تسميتها لأنَّها لا تعرف الكلمات الملائمة.

«المشكلة أنَّ الكلمات غير ملائمة»، قالت لزوجها وسكتت.

لم تستطع أن تقول إنَّها ترى الكلمات مجرد أغطية للأشياء، وإنَّها لا تفهم. حين تستمع إلى الناس تفكّر بأصوات الكلمات وأشكالها، بدلاً من أن تفهم معانيها، كأنَّ الكلام يحجب المعاني.

«طيّب اسمعي»، قال.

لا تعذلِ المشتاق في أشواقهِ
إن لم يكن حشاك في أحشائهِ
إنَّ القتيلَ مضرّجًا بدموعهِ
مثلُ القتيل مضرّجًا بدمائهِ»

سألها منصور إذا أحبَّت الشعر، ولماذا لا تجاوب، فقامت إلى سريرها. أغمضت عينيها، ورأت الطبيبين وقد صارا رجلاً واحدًا برأسين، وكان اللون الأبيض يغطّي كلَّ شيء. البياض يغلّف الرجل ذا

الرأسين، والتأوهات تخرج من بين شفتيّ الفتاة الجالسة تحت أيديهم، والألم يصعد من ساقها إلى عمودها الفقري.

عندما انتهى التحقيق العائلي، جلس موسى إلى جانب شقيقته على الصوفا، وأمسك يدها من دون أن يحكي. انتشر الظلام في الدار، جاءت الأم في العتمة الخفيفة، جلست إلى جانب ابنتها، تمتمت كلمات غير مفهومة، أمرت موسى بمغادرة المكان، وروت الحكاية.

«الحق على الراهبة»، قالت ميليا، «هي يلّي بعتتنا عند الحكيم».

«ما تغلطي يا بنتي، الراهبة نبهتني، ولولاها ما كان راح خيّك نقولا وخلّصك».

«خلّصني»!

«أكيد خلّصك، الموت أحسن من الفضيحة، كنّا انفضحنا».

«بس يا أمي ما عملوا شي، خبّرتك شو صار وما صار شي».

«ما عملوا لأنّهم ما قدروا، يا إلهي هلّق انكشفت القصة وصاروا بالحبس، اللّه ينجّينا، هيدي علامة الآخرة يا بنتي، أنا لولا إنّي مسؤولة عن خمس أولاد، كنت تركت الدنيا ورحت على الدير».

«إنتِ عايشة كلّ الوقت، يعني تقريبًا، بالدير، ما بعرف شو بتعملي هونيك، على كلّ حال».

سكتت ميليا وتمتمت، شو يعني على كلّ حال؟ يعني ما شي، كأنّي ما حكيت مع أمي، وكأنّها ما حكيت معي. القصة يلّي خبرتني ياها عن الحكيم سمعتها وقلت على كلّ حال وقفّيت. الحياة يعني نقفّي وما

نفهم ونحن عاملين حالنا فهمانين، منشان هيك لشو الحكي وكيف بدّي صدّق يللي عم بسمعه.

قالت كيف بدّي صدّق، بصوت مرتفع، فالتفتت إليها الأم وسألتها ماذا قالت.

«ما شي يا أمي، على كلّ حال».

متى جرى هذا الحوار؟

هل جرى بعد انتهاء الاستجواب العائلي، حين جلست سعدى إلى جانب ابنتها على الصوفا، وروت لها حكاية الطبيبين؟ أم جرى بعد تلك المفاجأة التي سقطت على ميليا وسمّمت روحها حين علمت أنَّ نجيب سوف يتزوّج امرأة أخرى؟

«هيك أحسن، أنا كنت عارفة، وعلى كلّ حال لو هو ما تركني كنت أنا تركته»، قالت ودخلت في منامها من جديد. يومها استدعت منامها على عجل، كي ترى العصافير تموت في الحديقة.

رائحة الطبيبين تعبق في أنفها، وتلاحقها إلى هذه المدينة البعيدة. تغمض عينيها فترى أمها تجلس إلى جانبها وتروي لها الحكاية بصوت خافت. سعدى صفراء بلون الستائر المسدلة على النوافذ، والحكاية مجموعة من الصور المتداخلة. فتحت ميليا عينيها وجلست على طرف السرير. منصور في الشرفة، وهي تشعر بغثيان خفيف، ولا تريد أن ترى وجه الرجل الذي يمسّد ساقها والعرق يتصبّب منه، وصوت لهاثه يرتفع.

تقول الحكاية إنَّ ساقها كانت تزحط تحت يدين عاريتين يلعلع شعر أسود كثيف فوقهما. كان الزيت شفافًا كالماء، وكانت حبيبات العرق التي

انتشرت على جبين الطبيب ووجهه وعنقه ترشح رائحة غريبة. أما يد الرجل الآخر، الذي وقف خلفها، فقد تسلقت عنقها وزحفت على خديها.

هل حصل ذلك أم أنّه استوطن ذاكرتها لأنَّ أمّها أخبرتها؟ ماذا أخبرتها؟ وهل صحيح أنَّ الرجلين كانا شبه متزوجين من امرأة واحدة، وأنَّ الشرطة قبضت عليهما لأنّهما كانا يعطيان مرضاهما من النساء عقاقير منومة ثمّ يقومان بمضاجعتهن؟ شو هالحكي؟

الحكاية التي علقت في ذاكرة ميليا ليست واضحة. قيل إن الطبيبين عاشا في بيت واحد مع تلك المرأة. القصير الأهبل لم يكن طبيبًا، بل كان مساعدًا لشقيقه الطويل الممتلئ الجسم. قيل إنَّ الطبيب الحقيقي درس في جامعة القديس يوسف، واختصّ في جراحة العظام، لكنّه رفض اتباع أساليب الطب الإفرنجيّة التي تعلّمها في الجامعة، ولجأ إلى الطب التقليدي. كان يعالج مرضاه بزيت الزيتون إضافة إلى زيوت مختلفة يستخرجها بنفسه من الأعشاب البريّة. كما كان يرفض استخدام الجص من أجل تضميد الكسور. يعالج الكسر بيديه وبالزيت، يربطه بقماشة سميكة، ويقول إنَّ هذا أفضل لأنَّ الجفصين يجعل الجلد يتآكل ويدوّد. وصار أشهر طبيب عظام في بيروت، أو هذا ما اعتقدته الراهبة ميلانة، ولم يتساءل أحد حول عزوبيّته المزمنة، أو علاقته بزوجة أخيه إلى أن ألقي القبض على الشقيقين على أثر حادثة السيّدة مرتا، زوجة الخواجة نزيه شامات.

تقول الحكاية إنَّ السيدة مرتا، زارت عيادة الطبيبين من أجل معالجة كسر في كتفها، وهناك شعرت بتصرّفات غريبة واكتشفت أنَّ الزهورات التي قدّمتها لها زوجة الطبيب، في غرفة الانتظار، كانت ذات طعم غريب، فارتابت في الأمر. احتالت كي ترمي السائل الساخن في

حوض الزريعة. دخلت إلى الغرفة الصغيرة ذات الروائح النفّاذة حيث يعالج الطبيبان المرضى. جلست على الكرسي وتناومت بين أيدي الطبيبين كي توحي لهما أنَّ المنوّم سرى في جسمها. وعندما بدأ التدليك يتّخذ مسارات مختلفة، صرخت بالفضيحة، وبدأ الناس يتداولون حكايات لا أول لها ولا آخر عن الطبيبين وزوجتهما المشتركة. لم يتساءل أحد عن صحة التهمة التي ألصقتها بهما السيِّدة مرتا. فالسيِّدة امرأة محترمة، وهي زوجة السيد نزيه شامات الذي يملك دكانًا لتجارة الحرير في أحد الشوارع الصغيرة المتفرِّعة من مرفأ بيروت، كما أنَّه أحد وجهاء المدينة، وعضو في المجلس الملّي لطائفة الروم الأرثوذكس. وكلامها لا يرقى إليه الشكّ.

بدأت القصص تنتشر عن المرأة القصيرة التي تُدعى كاتي، ووحشية تعامل زوجها القصير معها، بحيث كان يجبرها على مضاجعة شقيقه الطويل.

«هيدا هو الحرام»، قالت الراهبة.

«حدا سمع القصة من المرا»؟ سأل نقولا.

«الله ينجّينا»، قالت الراهبة.

قال نقولا إنَّ الرجلين هاجرا إلى دمشق هربًا من الأقاويل، بينما أصرَّت سعدى على روايتها بأنَّ الزوجة وشت بالشقيقين وأنَّ مدام مرتا شامات استدعيت كشاهدة. ذهبت كاتي إلى المخفر، وقفت أمام الشرطي المناوب وقالت إنَّهم زوّجوها رجلين، وإنَّها لم تعد تستطيع أن تحتمل هذه الحياة، ومثّلت الجريمة. قالت سعدى إنَّ الجرائم تحتاج إلى تمثيل، وإنَّ المرأة المنبوشة الشعر وقفت ومثّلت كيف ينام معها شقيق زوجها. قالت إنَّ

العملية تتمّ بناء على أوامر الزوج، بل وتحت ناظريه أيضًا، وإنَّه يا لطيف، وإنَّها لم تعد قادرة، وإنَّها تتمنى الموت، وإنَّ زوجها منعها من إنجاب الأطفال: «الطويل منعني، مدري شو عمل يا أفندي، وما عدت أقدر خلِّف، ولا عدت أعرف أنا زوجة مين، ولا عدت أعرف أنا مين، وبعدين بيضربني، وبعدين ما بيضوّوا من بخلهم، أنا ما شفت أبخل من هيك عالم، بس ما يعود في مرضى بالبيت، منغرق بالعتمة، بيضوّوا شمعة واحدة، وبصير متل العميا، كلّ شي أسود، وكلّ شي بيرجف، وببطّل في شي حقيقي». مثّلت المرأة اللون الأسود، أغمضت عينيها، وأعادت أخبار حكاياتها. أبقوها في المخفر لأنَّها قالت إنَّها تخاف من العودة إلى البيت، وذهب الشرطي واعتقل الطبيبين بأمر المدعي العام، وقيل إنَّه أطلق سراحهما بعد تدخل المفوض السامي الفرنسي، وقيل أيضًا إنَّ المرأة مجنونة، وإنَّها تتخيَّل أشياء لا أساس لها، وأن لا أحد يعرف الحقيقة.

«وبعدين»؟ سألت ميليا.

«شو بيعرفني عن بعدين، بعرف أنَّ الله نجّانا يا بنتي، لولا رحمة الله شو كان صار فينا؟ هيدي المرا يللي اسمها كاتي إجت لعندهم لأنَّها كانت مريضة، وبعدين مدري شو شرّبوها، وبعدين تزوّجوها، وبعدين اخترب بيتها».

وقفت سعدى، وضعت منديلها على عينيها مسحت دموعها، ومشت متعثّرة صوب المطبخ. عادت بإبريق الماء، شربت وطلبت من ابنتها أن تشرب.

كاتي تقف أمام الشرطي وتخبر عن الطبيبين. المرأة المنفوشة الشعر تستلقي على الأرض في المخفر، وتمثّل كيف ضاجعها الرجلان.

كـاتي ممدَّدة على كـرسي المرضـى، تبلعط بـين الطبـيـبين كـأنَّهـا سـمكة أُخرجت من الماء. تفتح فمها، تشهق وتدخل في سبات عميق.

قالت ميليا لموسى إنَّ الحكاية ملفَّقة. لم يفقه الصبي الذي كان في الثانية عشرة من عمره شيئًا من المسألة. أمسك يدها وطلب منها أن تأتي معه إلى البحر.

«ليش ما بقى عم تجي معنا على البحر»؟

«إسأل سليم، خيّك قال إنَّ البحر ممنوع لأنِّي بنت».

«أنا كمان بدّي صير بنت حتى ضلّ معك بالبيت وما روح على المدرسة».

ضحكت ميليا من سذاجة شقيقها، «لا يا خيّي، الواحد بيضلّ متل ما بيخلق ما في يصير شي تاني».

«إنتِ بتحبّي تصيري صبي حتى تجي معنا على البحر»؟

«أنا بحب كون صبي مش بس منشان البحر، لا... ما بعرف»، قالت من دون أن تقول شيئًا، «على كلّ حال الدنيا هيك».

عندما أخبرها موسى عن رغبة منصور في الزواج منها، وأنَّ عليها أن تذهب لتعيش معه في مدينته البعيدة، رأت في عينيّ شقيقها ذلك السؤال الذي لا جواب له، لماذا على المرأة أن تتبع الرجل إلى حيث لا تدري، ولماذا الدنيا هيك. والآن بعد تجربتيها مع وديع ونجيب، صارت الأمور اكثر غموضًا، وديع علَّمها أنَّ الرجولة تعني أن يحمل الإنسان وجوهًا متعددة، ونجيب كشف لها مأزق الرجل الذي يبحث عن مكان يحمله. أما المرأة فعليها أن تكون الوجوه والأمكنة وكلّ شيء، أي لا شيء.

«الحقّ على سليم»، قالت الأم.

«لا الحقّ على نجيب»، قال موسى، «نجيب جبان، وبدّه حدا يحمله على طول، لأنّه ما بيقدر يحمل حاله».

«الله يسامحه»، قالت ميليا، وهي ترى أمامها كيف تهاوت العصافير وماتت. سوف تطلق على منامها اسم العصافير العمياء ولن ترويه لأحد.

منذ ذلك اللقاء في الحديقة، حين وقفت مع نجيب تحت شجرة الزنزلخت، شعرت بالخوف من الوطاويط العمياء التي تصطدم برؤوس الأشجار، ويلطّخ برازها الحيطان. ثمّ جاء منام العصافير كي يجعلها أول من يعرف الحقيقة.

تغادر الشرفة وتذهب إلى سريرها تاركةً منصور وحده. سألها لماذا لا تطبخ أكلتها المفضّلة التي صار يحبُّها. هناك في فلسطين، وفي عائلة حوراني ذات الأصول الآتية من جبل العرب، مثلما كان منصور يصرّ على تسمية بلاد حوران، يسمّونها شاكرية، أما في لبنان فيطلقون عليها اسم لبن أمه ورز.

افتخرت ميليا بطبختين، قالت إنّهما الإنجاز الأكبر لمدينة بيروت في الفن المطبخي الشامي: اللبن أمه والكبّة أرنبيّة. شعر منصور عندما أكل الكبّة أرنبيّة أنّه أمام طعام يحتاج إلى تدريب في الذوق، الطحينة المطبوخة بسبعة أنواع من الحمضيات، والبصل المفروم على شكل أجنحة، والحمص الذي يكاد يذوب في السائل الطحيني الذي يتماوج بين اللونين الأبيض والأسمر، وأقراص الكبّة، وقطع اللحم، جعلته

مسحورًا بهذا الطعام الذي حوّلته ميليا إلى احتفالها الأساسي في حياتها النصراوية.

لم يستطع منصور الدخول إلى العالم المسيّج بالأسرار والمنامات الذي عاشت فيه ميليا، منذ لحظة فندق «مسابكي» في شتورة. هناك امتزج المنام بالجنس، واختلطت تداعيات العصافير العمياء برائحة الزنزلخت، مما جعلها حائرة لا تدري كيف يجب أن تتصرّف. فتركت نفسها لنعاس يأخذها إلى مياه عميقة راكدة في أعماقها.

في رحلتها وسط ضباب ضهر البيدر استعادت ميليا مناماتها وعادت إلى نفسها. العودة كانت ملتبسة في البداية، المرأة التي رأتها في منامها الأول، ليلة الزواج، كانت صورة مطابقة لها. فتاة في الرابعة والعشرين ممدّدة على بياض السرير وبياض بشرتها التي ترشح شفافية. قال لها منصور إنّ بياضها شفّاف كالماء، وإنّها مرآة حياته.

«الآن صرت أفهم الشعر العربي وأتذوق جمالياته». قال لها إنّ الشعراء العرب القدامى، الذين عاشوا في الصحراء، لم يتغزلوا إلاّ بالمرأة البيضاء. كأنّ بياض المرأة كان نافذة فتحتها أرواحهم على عوالم الفيء والبرودة والنعاس. «المرأة يجب أن تكون بيضاء ونعسانة ونصف نائمة كي تشبه الواحة. امرأة مغطاة بغموض الأهداب نصف المغمضة، تأخذ الرجل إلى متاهة الحب».

«إنت شاعر»، قالت له.

«أنا أحفظ الشعر ولا أريد أن أكون شاعرًا. يا حبيبتي، عندما تكون ابن هذه اللغة المحمولة على قصائد تمزج الطرب بالحكمة

وتتراقص على العلاقة بين الساكن والمتحرِّك، يكفيك أن تروي الشعر، تتلاعب به كما تشاء، وتسكر على إيقاعاته ساعة تشاء. أما الشعراء المساكين، فيسقطون تحت عبء الشعراء الذين سبقوهم، ولا يعرفون كيفية الخروج من تحت أثقال القصائد التي قيلت قبلهم، فيتهاوون أو يقلِّدون أو ينتحرون. إسمعي حبيبتي إسمعي».

يومها كان منصور يودِّع حبيبته البيروتيَّة للمرة الأخيرة. سوف يذهب إلى عاصمة الجليل، وينهي ترتيب البيت، ثمّ يأتي مع أمه إلى بيروت ويكون العرس.

الأم لم تأتِ بسبب الثورة المشتعلة في فلسطين، ومنصور سوف يتزوَّج من دون أن يحضر زفافه أيّ فرد من عائلته. وحين انفضّ المجلس العائلي الذي انعقد في تلك الليلة العاصفة من شهر كانون الأول، التفت إلى حبيبته وروى لها عن البياض والشعر. أراد أن ينشد القصيدة لكنَّه لم يتذكَّر سوى مطلعها.

«ودِّع هريرة إنَّ الركب مرتحلُ
وهل تطيق وداعًا أيُّها الرجلُ»

«بتعرفي كيف بيكمّل الأعشى القصيدة، والله كأنَّه عم بيحكي عنّك يا ميليا».

«عنّي أنا»!

«تقريبًا، بدي ياكِ تحسّي بالشعر كأنَّه مكتوب عنّك، إسمعي»:

«غرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضها
تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوجلُ

كأن مشيتها من بيت جارتها

مرّ السحابةِ لا ريثٌ ولا عجلٌ».

«إنتِ الوجي الوجلُ يا ميليا، أبيض وخايف، لا مش خايف، كأنّه خايف. البياض والرقبة الطويلة هادي مش تشابيه، هادي صفات، أما المشي الخايف فتشبيه. بيضا وكأنّها خايفة، يعني مش خايفة».

«شو الفرق بين كأنّها وبين الخايفة»، سألت.

«الفرق هو الشعر، هو التشبيه، يعني شي بيخلّيك تفكّر بشي تاني، وإلى آخره».

«ما فهمت»، قالت، «وبعدين شو الفرق بين الوصف والتشبيه»، سألت. «أبيض بعرف، يعني لونه أبيض، هيدا إسم، مش هيك»؟

«لا يا ميليا يا حبيبتي، هادا مش إسم، هادا أفعل تفضيل، بتعرفي والله أنا ما بعرفش ليش بس إقرا الشعر بحس حالي عم طير، الواحد بطير على المعنى، يعني طرب، كيف بدك ياني أكتب شعر»؟

«وهو»، سألت ميليا، «الشاعر شو كان اسمه»؟

«الأعشى»، جاوبها، «كان نص أعمى منشان هيك سمّوه الأعشى».

«أعمى، وشاف جمال المرا»؟

«شاف بقلبه مش بعيونه، وكان ملبّك قدّام المرا، متل ما أنا ملبّك معك».

«قالت هريرة لمّا جئت زائرها

ويلي عليك وويلي منك يا رجلُ».

لم تسأله ميليا لماذا لا يكتب الشعر، لأنَّها كانت خائفة، ولم يكن خوفها تشبيهًا بل صفة. لقد قرَّرت وانتهى الأمر. هي لم تقرِّر، نجيب قرر ومضى مع شقيقها سليم. المنام أخبرها أنَّ مصيرها سوف ينكتب في مدينة بعيدة. وفهمت أنَّ عليها أن تترك بياضها ينساب بين يديّ هذا الرجل الغريب الذي لا تعرف عنه شيئًا سوى أنَّه يشبه شقيقها موسى. رأت ميليا كيف لوَّن سمار بشرة الرجل جسدها وانغرس فيه. وأدركت أنَّ عليها أن تخلع كلماتها مثلما تخلع ثيابها. المرأة تتعرّى حين تحكي، أما الرجل فيلبس حين يتكلَّم. هكذا تخيّلت نفسها في السرير، هو يلبس وهي تشلح، لكنَّها لم تجد الكلمات، فقرَّرت أن لا تحكي وأن لا تخلع ثيابها. لا، لم تقرِّر، أمها طلبت منها أن تطيعه في السرير. أخبرتها أمها أنَّ الرِّجال أنواع، وأنَّ بعضهم، وخصوصًا في هذا الزمن، يطلبون من المرأة أن تتعرَّى في السرير كي تصير مثل العجينة بين يدي الرجل.

«هيك بيحبوا، وإنتِ لازم تعملي متل ما بقلك زوجك».

«وبيي هيك كان يعمل»؟ سألت ميليا.

«شو بدّك ببيِّك الله يرحمه، حرام الواحد يحكي عن الأموات، بس لا، بيِّك ما كان يشلّحني، كان هو يشلح كلّ تيابه، أنا بستحي، يعني كيف بدَّك ياني إشلح والأولاد نايمين بالبيت، بس ما كانت تفرق معه، كان ينزل تحت اللحاف، ويشلح كل شي، ويقلّي متل ما بدّك، خلّيك متل ما بدّك».

«وبعدين»؟

«بكرا بتعرفي لحالك».

شرحت الأم لابنتها أنَّ عليها في السرير أن تشرب لذتها إلى الداخل، وأن لا تسمح لها بأن تعلو بها وتفيض، «كله لازم يكون لجوّا يا بنتي، لأنَّ الرِّجال بيخاف إذا سمع المرا عم تلهت ورا وتطلع معه، هيك صار معي وتعلَّمت، ليش عم خبِّرك؟ هيدي إشيا ما بتتخبَّر، بيِّك الله يرحمه ما كان في متله بس أنا ما عدت أقدر أتحمّل، ولاد خلفنا، وخلص، وصرت حسّ إنِّي ما عدت قادرة، وشميت ريحة الخطيَّة، يمكن أنا ظلمته للمرحوم».

«الحقّ على الراهبة، هي حطّت هالأفكار براسك».

«ما تجيبي سيرة الراهبة، هيدي قدِّيسة، اللَّه يطعمنا بركاتها».

فهمت ميليا الأمور بطريقة مختلفة، رأت العصافير وضربها الصمت. اختفى نجيب من حياتها، وأسدلت ستارة سوداء على حكايته. كان الجميع يوشوشون الخبر معتقدين أنَّها لا تعرف، لكنَّها عرفت كل شيء. رأت الحقيقة مرسومة على عينيّ نجيب حين تساقطت العصافير ميتة من السماء.

لم تتذكر ميليا منام العصافير بسهولة، كان عليها أن تغوص في العتمة كي تجده، وحين وجدته لم تعد قادرة على الكلام في الموضوع.

تعلَّمت ميليا أن تصنِّف مناماتها. فالمنامات عندها تتقسم ثلاثة أنواع:

النوع الأول، هو المنام السطحي. يأتي في الصباح ويلعب دور الدافع إلى اليقظة. وهو منام بسيط مصنوع من تفاصيل الحياة اليوميَّة، ويساعد العينين على البقاء مغمضتين في مواجهة نور الصباح. هذا المنام لم يكن يعني ميليا، إذ كانت تمحوه فور نهوضها من النوم،

توقفه عبر فتح عينيها، وحين يتلاشى تغمضهما من جديد كي تذهب إلى مكان أكثر عمقًا، مستعيدة منامها الحقيقي الذي يختبئ في مكان ما تحت أجفانها.

النوع الثاني، هو المنام المسيّج. تأخذ ميليا هذا المنام معها إلى النوم. تغمض عينيها، يتمّل رأسها، وتبدأ في نسج الحكايات والصور. النوم هو أن يفرش الإنسان وسادة يضع عليها رأسه. وسادة ميليا لم تكن مصنوعة من القطن أو الصوف أو الريش، بل من الحكايات. تضع رأسها على الوسادة الطويلة المستديرة، التي تصلح أن تكون مسندًا للظهر، وتنسج حكاياتها ببطء. ترى صورًا تختار من بينها ما تشاء، وتقوم بتركيب العناصر على ذوقها. نجيب المحامي يصير وديع الفران، ووديع يصير كاهن كنيسة الملاك ميخائيل، والخوري يعشق الراهبة القدّيسة وإلى آخره...

هناك أيضًا ما يجب أن لا تنساه، فمنذ مرض والدتها بدأ الطبيخ يدخل إلى سياج مناماتها. تبدأ في فرم البصل من أجل إعداد اللبن أمه، وفجأة يدخل نقولا وعبدالله. الأول بطربوشه المائل إلى الأمام والثاني بصندله الذي لا يخلعه صيفًا وشتاءً. الشابان يرويان عن زيارة قاما بها إلى منزل ساحر أشوري يدعى الدكتور شيحا، جاء من العراق ويدعو الناس إلى دين جديد يمزج فيه الاسلام بالمسيحيَّة. عبدالله يتحدَّث عن الدين الجديد ونقولا يسخر منه، وأجنحة البصل تتحوَّل عصافير، وميليا تغرق في النوم.

كانت ميليا تعلم أنَّ هذين النوعين من المنامات ليسا الموضوع. لكنَّها لم تكن تتمالك نفسها من تصديقهما في الكثير من الأحيان، وكان هذا يخلق لها المشكلة الصباحية، مشكلة أن يتأقلم جسمها على الحركة

في الهواء وليس في الماء. المنام مثل الماء، كمن يسبح في ماء عينيه، لكنَّها لم تجرؤ على قول ذلك لأحد. كان هذان النوعان من المنامات يتداخلان، منام البداية الذي ينتشر مع أول الخَدَر، يعود ليلتقي منام النهاية الذي يكون مقدّمة اليقظة والباب الذي يقود إلى خلع مياه العتمة والخروج إلى اليابسة. في لحظة الاستيقاظ يتَّصل العالمان مشكّلين عالمًا واحدًا يكتنفه الغموض. منام ما قبل اليقظة يستعيد عناصر من منام البداية فتتداخل الأشياء بحيث لا تعود ميليا قادرة على التمييز بينهما. وعندما تنهض من سريرها تتابع المنامين، وتتصرَّف بشكل لا يفهمه الكثيرون.

ماذا تقول لنجيب؟ هل تقول له إنَّها رأته في منامها يحتضن امرأة سمينة تحت شجرة الزنزلخت، والمرأة تتدلع عليه وتدلق لحمها المكتنز على صدره؟ قال لها نجيب إنَّها مجنونة، وصدَّقت براءته، وقرَّرت التوقُّف عن ربط مناماتها بحياتها إلى أن جاءت العصافير الميتة وفضحت كلّ شيء.

النوع الثالث، هو المنام العميق. هناك رأت العصافير الميتة، وعرفت كلّ شيء عن تلك المرأة التي تزوَّجها نجيب. في النوعين الأولين من المنامات لا ترى ميليا نفسها، كانت ترى الآخرين، وصورتها لا تنعكس على مرآة الليل إلاّ في المنام العميق. المنام الذي لا يطفو، بل عليها الغوص بحثًا عنه، هناك كانت تلتقي الفتاة السمراء ذات العينين الخضراوين، التي تركض في أزقة الليل وتخبّئ المنامات في حفرة العتمة. تعوَّدت ميليا أن لا تروي هذا المنام لأحد، لأنَّه ليس ملكها، إنَّه ملك تلك الفتاة التي تلبسها وتطير بها إلى حنايا الليل، قبل أن يتلاشى كلّ شيء ويصير بددًا.

العصافير احتلَّت المنام العميق، هناك وسط غابة صنوبر تتعالى إلى السماء، رأت ميليا نفسها. كانت الفتاة الصغيرة السمراء تقف تحت شجرة صنوبر شاهقة تظلّل المكان. شمس حارقة، وطعم النحاس يحرق شفتيها ولسانها، وفجأة رأته. كان نجيب يلبس ثياب جندي فرنسي ويركض بين الأشجار، كأنَّه يهرب منها. أشارت له بيديها كي يقف. كان يركض كالأعمى بين جذوع الأشجار ويرتطم بها. وهي تقف، لا تجرؤ على الحركة، شعور بالخوف شلّها وجعلها تلتصق بالأرض. وبدأت أسراب العصافير تملأ الفضاء، وتحجب الشمس. كانت تشبه عصافير الدوري، تطير بسرعة غريبة ويرتطم بعضها بالبعض الآخر، وتتساقط. تطوي أجنحتها وتسقط ميّتة. امتلأت الأرض بالموت. نجيب اختفى، وميليا الصغيرة تقف وحدها تحت شمس تقترب منها غيوم العتمة، والعصافير تموت. انشلَّت قدما الفتاة، ورأت نفسها تفرد ذراعيها وتتهاوى. أرادت أن تصرخ لنجيب كي يأتي لانقاذها، لكنَّ صوتها اختنق في حنجرتها، ونجيب اختفى. ارتعش قلب العصفور الذي طوى جناحيه لكنَّه لم يرتطم بالأرض. الأرض تنشق وتصير مجموعة وديان تبتعد، والعصفور الصغير معلّق في الفراغ.

فتحت ميليا عينيها وشعرت بالعطش. مدَّت يدها إلى كوب الماء الموضوع إلى جانب سريرها، كان الكوب فارغًا، أخذته بين شفتيها وشربت العطش والفراغ. قرَّرت أن تنهض وتجلب ماء، لكنَّها خافت، كانت قدماها شبه مشلولتين، وضعت رأسها على الوسادة وطلبت من النوم أن يأتي. جاء النوم على شكل موجات من الدبيب والتنمّل، ورأت العصافير من جديد. كان نجيب يقف إلى جانبها ممسكًا بيدها، فجأة ترك يدها ودخل في الشجرة. انشقَّ جذع شجرة جميز ضخمة إلى

نصفين وابتلعه، وكانت رائحة القبور تملأ المكان. وقفت الفتاة الصغيرة السمراء حافية والحصى يوجع باطن قدميها. وجاءت العصافير، فردت أجنحتها وطارت قبل أن تتهاوى وتسقط، وميليا تصغر وتصغر وتصير في حجم حبَّة تراب.

فتحت عينيها وسمعت لهاث خوفها وفهمت أنَّها النهاية. عصافير نجيب ماتت وانتهى الأمر. وحين سمعت الخبر من أمها لم تُفاجأ. ارتسمت على عينيها اللوزيتين علامة الراحة، وقالت «مش مهم»، وركضت إلى المطبخ كي تُعّد الكبة النيئة التي كانت غداء العائلة كلّ أحد.

حدث ذلك قبل أن تلتقي منصور بسنة. وكانت سنة صعبة، لأنَّه كان عليها طرد العصافير التي تسلَّلت من منامها العميق إلى منامها السطحي. صارت ترى العصافير في الصباح ولم يكن هناك أشجار. وقبل أن تفرد العصافير أجنحتها استعداداً للموت، تفتح ميليا عينيها وتقفز من السرير وتخرج إلى الحديقة. تضع فمها تحت حنفية الماء في البركة الصغيرة وتشرب وتشرب، مبلّلة صدرها وقميص نومها. كان هذا البلل الصباحي وسيلتها للتطهر من نجاسة الموت، وذاكرة الأشجار واختفاء نجيب.

كيف تخبر هذه الأشياء؟

كيف تخلع مناماتها وتروي الحكاية لمنصور؟

كيف تُفهمه أنَّ على الإنسان أن يخلع كلامه كي يستطيع خلع ثيابه، وأنَّ المنامات لا تُغسَل إلاَّ بالماء؟

حكاية ميليا مع الزواج لها أسماء عديدة. فتاة وحيدة تعيش مع أمها الأرملة وأشقائها الأربعة. الأم أصيبت بذلك المرض الغامض الذي

لا إسم له، وكان على الفتاة أن تتحوَّل إلى سيِّدة البيت وهي في الحادية عشرة. سعدى لم تذهب إلى الطبيب، اكتفت من الطب بالقطن المغمَّس بالزيت الذي كانت تجلبه من كنيسة الملاك ميخائيل. تعود إلى البيت من الكنيسة وتحوِّل القطن إلى ما يشبه أقراص الدواء، وتشرب حبَّة منه بعد كلّ وجبة طعام. بعد وفاة يوسف صارت سعدى أشبه براهبة في البيت. تصلّي على إيقاع جرس الكنيسة، الذي لم يكن يتوقَّف عن القرع، متَّبعًا طقوس صلوات الراهبات التي تحتلّ حيزًا كبيرًا من ساعات النهار. تنهض في الرابعة صباحًا، تصلّي خدمة الساعات، تتناول فطورها وتجلس في سريرها ويلبسها المرض. في الحادية عشرة قبل الظهر تعود إلى الصلاة من جديد، وحين تنتهي تجلس في غرفتها في انتظار صحن الطبيخ الذي تكون ميليا قد أعدَّته. تنام قيلولة بعد الظهر، لتعود إلى الصلاة في الخامسة مساء، حيث تشارك في صلاة الغروب، قبل أن تتناول طعام العشاء وتنصرف إلى صلاة النوم.

طقسها المفضّل كان الغداء، تجلس في غرفتها وتجتاحها رائحة اليخنة التي أعدَّتها ميليا، يتحلَّب فمها بالشهوة، وتنتظر. وحين يأتي الصحن تلتهمه دفعة واحدة. اكتشفت سعدى فضائل طعام ابنتها. فالإبنة تعلَّمت أن تطبخ جميع الأنواع بسرعة قياسيَّة. «لولا بطنك كنتِ صرتِ قدِّيسة»، قالت لها الراهبة. كانت شهيَّة سعدى إلى الصلاة لا تقارن إلاَّ بشهوتها إلى الطعام، وبين هاتين الرغبتين كانت تعيش في الأوجاع التي تتنقّل في أنحاء جسمها. وفي النهاية استقرَّت الأوجاع في القدمين اللتين تورمتا، وصارتا عاجزتين عن حملها. فأنهت حياتها في السرير تصلّي وتأكل. وماتت في أحد أيام تموز عام ١٩٦٠، بعدما التهمت جاطًا كاملاً من طبخة الكبّة أرنبيَّة، أرسلتها لها زوجة ابنها موسى مع حفيدها

الصغير اسكندر. وقف الحفيد مشدوهًا أمام شهيّة جدّته، «رح تموتي يا ستي»، قال لها بعدما أخبرته أنّها ستأتي على الجاط في جلسة واحدة.

«هيك بموت شبعانة»، قالت.

كانت ميليا تعرف أنّ أمها ستموت من الطعام، وكانت تتعامل معها في وصفها كارثة طبيعيّة. أما ذلك المرض اللعين فلم تفهمه ميليا أبدًا، كانت تعتقد أنّ أمها ليست مريضة بل تتمارض، ثم انتهى بها الأمر إلى تصديق كذبتها.

فجأة مات الزوج، وكان في الخامسة والأربعين. أحسّت سعدى بالضياع، مثلما قالت الراهبة. قالت سعدى للراهبة إنّها تكره هذه الأشياء ولا تستطيع أن تحتمل رائحة الرجل التي تلتصق بجسمها حين يقترب منها. فهي، بعد المضاجعة الأسبوعيّة التي لا مهرب منها، تتحمم ثلاث مرات متتالية، وتركبها فكرة الخطيئة وتحسّ بحاجة إلى الاختفاء.

«يا ريت يا ماسور بقدر فوت بالحيط واختفي وهيك بتروح الريحة».

«ريحتك غار وصابون»، أجابت الراهبة، «شو هالحكي يا بنتي».

«بس أنا بعدني عم شمّ الريحة»، قالت سعدى.

«إنت خلقت لتكوني راهبة وعذراء يا سعدى، بس لولا بطنك، أنا ما شفت حدا بيحب بطنه قدّك».

حصل هذا الحوار أو ما يشبهه بعد موت يوسف بسنتين، كانت سعدى تشكو آلامها للراهبة، وتتحدّث عن رائحة الرجل التي لا تزال عالقة بأنفها. تتذكّر يوسف وتبكي، وتقول إنّه شحّرها وشحّر الأولاد.

«شوفي يا حرام الأولاد، شوفي شو عم بيصير فيهم، شغل من الفجر للنجر، ولولا أنّ الله فتحها بوجه إبني نقولا، وصار يعمل توابيت كنّا متنا من الجوع. سليم الكبير لاحق الجزويت، وقال عم يدرس حقوق ورح يصير محامي، وموسى صغير وبالمدرسة، طلع الشغل كلّه من نصيب نقولا وعبدالله، وميليا مدري كيف كأنّه راكبها شيطان، بشهر صارت تطبخ وتنفخ، تركت المدرسة والكتاب ما بينزل من إيدها. بتنضّف البيت وبتغسل وبتطبخ وبتخلص كلّ شي بساعتين زمان. أنا كنت ضلّ كلّ النهار بالمطبخ ويطلع أكلي سايط متل ما كان يقول المرحوم، بس هي غير شكل».

كانتا تأكلان من جاط الباذنجان المحشي المطبوخ بالزيت. لم تستطع سعدى أن لا تأكل مع القدّيسة رغم أنّها تغدّت في البيت. أما الراهبة فلم تتوقف عن الأكل وهي تقول: «هيدا مش طبيخ يا سعدى هيدا تجربة، ما بقى تجيبي من أكلات بنتك، شو هالنكهة كأنّه الواحد، يا ربّي تنجّينا».

منصور سوف يستعيد حكاية النكهة التي تشبه ممارسة الحب. كان قد انتهى من تناول العشاء على سطيحة منزله النصراوي، أراد أن يملأ كأس العرق من جديد عندما خطفت ميليا الكأس من يده وهرولت إلى المطبخ.

«ليش عم تعملي هيك»، صرخ بها.

«بيكفي شرب، هلّق وقت الحلو».

عادت من المطبخ حاملة جاطًا من القطايف المغمّسة بالعسل. حبّات القطايف الصغيرة المقلية على نار خفيفة موشّحة بلون ذهبي،

تأتي محمولة على رائحة السمن الحموي التي تلتمع فوقه حبّات الصنوبر. أخذ منصور لقمة وصرخ: «آخ، شو هالطيّب هيدا». وعندما شرحت له ميليا أنّها صنعت القطايف بمسحوق الصنوبر الممزوج بالسكّر وماء الزهر وماء الورد، أخذ لقمة ثانية مغمض العينين، وخرج منه ما يشبه انين اللذة.

«هيدا مش حلو يا حبيبتي هيدا متل الحب، كأنّي عم نام معك، مش كأنّي عم باكل، شو هيدا»، وغطس في الجاط وأتى عليه كلّه.

«ما بيسوى تاكل هالقدّ، هيدا للدواق»، وشرحت له أنّها اخترعت هذه الحلوى عن طريق الصدفة، كانت تعدّ القطايف عندما اكتشفت أن لا جوز ولا لوز في البيت، فخطرت لها فكرة أن تحشوها بالصنوبر، «الصنوبر ناعم وطعمته ما بتطلع بأول اللسان، منشان تحسّ بالطعمة لازم تنطر، خفت إخوتي ما يحبّوا وخصوصًا نقولا، نقولا فجّ وبيحبّ الإشيا الفجّة، بس موسى، لمّن داق موسى القطايف غمض عينيه وعمل متلك، وبعدين كلهم حبّوا، وخصوصًا الراهبة، هيدي قدّيسة البطون، ما بحياتي شفت حدًا بياكل بطريقتها، كأنّها بتلتذ كلها، بتحسّ أنّ أصابيعها وإيديها عم تاكل معها».

طلبت الراهبة من سعدى أن تتوقف عن جلب طعام ابنتها إلى الدير. لكنّ سعدى كانت تأتي حاملة كيسًا ورقيًا يغطّي الزوادة التي سرقتها من البيت. وكانت الراهبة تغرق في الجاط الذي أعدّته ميليا. ترسم إشارة الصليب، وترندح تراتيل بيزنطيّة مرصّعة بكلمات عن السيدة العذراء.

صار دير الملاك ميخائيل ملجأ سعدى. هناك تتراخى عظامها، وتخرج منها الأوجاع، وتتحرَّر روحها من أثقال الجسد. أما البيت فصار ملعب ميليا، إخوتها الثلاثة الكبار يعاملونها في وصفها امرأة ويمارسون عليها تسلّطهم الرجولي، أما شقيقها الصغير موسى فينظر إليها كأنَّها أمه، وهي سعيدة بالدورين اللذين جعلا منها امرأة وأمّاً وحوَّلاها إلى محور حياة العائلة.

بعد سنتين من موت الأب، وجدت ميليا نفسها خارج المدرسة. موت يوسف قلب حياة العائلة رأسًا على عقب. وحده الابن البكر سليم حافظ على إيقاع حياته، والسبب نقولا وفصاحاته. اعتمر نقولا طربوش والده يوم الوفاة، وقرَّر التوقُّف عن الدراسة، والعمل في الدكان. كان نقولا في السابعة عشرة ولم تكن قد ظهرت عليه علامات النجابة في المدرسة، لكنَّه كان يمشّي حاله. «إذا كان نقولا سيضحّي فأنا أيضًا سأضحّي وأترك المدرسة»، قال عبدالله. ابتسمت الأم ولم تقل شيئًا. جميع أفراد العائلة كانوا يعلمون أنَّ المسألة لا علاقة لها بأيّ تضحية، إذ كان من المقرَّر أن ينزل عبدالله للعمل مع والده في الدكان، لأنَّه لم يكن فالحًا في المدرسة.

لم يدر في بال أحد أنَّ ميليا ستُجبَر على ترك المدرسة، وأنَّ موسى لن يدخل إلى الجامعة من أجل أن يذهب للعمل محاسبًا في فندق «الشاطئ» في طبرية، لأنَّ الدكان لم يعد يكفي العائلة. ميليا لم تكن تملك خيارًا آخر. بعد موت الأب، حوَّل مرض سعدى البيت جحيمًا. انشلَّت ذراع سعدى اليمنى، وانتشر التنمُّل في خدها، وامتدَّت الأوجاع من كتفيها إلى قدميها. كانت كالمذهولة التي يستنزف أنينها كلّ حروف العلّة، التي اقتنعت ميليا بأنَّها حروف الأوجاع التي تصل كلمات

اللغة العربيَّة بعضها بالبعض الآخر، جاعلة من العلّة مصدر القدرة على تكثيف المعاني واختصارها. هكذا علَّمها الأستاذ كميل سمارة، الذي أخذها إلى عوالم الشعر القديم. كان أشيب الشعر، يجلب زوّادته معه إلى مدرسة «زهرة الإحسان»، ويفرش طعامه ظهرًا على طاولة الصف، ويتهادى لسانه بالأدب. كان درسه مثل زورق يتماوج في بحر اللغة. رأى هذا الأستاذ الكهل في ميليا أديبة المستقبل، لأنَّها التلميذة الوحيدة التي كانت تحفظ الأشعار القديمة وتسمّعها من دون تلعثم. تقف وتنشد الشعر، تنحني مع الحركات وتصعد بها إلى الأعلى. قال الأستاذ إنَّ الحركات تشبه مجاذيف القوارب، وإنَّها تقود إلى ثلاثة أصوات: الألف والواو والياء، التي تختزل أوجاع الإنسان: آ/ او/ اي/، وتشكّل مفاصل الكلمات، وتسمح لها بتسمية الأشياء.

كان الأستاذ سمارة حكايتها الأولى مع الحياة بعد وفاة والدها. قالت له إنَّها ستأخذه معها، وضمّت إلى صدرها الدفتر الذي امتلأ بالقصائد. كان ذلك في نهاية السنة المدرسيَّة، والتلميذات يودِّعن الأساتذة والمعلمات، وهن يحملن دفاتر علامات نهاية السنة. سحبت ميليا دفتر الأشعار من الكيس البني الذي كانت تضع فيه كتبها ودفاترها، وضمَّته إلى صدرها بعدما رأت دموع الأستاذ الكهل وهو يودّع تلميذاته لأنَّه سيحيل نفسه على التقاعد.

«هيك بدهم أولادي»، قال الأستاذ. «بدّهم ياني صير متقاعد». كتب كلمة متقاعد على اللوح، وضع زيحًا منحنيًا بعد حرف التاء، وقرأ كأنَّه يقرأ كلمتين منفصلتين: مت / قاعد، «يعني بدّهم ياني موت أنا وقاعد، هل يمكن لأديب أن يتقاعد؟ ومع ذلك يريدونني أن أتقاعد، وبدال ما أقرأ حروف العلّة باللغة رح عيشها بجسمي».

خرجت الدموع من عينيه وسرت همهمة في صفوف التلميذات.

رأت ميليا كيف أحرقت دموعه خديه، وانتشرت حروف العلّة على جسمه وغطّته بالأوجاع.

«رح آخدك معي»، قالت له مودعة. لكنّها لم تكن تدري أنّها سوف تغادر المدرسة، وأنّ أمراض أمها المزمنة سوف ترسم لها حياة أخرى.

دواء الأم كان الراهبة والذهاب إلى دير الملاك ميخائيل حيث يمتزج السرّ بالحقيقة. كانت الراهبة تختصر العالم بكلمة واحدة هي السرّ. العالم الذي وعته الحاجة ميلانة بدأ بالسر الذي أتى بها إلى الدير حين كانت في الخامسة من عمرها. أمها ماتت فوضعها والدها في عهدة الراهبات لأنَّه قرَّر السفر إلى أقربائه في حوران من أجل أن يتزوَّج. «كلّها كم شهر وبرجع»، قال الرجل الذي نسيت الحاجة ميلانة ملامحه، ولم يبقَ منه في ذاكرتها سوى صوته المبحوح، «كلها كم شهر وبرجع وباخد البنت على البيت». لكنّه لم يرجع، وانحلّت ملامحه في البخور.

«البخور هوالأقرب إلى الإنسان، لأنَّه يشبه الروح، هواء ملوَّن بالأبيض الكثيف، هكذا نحن بياض كثيف نغطّيه بسواد ثيابنا كي نتواضع، ونلبس الحداد على خطايانا. الإنسان بخور، والموت يعيدنا إلى الجوهر، اللّه يميِّز الخاطئ من البار من الرائحة. كلّه بخور يا بنتي».

صارت ميليا تخاف من أرواح الناس، تنظر فلا ترى أجسادًا بل كتلاً من البخور، ثمّ صارت ترى الروح في مناماتها مثل دخان أبيض يظهر ويختفي. وصارت تخاف من أمها ومن الراهبة ومن العلاجات بالقطن والزيت. الأم تحمل آلامها وتتدحرج إلى الكنيسة، وميليا وحدها في البيت تتعلم الطبخ. فجأة انفتحت الطنجرة أمام عَينيها مثلما تتفتح

السماء أمام القديسين. هكذا شعرت حين اكتشفت أنَّ الطبخ ليس سوى ميزان العلاقة بين الثوم والبصل والكزبراء والليمون، وأنَّ النكهة تأتي من باطن الكفّ. رأت علامات الغبطة على وجوه أشقائها. انتهى الطعام الخالي من الدسم الذي كانت تعدُّه سعدى، وجاء طعام ميليا الملوَّن بنكهات لا تحصى، فقلب مناخ المنزل، وجعل من اللقاء اليومي إلى مائدة العشاء، عيدًا من المُتع. الفقر الذي عاشت فيه عائلة شاهين لم يتبدل، لكنَّ نكهة الحياة دخلته مع هذه الفتاة التي كان الكلام يحوم حول عينيها.

دخلت ميليا في عوالم كتب جدّتها بعدما أجبرتها الحياة على ترك المدرسة. سعدى قالت إنَّ الجدّة التي أصيبت بالخرف، استيقظت في أحد الأيام من سباتها، استدعت كنّتها وأشارت إلى الصندوق الخشبيّ وقالت إنَّه لميليا. «أنا يا بنتي عشت كلّ حياتي مع هيدا الصندوق، من دونه ما كنت قدرت أتحمَّل الحياة، هيدا لميليا، أعطيها ياه بس تكبر، وقولي لها هيدا من ستّك أم يوسف».

«تلك كانت امرأة»، أرادت ميليا أن تقول لمنصور حين أخبرها عن أمه وشقيقه اللذين يعيشان في مدينة يافا، ويطلبان منه العودة إلى هناك من أجل العمل في مصنع الخردوات الحديديَّة الذي أورثهم إيَّاه الوالد. قال منصور لزوجته إنَّه لا يريد العودة، لأنَّه لم يعد يطيق تسلّط أمه عليه وعلى أخيه. ولأنَّه وجد في الناصرة حياته المستقلّة. اكتشف الرجل الذي كان على مشارف الأربعين أنَّه وجد في هذه المرأة الصامتة، التي ترفرف غيوم النعاس على عينيها، راحته النفسيَّة والجسديَّة. امرأة تشبه المدينة الصغيرة التي اختارها مقرًا لتجارته وبيتًا لعائلته.

صحيح أنَّ المرأة غريبة الأطوار، ولا تُنهي الجمل التي تبدأها، وينكسر كلامها قافزًا من فكرة إلى فكرة ومن مكان إلى مكان، قبل أن يعود فيرسو على الصمت، لكنَّها تعطيه شعورًا بالسكينة الداخليَّة. أمه العصبيَّة التي أدارت أعمال الوالد بعد وفاته، جعلته يشعر أنَّ العمل يشبه القصاص اليومي. مات الأب عندما كان منصور في الخامسة عشرة، وأمين في السادسة عشرة. أمين، الذي ترك المدرسة وعمل مع والده عندما كان في الثانية عشرة، شكّل مع أمّه محور إدارة الشغل، وتعاملا مع منصور كأنَّه موظّف عندهما، فتحكم بالإبن الثاني شعور بأنَّه لن يصير شريكًا في العمل. قرَّر الهجرة إلى الناصرة حيث تقيم عمته وردة. قيل إنَّ العمة الأرملة أرادته زوجًا لإبنتها الوحيدة وسحبته إلى الناصرة. لكنَّ الحقيقة أنَّ منصور ذهب من تلقاء نفسه، ولم يكن يمانع في الزواج من سميحة، لكنَّها كانت على علاقة مع شاب من آل سعيد، اعتنقت المذهب البروتستانتي من أجله. قرَّر منصور عدم العودة إلى يافا، وطلعت في رأسه فكرة فتح متجر لبيع الأقمشة النسائيَّة، وقال له الكريم خود، وصار يأتي إلى بيروت من أجل التبضُّع من سوق الطويلة، الذي صار في زمن الانتداب الفرنسي أفضل سوق للأقمشة النسائيَّة المستوردة، وسوف تقوده الأقدار إلى زيارة منزل أحد أصدقائه من تجار السوق الخواجة إميل رحال. ومن حديقة منزل الخواجة إميل وزوجته الست صونيا، سوف يرى الفتاة البيضاء واقفة تحت شجرة اللوز المزهرة في أوائل الربيع، ويسقط صريع الهوى. وسوف تكون هديَّته الأولى لخطيبته البيروتيَّة كتاب عتيق طبع في القاهرة ويحمل عنوان «مصارع العشاق». سوف يدخل هذا الكتاب في صندوق الجدة أم يوسف، وستحمله ميليا معها إلى الناصرة إلى جانب كتابَي «السنكسار»، الذي يخبر قصص القدِّيسين، و«ألف ليلة وليلة».

في الناصرة لم تفتح ميليا الصندوق كي تقرأ حكايات جدتها. هنا لم تكن في حاجة إلى القراءة، فالأشياء مكتوبة على الطرق والأزقة، وما عليها سوى أن تمشي كي تجد نفسها وقد صارت سطرًا في كتاب كبير تقرأه وتعيشه في آن واحد.

أما في بيروت، فالقراءة كانت وسيلتها لعبور الوقت الذي يمضي بين المطبخ وانتظار عودة إخوتها إلى البيت. كانت تلتهم كتب أشقائها، وتحلّ لهم فروض الحساب، وتحفظ القصائد التي كان عليهم حفظها.

عاشت بين صندوق جدّتها وحكاياته، ودروس إخوتها. وصارت ملكة الطبخ بلا منازع. لذا كان إخوتها يخشون زواجها المبكر، لأنّها عندذاك سوف تتركهم أسرى طعام أمهم وأمراضها التي لا علاج لها.

غير أنَّ الأمور اتخذت شكلاً غير متوقّع، فبعد تجربة قصيرة مع وديع، صاحب الفرن، وجدت ميليا نفسها وحيدة في انتظار نجيب، الذي سيختفي.

لا تدري ميليا لماذا كان وديع يزورهم كلّ يوم، وهو مغطّى برائحة الطحين. صار الفرّان جزءًا من الطقس المسائي للعائلة، الذي يبدأ في السادسة مساءً بشرب القهوة العثمليّة التي تفوح منها رائحة السكّر وماء الزهر، ويصل إلى ذروته في الثامنة والنصف، حين تدعو ميليا الجميع إلى مائدة العشاء. يتململ وديع مدعيّاً أنَّ عليه العودة إلى منزله قبل أن تسحره رائحة الطعام التي تفوح من المطبخ، وبعد إلحاح سليم، يبدأ في النقّ من أنّه يسمن، لأنّه صار يتعشّى مرتين، مرة هنا ومرة في البيت كي لا تزعل الوالدة.

كانت ميليا تعرف أنّها لن تتزوّج وديع. لكنّه هنا، بقامته القصيرة وكرشه الكبير. كانت تشمئز من كتل اللحم التي تتجمّع تحت قميصه، وتكره رائحة الطحين. لا تذكر ميليا أنّه تكلّم معها، كان يجلس مع أشقائها، يجلب خبزًا وكعكًا من الفرن الذي ورثه عن والده، ويتصرّف كواحد من الأخوة. بلى، مرة لحق بها إلى المطبخ بحجّة أنّه عطشان، وقال لها إنّ طبخها طيّب، وإنّه ينتظر اليوم الذي ستطبخ فيه له وحده.

كلّهم قالوا إنّ وديع سوف يتزوّج ميليا، لكنّ وديع لم يقل. وبعد زيارات يوميّة استمرّت ستة أشهر، سألته سعدى متى ستتشرّفهم الوالدة بزيارتها، فامتلأ وجه وديع المستدير بحمرة الخجل، وتنحنح قبل أن يقول قريبًا إن شاءالله.

ثمّ انتهى كلّ شيء.

قالت ميليا لموسى إنّها لم تزعل على وديع، وإنّها لم تتخيّل نفسها يومًا زوجته. قالت لأمّها إنّها أصيبت بالذعر حين زارت وديع في منزل والدته، فأخذتها الست أم وديع إلى غرفة النوم، وأشارت إلى سرير عريض، مصنوع من خشب السنديان، يتوسط الغرفة، «هيدا كان تختي أنا والمرحوم زوجي، يمكن نحن أول عريسين ببيروت نمنا على تخت واحد. وهيدا رح يكون هديتي إلك ولوديع وقت منفرح منكم».

«بدّك يانا ننام بتخت واحد»!

عندما دخلت ميليا إلى غرفة الفندق، ولم يكن هناك سوى سرير واحد في الغرفة، رنّ صوت الست أم وديع في أذنيها، وشمّت رائحة الخشب العتيق. احتارت أين تجلس. لم يلحظ منصور تلبّكها لأنّه كان مشغولاً بفتح قنينة الشمبانيا. نامت ميليا وحدها في السرير، ولم تشعر

بزوجها الذي نام إلى جانبها إلاَّ من خلال ما سوف تسمّيه منام الزواج. سمعت باب الحمّام ينفتح، فقرَّرت أن تتابع النوم. اتَّخذت إيقاع التنفُّس البطيء وغرقت في المنام. منام بلا صور ولا كلمات، مصنوع من الألوان فقط، ومن ذلك الشعور بأنَّ العالم ينقبض وينفتح، يتدوَّر ويمتدّ، يصعد ويهبط. وجهها يتَّسع ويعرض، وتشعر أنَّ في داخل عينيها عيونًا لا حصر لها، وأنَّها تسبح في عالم اللون الأزرق الذي يأخذها إليه. وفجأةً انكسر المنام، ضربت البرودة أعلى فخذيها، وانزاح الرجل. ضمّت نفسها إلى نفسها، وعلت قبّة الحرارة من بطنها وانتشرت مثل دوائر من الضوء، ووجدت نفسها في السيارة من جديد.

أصرَّت ميليا على وجود سريرين في غرفة النوم، ولم يفهم منصور سبب هذا الإصرار كلّه. فهو، على كلّ حال، اشترى سريرين ولم يخطر في باله أن ينام مع زوجته في سرير واحد. «سرير الزوجة يجب أن يتّسع للطفل الأول الذي سيولد، هذه عاداتنا»، قال منصور. أحنت ميليا رأسها كي تقول نعم، ورأت كيف ارتسمت هالة زرقاء فوقه. هكذا رأت نفسها منحنية الرأس بالنعم. وحين حبلت، وصارت تمضي الكثير من وقتها بين أشجار الكينا المنتشرة حول البيت، كانت الهالة الزرقاء رفيقتها الدائمة. لكنَّها لم ترها في عينيّ زوجها، فتيَّقنت من أنَّها وحدها من يرى الأزرق الذي يسيل من هامتها المنحنية كي يحمي الجنين وأمه.

في ظلّ هذه الهالة، سوف تعيش ميليا تسعة أشهر كاملة، يلبسها اللون الأزرق في النهار، ثم يصير في الليل بساطًا، تنام فوقه، وتسيل عليه مناماتها.

صبَّ منصور لنفسه كأسا، وبدأ يترنَّح. كانا يجلسان على شرفة منزلهما النصراوي، منصور يشرب وترتسم فراغات من الصمت بين كلماته وهو يردِّد الشعر، وميليا تتثاءب. قالت له إنَّ سكره يوقع موسيقى الشعر في الفراغ. لا.. قالت إنَّ سكره يجعل موسيقى الشعر ممطوطة. لا.. لم تقل هذا ولا ذاك، ربما أرادت أن تقول فقالت شيئًا آخر. قالت له أن يتوقف عن الشرب لأنَّه سكر.

«أنا سكرت»!

...

«إنتِ مفتكري إنِّي سكرت من العرق، هيدا مش صحيح، العرق ما بيسكّرني».

...

«إذًا يا حبيبتي السكر مش من العرق، السكر من عيونك، عيونك بيخلّوني إسكر وشوف لون غريب».

«إنت كمان»؟ قالت، وعضّت على شفتها السفلى كأنَّها ندمت. لم ينتبه منصور إلى «وإنت كمان» هذه، إذ لو انتبه لكانت مضطرَّة إلى رواية حكاية صورتها واللون الأخضر الذي لمحه موسى.

«بسّ واحد لازم يعرف»، قالت وهي تقف أمام أيقونة العذراء في كنيسة البشارة، «بس هو»، نظرت إلى بطنها الذي بدأ يتدوَّر، وطلبت من أم النور أن يعرف الصبي اللون السري لعينيَّ أمه.

منصور الذي لم يعرف السرّ قال في تلك الليلة، أجمل شعر سمعته ميليا في حياتها، وجعلها تكتشف أنَّ الأنبياء وحدهم يعرفون سرّ

العلاقة بين الليل والنهار. حدثّها عن أبي الطيب المتنبي، النبي الوحيد الذي تنبأ شعرًا. كلُّ الأنبياء عجزوا عن كتابة الشعر، أو خافوا من كتابته، إلاّ هو. كتب الأنبياء الحكايات والأمثال، إلى أن جاء ذلك الشاعر الذي كتب النبوّة بالشعر، فسحر العرب منذ ألف عام ولا يزال يسحرهم. روى لها أنَّ المتنبي زار طبريّة وأقام فيها زمنًا، حيث وصف الأسد كما لم يصفه أحد.

«ومشي على وجه المي متل المسيح»؟ سألت ميليا.

«لا مشي على الكلام»، جاوبها منصور.

«يعني مش نبي حقيقي»، قالت.

«ليش كلّ الانبيا مشيوا على المي»؟ سأل منصور.

«شو بيعرفني»، قالت.

«إسمعي يا ميليا»، قال منصور، وسكت. أراد أن يقول إنَّ الكلمات كانت ماءه والموسيقى أمواجه، مزج الحكمة بالإيقاع، فصار شعره بابًا إلى الشعر، وحين مات أقفل الباب وراءه، ولم يستطع أحد فتحه من جديد طوال ألف سنة.

«إذا ما قدر يمشي على المي يعني مش نبي»، قالت.

«إسمعي»، قال منصور.

«ومن لم يعشقِ الدنيا قديمًا
ولكن لا سبيل إلى وصالِ

نصيبك في حياتك من حبيبٍ
نصيبك في منامك من خيالِ»

سمعت ميليا بيتَي الشعر وحفظتهما، لكنَّها حين ترويهما، تقلب عجز البيت الثاني فيصير هكذا:

«نصيبك في حياتك من حبيبٍ
نصيبك في خيالك من منامٍ».

كانت ميليا في شهر حملها الثالث، استدارت وصار جمالها ساحقًا. لم يكن منصور يعرف كيف يعبِّر لها عن حبِّه وإعجابه. فهي لم تكن تستمع إليه حين يحكي عن الحب، تحني رأسها وتتغطَّى بالهالة الزرقاء التي ترتسم فوقه، وتغرق في الصمت. يلجأ إلى الشعر، يرفع لها القصائد، فتلتمع عيناها، وتصير أذنين مصغيتين ورأسًا مطرقًا. وحين ينتهي تقول إنَّ الشعر مثل الصلاة.

ترى بخورًا فوق المائدة، كأنَّ الكلمات صارت بخورًا، والمرأة تسكر برائحة البخور التي تنتشر في المكان، وتمتزج بالكلمات الموقَّعة التي تخرج من بين شفتيّ الرجل.

قالت إنَّها حلمت البخور. كانت حين تحكي له مناماتها تتوقف في منتصف الحكاية ولا تتابعها، لأنَّها ترى الخوف في عينيه. فقط ذلك المنام روته كله. كان ذلك منذ ثلاثة أشهر حين رأى منصور دوائر على جسد امرأته. وفي الصباح رأى جمال الاستدارات على كتفيها اللتين كانتا تنزلقان من فتحة العنق في قميص النوم الأزرق. لحق بها إلى المطبخ، حيث كانت تعدّ القهوة والفطور، وضمَّها من الخلف إلى صدره، فلم يصدر عنها أي تأفف مثلما كان يحصل دائمًا عندما يضمّها إليه. التصق جسمه بها وسرت الرغبة من حوضه إلى كتفيه، حاول أن يرفع قميص النوم إلى الأعلى، بدأ القميص يرتفع وانفجر البياض في

عينيه، وبهره الضوء. أغمض عينيه قابضًا على خصر المرأة وبدأ ينحني بها، انحنت معه، كانت ليِّنة وساخنة وتتدفق حنانًا.

«آخ»، صرخت، وبرمت فجأة. أزاحته عنها برفق وقالت إنَّها حامل.

«شو»؟

«حلمت إنِّي حبلى»، قالت.

ابتسم واقترب من جديد، فأبعدته إلى الوراء.

«أنا حبلى».

«من أيمتى»؟

«من اليوم».

وضعت ركوة القهوة على الطاولة، وبدأت تحكي. كانت تقف تحت ضوء الشمس التي تتسلَّل من النافذة، وجهها يتدوَّر وعيناها تكبران. أحسَّ الرجل بقدميه تتداعيان، جلس على الكرسي، تراخت أجفانه، واجتاحته العتمة.

«ستّي»، قالت.

أخبرته عن جدّتها ملكة، «إجت ستّي ملكة، وقعدت حدّي على التخت هون، كنت نايمة والتخت كبير، كأنِّي نايمة فوق المي، كلّ شي كان متل المي، وستّي قاعدة حدّي. كانت صبية، يا لطيف شو بتشبه أمي، بالأول افتكرتها أمي، قلت لها يا أمي شو جايي تعملي هون، قالت لي أنا مش أمك، أمك ببيروت وأنا جايي خبِّرك قصة. قلت لها يا ستّي هلّق وقت القصص مش شايفتيني كيف عايشة لوحدي وما عندي حدا. قالت

أنَّها إجت حتى توعّيني من النوم، بس قبل ما أوعى لازم آخد منها هدية. مدَّت ايدها على عبّها وشالت أيقونة صغيرة للعدرا، وقالت لي هيدي لازم تضلّ معك حتى تحرسك. أخدت الأيقونة منها وما عرفت وين بدّي حطّها، قالت لي حطّيها على بطنك. حطّيتها على بطني وحسّيت حالي عم بغرق. قلت لها يا ستّي عم بغرق، شو بعمل؟ قالت لي أمسكي إيدي، مدَّيت إيدي بس ما قدرت طال، جرّيت أصرخ بس ما طلع صوتي، وغرقت. صرت تحت المي وحسّيت أنّي عم بختنق، فجأة إجت مرا لابسة طرحة زرقا وحملتنيَ. شفت حالي على شطّ البحر، وكان في سمك كتير. السمك يعلي راسه فوق المي ويفتح تمّه حتى يتنفس وبعدين يغطس عن جديد. وكانت المرا الزرقا حدّي، عم بتوشوشني، بس ما فهمت ولا كلمة. كانت عم تحكي بصوت واطي، ما فهمت إلا كلمة واحدة: طبرية. وعرفت أنّي على شط بحيرة طبرية. غمضت المرا الزرقا عيونها وحسَّيت أنّي بدي نام. وما في شي بالدنيا بيقدر يوعّيني، وخفت. تذكَّرت شو كانت تقول ستي عن النوم والموت، وقلت خلص راحت عليكِ يا ميليا، رح تموتي بالبحر. بس ما حسّيت حالي عم بختنق، كنت عم بتنفس تحت المي، وشوف الألوان، وكانت المرا الزرقا حدّي. مدَّت إيدها وحطتها على بطني، حسَّيت أنَّ بطني بلش ينتفخ، وإنّي صرت مدورة. شالت إيدها. إلتفتت وكانت ستّي هون، بس من دون أسنان. أنا كنت خاف من ستّي لّمن كانت تشيل وجبة أسنانها وتحطها بكباية مي. مدري كيف كانت وجبتها، مش كأنَّها وجبة واحدة من شقفتين، كأنَّها كانت أربع خمس قطع. والكباية تصير شي بيخوّف. المي حول الأسنان، والأسنان كأنَّهم عم بعربشوا على القزاز. قلت لها ليش شلحتِ أسنانك يا ستّي؟ قالت منشان إحكي معك أحسن، لا يا ستي اللّه يخلّيكِ، إرجعي حطّي

أسنانك حتى إفهم عليكِ. قالت إنَّها ما بتقدر، لأنَّه الواحد ما لازم يلعب بأسنانه بالمنام. بسّ إنتِ ميتة يا ستّي، قلت لها. أنا مش مهم يا بنتي، المهم إنتِ، قالت، بس إنتِ ميّتة من زمان. ضحكت، فتحت تمّها وصارت تضحك وتقول إشيا ما فهمت منها ولا كلمة. كانت عم تحكي بصوت واطي، وما فهمت إلاّ كلمة واحدة: صبي. قلت لها أيّ صبي؟ قالت بعدين بتعرفي، قلت لها إنّي خايفة وقرّبت إيدي حتى إسحب وجبة أسنانها من الكباية، ضربتني على إيدي، وصرت إبكي. أنا لمّن ماتت ستي ملكة بكيت كتير. كلُّهم افتكروا إنّي عم ببكي لأن ستي كانت تحبني، هيدا مش صحيح. مبلى يعني بكيت لأنّي كنت حبّها، بس الحقيقة إنّي بكيت لأنَّهم ما حطّوا الوجبة بتمّها. سألت أمي وين الوجبة؟ ركضت على المطبخ. لحقتني أمي، قالت لي روقي يا بنتي، ما ردّيت عليها، وصرت فتّش متل المجنونة. نزلت تحت الطاولة، عربشت وفتحت النمليّة، قالت لي أمي خلص كبّيناها، وين كبّيتوها؟ رميناها بالزبالة. ليش؟ لأنّه حرام. الوجبة ما لازم تندفن مع الميت، الميت لازم يرجع عند ربّه متل ما الله خلقه. بالزبالة! صرخت. وصرت فتّش بتنكة الزبالة، وما لقيتها. لا، وقتها لا، بس مبارح لمّن كنت عم بغرق، لا يمكن هيدا بمنام تاني، يا الله كيف صرت عم لخبط الإشيا، ما بقى أعرف ليش وإيمتى وكيف. المهم إنّي حملت الوجبة وقرّبت من ستّي، بس هي اختفت، ما بعرف وين راحت. وما عرفت شو بدي أعمل بالوجبة. وكانوا النسوان قاعدين حواليي وعم يبكوا، وبعدين وقعت، ما بعرف كيف، كنت معمشقة على شجرة الأكدنية، ومادّي إجريّي بين الأغصان، وعم آكل اكدنية خضرا وحامضة، وما شفت حالي إلاّ عم بوقع. انكسروا أسناني، حطّيت إيدي على تمّي، كأنَّهم كانوا أسنان ستّي، وبعدين ما بعرف، كان في مي كتير، عيون

ودموع، صارت دموع النسوان توقع على الأرض، وشفت ستّي عم تفرق، وصرت إبكي. مدّيت إيدي حتى أمسك إيد ستّي وما قدرت. وحسّيت إنّي أنا كمان عم بفرق، وبعدين ما بعرف، كلّ شي كان لونه أزرق، وأنا نايمة على التخت، والتخت كأنّه بركة، وستّي قاعدة حدّي، حطّت إيدها على بطني، وعطيتني الأيقونة. وشفت المرا الزرقا كأنّها طلعت من الأيقونة، قلت لها يا ستّي هيدي هي المرا يللي حطت إيدها على بطني وصار بطني يكبر. قالت لي إنّه صبي ولازم نسمّيه ميخائيل على إسم دير الراهبة ميلانة، حتى الراهبة تحرسني بصلواتها، قلت لها لا، أنا رح سمّيه عيسى، إسمه عيسى ورح سميّه عيسى على إسم المسيح، لأنّه المرا الزرقا هيك بدها. فتحت عيوني وقمت من التخت على الحمام، غسلت وجهي، وسخنت مي وتحممت، وإنت كنت عم بتشخّر. مبارح حاولت أبرمك لأنّك كتير، يعني كان الصوت عالي كتير، وكنت ضابب على حالك متل بأوتيل «مسابكي»، دخيل الله شو خفت عليك هونيك، لا مش وقت كنت بالحمام وما عم بتردّ عليي، هيدي بسيطة وفهمتها، وقتها حسّيت، لا مش وقتها، بعدين لما شفتك نايم بالتخت، ومبروم على حالك متل كأنّك ولد صغير ببطن أمه، وقتها فهمت إنّك بدّك أم. لا ما تفهمني غلط، سكوت الله يخلّيك، ما بدّي إسمع هالحكي، لا ما بعرف شو بتعمل ولا بدّي أعرف، في شي مرة سألتك؟ إذا كنت ما سألتك ليش عم بتجاوبني؟ لا ما بدّي أفهم، هيدي إشيا بتخصّك، إنت قلت لي أنّك ما بتحب تروح على يافا وأنا ما بحب يافا. شو كنت عم بقول؟ مبلى مبلى، حسّيت بطني بلّش يكبر، وكلّ شي فيّي صار مدوّر، وفهمت شو قالت لي المرا يللي مغطاية شعرها بمشلح أزرق، وفهمت إنّي حبلى. أنا يا سيّد منصور حبلى من مبارح بالليل، هيدا يللي بدّي خبرك ياه».

أصيب منصور بالذهول، وانربط لسانه، حاول أن يفكّ طلاسم هذه الطريقة في الكلام، وأن يفهم ماذا قالت ميليا. احتسى قهوته التركية ببطء ورأسه مُطرق. إنتابه الغضب، لماذا لم تقل الأشياء في شكل مباشر؟ لماذا تدور المرأة حول الكلمات كأنَّها تتكلَّم في المنام وليس في اليقظة؟ أراد أن يوقظها من نعاسها الطويل، ومن إصرارها على منعه من التعبير عن حبه. قاطعها عندما قالت إنَّها حبلى، قائلاً إنَّه نام معها في الليلة السابقة، وإنَّها كانت أجمل مرة. قال إنَّه رأى كيف تتمجد الأنثى في السرير عندما تستقبل الرجل وتأخذه إليها. «هيدا هو الحب يللي بحبّل»، قال، وارتسمت على شفتيه ابتسامة الظفر.

«إنتَ ما خصّك»، قالت.

«إيش يعني هالحكي»؟

«يعني مبلى، يمكن، أنا شو بيعرّفني، أنا ما بتذكّر».

«ما بتتذكّري»؟

«كيف بدّي إتذكّر، ما أنا كنت نايمة وعم بحلم المنام يللي خبّرتك ياه».

«بتتذكّري المنامات وبتنسي شو صار»؟

«ليش شو صار»؟

«لا إله إلاّ اللّه، اللّه يطوّلك يا روح، ما صار شي»! قال، وهو يغلي غضبًا. وفكّر أنَّ عليه أن يوقظها في الليل عندما ينام معها. سوف يوقظها ويجبرها أن تتذكَّر، منهيًا هذه المسرحية التي بدأت في الليلة الأولى في الفندق. صحيح أنَّه انهار في الحمّام، لكن من كان في وسعه

مقاومة البرد الثلجي الذي غطّى ضهر البيدر. منصور قاومه وحده، لم يكن قادرًا على احتمال فكرة عودته خائبًا إلى بيروت، حيث سيضطر للإقامة في بيت آل شاهين في انتظار عودته إلى الناصرة.

الأخ الأكبر سليم لم يحضر العرس، وعندما سأل منصور عنه جاءه جواب غامض من موسى. كان منصور هو الوحيد من بين أفراد العائلة الذي لا يعرف حكاية سليم. سمع من موسى نصف الحكاية، لكنَّه لم يفهم سبب القطيعة. قال موسى إنَّ سليم أراد أن يصير كاثوليكيّاً، ويدخل في سلك الرهبان الجزويت. درس الحقوق في جامعتهم، وأصابته لوثة الهبل. دخل سليم إلى الجامعة بفضل رسالة توصية من الراهب أوجين، الذي كان يدير مدرسة الأحد في قبو تابع لدير الآباء اليسوعيِّين في الحي. مدرسة الأحد لم تكن مدرسة حقيقيَّة، كان «الفرير» أوجين يجمع الأولاد الفقراء، ويوزّع عليهم قطع الحلوى، ويريهم أفلامًا دينيَّة، ويجبرهم على حضور القداس باللغة اللاتينيَّة. سليم افتتن بالسينما. أخذ أشقاؤه معه ليتفرَّجوا على فيلم عن آلام المسيح، لكنَّه فوجئ بهم وقد ناموا. بدلاً من أن يبهرهم الضوء الذي يصير صورًا، ناموا. موسى بكى خوفًا حين رأى الصور الكبيرة تحتلّ الشاشة البيضاء. وحدها ميليا تحمَّست للسينما، لكنَّ الأخ أوجين قال لسليم إنَّ مدرسة الأحد مخصَّصة للصبيان فقط، وإنَّ ميليا لا تستطيع الدخول.

«أنا برجع معك، أنا بخاف من السينما ورح إرجع معك»، قال موسى. لكنَّ ميليا أمرته أن يدخل مع الداخلين، وعادت وحدها إلى البيت.

قال موسى إنَّ الأخ أوجين وجد في سليم أوزة. لم يفهم منصور ماذا تعني هذه العبارة، لكنَّه ادّعى أنَّه فهم. كره نفسه، حين كانت ميليا

تنظر إليه بما يشبه الغضب في كلّ مرة سأل فيها عن معنى عبارة لم يفهمها.

«كأنَّك ما بتفهم عربي»، قالت.

فصار يتصرَّف كأنَّه يفهم كلّ شيء، لكنَّه لم يكن يفهم. وعندما أقامت ميليا في الناصرة، فإنَّها بدلاً من أن تتبنّى لهجة زوجها ولهجة المدينة، ظلت تتكلَّم لهجتها البيروتيَّة التي تمتلئ حروفها بلحم اللسان. فالبيارتة يملأون الكلمات بأثقال آتية من الشفتين واللسان، وكل الحروف تميل معهم إلى الأسفل. وحدها ميليا كانت تتفّم الحروف. تحافظ على ثقل اللهجة، لكنَّها بدل أن تلفظ الحروف من لسانها وخديها، تلفظها من شفتيها، فيخرج كلامها ناعمًا.

«بس إنتِ ما بتحكيش متل أهل بيروت»، قال لها.

«اني»!

وأنزلت الألف منحنيًّة، مثلما تنحني كلّ حروف اللهجة البيروتيَّة.

لم يسأل ماذا يعني الكلام عن سليم بوصفه أوزة، ولم يفهم أيضًا لماذا هذا الغضب لأنَّه اعتنق المذهب الكاثوليكي.

«كلُّه زي بعضه»، قال لهم.

نهشته نظرات الأم وهي تقول عبارتها الشهيرة: «الله روم»، كلَّما حاول أحد مناقشتها في خيارات ابنها الدينيَّة الجديدة.

«لكن نحن لسنا من الروم»، أراد منصور أن يقول لهم مستندًا إلى ما رواه له كاهن يافاوي، في غمرة النقاش الصاخب الذي دار في

فلسطين ضدّ الطغمة اليونانيَّة التي تسيطر على كنيسة القدس الأرثوذكسيَّة. قال الكاهن إنَّ كلمة روم كانت في الأصل شتيمة ألصقها بنا أتباع الكنيسة السريانيَّة كي يقولوا إنَّنا عملاء الدولة البيزنطيَّة. نحن عرب أرثوذكس اخترنا الإيمان بالطبيعتين الإلهيَّة والإنسانيَّة للسيِّد المسيح عليه السلام، أما كلمة روم فقد تبنيناها لأنَّنا، من صغر عقولنا، لبسنا التهمة التي ألصقها بنا أعداؤنا.

روى منصور لسعدى وابنتها حكاية الخوري يوحنا عازر، فبدأت سعدى تتثاءب، واتَّكأت ميليا على يدها مستسلمة لسباتها الصامت، فلم يكمل الرجل حكايته. توقف في منتصفها ونهض عائدًا إلى فندق «أميركا» في سوق النجارين، حيث يقيم خلال رحلاته البيروتيَّة، التي تكثَّفت منذ هوى إلى هذا الحب.

قال منصور إنَّ هذا الشعور الذي يسمُّونه غرامًا كان غريبًا عن حياته، صحيح أنَّه وصل إلى مشارف الأربعين، وأنَّه عرف في حياته الكثير من النساء، وخصوصًا بنات الهوى في يافا وبيروت وأنَّه...

«دخيلك ما تستعمل هالكلمات الوسخة».

«أنا لم أقل كلامًا وسخًا أو أتلفظ بالشتائم»، جاوبها.

«اللّه يخلّيك خلص».

«طيِّب خلص»، قال، «ثمّ نحن لا نشتم، شباب بيروت يشتمون كلّ الوقت، لا تحكي مع أحدهم حتى يبدأ بممازحتك بالشتائم: كيفك يا أخو الشرموطة، كأنَّه يتحبَّب إليك بهذا الكلام، أنا في البداية لم أستطع أن أحتمل، وكنت على وشك أن أمشكلها أكثر من مرة، ثمّ تعوَّدت، ومشي الحال. ما فيش لزوم للزعل يا ميليا يا حبيبتي».

أراد أن يقول لها إنَّه في الماضي لم يشعر بسوى الرغبة التي وضعها اللّه في الرجل كي يحرقه بها. عود ثقاب يشتعل فيشعل الجسم كلُّه. وإنَّه كان يشعر بالنار تحرق وسطه ثمّ تنتشر في كلّ أنحائه، فلا يجد بدّاً من ذلك الشيء. لكن عندما رآها صار يشعر بفراغ يسقط من قلبه إلى قدميه، وصار اشتعاله مختلفًا لأنَّه لا ينطفئ. أراد أن يخبرها أنَّه حين كان يمارس الاستحلاب، الذي يسمُّونه العادة السريَّة، من أجلها، كان لا ينطفئ، بل تحترق يده. لكنَّه لم يقل، خاف من أن تزعل وتظهر الجروح على عنقها. كانت ما إن تزعل من كلمة أو ملاحظة حتى ترتسم ثلاثة جروح أفقيَّة تمتد من أعلى العنق إلى الصدر. وعندما سألها مرة عن هذه الجروح، قالت إنَّ الحقّ على الراهبة.

دخلت إلى الحمّام وغسلت عنقها، وعادت بعنق ناصع مليء بتموجات اللون الأبيض.

«هذا هو لون الحب»، قال.

لم يروِ منصور لأحد أنَّه ذاق في فندق «أميركا»، طعم النار والغيرة. أحسَّ شيئًا غامضًا في حكاية سليم الناقصة، وشعر أنَّ ميليا لها علاقة بالقطيعة التي كسرت ظهر العائلة. لكنَّه لم يعرف القصة إلاَّ بعد ثلاثة أشهر من زواجه. وفهم أنَّ الخطوط الحمراء التي ترتسم على عنق زوجته، هي علامات الجرح الذي تركه رجل يدعى نجيب كرم على المرأة التي انتظرته طويلاً.

«يعني كنتِ تحبيه»؟

«لا مش حب، شي متل الحب».

«إيش يعني هالحكي»؟

«يعني كنّا متل المخطوبين، وبعدين اختفى، وفهمت أنَّ الحقّ على خيي سليم، سليم كان علقان بأنجيل، وبيّها يلّي كان عامل حاله قدّيس قال ما بزوجك قبل ما تتزوَّج أختها الكبيرة، وشو بيعرفني شو صار، فجأة اختفى سليم ونجيب، وفتحوا منجرة بحلب. سليم ما استرجى يخبّرنا، قالت أمي إنَّه تزوَّج خطيفة، بس أمي كانت عارفة كلّ شي، الراهبة خبّرتها عن عرس كبير صار بحلب، وإنَّ الأختين تزوَّجوا بنفس اليوم، وإنَّ سليم أقنع نجيب يترك كلّ شي ويجي معه، لأنَّ الجماعة أغنيا. أنا ما بعرف القصة مزبوط، موسى بيعرف كلّ شي».

عاد موسى إلى البيت، وكانت ميليا في انتظاره. أشعلت شمعة في الدار، وانتظرت على الكنباية في الزاوية. كلّ شيء كان نائمًا، ما عدا الصبيّة التي غطاها الحزن والعار. اتّكأت على العتمة وانتظرت. النار تحترق في داخلها، والفراغ يهبط من قلبها إلى حوضها. كانت الغيرة تفترسها، تريد فقط أن تعرف لماذا وكيف يمكن للأمور أن تتحوَّل بهذا الشكل. وكيف استطاع نجيب أن يحب امرأتين في الوقت نفسه. قالت لموسى إنَّها متأكّدة من أنَّ نجيب يحبُّها، لكن هل أحب أيضًا تلك المرأة التي صارت زوجته؟

سمعت ميليا القصة تخرج متقطّعة من بين شفتيّ شقيقها، ورأت كلّ شيء وقد استحال ظلالاً. صار نجيب ظلاً لنجيب، وصارت يده التي امتدَّت إلى جسمها ظلاً أسود ليد سوداء. حتى ذلك الانفجار الذي رأته على وجه خطيبها كانعكاس لانفجار بياض نهديها في عينيه، صار مجرد ظلّ. قالت إنَّها لم تعد تذكر من الحكاية سوى بقاياها التي تراها

في مناماتها. ماذا تروي؟ حتى لقاء الحديقة الذي ترك على عنقها آثار الخطوط الحمراء لا تتذكره سوى كمنام. كيف تروي لمنصور ما أراد الاستماع إليه في تلك الليلة، ولماذا يريد حكاية ماتت؟

«هناك فرق»، قالت له، «الحكايات تتقسم قسمين: حكايات تنتهي وحكايات تموت. الحكاية التي انتهت نستعيدها حين نحكيها، وتبقى حاضرة معنا، أما الحكاية التي ماتت فتنطفئ، وما بيعود في ضو، كيف الواحد بيقدر يقرا بالعتمة، إنت عم تطلب منّي أقرأ بالعتمة، وأنا ما بعرف».

حاولت أن تروي له، فخرجت الحكاية بلا نسق، فلم يفهم شيئًا. أعتقد أنّها تكذب، قال إنّها تكذب فقالت تقريبًا، «طيّب شو بدّك ياني أعمل، إنت بدّك خبّر وأنا نسيت، إنت بدّك تعرف وإنا ما بعرف، شو بدّك قول حتى قول»؟

لكنّها قالت، روت حكاية ميتة. لم تخبره ماذا جرى في الحديقة، أو عن الجروح التي انطبعت على ساقيها من القرّيص الذي تراجعت إليه عندما اقترب منها نجيب، لكنّها أخبرته عن الخيانة.

حاولت أن تشرح له الفرق بين الحكايات التي انتهت، والحكايات التي ماتت. قالت إنّ جميع العائلات تملك على الأقل حكاية واحدة مدفونة لا يجرؤ أحد على نبشها. وإنّ حكايتها مع نجيب، هي من هذا النوع، وإنّها لا تتذكرها إلاّ كمقاطع غامضة من منامات قديمة، لا تستطيع تركيبها في كلمات. بدأت تفهم أنّ عليها التوقف عن هذا النوع من الكلام الذي يتوالى كالصور أمام عينيها، وإلاّ فإنّ الرجل لن يفهم شيئًا. قال لها أكثر من مرة إنّه لا يستطيع أن يستوعب ماذا تقول،

وكانت في البداية تعجب من عجزه عن الفهم، ثمّ فهمت أنَّه لا يفهم لأنَّه لا يستطيع أن يزحط معها إلى حيث تزحط الكلمات. الكلمات كانت وسيلة ميليا إلى الانزلاق، تنزلق من كلمة إلى أخرى، أو تنزلق في كلمة واحدة إلى مجموعة من الصور، ولا تعود قادرة على استعادة طرف الخيط الذي يسمّونه بداية الحديث. لم يكن لخيطها طرف، تحكي كمن يلفّ الخيطان، وتتابع من دون أن تستطيع ربط الأشياء بعضها بالبعض.

«مش عم بقدر اجمّع كلامك، الكلام بينحكى مجموع، يعني بينجمع بالراس وبيصير في معنى، إنتِ هيك بتحكي دايمًا»؟

في فندق «مسابكي»، عندما فتح منصور عينيه في صباح اليوم التالي، اقترب من المرأة المستلقية إلى جانبه في السرير، وضمّها إليه، وأحسّ بقدميها الباردتين، فاقترب أكثر. استدار نحوها وامتدت يداه إلى خصرها. في ذلك الصباح، أغمضت ميليا عينيها وجمدت. ارتخت مفاصلها ودخلت في السبات. قالت إنَّها غفت، وإنَّها لا تذكر، لكنَّه سمعها تقول كلمات لم يفهمها لأنَّها كانت أشبه بالغمغمة. وعندما نهض إلى الحمّام وتراقص تحت الماء الذي كان يتقلّب بين البرودة والسخونة، جاءته ذاكرة نجيب، والخطوط الحمراء على عنق ميليا، لكنَّه قرَّر أن لا يسأل. ليس من اللياقة في شيء أن يسأل امرأة عن رجل آخر في يوم عرسها. كان يزفر تحت الدوش ويصدر أصواتًا، ويدعوها إلى الإلتحاق به. وعندما عاد إلى السرير وجدها نائمة. كانت مستلقية على ظهرها، كأنَّها تسبح فوق الوسادة التي غرق فيها وجهها وشعرها الطويل. اقترب منها كي يوقظها، فتحت عينيها كأنَّها تنهض من نوم عميق، ابتسمت له، ومالت على جنبها الأيسر وتغطّت باللحاف، وعادت إلى النوم. أشعل

منصور سيجارة وجلس إلى جانبها في السرير وانتظرها. لكنَّها لم تنهض. لبس ثيابه ونزل إلى باحة الفندق باحثًا عن غرفة الطعام. وهناك هرولت وديعة الكهلة نحوه، وسألته إذا كان يريد بيضًا مع الفطور.

«لا مش ضروري»، قال.

«البيض منيح للعرسان يا عريس»، قالت وديعة الثانية التي ظهرت فجأة كأنَّها خرجت من الحائط.

«ماشي الحال»، قال وجلس.

اقترب سائق السيارة الأصلع من منصور، وربت كتفه، وكانت الخادمتان وديعة الأولى ووديعة الثانية، آتيتين بالقهوة والحليب والبيض المقلي. وضعتا الطعام على الطاولة، ووقفتا إلى جانب السائق. قال السائق إنَّه يريد العودة الآن إلى بيروت. سحب منصور المال من جيبه، ومدّ يده به قائلاً شكرًا.

«والله إنت جدع»، قال السائق. «يعني كلّ ما أتذكَّر كيف مشيت بالغطيطة تحت التلج، بحسّ البرد عم بتشنّي من راسي لكعب إجريي، وبخاف، كيف إنت ما خفت؟ واللّه سبع، إنت مش عريس، إنت سبع».

لم يجاوب منصور، لكنَّه لاحظ ابتسامتي سخرية ترتسمان على شفاه الخادمتين، اللتين تنبّه منصور إلى أنَّهما مثل نسختين طبق الأصل. أمس قالت ميليا إنَّ تشابههما أخافها، وإنَّ وديعة الثانية كأنَّها وديعة الأولى لولا انحناءة كتفيها وتقوّس قدميها. منصور لم يلاحظ شيئًا ليلة أمس، كلّ شيء فيه كان يرتج بالبرد. أحسّ أنَّ عظامه تفككت، وأنَّه في حاجة إلى فراش دافئ، وإلى عتمة عينيه المغمضتين.

اقـتـريت وديعـة الأولى وسـألـت عن العـروس، وبعـد ثوانٍ تـكرَّر السؤال نفسه من وديعة الثانية، الصوت نفسه، والحركة نفسها.

«وين الخواجة جورج»؟ سأل منصور. لا يدري لماذا استنجد بصاحب الفندق كي يداري خوفه من هذه النسخة النسائيَّة التي تزدوج أمام عينيه.

«الخواجة نايم، مبارح تعب من النطرة»، قالت الأولى.

«الخواجة تعبان»، قالت الثانية.

إنَّهما أم وابنتها، فكّر منصور، الخواجة جورج مسابكي محظوظ بهاتين المرأتين، لأنَّ لا شيء تغيَّر عليه. العازب الأبدي، مثلما كان يسمّي نفسه، وجد الحلّ في امرأة تتكرَّر في ابنتها، ومشي الحال. خادمة، أي لا مطالب بل صمت وخضوع. وأرملة، أي لا سند. وعندها ابنة صبية تشبهها، أي أنَّه ربّى الصغيرة على يديه، فصارت المرأتان مثل خاتمين في إصبعه، ويعيش مخدومًا ومعشوقًا. هذا رجل، أراد أن يقول، وبدأ يلتهم صحن البيض المقلي أمامه. سمع حفيف قدميّ ميليا على الأرض. رفع عينيه، فرآها تقف بين الوديعتين، وأحسَّها أكثر طولاً، وهي تتكلم مع المرأتين بصوت منخفض. جلست في مواجهته، ورفعت حاجبيها إلى الأعلى، ففهم أنَّ عليه أن يتوقَّف عن أكل البيض المقلي.

شعر في الحمّام بالخزي، أقفل الباب على نفسه، ونده أمّه، لأنَّه كان متأكّدًا من أنَّه سيموت. وحده الموت يقتل الرغبة الجنسيَّة. عندما تتلاشى الرغبة فهذا يعني أنَّنا في حضرة الموت.

«لا شيء يجعلك تتعلَّق بالحياة مثل هذا»، قال الرجل الكهل الذي لا يذكر منصور منه سوى بياض شعره الكثيف الذي غطى رأسه. جاء

الرجل إلى معمل الخردوات، واشترى كمية من قضبان الحديد، قال إنَّها للمجاهدين في الجبل. نظر إلى أمين، شقيق منصور وقال: «ليت الشباب يعود يومًا». قال إنَّه يعرف بأنَّ ساعته اقتربت، لأنَّ ذلك الشيء، وأشار إلى ما بين فخذيه، لم يعد يريد. وعندما لا يريد، فإنَّه يأمرك بأن تتبعه إلى الموت. لم يستطع منصور أن يتذكَّر من الحكاية سوى نتف الكلمات هذه. وصل إلى الدكان عندما كان الرجل يهمّ بمغادرته، فلم يعلق في ذهنه سوى هذه الجملة. وها هي تعود في الحمّام وسط القيء، حين شلّ الارتخاء قدميه، وضربه الألم في مصارينه. قال إنَّه الموت، وصرخ طالبًا أمه. رأى أمه ممدَّدة أرضًا، وركبها مكسور وهي تصرخ لأمها الميّتة. كأنَّ الحياة دائرة مغلقة من الأمهات، وكأنَّ لا شيء يبقى سوى العلاقة التي تربط الولد بأمه، أي بموته. عندما تصرخ يا أمي فإنَّك تستدعي القبر من دون أن تدري. فالإنسان يعيش بين قبرين، رحم أمه والتراب. وفي المكانين يكون في طور التكوُّن ويدخل في تحوُّلات كبرى تأخذه إلى حيث يمضي.

من أخبره حكاية القبرين؟

هل ميليا؟ لكن لا، ميليا كانت سعيدة باستدارة بطنها، تنام، وتشرب الماء، وتتصرف كأنَّ حياتها بدأت الآن. إنَّها الراهبة ميلانة إذًا، لكنَّ منصور لم يلتقِ بالقدّيسة سوى مرة واحدة في حياته، حين حضرت العرس في الكنيسة. يومها لم يرَ أو يسمع شيئًا. هل رأى الراهبة في المنام؟ لكنَّه لا يحلم، ولا يتذكَّر مناماته.

أراد منصور أن يروي لزوجته حكاياته مع النساء قبل الزواج، لكنَّها لا تريد أن تسمع، ثمّ لماذا يحكي؟ حكايته الكبرى بدأت حين رأى

هذه المرأة فعلق بها، من دون أن يدري كيف. لم يفهم ماذا جرى له، ولماذا صار حوضها يلاحقه كلّما أغمض عينيه. سحرته ميليا بذلك الالتفاف الذي يمتدّ من خصرها إلى حوضها، رأى بياضها ينفجر تحت فستان أبيض رُسمت عليه حبات كرز حمراء. أراد أن يقترب منها ويتكلّم معها لكنّه لم يجرؤ. واقتضى الأمر ثلاثة أشهر قبل أن يحكي معها، ويلاحظ الغمّازة في خدّها الأيمن، وعينيها الواسعتين المرسومتين بالنعاس.

«بيضاءُ قد لبس الأديمُ أديمَ
الحُسنِ فهو لجلدها جلدُ
وبصدرها ثديان خِلتهما
كافورتين علاهما ندٌّ»

«شو عم بتقول»؟

«عم بقول شعر».

«ليش إنت شاعر»؟

«لا، بس بحب الشعر».

«وشو كمان»؟

«أتاني طيف عبلة في المنامِ
فقبّلني ثلاثًا في اللثامِ
وودّعني فأودعني لهيبًا
أستّره ويشعل في عظامي

ولولا أنَّني أخلو بنفسي

وأطفي بالدموع جوى غرامي

لمتّ أسىً ولم أشكُ لأنّي

أغار عليكِ يا بدر التمام»

«وكان يحلمها»؟

«طبعًا وإلاّ كيف حبّها».

«يعني إنت حبيتني بالمنام»؟

«قلت لك أنا مش شاعر».

لاحظت الشبه بينه وبين شقيقها موسى، فخفق قلبها وابتسمت. تلك الابتسامة كانت البداية التي ستنتهي به في كنيسة الملاك ميخائيل، وتأخذه في الرحلة الضبابية إلى شتورة. هناك، داخل الحمّام البارد، صرخ لأمه، لأنَّه شعر بالموت يقترب.

لا، الأمور لم تكن هكذا، لكنَّه رواها بهذا الشكل لزوجته بعد ثلاثة أشهر من الزواج، حين أراد فتح ملف الحكاية المدفونة.

لم يقل إنَّه شعر بالبرد الشديد في الحمّام، لكنَّه لم يجرؤ على الخروج إلى الغرفة، خوفًا من أن يزيد الأمور تعقيداً. بدا بلاط الحمّام الأحمر كقطع من الثلج تحرق قدميه العاريتين، وهو جالس على كرسي المرحاض. ميليا تقرع على الباب وتقول إنَّها ستستدعي الطبيب. «لا يا ميليا، أنا منيح، روحي نامي دخيلك».

لا يدري كيف خرجت الكلمات من بين شفتيه المرتجفتين، لكن حين سمع حركة تراجعها عن الباب ارتخت مفاصله، واجتاحه الارتجاف

الذي كان مختبئًا بين ضلوعه. عاد إلى السرير مرتجفًا يائسًا. مشى على رؤوس أصابعه، وقف يتدفأ أمام الصوبيا المشتعلة، قبل أن يجد طريقه إلى الفراش ويتقوقع حول نفسه.

كانت ميليا نائمة، استلقى بعيدًا منها، غطّى جسمه ورأسه باللحاف، وبدأت الحرارة تسري في أوصاله. غفى قليلاً، فتح عينيه كالمذعور، وفكّر أنّه عريس في ليلة عرسه، وأنّ العريس يجب أن لا ينام قبل أن يحتوي المرأة المستلقية إلى جانبه في السرير.

قال لها إنّه لم يستطع أن ينام لأنّ الشوق اجتاحه، رأى خصرها وهي تقف تحت شجرة اللوز، وشعر بحوضها يأخذه. ومع كلّ لمسة وقبلة، بدأ يستعيد طعم الأشياء، ويجمع نتف روحه التي تبعثرت في البرد والخوف.

اليوم، يراها تتدور وتقول إنّها حبلى. كأنّها تولد من جديد. كأنّ الطفل الذي في بطنها رسم شكلها النهائي. رأى الخطوط الحمراء على عنقها، وتذكر القصة التي لم يخبروه إيّاها، وأراد أن يعرف.

أما هي فلم تكن تبالي. نظراتها الدائمة إلى الأسفل، التي أوحت لمنصور بأنّ الحياء علامة ميليا، اتّخذت الآن شكلاً مختلفًا. نظرات هذه المرأة جزء من عالم الدوائر الذي تعيش فيه. تنظر إلى الأرض فتكتمل الدائرة، وتنغلق على نفسها، وتذهب إلى حيث لا يستطيع أحد اللحاق بها.

شعر بالغيرة، لا لم يشعر بالغيرة، بل بالبعد. كأن المرأة رسمت بدوائرها مسافة بينها وبينه، وتركته عاجزًا عن اختراقها.

قالت إنّها ذاهبة إلى النوم، ووقفت.

«إقعدي»، قال.

«متل ما بدّك سمّيه»، قالت، «ما بعرف ليش إنت هيك، كنت مفكرتك رح تتبسط متل كلّ الرجال يللي بيعرفوا أنّ مرتهم حبلى».

«لا مش الاسم»، قال، «المسألة شي تاني»، وسألها عن نجيب.

كانت هذه هي المرة الأولى، منذ سنتين، التي تسمع فيها إسم هذا الرجل. توقف جميع أفراد العائلة عن ذكر إسمه، وحين يشار إليه يقولون: «هيداك»، كأنّ الضمير حلّ مكان الرجل، لم يعد نجيب رجلاً، صار مزيجًا من الأحرف التي لا تدلّ على معنى.

اختفى نجيب واختفت صورته، وتلاشى إسمه، وها هو يستعاد في اللحظة التي تحرّرت فيها ميليا من ماضيها، ومن ذكريات تلك الأيام. أرادت أن تقول إنّها لا تعرف، «لا مش ما بعرف، بس الحكاية ماتت واندفنت وما في لزوم».

جدتها ملكة كانت أول من علّمها ضرورة التمييز بين الحكايات، وكانت تنهر سعدى عن الكلام حين يرد إسم والد زوجها على لسانها، وحكاية البيت الذي اشتراه.

«الحكاية التي تتعفّن يجب أن تُدفن، للحكايات روائح»، قالت الجدّة.

الجد كان مصدر ألم دائم لنساء العائلة، وحكاية البيت يجب أن تُنسى، والمرأة التي سكنته يجب أن تُدفن مع الحكاية. لم يعد أحد يحكي عن المرأة المصرية، أو عن الخواجة افتيموس، أو عن الفضيحة التي

حصلت حين اشترى الجدّ البيت بعد موت عشيقته، التي كانت أيضًا عشيقة رجل آخر. فلماذا يريد منصور نبش الحكاية التي دفنتها ميليا؟

ارتاحت سعدى لأنّ كابوس الرهبنة انتهى. من أين جلب هذا الولد الشغف بالرهبان الجزويت وبالكثلكة؟ كان الوحيد من بين إخوته الذي أكمل تعليمه كي يصير محامياً، فإذا به يجلب نغمة الالتحاق بالجزويت، ويثير عاصفة في البيت.

شقيقه، الحاج نقولا قال إنّه سيقتله بعدما استمع إلى النقاش الصاخب بين الأم وابنها البكر. ذهب نقولا إلى الليوان، وعاد إلى الدار معتمرًا طربوش والده الأحمر، وقال لشقيقه بصوت عريض ومنخفض إنّه سيقتله.

«في خي بيقتل خيّه»؟ صرخ سليم.

«ما هو القتل هيك بلش بالدنيا، الخي قتل خيّه، قايين قتل هابيل، هلّق هابيل بدّه ينتقم، ما حدا يمزح معي، هالحركات ما إلها مطرح بهالبيت، والقصة ما بتكلّفني أكتر من رصاصة، والتابوت من عندي من المحل».

من يومها لم يخلع نقولا الطربوش عن رأسه، وسرت في أوصال أفراد العائلة قشعريرة الخوف. سعدى لم تدرِ ماذا تفعل، ذهبت إلى القديسة ميلانة كي تستشيرها. «عندي ولدين، الأول بدّه يصير راهب جزويتي والتاني رح يصير مجرم، شو بعمل»؟

«جزويتي»! قالت الراهبة. «أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، كأنّه مش حفيد سليم يللي كان أول واحد دقّ جرس كنيسة مار جرجس

ببيروت، هيداك كان رجّال، وهلق جايي سليم الصغير يللي ورت إسم جده يتخلّى عن الإيمان القويم منشان يلحق الفرنساويّة! تفو على الشيطان».

طلبت من سعدى أن تبصق على الشيطان. بصقت سعدى وسألت الراهبة ماذا عليها أن تفعل من أجل تجنّب هذه التجرية.

«عن جدّ خيّه بدّه يقتله»؟ سألت الراهبة.

هزّت سعدى رأسها بأن نعم.

«هيدا رجّال»، قالت الراهبة. «هيدا كان لازم يكون ابنك البكر، بدّه سليم يعمل راهب يروح على جبل آثوس باليونان، هونيك الرهبنة الأرثوذكسيّة المزبوطة، يللي بترضي ربنا».

«هلّق بدّك تبعتي ابني على اليونان، اللّه يخلّيكِ بلاها».

«مش أحسن ما يموت»؟

«ليش بدّه يموت»؟

«ما إنتِ قلتِ أنَّ خيّه نقولا بدّه يقتله، لازم نقولا يخوّفه حتى يتراجع عن هالقرار، وبعدين أنا بشوف شو لازم ينعمل».

«وإذا ما تراجع»؟ سألت سعدى.

«بيموت»، قالت الراهبة.

«بيموت»!

«شو فينا نعمل»؟

«يعني إنتِ مع القتل»؟

«لا، أنا ما قلت إنّي مع القتل، بس هيدي بتكون إرادة ربنا».

«وأنا بخسر أولادي»!

«ما بتكوني خسرتِ أكتر من يللي خسرتيه، في أكتر منِ هالكفر، تركي نقولا يحكي متل ما بدّه، وما تضغطي عليه».

«يعني إنتِ ما عندك مانع أنَّ الخيّ يقتل خيّه».

«أكيد عندي مانع، لا تقتل بتقول الوصية، بس هيدا ما بيعني أنَّ الإنسانِ بيعرف كيف إرادة اللّه بتتجلّى، قالت الوصية لا تقتل، والناس ما وقفت تقتل بعضها، وكلّ الناس إخوة، يعني يا سعدى ما حدًا بيقتل إلاَّ خيّه، بس طبعًا أنا ضدّ القتل».

جرّت الراهبة سعدى من يدها، وسجدتا أمام أيقونة مار الياس، تمتمت الراهبة صلواتها أمام القدّيس الواقف في عربة نارية، حاملاً سيفًا من لهب.

«هو يللي رح يخلّص أولادك، ما تخافي».

يومها بكت سعدى، شعرت المرأة، التي تمضي معظم أوقاتها في دير الملاك ميخائيل، بالضياع. صحيح أنَّها تصلّي وتصوم وتدعو إلى المحبة من خلال إيمانها بإستقامة الرأي، لكنَّها تكره الجزويت لأنَّهم يتكلَّمون بالجزويتي، ويصلّون باللغة اللاتينيَّة التي لا تفهمها.

«ما أنتم كمان بتصلّوا باليوناني وما بتفهموا معاني الكلمات»، أجابها سليم.

«لا منفهم، حتى إذا ما فهمنا، اليوناني بيفوت على القلب وهيك منفهم كلّ شي».

«مش ضروري نحن نفهم الصلاة»، قال سليم، «البابا وحده بيفهم، منشان هيك لازم الواحد يعرف سبع لفات على القليلة حتى يصير بابا».

«إخرس ما تجيب سيرته»، ورسمت إشارة الصليب كأنَّها تستعيذ من الشيطان.

تبدَّدت عاصفة سليم بسرعة، فبعد إعلان نقولا نيَّته في قتل شقيقه، لم يعد سليم إلى طرح موضوع الرهبنة من جديد. ميليا كانت مقتنعة بأنَّ شقيقها الكبير سيختفي ولن يعثر عليه أحد، لأنَّه سيكون متَّشحًا بالسواد في أحد أديار اليسوعيِّين خارج لبنان. وهكذا لن تحصل الجريمة، ولن ينتقم هابيل من أخيه قايين. إذ ما معنى الحكاية لو أنَّها صارت مجرد انتقام. لو تيسر لهابيل أن ينتقم، لماتت الحكاية واندثرت.

لم يعرف أحد لماذا تغيَّر سليم. هل بسبب العلاقة مع الأخ أوجين، أم بسبب الفشل في دراسة الحقوق، أم ماذا؟

بدأت علاقة سليم بالراهب الجزويتي من خلال مدرسة الأحد والأفلام السينمائيَّة، واستمرَّت طويلاً. وصار سليم يذهب إلى المخيَّمات الصيفيَّة التي ينظِّمها أوجين لفتيان الحي. وفجأة جاء سليم وأعلن أنَّه نال منحة لدراسة الحقوق في الجامعة اليسوعيَّة، ولن يكلِّف أهله قرشًا واحدًا. لكنَّ سليم لم يستطع إنهاء دراسة الحقوق، بقي في الجامعة أعوامًا عديدة، وحين كان يُسأل متى يصير «أفوكاتو»، كان يجيب بأنَّه

يشتغل ويدرس في الوقت نفسه، وهذا يؤخّر تخرُّجه، أما ماذا اشتغل وأين، فلا أحد يعرف. يبدو أنَّه فشل في دراسة الحقوق، أو تلهّى عنها بأمور أخرى. وعندما جاء بقنبلته الجزويتيَّة، فهم الجميع أنَّه لم يدرس الحقوق قط، وأنَّه ربما التحق بدورات لدراسة اللاهوت الكاثوليكي. قال لموسى إنَّ الراهب أوجين وعده بتسفيره إلى روما من أجل متابعة الدراسة هناك، لكن شرط الدخول في سلك الرهبنة.

عشرة أعوام ضاعت، في الوقت الذي عمل فيه نقولا وعبدالله في دكان الوالد، وانتقلا إلى صناعة التوابيت، وتابع موسى دراسته، وتركت ميليا المدرسة كي تتحوَّل سيِّدة البيت، كان سليم عم يلعب باللاهوت، مثلما قالت الأم. ثمّ يأتي ليخبرنا أنَّه سيصير راهبًا! «الحمدالله أنّ الحاج نقولا هدَّه»، قالت ميليا، وسمعت صوت أمّها يخرج من حنجرتها، كأنَّها ليست هي من يتكلم، «أكيد الفرير أوجين كان أصل البلا، بس ما خلصنا من مصيبة حتى وقعنا بمصيبة جديدة».

المصيبة الجديدة كانت الحكاية المدفونة، التي استمع منصور إلى شذرات جديدة منها، واقتنع أنَّه كان غلطان، وأنَّ عليه الآن أن يعيد دفنها من جديد خوفًا على عنق ميليا الذي امتلأ خطوطًا حمراء.

«أنا ما خصّني»، قالت، «قالوا لي عريس، قلت عريس، وقبلت لأنَّهم قالوا لي اقبلي، وبعدين اختفى، وفهمنا أنَّ سليم سحبه حتى يقدر يتزوج آنجيل. كيف صار هيك، ما حدا بيعرف. شو علاقتي أنا بزواج سليم بالبنت؟ واللّه ما بعرف، كلّ شي منعرفه أنّ آنجيل عندها أخت أكبر منها اسمها أوديت، وأنَّ البيّ ما بيزوّج آنجيل قبل ما تتزوَّج أختها

الكبيرة، وهكذا يا سيدي أقنع سليم خطيبي، فاختفى الرجلان وعاشا في حلب، واشتغلا في معمل الخشب الذي يملكه عمهما جاك اسطفان. يعني بدال الخي ما يقتل خيّه، قتل أخته، باختصار شديد الحقّ على خيي، كلُّهم قالوا هيك، أنا قلت لا، يمكن الحقّ على نجيب، يمكن هو يللي زبّط المسألة، نجيب أشطر من سليم، وما بيخاف من ربه. خيّي مسكين، أنا أكيدة، بس ما حدا صدقني، كلُّهم عم بقولوا إنَّ الحقّ على سليم، فصدقتهم، وصرت قول متلهم. وبعدين إجت الراهبة وقال طمشوا القصة، فضيحة بفضيحتين، فضيحة البنت وفضيحة خيّها. فضيحة البنت فهمناها، كانت خاطبة وانفكست الخطبة، بس هي عدرا متل ستنا مريم السلام لإسمها، ورح تبقى عدرا. الراهبة قالت هالحكي بصوت عالي منشان يسمعوا الجيران، بعدين وطّت صوتها وقالت عن سليم، قالت راح وتزوج عند الروم الكاثوليك وصار كاتوليكي، يعني من الدلف لتحت المزراب».

«وطي صوتك»، صرخت سعدى.

كانت هذه هي المرة الوحيدة التي صرخت فيها سعدى بالراهبة. لم يسبق أن سمع أحد صوت سعدى في حضور الراهبة. كانت تتمسح أمام القدّيسة، يحدودب ظهرها كأنَّها تنحني، وتبتلع صوتها كأنَّها أصيبت ببحة، ولا تحكي إلاَّ همهمة. لكن، في ذلك اليوم، حين حلّت المصيبة، خشيت سعدى على ابنتها، لم يكن يهمها أمر سليم أو أمر المرأتين اللتين تزوجهما. قالت إنَّه تزوَّج اِمرأتين، ثم قالت لا، «شوفوا شو عم بحكي، بسّ هيدا قلبي يلّي عم يحكي، كأنَّه خطف أخته وقتلها، تفو عليك يا بني آدم».

روت ميليا لشقيقها عن الأختين المتشابهتين. فتاتان متوسطتا الطول، وجهان أبيضان مدوَّران، أنفان طويلان، شفاه رفيعة وممحوة، أسنان صغيرة تبرز اللثتان فوقها. سليم أخذ الرفيعة وأعطى نجيب السمينة، وهيك صار.

«وين شفتيهم»؟ سأل موسى.

«كانوا مع سليم بساحة البرج، كنت رايحة طلّ على إخوتي بالدكان بسوق النجارين، وبعدين تمشيت صوب سوق الطويلة، وشفتهم. وصار سليم يتخبّى خلف النسوان. لا، كنت ماشية بالشارع، وكانت عتمة، والدنيا عم بتشتّي، وزحطت، انتلت تيابي مي، وقفت وصرت نفّض حالي، وساعتها شفتهم، كان نجيب مشنكل الناصحة وسليم ماشي ورا، كأنَّه عم يلحقهم ومش عم يقدر، وبعدين وقع سليم. تطلعوا لورا وتركوه، كان مرمي على الطريق ومبلل مي، جيت بدي قرّب لعند خيّي حتى ساعده، رجع نجيب لورا، جفلت وبلّشت أركض، وشفت نجيب عم يبوس الناصحة، وكانوا عم يضحكوا، وأنا صرت أبكي».

أغمض موسى عينيه وقال إنَّه لم يعد يفهم، «بالنسبة إليّ خيي سليم مات وخلص، لازم أنساه، وإنتِ كمان لازم تنسي».

كرجت دموع ميليا على خديها، انحنى موسى على أخته، ومدّ يده إلى عينيها، رأى فتاة صغيرة، ورأى نفسه يقبِّل العينين المبللتين بالدموع، يتراجع إلى الوراء، ويستمع إلى أخته تطلب منه أن لا يبكي، «المسألة ما بتحرز يا خيّي، بعدين هيك أفضل، عمره ما يكون، إذا كان هو وخيّي فاشلين بالجامعة، وبدهم يشتغلوا نجارين، ليش ما نزل سليم على المحل مع إخوته. وبعدين هيداك شو خصّه بالنجارة، سليم فهمنا

ابن نجار وصار نجار، بس نجيب شو دخله، من أيمتى اله علاقة، وشو هالبيّ يلّي بدّه يزوج بناته بأي ثمن، بعدين شو راحوا يعملوا بحلب، بكرا رح يندموا».

هل أخبرت ميليا الحكاية مثلما حصلت؟ بالطبع لا، إذ لا يستطيع أحد أن يخبر حكاية بوقائعها وتسلسلها، وإلاّ سوف يقضي الإنسان عمره كلّه في إخبار حكاية واحدة. تجاوزت ميليا الكثير من الأمور. لم تخبر عن حبها لنجيب، وتعلّقها بخبرياته، والأحاسيس الغامضة التي سيطرت على روحها وجسدها، ولم تشعر بما يشبهها إلاّ في الأمس، حين عرفت أنّها حبلى.

أخبرته، وقالت أن لا علاقة لها.

«بس يعني حبّيتيه»؟ سألها منصور.

«أنا ما حبّيت حدا»، أجابت.

«وأنا»؟

«إنت غير شكل».

«شو يعني غير شكل»؟

«يعني إنت زوجي».

«عم بسألك إذا بتحبّيني»؟

«حدا ما بحب زوجه؟ أكيد».

في ذلك اليوم الذي حبلت فيه، وأعطت جسدها حرية أن يتدوّر كما يشاء، شعرت أنّها لم تعد في حاجة إلى أحد، لأنّ الروح الذي في بطنها جعلها تشعر أنّها أكثر من شخص واحد.

«أنا ما خدعت حدا، هو خدعني، وخيّي خدعني، وأمي خدعتني، وأنا ما كنت فهمانة شي، شو كان بدّك ياني أعمل»؟

في الشهر الثالث، عندما دخلت ميليا في ملكوت المثنى، استعادت ميليا الصغيرة في مناماتها، واكتشفت أنّ وحدتها وحزنها لم يكونا بسبب شوقها إلى أمها، أو إلى شقيقها موسى. لا، الشوق كان إلى الطفلة السمراء التي تملأ ليالي ميليا بالحركة، وتضيء حياتها، وتسمح لها بأن ترى الدنيا تحت مشحة الضوء الذي يشعّ في عينيها.

لم تتوقف ميليا عن النوم حين كان منصور يقترب منها، لكنّها صارت تشعر بالدوار. وفي الدوار كان ماؤها يفيض. ادّعى مرة أنّه رآها تبتسم، فلم تصدّقه. الغرفة كانت معتّمة، والقمر لم يكن هناك كي يتسرّب الضوء من النافذة المواجهة لسريرها. اختارت هذا السرير من أجل النافذة، قالت إنّها لا تستطيع النوم من دون النافذة. اختارت هذا السرير وتركت لزوجها السرير الموازي، وصارت تغمض عينيها على ألوان العتمة، رافضة وضع ستارة على النافذة. الستارة تقتل تلاوين العتمة، وهي تريدها، ومنصور لا يبالي. وفي كلّ المرات التي دخلا فيها إلى الغرفة معًا كانت تقول إنّها تعبانة. تلبس قميص نومها الطويل، تتغطى حتى عنقها وتنام. وكان ينتظرها. يغفو قليلاً ويصحو، ثم ينهض من سريره ويتسلّل على رؤوس أصابع قدميه إلى سريرها. ميليا تلتصق بالحائط مديرة ظهرها لسرير زوجها. يستلقي إلى جانبها وتبدأ يده رحلتها إلى الكتفين، تنحدر إلى الظهر، ثمّ تلتفّ حول النهدين. وحين يستمع إلى أول تأوه، يبرمها فتستلقي على ظهرها. يرفع قميصها إلى الأعلى، ويدخل. يصير تنفّسها أكثر عمقًا، وتصدر شهقات قصيرة

مبحوحة. اليدان مسبلتان، والرأس يغوص في الشعر الكستنائي الطويل الذي يغطي الوسادة، والعينان مغمضتان، والشفتان شبه منفرجتين بحيث يستطيع منصور التقاط القبل منهما. الشهقات القصيرة، والارتخاء الذي يجعل جسد المرأة محمولاً على العتمة، كانت تجنن منصور، فتبقى رغبته مشتعلة حتى بعد أن يأتي. ينسحب منها بهدوء إلى الحمّام، يغتسل، فيشعر كأنَّه لم ينم معها، كلّ شيء فيه يبدأ من جديد. يعود إلى الغرفة فيجدها قد برمت ظهرها. يحاول أن يندسّ من جديد إلى جانبها في الفراش، فلا يجد مكانًا، يزيحها فلا تتزحزح، فيعود إلى سريره خائبًا.

ولا مرة دخلت ميليا إلى الحمّام كي تغتسل بعد الحب. تنهض في الصباح مشرقة ورائحة الصابون تفوح منها. يحاول تذكيرها بما جرى ليلة أمس، فتنظر إليه بعينين مفتوحتين على الدهشة، كأنَّها لم تكن هي، أو كأن ما جرى لم يجرِ.

ولكن متى تتحمّم؟

هل تنتظره كي ينام، فتهرع إلى الحمام، أم تنهض باكرًا وتتحمّم، ثمّ تعود إلى النوم من جديد؟

ينهض منصور في السابعة صباحًا، حين تكون زوجته نائمة. يعدّ القهوة التركيَّة في المطبخ، ويجلس أمام الطاولة الخشبيَّة، مشعلاً سيجارته الأولى، فيراها آتية. الدقائق التي تفصل يقظته عن قدومها إلى المطبخ لا تكفي كي تفوح رائحة الصابون والغار من شعرها. تأتي متلألئة بالماء، يسألها متى تحمّمت، فلا تجاوب، «طالع على بالي أتفرَّج

عليكِ عمّ تتحمّمي»، أخذت ركوة القهوة من أمامه، أضافت إليها قليلاً من ماء الزهر، وأعدَّت طعام الفطور المؤلف من اللبنة والجبنة والزعتر والعسل ومربّى السفرجل.

«شو رأيك الليلة قبل ما ننام»؟

«رأيي بشو»؟

«رأيك بالحمّام، إنتِ تتحمّمي وأنا أتفرّج عليكِ».

«عليّي»!

قال إنَّه يريد أن يتفرّج عليها في الحمّام من أجل قصيدة أبي نواس.

«يلله قوم على شغلك، أنا كمان عندي شغل كتير اليوم».

لم يسألها ما هو هذا الشغل الكثير، فهو يعرف أنَّها تمشي وحيدة في طرقات المدينة. ومنصور مقتنع بأنَّ الحقّ عليه، وأنَّه بعد جولتين قصيرتين في طرقات الناصرة، توقف عن الخروج معها. حتى يوم الأحد كان يتركها تذهب وحيدة إلى القداس في كنيسة البشارة، بينما يلوطع وحيداً في البيت. لم يفهم معنى كلمة يلوطع، لكنَّه اعتبرها وصفًا للكيفية التي يضيّع بها الوقت صباح الأحد، في انتظار أن تصير الساعة الثانية عشرة ظهرًا، فيبدأ في سكب العرق وشي اللحم، تمهيداً للانطلاق في سكرة عرمرميَّة تنتهي عادة بالخلاف بين الزوجين، لأنَّه يصرّ على مضاجعتها في وضح النهار، وفي النهاية تخرج ميليا من البيت، كي تعود بعد ساعتين، فيكون منصور نائمًا فتنصرف إلى الجلي والترتيب.

كيف تتحمّم ومتى؟

تخيّل منصور زوجته على شكل المستحمة في قصيدة أبي نواس. يراها رقيقة كالماء، والماء يتساقط فوق الماء.

يضع كأس العرق بين شفتيه، يمتص السائل الأبيض ويرندح:

«وقـــابلتِ الهـــواء وقـــد تعـــرت

بمعـــــتـــــدلٍ أرق من الهـــــواءِ

ومـــدت راحـــةً كـــالماءِ منهـــا

إلى مـــــاءٍ مـــــعـــــدٍ في إناءِ»

رأت عين الرقيبِ على التداني...

لا لا مش هيك.

فلمّـــا ان قـــضت وطرًا وهمت

على عـــجلٍ إلى أخـــذ الرداءِ

رأت عين الرقـيب على التـداني

فـأسـبلت الظلام على الضيـاءِ

لا بالأول نضت، ليكي هالكلمة ما احلاها، نضت يعني شلحت.

نضت عنها القـميصَ لصبِّ مـاءِ

فـوردَ وجـهـهـا فـرطُ الحـيـاءِ

وقابلت الهواء وقد تعرت، إلى آخره، وبالآخر هيك بتخلص:

«فـفـابَ الصبح منهـا خلف ليلٍ

وظلّ الماء يقطر فـــوق مـــاءِ»

يقفز بين الأبيات، يعود إلى البيت الأول، ينزلق إلى البيت الأخير، يقدِّم ويؤخِّر، يعلو فوق الماء ويسقط فيه، كأنَّه يسبح. يقول إنَّ الشعر ماء، وجسد المرأة ماء، والحب ماء، والله على عرش الماء، «وجعلنا من الماء كلّ شيء حي». يقفز كي يسرق من المرأة ذات الشفتين المنفرجتين قُبلة تخبئها، أو كلمة تريد أن تقولها، ثم يجد نفسه مرهقًا وقد فقد حيلته، «أنا حامل الهوى»، يقول، «حامل الهوى تعبُ». تغادر ميليا إلى المطبخ، يلحق بها، «هيدا العرق يا مرا، يا لطيف شو بيعمل العرق، أبيض على أبيض، عشرة على عشرة، العرق عشرة على عشرة».

لا تفهم ميليا لماذا لا يفكِّر زوجها إلاَّ بهذا الشيء، ولا يرى كم هي غريبة ووحيدة. وميليا تخاف، لا، منصور مش هيك، لكنَّ الآباء يقتلون أبناءهم، هذا ما آمنت به طوال حياتها، لا، هذا ما رواه والدها، لا، الوالد لم يروِ، لكنَّها حكاية العائلة. الحكاية لم تُدفن مع والدها حين مات، إذ بقيت صورة الجدّ سليم تحتلّ المشهد كلّه. حتى عندما صار الأب مثل أبيه، مثلما قالت سعدى لأولادها، فإنَّ صورة الضحية لم تغب عن وجه يوسف المليء بالفجوات السوداء، أو عن عينه نصف المغمضة.

«هل يستطيع الأب قتل ابنه»؟ سألت جدتها.

«لا يا بنتي، هو ما كان بده يقتله، ضربه بالحجر لأنَّه ما عرفه».

«كيف، حدا ما بيعرف ابنه»؟

افتكره حرامي، فضربه بالحجر، الحقّ مش على البيّ ولا على الابن، الحقّ على الظروف، الأيام كانت صعبة يا بنتي، ويمكن الحقّ على المرا، خلقت المشكلة وورّثتنا ياها من بعد ما ماتت. جدك سليم اشترى

البيت، والبيت هو المشكلة، بيّك حاول بالأول يبيع البيت بسّ ما قدر، حتى تبيع لازم تلاقي مين يشتري، وبهيديك الأيام ما كان في مصاري، وهيك علّق يوسف وعلقتم معه بالبيت. لا جدك ما كان قصده يقتل ابنه، هيدا حكي الراهبة يللي أمك بتحكي من وراها كأنّها ببغا، لا، هيدا مش مزبوط، ومش ممكن يكون مزبوط، وخلص الحكي».

في تلك الليلة، عندما استدار بها الحمل، ودخلت في ملكوت المثنى، قرّرت ميليا أن تبدأ حياتها من جديد. لكن من أين أتى شبح نجيب؟ لماذا أخرجه منصور من كهف الذاكرة؟

تزوج منصور هذه الفتاة لأنَّه أحبَّها، حاول أن يشرح لها معاني الحب، أعتقد أنَّها عاشقة مثله ولا تجد الكلمات التي تعبِّر عن حبها. استعار الشعر وفرشه تحت قدميها، وقال إنَّ بشّار بن برد، وصف الحب حين كتب جسده في هذين البيتين:

«خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنظري
بلى جسدي لكنَّني اتسترُ

وليس الذي يجري من العين ماؤها
ولكنَّها نفسٌ تذوب فتقطرُ».

كان يلتهم صحن البيض المقلي في غرفة الطعام في الفندق، عندما اقتربت منه. رفعت الصحن من بين يديه، وأعطته لإحدى الوديعتين، وقالت إنَّ هذا مضرّ بصحته.

«طبت خلص»، قال.

«لا ما صحيت»، قالت.

«ولو، ما شفتي بعدين كيف صرت زي النمر مبارح».

«مبارح»!

«إنشالله عاملة حالك مش فهمانة».

«مبلى فهمانة إنَّك لازم تنتبه على صحتك، ولازم ننزل على بيروت، وين الشوفير»؟

أجابها أنَّه دفع أجرته، وأنَّ السائق تناول فطوره ونزل إلى بيروت.

«ونحن»؟

«رح نبقى كمان ليلتين، وبعدين منتسهّل على بيروت، ومنها على الناصرة».

«لا، لازم ننزل اليوم، الدنيا برد».

جلست في مواجهته، أكلت قليلاً من الجبنة، شربت فنجان شاي، ورأت كيف التهم الرجل كلّ شيء أمامه على الطاولة.

كانت ميليا تشعر بالجوع، لكنَّها عرفت أنَّها أمام نهم زوجها إلى الطعام لن تأكل إلاّ قليلاً، وستكتفي بمراقبته وهو يتأوَّه أمام طبخها الهائل. وسيقول إنَّه أوَّل رجل في العالم يفضّل طعام زوجته على طعام أمه. كانت تستمع إليه وتفكّر بأشقائها الثلاثة في البيت العتيق في بيروت، وكيف سيعتادون من جديد على طعام أمهم البلا طعم. لكنَّ الطريق مقطوعة بسبب الاضطرابات في فلسطين، والرسائل لا تصل. فقرَّرت أن تحكي مع شقيقها موسى بطريقتها الخاصة. حين يخرج

منصور إلى العمل، ويصير البيت خاليًا، تتده له فيحضر، تسأله فيجيب، وتراه أمامها. تشكو له الوحدة والخوف، والشوق إلى رائحة أشجار الزنزلخت في الحديقة.

أمضت ميليا ثلاثة أيام مع زوجها في الفندق الفارغ. لم يكن هناك سوى الخواجة مسابكي وخادمتيه، ومشهد البركة الصغيرة في حديقة الفندق التي امتلأت بالثلج، وصوت منصور ينشد لها الشعر ممسكًا بيدها.

«هيدا الملك، ويللي واقف حدّه أمير الشعراء أحمد شوقي»، قال منصور، «الملك هرب لمن هجموا الفرنساويّة على الشام، وعمل ملك على العراق، بهدلة، عمرك سمعتِ عن ملك خان مملكته مع مملكة تانية؟ بس إحنا هيك، وأحمد شوقي واقف وعم يبكي على الشام يللي ضربها الجيش الفرنساوي بالمدافع.

«سلامٌ من صبا بردى ارقُّ
ودمعٌ لا يكفكفُ يا دمشقُ»

ميليا بين اليقظة والنوم، تشعر بالنار في عظامها، تخرج إلى الحديقة، تضع يدها في الثلج وتلتهمه. الثلج يذوب على شفتيها المحترقتين، والعطش يفترسها. تنام إلى جانب منصور في السرير، يأخذها الرجل بيديه القويتين، تغفو في النار وتحلم. لكنَّ ميليا الصغيرة لن تعود إلاّ بعد ثلاثة اشهر، احتلت مكانها امرأة في الرابعة والعشرين، تستلقي فوق ضباب ضهر البيدر، وتمضي إلى عالم غامض قادتها إليه امرأة زرقاء لا تعرفها.

الليلة الثانية

وكانت العتمة.

ميليا في السرير والألم. ألم يعتصر أسفل بطنها ويصعد إلى الأعلى. تشعر بالاختناق، قبضة تنفرس في أسفلها وتشدّ. جسمها مشلول ورأسها ثقيل. تفتح عينيها فلا ترى. الألم يتراخى كأنّه ينتشر على بطنها قبل أن يذوب، تاركًا وراءه ذاكرة متلاشية.

انقضت الأشهر التسعة وجاء الموعد.

الألم يعود، بطنها يتقلّص، ومعه تأتي جدّتها أم يوسف. لماذا امحت هذه الجدّة من ذاكرتها؟ ولماذا تعود اليوم؟

شعر أبيض مربوط كعكة خلف عنق المرأة الكهلة التي تجلس كسيحة وصامتة في سريرها، وقط كهل يحوم حولها ولا يجرؤ على الصعود إلى جانبها في السرير.

ماتت أم يوسف، حسيبة حداد عندما كانت ميليا في الثالثة من عمرها، وامحت من ذاكرة الفتاة التي لم تدخلها أصلاً. لماذا تعود اليوم؟ ولماذا القط؟

استيقظت ميليا من النوم، فتحت عينيها على أشعة الصباح، نهضت من السرير واضعة قدميها على مشايتها كما تفعل عادة، وقفز

القطط بين قدميها. تحولّت المشاية قطّاً يركض، لحقت به، حشرته في زاوية الغرفة، تقدّمت منه وضعت قدميها عليه وسمعت صوت مواء يشبه الحشرجة. ثم رأت جدّتها حسيبة، التي كان اسمها الأصلي حبيسة لكنّها غيّرته وأطلقت على نفسها اسم حسيبة.

لا تدري سعدى لماذا أطلق أبوسعيد هذا الاسم على ابنته، ربما كان هذا إسم جدّتها. ولكن لماذا سُميت جدّتها بهذا الاسم؟ المهم أنّ المرأة غيّرت اسمها، كلُّ الناس صاروا يدعونها بإسمها الجديد ما عدا كنتها. حتى بعد موتها ظلّت تدعوها باسمها الأصلي. وكان يوسف يغضب ويرجو زوجته بصوت مرتجف أن تتوقف، لكنّ سعدى هي سعدى.

«أنا بدّي سمّيها ستي حسيبة»، قالت ميليا لأمها.

«سمّيها شو ما بدّك يا بنتي، بس هي اسمها حبيسة، اللّه ريّحها وريّحنا وريّح البسين».

ما حكاية القطط الذي قيل إنّ سعدى سممته بعد أربع وعشرين ساعة على وفاة حماتها؟ لا تذكر ميليا دموع والدها، لكن سعدى أخبرتها. «بكي على البسين أكتر ما بكي على أمه».

كان يُدعى الباشا، الجدّة أطلقت عليه هذا الإسم لأنّه يشبه الباشوات الأتراك، كما قالت. أشقر الشعر، عينان بنيتان، شاربان طويلان، وسمين كخروف. كان كهلاً ومصابًا في عينيه. يبدو أنّه أصيب بالماء الزرقاء وصار شحيح البصر. لكنّ سعدى قالت إنّ سبب مشيته المتعثّرة لا يعود إلى عماه بل إلى خرفه. أصيب القطط بالخرف ولم يعد قادرًا على التمييز بين الأشياء. وبدلاً من أن يتصرّف بحشمة كما تفعل جميع القطط، صار يبوّل ويتبرز في كل مكان، فامتلأ البيت برائحة

الخــراء. ســعـدى أرادت طـرده من البـيـت لكنّ يوسـف أشـفق على أمّـه المريضة، وقرّر أن يبقيه في البيت باسطًا عليه حمايته.

«دخيلك الماما بتخوت».

«ما هي خوتا».

«الله يستر آخرتك يا مرا ما تحكي هيك، أنا بنضُف من ورا البسين».

«وأمك مين بنضُف من وراها»؟

«وطّي صوتك هلّق بتسمع».

الجدّة في سريرها تستمع إلى كل شيء، لكنّها لا تحكي. دخلت في صحـراء الصمت التي لن تخـرج منها. لا تدري ميليا من أين جاءت هذه الاستعارة، لا بد أنّها الراهبة. الراهبة القدّيسة أطلقت على صمت حسيبة إسم الصحـراء. قالت إنّ جميع القديسين اختاروا الصحـراء في النهـاية. الشخص الوحيد الذي كان ينحني بإجلال واحترام أمام حسيبة، كانت ميلانة الراهبة. تدخل إلى البيت وتذهب مباشرة إلى سرير المرأة الكهلة، تمسح جبينها بقطنة مغموسة بالزيت، تقبّلها على رأسها، ولا تبدي مشاعر القرف من الرائحة التي كانت تخرج من جلد المرأة المتشقّق.

«يعني لمن خلقت كانت ستّي مكرسحة»؟ سألت ميليا.

«لا يا بنتي، لمن خلقت كانت ستّك بعدها ما شاء اللّه، كانت تنام بالتخت هون، حدّ التخت يلّي خلّفتك فيه، بس ما كانت تقعد بالبيت، كانت تضلّ دايرة، وفي يوم كان عمرك شي خمسة أشهر، جابوها وقالوا وقعت على الطريق، وبقيت على هالحالة حتى ماتت».

«ووقت ماتت، أنا وين كنت نايمة»؟

«كنتِ تنامي معها بالأوضة، بس ما خلّيناك تحسي بشي، لا إنتِ ولا إخوتك. مبلى سليم، سليم فات على أوضتنا وقال إنَّ ستّه متلّجة. وقمت أركض. بيّك ضلّ جامد بالتخت، وبعدين صرخت ولحقني. بعتنا الولاد عند أمي وما رجعتوا على البيت إلاَّ بعد ما كان خلص كلّ شي، وكنّا دفنّا البسين».

لا تذكر ميليا جدَّتها، كلّ الصور التي تتراءى لها عن المرأة الكهلة آتية من ذاكرة كلام سمعته من أمها. نتف حكايات جمعتها من نثار الكلمات، صارت صورًا تحتلّ حيّزًا في مناماتها.

«يجب أن أخرج من هذا المنام»، قالت ميليا. وقفت، فتحت باب غرفتها وهي ترجو القط أن يأتي، لكنَّ القط ركض وجلس تحت السرير وبدأ يموء. ركعت، بسبست له. رفع القط الكهل رأسه، انكمش جسمه إلى الوراء كأنَّه يستعد للوثب. الخوف جعل ميليا الصغيرة تتراجع إلى الوراء. إنَّه تحت سريرها في الليوان، الجدّة تراقب، رأسها ملقى على وسادتين موضوعتين على فخذيها، وعيناها مفتوحتان. انطوت المرأة إلى نصفين ولم تعد تستطيع رفع جذعها إلى الأعلى.

لماذا تنام هكذا؟

لم ترَ ميليا منها سوى ظهرها، وخدّها الأبيض الملتوي فوق الوسادة، ورغوة بيضاء حول شفتيها المطبقتين على الصمت. هكذا أمضت أعوامها الثلاثة الأخيرة.

والحكاية، أنَّ يوسف نهض في أحد الصباحات ليجد أمه نائمة بهذه الطريقة العجيبة. قالت الأم أنَّها قرَّرت النوم منحنية من أجل أن

تبعد الموت. «إذا نمت على ضهري بيجي عزرايل وبيخطفلي روحي من تمّي».

اعتقدت حسيبة أنَّها قد تموت إذا استلقت على ظهرها، وأنَّ الطريقة الوحيدة لتلافي الموت هو الاستدارة. الموت لا يستطيع اختراق الدائرة، لأنَّ الحياة مدوَّرة. هكذا قال يوسف إنَّها قالت، لكن لم يصدّقه أحد. كيف لامرأة خرفة، لم تعد تستطيع تمييز الأشياء، أن تحكي بهذه الطريقة الفلسفيَّة؟

حين ماتت، كانت متخشّبة وباردة. ظهر ينطوي إلى نصفين، ووجه يستند إلى مخدتين مرتفعتين، وقدمان مطعوجتان، وخيط من الدم يمتد في محاذاة الأذن. ولولا حكمة سعدى التي طلبت من زوجها مساعدتها على طعج المرأة المنحنية إلى الوراء، ليبست وصار من المتعذّر وضع الجثة في التابوت.

ميليا تبسبس للقط، والقط يتحفَّز للقفز، وفجأة مشى القط في خط متعرِّج، خرج من تحت السرير، ودخل في المشاية.

«لا لا»، صرخت ميليا. ورأت منصور يقف إلى جانب سريرها. كانت الساعة تشير إلى الخامسة بعد الظهر ولم تكن عتمة. دخلت ميليا إلى سريرها لأنَّها شعرت بثقل في بطنها. قرَّرت أن تستلقي قليلاً، ثم تنهض لتعدّ العشاء قبل عودة زوجها. اجتاحها التنمّل الذي يأخذها إلى النوم، وجاء ذلك الألم الذي تشكَّل موجات متلاحقة قبل أن يتلاشى. وظهر القط على شكل مشاية لبستها، وسمعت أنين الاستغاثة.

فتحت عينيها وأشارت إلى منصور أن يتركها قليلاً، «خمس دقايق وبقوم»، قالت. وامحى كل شيء، وغرقت في العتمة. بطنها

يتقلّص، انطوت على نفسها كي تخفّف الألم، وغرقت في الحكاية من جديد. رأت كيف مات القط، وسمعت نحيب والدها وهو يحمل القط القتيل ملفوفًا بورق أسمر، ويمضي ليدفنه في الحديقة. تناول القط الطعام المسموم، ومشى بدعة ومن دون أن يصدر صوتًا إلى تحت السرير الذي كانت تنام فيه حسيبة، ألقى بجسمه على الأرض، ومات.

لم يكن القط أو الباشا سوى الفصل الأخير من حياة حسيبة التي انتهت مقعدة في سرير حديدي أبيض. تجلس خائفة من النوم، وتستيقظ كالمذعورة خوفًا من الموت.

عاشت المرأة الكهلة أيامها الأخيرة في صمت مطبق، لا تعكره سوى أشباح غامضة تتسلّل إلى غرفتها من النافذة. تستمع إلى أصوات غريبة، وتشعر بطنين مستمر في أذنيها. كانت الأشباح التي تتّخذ شكل دخان أسود، تحاصر المرأة في سريرها، وتروي لها حكايات عن ماضٍ لم يمضِ، بل صار صورًا متلاحقة ملفوفة باللون الرمادي، وطنينًا لا يتوقّف.

«دخيلكم الأصوات»، تصرخ بين فترة وأخرى. وعندما تهرع سعدى إليها مستفسرة، تعود المرأة إلى صحراء صمتها.

حبيسة هي الابنة الثانية لناصيف حداد الذي هرب من مذابح جبل لبنان عام ١٨٦٠ مع زوجته وبناته الأربع وابنه الوحيد. ترك البيت ونول الحرير الذي ورثه عن والده، وقطعة الأرض الصغيرة التي كان يزرعها خضارًا في موسم الزرع، كي يهرب بجلده من قرية كفر قطرة الشوفيّة، وينقذ عائلته، في تلك الأيام الوحشيّة التي أسالت الكثير من الدماء في جبل لبنان. الإبن الوحيد سعيد، الذي كان في الثانية عشرة من عمره، ضاع في الطريق. وعاش ناصيف طوال حياته في انتظار

عودة ابنه الذي لن يعود. يجلس في حديقة منزله في حي المصيطبة في بيروت، لا يزور أحدًا لأنَّه ينتظر. يروي كلَّ صباح أنَّه شمَّ رائحة ابنه في المنام. الإبن لم يعد، والبنات الثلاث تزوجن، ولم يبقَ سوى حبيسة التي رفضت جميع العرسان، ثم وافقت، وسط ذهول والدها على الزواج من سليم شاهين، النجار، الكشتبنجي، الذي كان يمضي معظم وقته في ساحة كنيسة الملاك ميخائيل، يمارس لعبة الكشاتبين، ويشرب العرق في خمارة صغيرة مجاورة للكنيسة. حبيسة التي لم تخلع ثوبها الأسود الطويل المقفل بسبعة أزرار، فاجأت الجميع حين وافقت. كانت في العشرين، نظرات والدها وشقيقاتها المستغربة لرفضها جميع العرسان، تقول إنَّ الفتاة شارفت على العنوسة. كانت ترفض الزواج بعناد، وتحتمي بالسكوت الذي صار حجابًا لها. قيل إنَّها لبست الأسود حدادًا على شقيقها الذي لم تستطع تقبُّل اختفائه الغامض، أو الموافقة على نظريات والدها بأنَّه هرب قرفًا من هذه البلاد، ولا بد أنَّه وجد سفينة فرنسيَّة أخذته إلى العالم الجديد في أميركا، وأنَّه سوف يعود. الوالد ألّف حكاية هجرة ابنه وصدَّقها، وصارت انتظاراته مثيرة لشفقة الجميع. أما الزوجة فماتت بعد النزول إلى بيروت بسبعة أشهر، أصيبت بحمّى الغربة، وهو مرض شاع في لبنان في القرن التاسع عشر بسبب الهجرات والمذابح والويلات، وماتت بعدما أمضت ثلاثة أيام ملقاة في فراش داخل كوخ صغير بناه زوجها في أرض تابعة للكنيسة. البنات كن يخشين زواج الأب من جديد، والرجل لم يكن يبالي بالنساء. فالنساء المهجّرات في بيروت كنَّ على قفا مين يشيل، مثلما كان يقول.

وجد في دكان الحرير الذي يملكه عبدالله عبد النور عملاً على نول قديم وضعه التاجر البيروتي في سقيفة ملحقة بدكانه. عاد ناصيف إلى عمله، وعادت إليه حياته، ومحى القرية من ذاكرته.

بقيت حبيسة وحدها في البيت مع والدها، يأتي سكران في آخر الليل، يأكل لقمة أعدَّتها ابنته، ثم يندفن في النوم. وتبقى حبيسة سهرانة بثوبها الأسود الذي لم تخلعه.

لا أحد يعرف الحكاية. سعدى تقول إنَّها سمعت المرأة في أول أيام خرفها تتكلَّم الفرنسيَّة مع رجل وهمي إسمه فردينان. اشتعل خيال سعدى بحكاية غرام حبيسة بضابط فرنسي وعدها بالزواج ثم اختفى، مثلما يفعل كلّ الجنود. هل كانت تلبس الحداد على حبّها الضائع وعذريّتها المهدورة؟ هل سحرها الشاب بلون بشرته الأبيض وعينيه الزرقاوين، وأخذها إلى مملكة الحلم الوهمية قبل أن يمضي؟

استشارت سعدى الراهبة التي نهرتها وطلبت منها أن لا تتدخل في ما لا يعنيها، لأنَّ اللَّه وحده علاّم الغيوب وصاحب أسرار القلوب.

ما الحكاية؟

عندما سألت زوجها عن حكاية فردينان، أقفل يوسف حاجبيه السميكين، وقال لزوجته إنَّها كذابة. «ولو يا مرا، ما هيدي أمي، بتريدي إحكي هيك عن إمّك»؟

حاول يوسف في تلك الليلة أن يتكلَّم مع أمه التي بقيت صامتة، تنظر إلى البعيد كأنَّها لا تستمع إلى أسئلة ابنها. وفجأة بدأت المرأة ترطن بكلمات أعجمية، وخرج اسم فردينان، وتذكَّر السرّ الكبير الذي يختبئ بين ضلوع المرأة الكهلة التي دخلت في صحراء النسيان.

الحكاية التي يعرفها يوسف هي حكاية زواج حسيبة من والده في الليل. أصرّت الفتاة على مطلب واحد: أن تتزوّج سليم شاهين في الليل. وكان لها ما طلبت. خرجت من منزلها متدثرة بفستانها الأسود الطويل، محاطة بوالدها وشقيقاتها الثلاث وأزواجهن. وكان الليل يغطّي موكب العروس الجنائزي. وعلى باب الكنيسة كان سليم في انتظارها لابسًا عباءة حريريّة مقصّبة وطربوشًا أحمر. وكان وحده، مثلما طلبت العروس. وقفا أمام الهيكل المضاء بالشموع، وبارك زواجهما الأبونا اندراوس. ومضت معه إلى بيته سيرًا على الأقدام. كان العريس قد جلب عربة حنطور تجرّها أربعة أحصنة، لكنّ العروس رفضت. قالت إنّها تريد أن تمشي. ومشت متأبطة ذراع زوجها ولفّتهما العتمة، واختفيا في الصمت.

هل عرف سليم بحكاية فردينان فانتقم من زوجته؟ أم أنّ ما يعتقده يوسف انتقامًا، لم يكن سوى ردّ فعل من سليم على عجزه عن إنجاب أكثر من ولد واحد بسبب مرض «الأبو كعيب» الذي أصابه وسقّط على خصيتيه؟

«شو هالحكاية»، قالت ميليا لأمها. «الواحد بيقضي حياته ناطر يتزوّج، وبس يتزوّج بيحسّ أن لازم يفتش عن شي تاني».

«هيك الرجّال يا بنتي، الرجّال فاضي، ما عنده حياة تعبّيه، يلّي ما بيقدر يعطي حياة بيضلّ حاسس حاله فاضي، وبيصير يتسعدن وياكل خرا، ويتمزرط... والله يستر».

تعلّم سليم من زوجته أن يجعل العتمة ستارًا لحياته. هكذا حسيبة، كانت لا تستيقظ فعليّاً إلاّ في الليل، تطبخ وتنفخ على ضوء

قنديل الزيت، وحين يغادر زوجها إلى الدكان، تتّكئ المرأة على الضوء وتنام.

يوسف أقنعها بالبيت الجديد. «كبّري عقلك يا أمي، ما هو بيت متل كلّ البيوت». عندما اكتشفت أنّ زوجها اشترى البيت الذي بناه الخواجة سرجيوس أفتيموس لعشيقته المصريّة، التي صارت عشيقة سليم شبه المعلنة، أصيبت بالجنون، وارتفع صوتها بالصراخ.

لم تعرف حقيقة الحجر الذي كاد يقتلع عين ابنها إلاّ في تلك الأيام، التي شهدت حزن المرأة ونحيبها وشعورها بالخيبة والعار. كان ذلك عند انتقال العائلة إلى البيت الذي اشتراه سليم من ورثة الخواجة أفتيموس بعد وفاة العشيقة المصريّة. لم تزعل حسيبة من الخيانة، فهي كانت تشفق على الرجل وعلى كلّ جنس الرجال، كما قالت لابنها الوحيد. ولكن أن تصل بها الأمور إلى حدّ العيش في هذا الدغل الذي تحوطه الأشجار من كلّ ناحية، وتسرح فيه الحيات والعقارب، بسبب إخلاص سليم لعشيقته المصريّة، فهذا ما لا تستطيع احتماله.

لم يسأل أحد حسيبة كيف عرفت عن علاقة زوجها بصاحبته المصريّة. عرفتها بعدما صارت الحكاية معروفة. والحكايات المعروفة لا تحتاج إلى من يخبّرها، تصير مثل الروائح التي تفوح وتنتشر.

فاحت رائحة الفضيحة، وأغرقت المرأة في سواد من نوع جديد.

ما حيّرها هو الخدعة. «الواوي ابن الكلب»، قالت عن زوجها. وسليم كان واوياً بكلّ ما في الكلمة من معنى. لم يعرف عن رجل يخاف زوجته بهذه الطريقة، كما عُرف عن خوف النجار من حسيبة السوداء.

وفجأة اكتشفت المرأة أنَّ وراء كلّ هذا الخوف والانحناء يختبئ رجل خبيث ينتقم.

ولكن بماذا ينتقم وهو على هذه الحال؟

كان الرجل في وضع لا يُحسد عليه، فبعد ولادة ابنه يوسف، أصيب بمرض «الأبو كعيب». في العادة يصاب الأطفال بهذا المرض، الذي هو كناية عن تورُّم في غدد اللعاب، أما حين يصاب البالغون، فإنَّ المسألة تتَّخذ وجهًا آخر. إذ يصبح الخطر هو إصابة الرجل بالعجز عن الإنجاب. فإذا سقّط «الأبو كعيب» على الخصيتين، فمعناها العوض بسلامتكم.

وهذا ما حصل لسليم. عانى الرجل طويلاً من هذا المرض اللعين، وجاء الطبيب العربي أكثر من مرة. ووصف له أعشابًا مُرة كان عليه أن يغليها ويشرب ماءها. وعندما شُفي تمامًا، قال له الطبيب إنَّ العوض على الله، وإنَّه لن يستطيع بعد اليوم إنجاب الأولاد، وعليه أن يكتفي بإبنه الوحيد الذي أعطاه إيَّاه اللَّه. هنا اتَّخذت الأمور منعطفًا جديدًا، ولم يعد سليم قادرًا على القيام بواجباته الزوجيَّة. فجأة ارتخى كلّ شيء فيه، وفكّر في الانتحار. ذهب إلى الطبيب الذي أكَّد له أنَّ المرض يقطع البذرة لكنَّه لا يؤثر على الانتصاب. وصف له أدوية مقويَّة، ونصحه بأن يتناول في الصباح إفطارًا مؤلفًا من العسل والصنوبر. لكنَّ لا شيء استطاع أن يردّ إلى الرجل قدراته. الصنوبر صار جزءًا من تراث العائلة. اعتاد يوسف على أكل الصنوبر ونقل هذه العادة إلى أولاده من بعده. وعندما تولت ميليا أمور المطبخ في البيت، جعلت الصنوبر عنصرًا لازمًا في جميع أنواع الأطعمة تقريبًا. أدخلته في

البرغل والمحاشي وزينت به الحلويات. حتى أنَّها توصَّلت إلى صنع قطايف بالصنوبر، وكان هذا، وربما لا يزال، غير معروف في بيروت، لا تصنعه سوى العائلة الميليويَّة، التي اتَّسعت مع زواج الأخوة، ونجاحهم في إقناع زوجاتهم بإعداد هذا النوع من الحلوى. والصنوبر من أسماء بيروت، مثلما تقول الحكايات. لكنَّه في الحقيقة إنجاز مصري. إبراهيم باشا، فاتح لبنان وسورية في القرن التاسع عشر، هو من غرس غابة الصنوبر في بيروت أو أعاد غرسها، واللَّه أعلم. أكل سليم صنوبر إبراهيم باشا مغموسًا بالعسل، صباحًا ومساءً، ولكن من دون فائدة. كلما اقترب من زوجته في الليل وشعر أنَّ الحياة تدبّ فيه، تهاوى فجأة. أما حسيبة فلم تكن تتبس أو تقول شيئًا. تشعر بثقل صدره فوقها، يحاول، يتراجع، ثم يستدير مدَّعيًا النوم. أكل سليم طوب الأرض، ولم تتقذه سوى المرأة المصريَّة. من أين جاء بهذه العبارة، وكيف استعاد نفسه باللهجة المصريَّة، وصار يحكي مع ابنه الوحيد بلهجة أحفاد الفراعنة؟ لا شك أنَّ العبارة جاءت منها. قالت إنَّ إسمها مريم، ولم يستطع سليم أن يتأكَّد يومًا من حقيقة إسمها، يبدو أنَّها من السلالة السرّية التي خلّفتها حملة إبراهيم باشا في الساحل الشامي. وهنا يقع السؤال الذي احتار يوسف في الجواب عليه. من هي هذه المرأة، وكيف دخلت في حياة العائلة. وقد كلّفه السؤال عينه اليمنى، وذلك الشعور الذي رافقه طوال حياته، وانتقل إلى أولاده، بأنَّ الأب يستطيع أن يقتل ابنه. وعندما انكشف المستور، قال سليم إنَّه اعتقده لصّاً يتسلَّل إلى البيت العتيق، فرماه بحجر، ولم يخطر في باله أن يكون ابنه الوحيد من يتلصَّص عليه. أصاب الحجر عين الصبي التي صارت نصف مغمضة، ودخل سليم إلى بيت عشيقته المصريَّة مليئًا بالزهو.

لكن مريم لم تكن عشيقة سليم، كانت عشيقة رجل آخر، وتلك حكاية تشبه كتلة من الخيطان المتشابكة. سليم الجدّ لم يخبر أحدًا عن علاقته الطويلة بالمرأة المصريَّة. في أيامه الأخيرة، كان حين يُسأل عن الموضوع، ترتسم على شفتيه ابتسامة بلهاء، ويكتفي بالتغنّي بجمال شجرة اللوز التي اشترى البيت من أجلها. لم يكن العشيق الأصلي، الخواجة سرجيوس أفتيموس متزوّجًا، لكنَّه كان أحد أوائل اللبنانيّين الذين خلعوا العباءة والطربوش ولبسوا الثياب الإفرنجيَّة. أعزب مزمن، درس هندسة العمارة في باريس، وكان من جيل المهندسين اللبنانيّين الذين أدخلوا نظام الأعمدة الطلياني على البيوت البيروتيَّة الفسيحة، التي بنتها طبقة تجار الحرير. أما لماذا يقيم رجل عازب علاقة سريَّة يحرص بشدَّة على عدم انكشافها، فهذا أحد أسرار العائلات البيروتيَّة الغنيَّة التي أسَّست لانقراضها عبر العزوبيَّة، وصنعت تقليدًا اجتماعيّاً قائمًا على حياة مزدوجة ظاهرها التديُّن والمثابرة على الصلوات في الكنيسة، وباطنها علاقات داعرة مع محظيات سريات ينتمين إلى واحدة من سلالتين: السلالة المصريَّة التي تأسَّست مع غزوة إبراهيم باشا، وهي سلالة حديثة مقارنة بالسلالة اليونانيَّة التي يقال أنَّها تأسَّست مع الإسكندر المقدوني، والتي جسدتها السيدة ماريكا أسبيريدون، وتلك حكاية أخرى.

قالت حسيبة، «خلص زعبرة، أنا ما بسكن ولا لحظة بهالبيت هيدا بيت الخطيَّة».

عن أي من الخطيئتين كانت تحكي؟

إقامة علاقة مع امرأة لا تخلو حياتها من الشبهات، أم محاولة الأب قتل ابنه، هناك، حين رماه بحجر، ودخل منفوشًا إلى بيت عشيقته؟

ما تعرفه حسيبة أنَّها عادت عذراء مثلما كانت قبل أن تنجب ابنها الوحيد يوسف. اختبأت خلف فستانها الأسود الطويل، وكانت أزراره المقفلة إشارة إلى جسدها المقفل. امرأة طويلة. جسد رفيع ممشوق، عينان جاحظتان قليلاً، وأنف كبير يحتلّ منتصف الوجه، وهيبة لا تقاوم، يصنعها الصمت. عاشت حسيبة في الصمت، وتغطَّت باللون الأسود. ابنها قال إنَّها كانت تستطيع أن ترى في الظلام، وإنَّ عينيها اللامعتين كانتا قادرتين على اختراق العتمة. كان يرجو زوجته الرأفة بأمه، التي تواجه نهايتها بظهر مقصوف. يعدّد فضائل المرأة، ويتذكَّر عذاباتها، «شايفي كيف محفور الوجع على وجهها، هيك كانت حياتها كلّها، وجع بوجع. اللّه يخليكِ يا سعدى».

«بس الريحة، إمك ما بتقبل تقعد على المجرور، وإذا قعدت ما بتعمل شي، وبس نفوت ننام، بتطلع الريحة، شو هالعذاب، شو عاملة أنا لربنا»؟

الرائحة التي اشتكت منها سعدى، كانت آخر ما يمكن توقُّعه لامرأة مثل حسيبة. امرأة مهفهفة بالصابون، وروائح العطور تفوح منها. كانت حسيبة تصنع العطور بنفسها، تنقع الورد الجوري في الماء وتمزجه بالياسمين والحبق، وتصنع من هذا المزيج الماء الذي تغسل به وجهها. كانت رائحتها العطرة تفيض على الجميع. امرأة مقفلة بالثوب الأسود لا تخرج منها سوى الروائح العطرة، تتصرَّف كشبح صامت، وتمرّ بين الناس مثيرة مشاعر الإعجاب والخوف. ومع ذلك، استطاع زوجها سليم أن يبهدلها، ووصلت البهدلة إلى ذروتها حين اشترى البيت بعد وفاة مريم المصريَّة. ميليا تعرف الحكاية لأنَّ أمّها أخبرتها، والأم تعرفها من يوسف زوجها، ويوسف يعرفها من الحجر الذي أصابه في عينه اليمنى.

لماذا سكت يوسف حين اشترى والده البيت؟

عندما جاء سليم مبشّرًا بشراء البيت الجديد، لم تقل حسيبة شيئًا. الفرح الذي كانت تنتظره مع قرار الانتقال من الغرفتين الصغيرتين المتلاصقتين والحمّام الذي يقع في الباحة الخارجيَّة إلى بيت حقيقي، لم يأتِ. دعاها زوجها إلى رؤية البيت، لكنَّها رفضت. سألها عن اقتراحاتها حول شراء أثاث جديد ملائم، فقالت لا يهمّ. وأمضت الوقت في ضبّ الأغراض والإستعداد للانتقال إلى المكان الجديد. وحصل كلّ شيء بطريقة عادية. انتقلت العائلة إلى البيت الجديد، وأقام الرجل وزوجته في غرفة الليوان المشرفة على الدار الفسيحة، بينما نام يوسف في زاوية الدار، وسار كلّ شيء بشكل طبيعي إلى أن عرفت. يومها انفجرت حسيبة، خرج كلّ الصمت الذي كان مخبأً في ثوبها الأسود المقفل، وصبَّت غضبها على ابنها يوسف، ولم تسامحه على إخفاء سرّ البيت عنها. أما كيف عرفت ومن أخبرها فلا لزوم للبحث، «نحن ما عنّا أسرار»، قالت سعدى لابنتها، «كل الناس كانت عارفة عن سليم إلاّ مرته، وهيدي أنا ما صدّقتها، كانت عارفة من الأول وعملت حالها مش عارفة، مدري شو جننها، وبعدين على شو خايفة، ما الرجّال العوض بسلامتكم، من وقت ما انصاب بالمرض خلص، بس لمن اكتشفت أنَّ البيت بيت المصريَّة والتخت تختها، صارت تولول وقالت إنّ بدها تموت، زتّت كاز على تيابها وجرّبت تولّع النار بحالها، يوسف رمى حاله عليها والله ستر».

ماذا حلّ بسليم بعد اكتشافه أنَّه أصيب بالعجز الجنسي؟ هذا هو السؤال الذي لا جواب عليه. «أكل طوب الأرض»، مثلما قالت له

مريم المصريَّة، زار جميع الأطباء ولكن من دون فائدة. وعندما قادته قدماه إلى ذلك المكان انحلَّت المشكلة كأن لم تكن. الخواجة سرجيوس أفتيموس أوصاه على سرير من خشب الجوز، صنع السرير وحمله، بمساعدة ابنه يوسف، إلى ذلك المكان، وهناك رآها ورأى الضوء. كان الرجل يعيش في البؤس المطلق، يشعر بالرغبة الخرساء تجتاحه كلّ ليلة، وحين يقترب من زوجته المغطَّاة بقميص نومها الطويل يصير باردًا كالثلج. أما أمام تلك المرأة الأربعينيَّة السمراء، القصيرة، الممتلئة، فقد شعر أنَّه رجل. وضع السرير في غرفة الليوان، سلّم على المرأة بإشارة من رأسه، أمسك بيد ابنه استعدادًا للمغادرة حين سمعها تتكلَّم اللهجة المصريَّة وأحسَّ ارتجافة في عموده الفقري، «عاوزين نجرّب التخت يا معلّم ما تستنّى شوية... الله»، جلست على السرير، اتَّكأت كأنَّها تتمدَّد عليه، وقالت إنَّه عظيم. نهضت ومدَّت يدها كي تشكره، شعر أنَّها ضغطت على يده الكبيرة الخشنة، وادَّعى أنَّه سمعها تقول «خلّلينا نشوفك يا معلم»، وفهم، وقرَّر أن يعود.

حين أخبرها بعد ذلك أنَّه فهم إشارتها اليدويَّة ومغزى كلامها، غرقت في الضحك، وقالت إنَّها لم تقل، وإنَّه ألّف الحكاية، وإنَّه لم يخطر في بالها.

لا، هذا الحوار اخترعته ميليا، إذ لا أحد يعرف، ولا حتى يوسف، كيف حصل ما حصل وصارت الحكاية. قالت ميليا إنَّها حلمت جدها يقفز بين تلال العشب، وإنَّه صار رجلاً آخر. عادت إليه نضارة الشباب ولبسته القوة، ورجعت ضحكته المجلجلة التي خنقها القهر. ويبدو أنَّ الرجل وعد المرأة المصريَّة بالزواج، وقيل إنَّه فكَّر في اعتناق

الإسلام، لكنّ يد الله أنقذت زوجته من البهدلة، لأنّ المصريّة ماتت فجأة ولم تترك من الحكاية سوى البيت الذي ستبقى ظلالها فيه حتى وفاة حسيبة.

حين حدّثها عن الزواج، قالت لا، وتدلّلت وارتفعت رغبتها إلى السماء. كانت تلك هي المرة الأولى التي تستمع فيها مريم إلى هذه الكلمة. الخواجة أفتيموس عاملها في وصفها محظية. التقطها وستّتها وبنى لها هذا البيت الجميل وسط الأشجار، وكان يزورها مرة في الشهر، لكنّه لم يقترح عليها الزواج، ولم يخطر الموضوع في بالها أبدًا. كان الخواجة في الخامسة والسبعين من عمره، يأتي إلى عشيقته أول أربعاء من كلّ شهر، يدفع ما صار في حكم العادة مرتبها الشهري، يتحدثان عن الحب في صيغة الماضي، ويختفي. حافظ الرجل على إخلاصه للمرأة التي عشقها حين كانت في العشرين، وأخرجها من المصير الذي فرضه القانون العثماني، الذي قام بتنظيم مهنة الدعارة مجبرًا نساء الخطأ على الإقامة في حي مغلق سوف يطلق عليه إسم شاعر العرب الأكبر المتنبي. أخذ أفتيموس مريم تحت حمايته وعاملها كعشيقة محترمة لرجل ينتمي إلى الأريستوقراطيّة البيروتيّة.

تقول الحكاية إنّ مريم ماتت فجأة، وإنّ ورثة الخواجة أفتيموس عرضوا البيت للبيع، وإنّه رسا في النهاية على سليم شاهين، الذي اشترى البيت نقدًا.

بعد سنة من انتقالها إلى البيت الجديد، أحسّت حسيبة بالخدعة، لكنّها لم تملك سوى مزج صراخها بالكاز كي تحرق جسمها بعدما «أحرق الكلب ابن الكلب قلبها»، ثم أسلمت أمرها إلى اللّه،

وأضافت إلى ولعها بالسير وحيدة في الليل ولعًا بالقطط. صارت الحديقة ملجأ القطط الشاردة في المدينة، وكانت تنتقي من بينها قطّها المفضّل وتدخله إلى البيت، وتفرض على ابنها وزوجها معاملته كأنَّه أحد أفراد العائلة.

الألم يضرب ميليا في أسفل بطنها، شعرت بحاجة إلى الصراخ، وندهت لمنصور. كانت تعرف أنَّ زوجها ليس في المنزل لكنَّها لا تستطيع أن تلجأ إلى شخص آخر. سمعت صوت جدَّتها الذي لم تسمعه من قبل، وجاء القط، وشاهدت جدها سليم يقف في الحديقة، يرمي النافذة بحجر صغير كي يقول لعشيقته المصريَّة أنَّه هنا. يقرفص تحت شجرة الكينا، في انتظار أن تظهر المرأة وقد ارتسم ظلّها خلف الشباك الذي تتشبك فيه أوراق شجرة الياسمين. رأتهم كلهم، وشعرت بالخوف. لا، لم يكن منامًا، المنام كان القط الذي لبسته في قدميها وأوجعها مواؤه. الباقي كان دوائر تحيط بالمنام، دوائر من ذاكرات الموتى التي تزور ميليا في مناماتها. تتفرَّج على حكاية ليست حكايتها، كأنَّها تقرأ في كتاب، أو كأنَّ الصندوق العتيق الذي أهدتها إيَّاه جدّتها ملكة ينفتح، وبدل أن تخرج منه الكتب والصفحات والأحرف يخرج منه رجل وامرأة وابنهما الوحيد. وفي البعيد تقف العشيقة تحت الشباك تنتظر، بينما يجلس الخواجة سرجيوس أفتيموس في الزاوية، بطربوشه الأحمر وبدلته الإفرنجيَّة المكويَّة بعناية، وصوت سعاله.

ميليا تعرف أنَّ منصور ليس هنا، فهو منذ ثلاثة أشهر يختفي أيامًا قبل أن يعود والحزن يلفّ وجهه وعينيه.

«أين الشِعر» سألته؟

كانت تعرف أنّ العدو الأكبر للشعر هو الموت. ليس صحيحًا أنّ الشعر يستطيع أن يتغلَّب على الموت، كما قال لها. وظيفة الشعر أن يجعلنا نتقبَّل الموت ونتآلف معه، بحيث نعتقد أنَّه غلب الموت وانتصر عليه، بينما هو في الحقيقة ابن الموت وصوته السري.

عندما مات أمين، شقيق منصور، انقلبت الحياة رأسًا على عقب، ورأت ميليا كيف ولد رجل آخر داخل زوجها. شيء لا يصدّق. الرجل الذي تعرفه وتعرف كلّ شيء عنه اختفى. كان مثل كفّ مفتوحة تستطيع أن تقرأ كلّ شيء فيها. سوف تقول الآن، والألم يعتصرها، إنَّها أحبَّته في ليلة الفندق. أحبَّت الرجل الذي دخل في نومها ويقظتها، وعبأ صمتها بالكلام، وحيرتها بالشعر. كان حبّه للحياة يتجلّى في شغفه بالطعام الذي تعدّه زوجته. كان يجد في كلّ يوم حجّة لشرب العرق. «الطعام الجيِّد يفرض العرق، لأنَّه حرام الواحد ياكل هالأكل الطيِّب من دون عرق». يغطس في اليخاني المتنوّعة، ثمّ يسبّح في مدح اللبن أمه، يضحك ويقول إنّ العرب كتبوا الشعر عن الحلوى، يتذكَّر ابن الرومي وعلاقته بالزلابية، «الحلو دهب يا مرا، اسمعي:

يلقي العجين لجينًا من أنامله

فيستحيلُ شبابيكًا من الذهبِ

بسّ ما حدا كتب في مدح الطبيخ، شيء مؤسف، وبعدين شو هالأكلة العظيمة لبن أمه ورز».

«هيدا مش إسمها الحقيقي، أهل بيروت بيسمّوها هيك، بس هي أكلة شامية، وبالشام إسمها شاكريَّة»، قالت ميليا.

«مش مهم، المهمّ كأنَّه يا لطيف، كأنّه اسمها تحدي، إسمعي شو مكتوب بالتوراة، لا تـأكل العجل بلبن أمه، منشان هيك أولاد عمنا اليهود ما بياكلوا اللحم مطبوخ بالزيدة».

«معهم حقّ»، قالت ميليا، وأعلنت أنَّها ستتوقف عن طبخ العجل بلبن أمه، «لأنَّه هيدا توحش».

«بلا توحش بلا تفنيص، اللبن أمـه هو سيِّد الطعـام، ورح نضلّ نطبخه إلى يوم يبعثون».

شـرب عـرقًـا وأكل لبنًـا وقـال أن لا أحـد سـبـقـه إلى هـذا، اللبن واللبن، حليب السباع الذي هو الإسم الآخر للعرق وحليب البقـر، «نمزج الحليب بالحليب كأنَّ الإنسان طفل يرضع من ثدي السماء».

ثمّ يبدأ في تلاوة الشعر، من أين تأتيه الذاكرة بكلّ هذا المخزون الشعري الذي لا ينضب؟ من أين يجد كلّ يوم شعـرًا جديدًا يضيفه إلى غرغرته اليومية بالكلام.

أحبَّته وأحبَّت كلامه وأحبَّت حبَّه لها، وبدأت تتعوَّد على الحياة الثلاثيَّة التي تعيشها هنا في الناصرة: البيت والشارع والمنام. ثم جاء ذلك الخبـر الذي زلزل حياتها، وأجبرها على أن تتعـرَّف إلى شخص آخر، وتبدأ محاولتها كي تحبّه، عندما لم تعد مهيأة لذلك.

اقـتـرح عليـهـا زوجـهـا أن تذهب إلى بيـروت كي تكون أمـهـا إلى جـانبـهـا فـي الولادة، لكنَّه سـحب اقـتـراحـه قـبل أن يسـتـمع إلى جـواب زوجتـه. قـال إنَّ الأمـور مـرهـونة بأوقـاتهـا، لكنَّ الوضع الأمـني مـضـطرب جدًا، وهو لا يريد تعـريض حياتها أو حيـاة الجنين للخطر، فاقـترح عليها

دعوة أمها للمجيء إلى الناصرة. لكنَّ ميليا رفضت الاقتراحين. لن تذهب إلى بيروت لأنَّها جاءت إلى الناصرة كي تلد هنا، ولن تدعو أمها، فالأم دائمة المرض وسيكون على ميليا الاهتمام بها.

منذ البداية، أي منذ تشكَّلت ذاكرة الفتاة وهي ترى نفسها أمًّا لأمّها، وتشعر باليتم. لا، لا تريد بيروت ولا الأم، تريد أن تلد هنا، لأنَّ الطفل يريد ذلك، وهي لا تريد من الدنيا سوى شيء واحد، أن تلتقي بهذا الطفل الذي تراه في مناماتها بعينيه الكبيرتين المفتوحتين كأنَّ لا أهداب لهما، ينظر إليها من خلال الماء الذي يسبح فيه، ويخبرها الحكاية التي لم يسبق لأحد أن استمع إليها.

جاء الخبر وتغيَّر كلّ شيء، وفهمت أن منصور هرب من شقيقه إليها، لكنَّ أمين نجح في استعادة أخيه، وأن لا حول لها في هذا الأمر، ولا بدّ، في النهاية، من الذهاب إلى يافا.

يافا ليست بيروت، والمنشية ليست ساحة البرج، والرطوبة التي تلفح الوجوه هنا ليست رطوبة أوراق الأشجار المتعفِّنة التي كانت تشمّها في بيروت. ذهبت إلى يافا من أجل المشاركة في مأتم الشقيق، وهناك رأت تلك البلاد التي تُسمّى فلسطين. في بيروت لم تكن ترى البلاد، رغم أنَّها عاشت نشوة الاستقلال عن الانتداب الفرنسي، لكنَّها لم تكن تبالي. لم تسمع بفيصل الأول وحكاية مملكته التي أسَّسها في دمشق وامتدت إلى بيروت إلاَّ من زوجها منصور في فندق «مسابكي». هناك أوقفها تحت صورة رجل ذاهل النظرات قيل إنَّه ملك البلاد السورية.

في الناصرة عاشت خارج الزمان، كانت المدينة تغلي، لكنَّها لم تنتبه. لم تعاشر في المدينة سوى عمة منصور السيِّدة ملفينا سروجي،

التي لم تكن تتحدَّث إلاّ عن الرجل الذي تزوَّج ابنتها ناديا. «هذا بديل منصور قالوا، يا حسرتي عليكِ يا بنتي كان لازم تتزوجي ابن خالك منصور، بس الدنيا قسمة ونصيب». كان على العروس البيروتيَّة أن تتضامن مع هذه المرأة التي لا تزال تحلم بمنصور زوجًا لابنتها.

ثمّ ظهر ذلك الرجل الكهل الذي ادَّعى أنَّه من سلالة الأمير فخر الدين المعني الثاني. أخافها الرجل في البداية، قبل أن تتعوَّد عليه. سألت عنه العمة ملفينا، فكان الجواب إنَّه طانيوس المجنون، وأنَّه غادر الناصرة من زمان. لكنَّه لم يكن مجنونًا، ميليا لم تعرف ما هي الصفة التي تلائم هذا الرجل الغريب، الذي كان يلبس مسوحًا رهبانية، ويضع على رأسه لبّادة على طريقة فلاحي جبل لبنان، ويلفّ خصره بالحطة الفلسطينيَّة البيضاء المخططة بالأسود. «أنا وحيد»، قال لميليا بلهجته الفلسطينيَّة، التي حاول أن يلوي بعض أحرفها كي تبدو لبنانيَّة. يظهر في الليل أمام نافذتها ثمّ يختفي لتجده في الصباحات ماشيًا خلفها في شوارع المدينة.

عاشت المرأة حكايتها النصراويَّة وهي تمشي في الشوارع الضيِّقة وتكتشف المكان. المكان هو رهبة المكان، هكذا فهمت المرأة علاقتها بمدينة المسيح. وفي تجوالها كانت تراه. أعطته قروشًا قليلة لأنَّها اعتقدته شحاذًا، فأخذها من دون أن يقول شكرًا، كأنَّها كانت تقوم بواجبها. ثمّ صارت تجلب له خبزًا وطعامًا. الحقيقة أنَّها دعته إلى البيت مرات عدَّة من أجل أن يأكل، لكنَّها لم تجرؤ على إدخاله إلى الدار، كانت تطعمه في الحديقة وتتفرَّج عليه يأكل كأنَّه لا يأكل. لا ينظر إلى الطعام، يزدرده بسرعة كأنَّه يحتقره، يمسح شاربيه ولحيته

بباطن كفه الأحمر ويمضي. لم تقل لمنصور إنَّها دعته، قالت إنَّه أتى. وروت حكاية لم تحصل لكنَّها كانت متأكِّدة من أنَّها حصلت بطريقة ما.

«وأنا وين كنت»؟ سأل منصور.

«كنت نايم بالبيت»، جاوبت ميليا. «حاولت صحِّيك من النوم بس ما كنت توعى، لقيته واقف قدَّام الشباك، قال إنَّه جوعان، وهيك صار يجي».

لم تقل ميليا الحقيقة، سمعت قرعًا على النافذة، كان ليل ومنصور غائب. كلّ شيء تغيَّر منذ بدأت رحلات منصور إلى يافا وقراره تسلّم مشغل الخردوات الحديديَّة بعد مقتل شقيقه. منصور لم يكن هنا، وميليا تنام وحيدة في البيت، لم تخف، لكنَّها أحسَّت رهبة الليل ورهبة الوحدة ورهبة الجنين في بطنها. سمعت قرعًا متواصلاً على النافذة، نهضت ورأت شبح رجل ما لبث أن اختفى خلف الأشجار. عادت إلى سريرها ونامت، تغطَّت باللحاف وانتظرت. وفي الليلة الثانية تكرَّر المشهد نفسه، لكنَّ الليلة الثالثة كانت مختلفة. كانت العاشرة، كلّ شيء ساكن في حارة الروم، حيث اشترى منصور بيتهما الزوجي. سمعت قرعًا عنيفًا على الشباك، تقدَّمت من النافذة ورأت شبح الرجل.

«مين»؟ سألت، وهي ترتجف خوفًا.

«أنا»، جاوبها الشبح الواقف خلف النافذة. «إفتحي جايبلك هدية».

لا تدري من أين جاءتها القوة كي تفتح النافذة، كأنَّها ليست هي، كأنَّها نائمة، كأنَّ أحدًا يأمرها فتطيعه. فتحتها فرأت الرجل يحمل في يده كأسًا من النبيذ، تركها في يدها وقال إنَّه سيعود.

«هيدا مي الحياة»، قال واختفى.

لم تره يغادر، ولم ترَ ظهره، كان في مواجهتها حين حلَّت العتمة وغطَّته. وجدت الفتاة الصغيرة نفسها تقف وحيدة ببطنها المنتفخ أمام النافذة تحمل في يدها كأسًا طافحة بسائل أحمر. أدنته من أنفها فشمت رائحة نبيذ معتَّق، لمست الكأس بشفتيها لكنَّها لم تشرب. اقتربت من النافذة كي تغلقها فرأتها مقفلة، صرخت لمنصور فلم يجاوبها أحد. رأت موسى يقترب منها، أرادت أن تسأله ماذا أتى به. أخذ موسى الكأس من يدها وشربها إلى آخر نقطة. مدَّ يده بالكأس الفارغة إلى شقيقته وهبطت عليه الظلمة ومحته. رأت الفتاة نفسها تحمل كأسًا فارغة وتقف وحيدة. تراجعت إلى الوراء وغرقت في العتمة التي اخترقها ضوء واحد. كانت تحمل الضوء بيديها، وكانت الكأس تلتمع. وفجأة، ومن دون أن تدري ماذا جرى سقطت الكأس وتناثر الزجاج. انحنت على الزجاج الذي يمتزج بالضوء تلتقطه. وكانت كلما لمست قطعة صغيرة من الضوء تنطفئ، وينزف الدم من أصابعها. كأنَّها تستبدل قطع الضوء بالدم. لكنَّها مجبرة على التقاط الزجاج المتناثر، فهي تنتظر منصور ومنصور لم يأتِ. تخاف أن يدعس على الزجاج ويصاب بالجروح. التقطت حبات الزجاج التي كانت تنطفئ بين أصابعها ورأت كيف غطّاها الدم الأسود. حملت قطع الزجاج بيديها المجرحتين، وانزلقت أرضًا، ورأت الدم. فتحت عينيها لتجد نفسها في سريرها وقلبها ينبض في كلّ أنحائها. رسمت إشارة الصليب وقرَّرت أن تنسى هذا المنام، وأغمضت عينيها من جديد.

في الصباح، حين مرّ منصور بالبيت عائدًا من يافا وأيقظها بوجهه الذي صار كالحًا منذ مقتل شقيقه أمين، هبَّت من السرير حافية كي تعدّ له القهوة والفطور. تذكَّرت الزجاج، وأحسَّت شيئًا يجرحها في

كعب قدميها، بحثت عن مشايتها تحت السرير، وجدتها مليئة بريش أشقر لا تعرف من أين أتى، نفضت الريش ولبستها، وذهبت إلى المطبخ. وضعت ركوة القهوة على النار، مدَّت يدها إلى الخزانة الخشبيَّة الصغيرة كي تتناول فناجين القهوة، فرأتها. كانت الكأس تلتمع في وسط الخزانة بين فناجين القهوة. من أين جاءت كأس النبيذ؟ في بيتها لا وجود لكؤوس النبيذ، منصور يشرب العرق وهي تشرب معه.

سألته من أين أتت كأس النبيذ، كان في الحمّام ولم يسمع السؤال. حملت الكأس بيدين مرتجفتين ووضعتها على المائدة، ورأت التماعات الضوء ونثار الزجاج. فارت القهوة على النار، ولم تشعر بها، رأت منصور يهرع لإطفاء النار، يضع الركوة على الطاولة ويسألها لماذا تقف جامدة هكذا.

«الكأس»؟ سألته.

«أي كأس» جاوبها.

«على الطاولة»، قالت.

«هذا الكوب»، جاوبها. أمسك بالكوب الذي زحط من يده وسقط على الأرض، التي امتلأت بشظايا الزجاج.

«كسرته»! صرخت.

«بسيطة، انكسر الشرّ، عنًّا كتير كبايات متله»، قال.

«يا دلّي شو بدّي أعمل»، جثت على الأرض والتقطت الزجاج بيديها. انغرست الشظايا في باطن الكفَّين وبدأ الدم.

«شو عم تعملي»، صرخ بها، «جيبي المكنسة».

التقطت المرأة المنحنيَّة جميع قطع الزجاج ووضعتها في صينيَّة، وغسلت يديها في المجلى، فانساب الماء أحمر قانيًا.

«هيدا دم»، قالت، وترنحت كأنَّها على وشك السقوط في الغيبوبة.

«هدّيني دخيلك».

أمسك بها، قادها إلى السرير، جلب قطنًا ودواءً مطهّرًا، طهّر أصابعها، وطلب منها أن تنام.

«برجع الضهر ما تخافي، ما تحضّري شي أنا بجيب أكل من السوق».

عندما نهضت من السرير لم تجد أثرًا لقطع الزجاج في الصينيَّة، فبكت بكاءً مرًا، وأحسَّت أنَّها ارتكبت خطيئة كبرى.

انقلبت الدنيا بميليا فجأة ومن دون مقدِّمات. جاء الخبر ووجدت نفسها في يافا. قالت إنَّها لا تريد الإقامة في المدينة الساحليَّة، قالت إنَّها تكره البيت الذي يقع في العجمي، والذي تقيم فيه الأرملة مع ولديها وحماتها. قالت إنَّها تخاف من هدير البحر. قالت إنَّها تركت بيروت وتركت البحر ولا تريد العودة إلى هناك. قالت وقالت ولكن من دون جدوى.

هناك في الكنيسة كان نعش أمين ملفوفًا بعلم رباعي اللون، وكان البكاء والغضب. لم يسبق لميليا أن رأت شيئًا كهذا، مدينة تصطخب بالغضب وترسم على وجوه الناس ظلالاً من الخوف والكراهية. رأت وجوهًا غطاها الحزن، ومدينة تنزلق إلى الموت. وخافت

على بطنها. خافت من أن يسقط الجنين في زبد الموج الصاخب ويختفي. ورأت على وجه حماتها نجيبة علامات محفورة باليأس.

«إنت قتلته»، قالت نجيبة لابنها منصور. لم تكن الأم تقصد ما تقول، لكنَّها قالت، كأنَّها استعارت صوت الأرملة الشابة التي تعتقد أنَّ منصور مسؤول عن موت شقيقه، أو أنَّ شقيقه مات بدلاً منه، وأنَّها لم تفقد كل شيء فقط، بل عليها أن تعيش مع الطفلين والمرأة الكهلة تحت رحمة هذا المنصور الذي هرب من يافا تاركًا الموت لشقيقه.

هناك على التلّة الترابيَّة المشرفة على البحر، رأت ميليا كيف تغيّر منصور. وقف منصور مع الواقفين في مقبرة البحر حيث دفنت عائلة حوراني أفرادها منذ ألف سنة. وحين أنزل النعش في التراب انطلقت زغرودة واحدة أطلقتها الأم من حنجرتها المبحوحة تحية للشهيد. في تلك اللحظة تغيَّر منصور في عينيّ ميليا، كأنَّه صار أقصر، التصقت أعضاؤه ببعضها بعضًا. لا تستطيع ميليا وصف ما جرى، لكنَّها شعرت أنَّ مفاصل زوجها تلاصقت كأنَّه صار قطعة واحدة. وبكى منصور في الناصرة، خرج من داخله ما يشبه العويل، كأنَّ الرجل انفجر وسالت من عينيه كلّ دموع العالم. لم يبكِ منصور حين دخل إلى البيت ورأى كيف أحاطت النسوة بجثة شقيقه المثقوبة بالرصاص، ارتسمت على وجهه تكشيرة مخيفة، انحنى على شقيقه كي يقبِّل جبين الرجل الميت، وأحسَّ أنَّه يهوي. ارتطم رأسه بالوسادة ووضع خده إلى جانب خد شقيقه الميت. وارتفع نحيب النسوة. الأم قالت إنَّها رأت الدموع تتساقط على خديّ الرجل الميت. «يا حسرتي عم ببكي على حاله». لكن أرملة الفقيد قالت إنَّها دموع منصور، «ما بيصير يبكي على خدود

أخوه، هدا حرام». ميليا تذكَّرت حكاية الشاعر ديك الجن الحمصي، الذي قتل عشيقته ورد وصارت دموعه تجري على خديها، وطلع الشِعر:

«يا طلعة طلع الحمام عليها
وجنى لها ثمر الردى بيديها

رويتُ من دمها الثرى ولطالما
روى الهوى شفتيّ من شفتيها

قد بات سيفي في مجال وشاحها
ومدامعي تجري على خديها

فوحق نعليها وما وطئ الثرى
شيء أعز عليّ من نعليها».

لم تفهم ميليا مغزى الحكاية. ما هذا الحب، شاعر حمصي عشق اثنين، امرأة نصرانيَّة تدعى ورد وفتى يدعى بكر. لم يقنعها كلام منصور عن عادات العصر العباسي، وأنَّه لم يكن هناك أي ضير في أن يعشق الرجل رجلاً آخر شرط أن يكون المعشوق أمرد وجميل المحيا. تزوَّج ورد وأقام معهما بكر في البيت نفسه. وعندما قيل للشاعر إنَّ بكر عشق ورد وإنَّه غازلها وضاجعها خلال إحدى سفراته، جن ديك الجن وقتل الإثنين معًا. «لكن الحكاية لا تبدأ هنا»، قال منصور، «الحكاية بلّشت لمّن اكتشف ديك الجن أنَّ القصة كذب بكذب، وأنَّ ورد ما خانته، ساعتها راح عالقبر وشال كمشتين تراب، واحدة من عند ورد والتانية من عند بكر، وعمل منهم كاسين، صار يشرب بالكاسين ويبكي على الحبيبين ويقول شعر. وهيك كتب «ومدامعي تجري على خديها»، يعني هو وعم يقتلها كان عم يبكي عليها من الحب، هيدا هو الغرام الحقيقي يا حبيبتي».

«هيدا غرام»! قالت.

«طبعًا».

«يعني إنت بتقتل»؟

«طبعًا بقتل، ما فيش عاشق مش مستعد يقتل أو على الأقل ما بيتمناش الموت لحبيبه إذا خانه».

«يعني ممكن تقتلني»؟

«هيدي قصة يا حبيبتي، هيك بتقول قصة ديك الجن، وكلّ إنسان مجبور يعيش قصته، ديك الجن قتل ورد لأنَّه هيك بدّها القصة، ما الإنسان حكاية، إيش هي الحياة يا حبيبتي، إحنا منعيش قصة ما منعرف مين كتبها، عشان هيك أنا بخاف أقرأ روايات، كلّ ما بقرأ رواية بحس أنَّ الكاتب وحش، بحطّ الأبطال بأوضاع مأسويَّة عشان يسلّي القراء، وبحسّ حالي محشور بالحكي يللي ما بيخلص، كأنِّي في أي لحظة ممكن أوقع من الحياة وصير بقلب كتاب. لا.. الشعر أفضل، عند العرب الشعر هو أرقى الفنون، لأنَّه وصف وما فيش قصة، وحتى تصير القصة قابلة للقراءة بيحطوا فيها شعر، يعني الشعر هو المعنى والقصة هي المبنى وإلى آخره».

«يعني بتقتل عشان القصة»؟

الآن بدأت حكايتك يا منصور، إنت قلت لي إنَّ الحكاية لا تبدأ إلاَّ بالقتل والموت، «نعتقد أنَّ حكاية الإنسان تبدأ حين يولد، هذا خطأ يا حبيبتي، الحكاية تبدأ حين نموت أو حين نقتل». الآن دخل منصور في حكايته، أمام سرير الموت، وحين جرت دموع الشقيق على خديّ شقيقه.

منصور لم يبكِ. لا تدري ميليا من أين جاءت حكاية الدموع على خديّ الشقيق، كانت هناك ولم ترَ دموعًا. لكن كان لا بدّ من بداية ما للحكاية، قالت له إنَّها صارت تخاف من حكايته. قالت إنّها رأت كيف تغيّر كلّ شيء فيه. صار منصور يشبه شقيقه. لم يتغيَّر الرجل فقط، بل خلع نفسه ولبس صورة جديدة. اختفى الشِعر، وامحت نظرة الوله التي كانت ترتسم على العينين اللتين لا تشبعان من النظر إلى الوجه الملائكي الأبيض الذي يستدير بالخفر ويتخمّر بالرغبة، صار كلّ شيء ناشفًا. حتى ذلك الشيء، الذي لم تتحدَّث عنه ميليا مرة في حياتها، حتى ذلك الشيء اختفى ماؤه. ينام معها وهي غافية، فلا تشعر بالماء الذي يخرج من باطن الأرض النائمة في داخلها. كأنَّه ليس هو.

حين عادا من يافا اكتشفت أنَّ الرجل الذي جاء إليها في بيروت هاربًا من قصته، سقط في القصة التي كتبتها يد القدر، ونجح صيّاد الحكايات في اصطياده. الأخ مات، ولم يعد من خيار آخر أمام تاجر القماش، الذي كان يحلم بالتحوُّل تاجرًا للحرير، لأنَّه «إن كان بدك تعشق تاجر بالحرير»، مثلما يقول المثل. العاشق الأبدي، كما كان منصور يسمّي نفسه، الذي يشرب من ماء عيني حبيبته كل يوم، هرب إلى الأقمشة وإلى بيروت لأنَّه كان يعلم أن لا مستقبل لهذه البلاد المنكوبة بالأنبياء، وأنَّ شقيقه ذهب بعيدًا، ويافا لا تستطيع. «أنا أعرفهم، قلت لأمين إنَّنا لا نستطيع، لكنَّه أجابني أنَّه الوطن». منصور كان يعرف أنَّ الحقّ مع أمين، وأنَّ مصنع الخردوات الحديديَّة الذي أورثه إيَّاهما الوالد يجب أن يوضع في خدمة الدفاع عن المدينة المهدَّدة.

«يعني كيف، على القليلة منعمل خرطوش ومنصلّح البواريد، يعني منترك اليهود ياخدوا البلد ويطردونا منها»؟ قال أمين.

هذا هو السبب الذي جعل منصور يغادر. «لا أنا مش جبان، بس ما بحبّش السلاح، إنت وأمك معاكم حقّ، بس أنا مش قادر».

«بس كيف بدنا نحارب الإنكليز واليهود، بالحكي ولاّ لازم نعمل إشي».

قال لشقيقه إنَّه لا يقدر ومضى إلى بيروت، هناك أحبَّ المرأة اللبنانيَّة، ومرَّت به فكرة أن يبقى في بيروت ويرتاح، لكنَّه اكتشف استحالة ذلك. فتح دكانه الصغير في الناصرة، وصار السفر إلى بيروت ضروريًا من أجل جلب الأقمشة الإفرنجيَّة الجديدة، وهكذا كان. وسقط قلبه أمام حديقة آل شاهين، وقال إنَّها البداية.

لكنَّ البداية كانت تنتظره في الناصرة. هناك وبينما كان يتأمَّل تفاحة الحياة، هكذا سمّى بطن زوجته المنتفخ، جاء الخبر الذي قلب كل شيء، معلنًا نهاية الإقامة في الناصرة، وضرورة انتقال العائلة الصغيرة إلى يافا.

«هذا هو المنام»، قالت ميليا.

وبدلاً من أن يبتسم لمنامها، مثلما كان يفعل دائمًا، ارتسمت تكشيرة على وجهه، وقال إنَّها لا تفهم معنى ما يجري.

قالت إنَّه المنام، وذكّرته بالكأس التي كسرها. قال إنَّها لم تكن كأسًا. «إنتِ حكيت عن كاس نبيد، وأنا ما شفت إلاّ كباية، والكباية وقعت وانكسرت، اللّه يخلّيك خلّينا نضبّ الشنطة ونمشي، بلا هالقصص».

قالت إنَّ موسى شرب النبيذ، وإنَّ شظايا الكأس المتناثرة على الأرض كانت تلتمع بالضوء، وإنَّها حين ركعت على الأرض...

لم يدعها تكمل جملتها، صرخ بها خلص. جمدت في مكانها وأحسَّت أنَّ كلمة خلص خلّصت عليها وأصابتها بالخرس، وفهمت أنَّ عليها ابتداءً من الآن أن تتعامل مع رجل جديد.

قالت حسيبة إنَّ المرأة لا تتزوَّج رجلاً واحدًا في حياتها. هذا كذب. سليم الذي تزوَّجته هو غير سليم الذي مرض بالأبو كعيب، وسليم المريض هو غير سليم الذي شفي وصار مهووسًا بمشاكل عضوه الصغير، التي احتلّت عينيه الشاردتين. وسليم ذو العينين الشاردتين هو غير عشيق مريم، وعشيق القحبة المصريَّة هو غير الرجل الذي اشترى البيت وأخذني إليه بعد وفاة المرحومة. وسليم البيت هو غير الرجل الذي أراد أن يقتل ابنه بحجر، وقاتل ابنه هو غير الرجل المسجّى في الأرض وقد أخذته الغيبوبة إلى حيث لا أدري. «تزوَّجت مجموعة رجال وكلّ مرة كان لازم أتعوَّد من جديد، تعبت يا ابني أتركني موت هون».

هكذا قالت ليوسف عندما وجدها جالسة وحدها في الدرب الترابي تحت شجرة الخرنوب. كانت حسيبة قد خرجت من البيت كعادتها كلّ مساء. لبست فستانها الأسود الطويل ومشت في شوارع الليل، لكنَّها لم تعد. ذهب يوسف للبحث عنها، مشى في كلّ الطرقات المحيطة بالبيت، وبعدما هدّه التعب، وجد نفسه أمام أمه تحت شجرة الخرنوب. نهرها في البداية، ثم سمع صوتها الخفيض، ورأى كيف صارت عاجزة عن القيام عن الأرض. قالت إنَّها لا تستطيع أن تنهض، أمسكها من يدها فاكتشف ارتخاء عضلاتها.

«شو بك يا أمي، يلله قومي تنقوم».

كان كلامها عن زوجها الذي تزوَّجته مرات عدّة هو آخر كلام منطقي تفوهت به المرأة. شدَّها من ذراعها كي ينهضها، لكنَّها تلاشت بين يديه.

«شو صار يا أمي قولي».

رأى يوسف دموعًا على الوجه الأبيض الذي انتشرت فيه التجاعيد السوداء. انحنى على المرأة، طواها نصفين وحملها على كتفه. وكانت خفيفة كالريش. حسيبة الطويلة الجميلة صارت كتلة من العظام. كأنَّ الجسد انحلّ، والمرأة صارت مثل عصفور بلا جناحين.

حملها ومشى، وكان يعرف أنَّه يأخذها إلى الموت. سمع صراخها في وجه والده، ورآها تلتف بالغضب وتقول إنَّها لن تبقى في هذا البيت لحظة واحدة، وإنَّ عليه أن يبحث لها عن بيت آخر. ثم التفتت إلى ابنها وسألته لماذا لم يخبرها الحقيقة عن عينه. وضع الفتى يده على حاجبه نصف المشقوق، ونظر إلى أمه بعينين مليئتين بالرجاء كي لا تحكي. لكنَّها حكت.

«استرجي قول مين فقر عين الصبي كون رجّال مرة وحدة بحياتك واحكي، استرجي احكي»؟

«إخرسي يا مرا احسن لك، بعدين الصبي ما انفقرت عينه، كان عم يلعب مع الولاد والحمدالله، انقضت هيك».

«أنا ما شفت بحياتي بيّ بيحاول يقتل ابنه، إنت كان بدَّك تقتل الصبي حتى تستّر على الشرموطة المصريَّة، وما بعرف كيف ما إنت نص رجال، شفناك ومنعرفك، بس ما رح أقعد ولا دقيقة بهالبيت».

قال يوسف، حاول أن يقول، عندما أمره والده بالسكوت.

«إنت سكوت وروح من هون وخلليني فهمها للحرمة شو الحكاية، بدُّك تعرفي الحكاية، الحكاية بتعرفها كلّ الناس وإسمها الضابط الفرنساوي يللي لبستِ عليه أسود كلّ حياتك، أنا ساتر عرضك وعرض عيلتك، ما تخلّيني إحكي أكتر من هيك».

كسر سليم الكلام بالكلام، قال ما لا يقال، فكّ أزرار الثوب الأسود الطويل، وعرّى روح المرأة التي تقف أمامه. تداعت حسيبة، انحلّت ركبتاها وجلس ابنها الشاب إلى جانبها كالكلب. يوسف قرَّر يومها أن يبهدل والده، صبر طويلاً على الفجوة التي انحفرت في جفنه بسبب الحجر، وكان صراخ أمه مناسبة كي ينتقم ويقول الحقيقة، بل إنَّه شعر بالقدرة على ضرب هذا الرجل الذي حوَّل عنّته إلى قصة غرام شهيرة بامرأة مصريَّة احترفت الدعارة. لكنَّ تداعي أمه وعريها أمام الكلام جعله يجلس إلى جانبها ككلب لا يملك الحقّ في النباح.

كان يوسف يعتقد أنَّ والده أهبل، مريم لم تكن له. الخواجة أفتيموس أعطاها البيت كي تسترزق به. شبع منها، وكي تحلّ عنه افتدى نفسه بالبيت. حتى البيت لم يكتبه بإسمها، بل أعطاها حقّ استثماره مدى الحياة، وهذا ما سمح لسليم بأن يشتري البيت بعد وفاتها من ورثة أفتيموس. جعلت المرأة من البيت، الواقع في شارع دعبول المتفرع من شارع الملاك ميخائيل، وكرًا للدعارة. هناك وسط دغل مسيَّج بالأشجار اشترى الرجل بيتًا وسمح لمحظيته بأن تعيش فيه وتتعيَّش منه.

«إنت حمار يا بيّ»، قال يوسف. «هيدي واحدة شرموطة ما بتسوى نكلة».

«إخرس إنت يا ابن الكلب»، صرخ سليم بابنه، ثمّ التفت إلى زوجته وعيّرها بالقصة التي كانت حسيبة تعتقد أنّها مدفونة في ضلوعها. حفرت للشاب الأشقر ذي العينين الزرقاوين بلون السماء قبرًا في قلبها ودفنته هناك. كان حب ولم تكن قصة. رأته مرتين وحدّثها مرة واحدة. لا لم يقل شيئًا، ابتسم لها ثم اختفى. هذا كلّ شيء. لكنّه الحب، أحسّت أنّها صارت كالعمياء، لا ترى سوى الشاب الأشقر، ولا تشم سوى رائحة بيضاء تخرج من جسم رجل أبيض كالثلج. لا تدري حسيبة كيف عرفت شقيقاتها بالقصة. تغطّت بالفستان الأسود كي تمحو كل أثر للملاك الابيض، ثم تزوّجت سليم شاهين، النجار شبه العاطل عن العمل كي تسكت خفقان قلبها. انطفأ قلبها وانطفأ جسدها، وها هو سليم الذي احتملت عنّته وخياناته يأتي ليفتح الجرح ويستخرج من أعماقها جثة الفتى ذي العينين الزرقاوين.

انكسرت حسيبة، ارتجفت شفتاها المقفلتان وجلست في زاوية الدار تبكي بلا دموع. أما يوسف فشعر بالاختناق، وأراد أن يفهم. تخيّل نفسه إبنًا لرجل فرنسي لا يعرف إسمه ولا يستطيع أن يسأل أحدًا عنه.

بعد زواج ابنها وافقت حسيبة على مشروع إضافة الجناح الباطوني إلى البيت، وهي التي شجعته على خلع العباءة ولبس الثياب الإفرنجيّة. وهذه حكاية أخرى دخلت في سيرة آل شاهين، وفي حكاياتهم اليوميّة. كان يوسف يمثّل الحكاية أمام أولاده في شكل دائم وسعدى تطلب منه أن يسكت لأنّ البنت صارت صبية وعيب هالحكي. لكنّ الرجل، الذي كان حين يعود إلى بيته من الدكان، يخلع البنطلون ويلبس الدشداشة، رافضًا شراء بيجاما لأنّه لم يكن يريد قهر خصيتيه في الليل

أيضًا، كان لا يبالي. يصف كيف أحسّ بالاختناق عندما لبس البنطلون لأول مرة، ولم يعد يعرف أين عليه أن يضع أعضاءه، شعر بثقل في أسفله، وصار عاجزًا عن المشي. قال إنَّه عندما وصل إلى باب الكنيسة مشنكلاً العروس، أحسّ أنَّه سيقع. أما الصعوبة الكبرى فكانت عند الخروج من الكنيسة لأنَّه شعر أنَّ بنطلونه سوف يتمزَّق من شدَّة الضغط.

كان يوسف لا يملّ من رواية الحكاية التي شغلت بيروت في العشرينات. فجأة وبعد سقوط الدولة العثمانيَّة وبداية الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان، صار الناس على دين ملوكهم الجدد. ودرج لبس البنطلون في أوساط الطبقات المتوسِّطة. أما الطبقات العليا التي كان ينتمي إليها الخواجة أفتيموس فقد عرفت البنطلون مع بداية القرن، وذلك بتأثير رجال الإصلاح العثماني الذين اعتقدوا أنَّ التفرنج يحلّ المشكلة. وكان لابسوه عرضة لتندر العامة. حتى أنَّ مريم المصريَّة لم تستطع أن لا تسخر مع سليم من بضاعة الخواجة أفتيموس، التي تبدو في البنطلون مشدودة ولكنَّها تظهر على حقيقتها في اللحظة التي يخلع فيها الرجل السبعيني بنطلونه.

المهم أنَّ بيروت عاشت مرحلة الثياب الإفرنجيَّة ككرنفال هزلي، رجال يمشون وهم يباعدون ما بين أقدامهم، كأنَّ كلّ رجال المدينة أصيبوا بالعرج، ونكات لا تنتهي، وشعور فادح بالانهيار أصاب الخيَّاطين التقليديِّين الذين لم يستطيعوا التأقلم مع هذا النمط الجديد من الثياب.

قال يوسف إنَّه اكتشف بعد ذلك أهمية البنطلون لأنَّه يقدّس رجولة الرجل، ويجعلها ظاهرة للعيان. «بس بعدني لهلّق ما بحبّه. بالأول صرت شوف حالي بيللي الله أعطاني ياه، بس هيدا عيب، وكنت ضلّني

واقف وأنا لابسه، حسّ كأنّي ما فيّي أقعد، وبعدين تعوّدت. وهلّق، والعياذ بالله، عم بيقولوا أنّ النسوان بلّشوا يلبسوا بنطلونات، يعني كيف بتصير الحرمة مزلطة، والرجّال مزلط، شو عالعيشة؟ والله يوم الوعيد بلشّ لمّن لبسنا البنطلون، هيك كنّا مفكرين، وبعدين اكتشفنا أنّ كله بلا معنى».

«وليش ما بتحلق شواربك وبتشلح الطربوش»؟ سأله سليم.

«إنت عامل حالك فرنساوي يا ابني ما بعرف لمين طالع».

«شو خص هيدا بهيدا»؟

«رجّال بلا شوارب! شو بيضلّ؟ أما الطربوش فالعياذ بالله، إسألوا أمكم، أنا ما بقدر إشلح الطربوش ولا لحظة إلاّ وقت فوت نام، وحتى وقت بكون نايم بحلم حالي لابس الطربوش. الراس العاري أبشع من الجسم العاري، حدا بيزلّط راسه، ما بعرف إنت يا سليم كيف بتقدر، بعرف أنّ الدنيا تغيّرت وكلّ شي عم يتغيّر بس أنا لا، حتى بعد ما موت أدفنوني بالطربوش».

بعد موت يوسف ألبسته سعدى القمباز والطربوش. فقالت الراهبة القديسة إنّه لا يجوز، الإنسان يجب أن يواجه ربّه عاري الرأس، نزعوا الطربوش عن رأسه ووضعوه إلى جانبه في السرير. حملوا النعش إلى المقبرة وكان الطربوش موضوعًا فوق التابوت. تراقصت الشرابة السوداء مع التابوت الذي تمايل على الأكف التي حملته، كأنّ الرجل قال كلمته الأخيرة بالأسود، ثم اختفى الطربوش. ميليا اعتقدت أنّهم دفنوا الطربوش إلى جانب الرجل، لكنّها اكتشفت، بعد ثلاثة أيام من الوفاة، أنّ نقولا وضع طربوش والده على رأسه، وكان ذلك إشارة إلى ولادة رجل العائلة الجديد.

ميليا تقف مع الواقفين أمام نعش أمين، لا طربوش فوق النعش، بل علم رباعي اللون سوف تعرف بعد ذلك أنَّه علم فلسطين. وهو العلم نفسه الذي صنعته الثورة العربيَّة الكبرى ضدّ العثمانيِّين بقيادة الملك فيصل، الذي كانت ميليا تسمّيه ملك أوتيل «مسابكي». الأخضر والأبيض والأحمر والأسود. شرح لها منصور أنَّ الألوان الأربعة تدلّ على الدول العربية القديمة التي تعاقبت في بلادنا، وأنَّها تجسِّد بيتًا للشاعر صفي الدين الحلّي، يروي كيف صارت هذه الألوان علامة يقظة العرب:

«بيضٌ صنائعنا سودٌ وقائعنا
خُضرٌ مرابعنا حُمرٌ مواضينا

إذا ادّعوا جاءتِ الدنيا مصدقةً
وإن دعوا قالتِ الأيام آمينا»

ميليا لم تحب هذا الشعر، «اين الشعر من الشعر»، قالت لمنصور.

هناك في الكنيسة رأت مجموعة من الرجال بعيونهم الزرقاء وبشرتهم البيضاء، يتصدَّرون المكان، ويتقبَّلون التعازي مع أفراد العائلة، وفهمت أنَّهم من آل الحسيني، أقرباء الحاج أمين، مفتي القدس وزعيم فلسطين. وأنَّ أمين حوراني مات شهيدًا من أجل الوطن. وضع مشغل الخردوات الحديديَّة الذي ورثه عن والده في خدمة الثورة ومقاومة الانتداب البريطاني والصهاينة. أحسَّت أنَّ رائحة الموت تقترب منها، ولم ترفع يدها عن بطنها طوال الأسبوع الذي أمضته في منزل العائلة في يافا. كأنَّها أرادت حماية الجنين من الأخطار التي تتهدَّده. كان الرجل

الأشقر القصير، الذي قيل إنَّه ابن عم الحاج أمين، يقف إلى جانب منصور في الكنيسة، ولم يفارقه في البيت. أرادت أن تسأل لماذا هم هكذا؟ كأنَّهم يشبهون صور الفرنجة، أو الصور التي تخيَّلتها عنهم، لكنَّها لم تسأل. شعرت بالمفارقة الساخرة ولم تقل. هل يعقل، حفيد أحد الصليبيِّين يقاوم الصليبيِّين الجدد الذين يحتلُّون فلسطين ويسعون لتسليمها لليهود؟ لكنَّها فهمت بعد ذلك أنَّ عائلة الحسيني عائلة عربيَّة عريقة، وأنَّ البياض والعيون الزرقاء ليسا حكرًا على الأوروبيِّين، وتذكَّرت أشعار العرب القدماء التي تتغزل بالمرأة البيضاء، وابتسمت لسذاجتها.

حين تزوَّجت ميليا لم تفكر بالأشياء التي كانت تنتظرها في بلاد تنحدر إلى الهاوية.

«أنا ما فكّرت لأنّي ما بعرف، بس إخوتي ليش ما فكَّروا. مبلى يمكن فكَّروا بس لاقوا أنَّ هيدي هي الطريقة الوحيدة ليزوُّجوني ويتخلَّصوا منِّي».

أحسَّت ميليا أنَّ حياتها ثقلت بعد نجيب وعصافيره، وأنَّها باتت تحتلّ مساحة زائدة في البيت. العاصفة على سليم وزوجتيه، مثلما كانت سعدى تسمّي زوجة سليم وأختها، هدأت أو انطفأت، اختفى ذكر سليم من البيت كأنَّه لم يكن، وتولَّى نقولا المسؤوليَّات كلَّها، وحكم بقبضة حمراء تشبه الطربوش الأحمر الذي اعتمره بعد وفاة والده، ولم يخلعه حتى مماته. أما هي، الأم والأخت، كما كانوا يدعونها، فصار عليها أن تمضي. نظرات أمها قالت ذلك، ونظرات أخوتها أيضًا. حتى موسى بدأ يبتعد عن أخته الكبرى، وصار لا يعرف ماذا يحكي معها. هكذا الحياة، تتغيَّر وتضيق. كانت ميليا في الضيق الأكبر، تحوَّلت مناماتها لحظات من الشعور بالاختناق، عتمة وعصافير وضياع، يرافقها ضيق في

القفص الصدري وشعور بأنَّ الهواء لم يعد يكفي. فتاة ضائعة تهوي في الوادي. تمشي فترى نفسها تتهاوى، كأنَّ ميليا الصغيرة التي تظهر في المنامات نسيت المشي. صارت مناماتها عبارة عن سقطات متتابعة، إلى درجة أنَّها في أحد الصباحات لم تستطع النهوض من سريرها بسبب الألم في ظهرها وساقيها نتيجة سقوطها وهي تمشي على طريق ترابيةً مليئة بالغبار. فقرَّرت أن تأخذ معها عصا إلى مناماتها، وضحكت.

«يا ريت الحياة هيك»، قالت لزوجها.

«كيف يعني هيك»، سألها.

«يعني متل ما بحلم، بيطلع على بالي شي باخدوا معي على المنام وبيصير».

وأخبرته عن منام العصا الذي أنقذها من السقوط على طرقات الليل، وجعلها قادرة على احتمال الحياة الضيِّقة، التي لم تفتح لها أبوابها من جديد إلاَّ مع ظهور منصور والمرأة الزرقاء.

يا ريت منقدر نرجع على أوتيل «مسابكي»، قالت.

«ليش»؟ سألها.

«يعني ما بيكون خيّك مات، وما منكون مضطرِّين نروح على يافا».

أفهمها منصور أنَّ قرار يافا لا عودة عنه، وأنَّه لا يستطيع. قال إنَّه هرب طوال حياته من الحقيقة لأنَّ شقيقه كان يواجهها بمفرده، وهلّق مات وما فيّي أعمل إلاَّ يللي لازم ينعمل.

«وبعدين شو رح يصير»، سألت.

«بعدين مش ممكن»، قال، «اليهود بدّهم يطردونا من بلادنا، معقول يعني»؟

«شي ما بيتصدّق»، قالت. «بس شو فينا نعمل»؟

«فينا نحارب»، قال.

«وإذا حاربنا، يعني فينا نغيّر شي؟ لأنَّه»...

«لأنَّه إيش»، سألها، «ما تقولي إنَّك حلمت أنَّ اليهود أخدوا البلد وطردونا منها»!

«لا ما حلمت»، قالت وسكتت.

ميليا لا تريد الهجرة من الناصرة. حاولت أن تقنع منصور لكنَّ الحكي معه خلص. استطاع الرجل أن ينهي الحكي حين تقمص شخصية شقيقه. وحين ينتهي الحكي، ينتهي كلّ شيء. المنطق يقول إنَّه لا يمكن ترك المعمل، وإنَّ الأم لا تستطيع إدارته وحدها، لكنَّ المنطق الآخر يقول إنَّ منصور لم يكن يستطيع العمل مع أمه لأنَّها متسلِّطة، ولأنَّ شقيقه استأثر بكلّ شيء لنفسه، ولم يخبره الحقيقة. لا تستطيع ميليا أن تقول إنَّ منصور كان جبانًا، أو إنَّه قال إنَّه ترك يافا لأنَّه خائف. قال إنَّه فضَّل الابتعاد عن الجوّ كي يتجنَّب وجع الرأس، لكنَّ وجع الرأس لحق به إلى هنا. حكاية أمين لا تزال غامضة بالنسبة لميليا. بلى، حلمت شيئًا في تلك الليلة، لكنَّها لم تروِ منامها، خافت معتقدة أنَّه موسى.

صحت من النوم بعينين متورمتين وقالت إنَّها حلمت نفسها تبكي. لم تنهض من الفراش في الصباح كي تعدّ القهوة، قالت لمنصور

إنَّها تعبانة، وادَّعت النوم إلى أن غادر. ثم نهضت، غسلت عينيها المتورِّمتين بماء الورد ولم تخرج من البيت، خافت أن تلتقي الرجل الكهل فتغرق في البكاء من جديد. بكت لأنَّها رأت طانيوس ممدَّدًا على الأرض، منتفخ البطن والذباب يحوم حوله. حاولت أن توقف الناس في المنحدر الموصل إلى كنيسة سيدة الرجفة كي تقول لهم إنَّ الرجل مات، ويجب حمله إلى المقبرة. لم يلتفت أحد إلى الفتاة الصغيرة التي وقفت بعينيها الكبيرتين المفتوحتين، كأنَّها تنتظر أمها. كان الرجال يملأون الشارع الضيِّق ويمشون الكتف إلى الكتف ولا يتوقفون. ثم امتدَّت يد تحمل مقصًا، أمسكتها من شعرها القصير، وبدأ الأسود ينهمر في عينيها، ولم تعد ترى، وأخذت تبكي.

عاد منصور ظهرًا ليقول إنَّ عليهم الذهاب إلى يافا فورًا وإنَّ هناك خبرًا سيِّئًا. لم تسأل ما الخبر، لبست ثيابها وقالت إنَّها حاضرة، فطلب منها أن تضبّ الحقيبة لأنَّهم سيقيمون حوالى أسبوع هناك، وقال إنَّ شقيقه... وبدأ يبكي. دموع منصور التي انهمرت صبغت وجهه باللون الأسود، ومنذ تلك اللحظة لم يغادر هذا اللون الجديد وجه الرجل. اختفى موسى من المشهد، لا تدري ميليا أين ذهب التشابه بين الرجلين الذي رسمته في ذاكرتها، وصار منصور يافاويّاً حالك السمرة، ينظر إليها بعينيّ شقيقه اللامعتين، ويتثاءب بصوت مرتفع كي يخفي بكاءه.

شمّت رائحة البرتقال. بيروت لا، رائحة بيروت مزيج من تمايل الصنوبر على زهرة الفتنة، أما يافا فحكاية أخرى. رائحة زهر الليمون ومشهد المنازل الفسيحة والخوف. عندما زارت يافا للمرة الأولى، وكان ذلك بعد زواجها بشهر، قالت لمنصور إنَّها لن تعود إلى هناك لأنَّها رأت

الخوف مرتسمًا على رائحة البرتقال. قالت إنَّها لم تعد تحب البرتقال. رائحة البرتقال تأخذها إلى خوف غامض يتسلَّل إلى أطرافها ويجعلها عاجزة عن المشي. قالت إنَّها لا تستطيع مواجهة رائحة البرتقال، وإنَّ عليها أن تغطِّي وجهها.

«هيدا وحام»، قالت حماتها، «طوّلي بالك».

لا، هذا ليس وحمًا، إنَّه شعور يتسلَّل إلى العظام ولا رادّ له، أرادت فقط أن تغطِّي وجهها وتلبس النقاب اليافاوي الذي رأته على وجوه النساء هنا.

ميليا هناك الآن، في مدينة العطر، هكذا سمّى الناس يافا. قالوا إنَّها فيحاء لأنَّ عطر زهر النارنج يفوح في أحيائها، وما كانوا يعرفون أنَّ هذا العطر الذي يغلِّف الفضاء سوف يصير كفن المدينة وعلامة موتها.

المرأة القادمة من الناصرة، وفي بطنها جنين في شهره السابع، سوف يضربها حزن لا علاقة له بالحزن الذي انتشر في العجمي وفي منزل آل حوراني بسبب فجيعتهم بابنهم البكر. حزنها جاء لأنَّها رأت ما لم يره أحد. شمَّت في العطر اليافاوي علامة النهاية. الحقّ ليس على أمين الذي رأته ميِّتًا، الحقّ على الرائحة التي صارت صفراء على الوجوه، وحوَّلت المشيَّعين أشباحًا. جموع غفيرة توافدت إلى المنزل من أجل تشييع الشهيد الذي ترك طفلين الأول في السابعة والثاني في الخامسة، وزوجة صبية من نواحي بيت ساحور، وصرخة انتقام مبحوحة في الحناجر، جعلت منصور عاجزًا عن الكلام. مقتل أمين جاء في سياق موجة متفجرات ضربت يافا عام ١٩٤٧، ويبدو أنَّ ثرثرة

الرجل قادته إلى الهلاك. كان منصور مقتنعًا بأنَّ شقيقه مات من كثرة الحكي. فالذي يصنع طلقات البواريد الإنكليزيَّة، ويخطِّط لتصفيح السيارات من أجل أن يمتلك الفلسطينيون سلاحًا ثقيلاً في مواجهة آلة الحرب الصهيونية المتفوِّقة، لا يحكي عن ذلك. أمين كان ثرثارًا ويحب المنظرة، وهذا هو سبب الخلاف الرئيسي بين الشقيقين الذي قاد منصور إلى هجرته النصراويَّة. لا، السبب هو الأم، الأم كانت منحازة إلى ابنها البكر ومعجبة به. منذ وفاة الأب وهي تتصرَّف مع ابنها البكر كأنَّها زوجته. طلبت منه أن ينتقل للنوم في سرير المرحوم في غرفتها لأنَّها تخاف أن تنام وحدها. كان أمين ناشطًا في صفوف الجمعيَّة الأرثوذكسيَّة في المدينة، وعضوًا في لجنة العمل البلدي التي شكلتها الهيئة العربيَّة العليا، يرى في مفتي فلسطين الأكبر المنقذ، ويحلم بالسفر إلى العراق من أجل ثورة رشيد عالي الكيلاني ضدّ الإنكليز، بل قيل إنَّه تدرَّب على استخدام السلاح، واقتنى في منزله بارودة إنكليزيَّة.

قال منصور إنَّ أمّه لا تحبه، لا يدري لماذا، ربما لأنَّه يشبهها. منذ طفولته وهو يسمع الحكاية نفسها عن أم كانت تنتظر من الله ابنة، فرزقت بصبي ثانٍ. لكنَّ الأم تعاملت مع ابنها في وصفه طفلة صغيرة. أطالت شعر الصبي وعقدت ضفائره، وصارت تخاطبه بتاء التأنيث. أمين لعب اللعبة نفسها مع أخيه، بل حاول أن ينقلها إلى المدرسة، حيث بدأ منصور يستمع إلى رفاقه يخاطبونه بتاء مضافة إلى اسمه، مما جعله يقوم بردود أفعال عنيفة، يتصرَّف كالصبيان الأشقياء ويتعرَّض للضرب من أقرانه في شكل يومي، ويعود إلى البيت والدم يغطِّيه. قال لميليا إنَّه يعرف طعم الدم، أمضى مرحلة المراهقة يشرب من الدم النازف من أنفه. وعندما كبر وجد نفسه في عائلة غريبة تديرها أم حديديَّة لا ترحم.

«أنا لا أشبهها»، قال منصور، «امرأة متسلّطة لا تفكّر إلاّ في جمع المال، لذا تركت لها كلّ شيء، لا أريد العودة إلى يافا، أو إلى رائحة الدم التي تنتشر في المدينة، المقاومة واجب بس ما بعرف...»، تتذكر ميليا نتف هذه الحكاية العائليَّة وهي ترى كيف يتغيَّر منصور أمام عينيها، ويقول، لابسًا صورة شقيقه، إنَّه سيعود إلى يافا. قال لها عن العودة في اليوم الأول لرجوعهما من يافا بعد المأتم، قالت إنَّها لا تستطيع الآن، عليها أن تلد أولاً. فهي لا تستطيع أن تلد في تلك المدينة.

«لكنَّ أمي هناك»، قال، «وبتساعدك».

«لا، أنا ما بدّي أمك»، قالت، «وأمي ما فيها تجي، أنا رح ضلّ هون، إنت روح إذا بدّك».

قال إنَّه فكر في إرسالها إلى لبنان، لكنَّ المسألة ليست سهلة لأنَّ الطرقات غير آمنة. قال إنَّه مستعدّ أن يوافق شرط أن ينتقلا بعد ولادة الطفل بأسبوع. قال إنَّ عليه الآن تصفية دكانه في الناصرة، وتمضية الكثير من الوقت في يافا من أجل ترميم المشغل، والعودة إلى عمله الأصلي.

صار ليل ميليا مليئًا بالبرتقال الذي يشبه القنابل، حيث يغطّي اللون الأحمر الوجوه والأشياء. بدأ منصور يغيب ثلاثة أيام في الأسبوع، وصارت ميليا تعيش ليلها وحيدة. لم يعد الرجل قادرًا على كسر حجاب الوحدة الذي تعيش المرأة خلفه. لم يعد يقترب منها في الليل، واختفت الأشعار، وصار الكلام تكرارًا للكلام. صار منصور رجلاً آخر، وصارت ميليا امرأة أخرى، واتخذت مناماتها أشكالاً جديدة، ورأت كلّ شيء يغرق.

كانت ليالي ميليا طويلة وحزينة، هناك في تجاويف العتمة رأت الرجال القصار القامة الزرق العيون يحيطون بالنعش، يحملونه على أكتافهم ويسيرون به إلى المقبرة البحريّة. على تلّة مواجهة للبحر، حيث كانت الأمواج ترتفع، هناك كان التابوت يتطاير ويرقص فوق الأيدي، ثم يعلو الموج، البحر يقترب، وكحيوان أزرق لا نهاية لجسده يقفز إلى التلة ويجتاحها، يحمل التابوت ويمضي به. الماء يبتلع الرجال. تقف الفتاة الصغيرة إلى جانب منصور مرتعدة لا تعرف كيف تهرب. تمسك يده لكنّ اليد تزحط. تركض والموج يركض خلفها، تصعد والموج يلاحقها، تسقط لتجد نفسها في الماء. كلّهم اختفوا، ابتلع الموج الجميع، وأخذهم إلى حيث لا تدري. الموج يفترس الناس، الفتاة الصغيرة وحدها، يداها تنزلقان، الماء يكاد يبتلعها، تبكي، الماء يتسلّل إلى رئتيها، صدرها ينتفخ والهواء يختفي. ماء وملح، الملح في حلقها، شفتاها تتشققان، يدها تلوح في الفضاء. غطاء التابوت ينفتح، يقف رجل أشقر مادّاً يديه نحوها، من أين جاء الضابط الفرنسي؟ كان يقف وحيدًا في الشارع، ليل ونسيم خريفي محمّل برذاذ المطر. المرأة التي تلبس الفستان الأسود تنتظره في الحديقة، لكنّ الرجل لا يتحرّك من مكانه، يقف في البعيد كأنّه يبصبص على المرأة، ثم يتقدّم، يتعثّر في مشيته كالدائخ، يتقدّم جذعه إلى الأمام ويسقط، والدم يفور من ثقوب في أعلى ظهره. الدم يملأ المكان، الشارع يغرق في الدم، والتابوت يطفو على السائل الأحمر.

كانت ميليا تعرف أنّها وحدها من يعرف الحكاية، لأنّها رأت الضابط الأشقر الذي دفنته جدّتها في صدرها، رأته أكثر من مرة، يمشي متعثّرًا قبل أن يسقط ، ثم يحتضن وسادة وضعت على الأرض.

يصير إلى ما صارت إليه حسيبة في أيامها الأخيرة، كتلة من الجلد والعظم مقصوفة من الوسط وعاجزة عن الحراك، والسعال يخنقها، وقشر البرتقال والليمون الجاف معلّق على النافذة في مواجهتها. كانت المرأة تحتفظ بقشر البرتقال والليمون، تنشره على الحبال في الحديقة كي يجفّ، ثم تستخدمه من أجل الرائحة. تحرقه في كانون النار فيمتلئ البيت بالعطر، تشعله في القازان مع الحطب فيصير للحمّام طعم البرتقال، تضعه إلى جانب وسادتها كي تتنفّس رائحة الحياة. وعندما مرضت صارت تكتفي بالقليل من القشر، تطلب أن يعلّق على حديد النافذة المواجهة لسريرها. وحين فقدت القدرة على النطق واختفى القشر بقيت ثلاثة أيام تئنّ وتتنهد وترفض أن تتذوّق الطعام حتى اكتشف ابنها سرّ حزنها، فأعاد القشر إلى النافذة.

سعدى صارت تكره رائحة القشر المجفّف، وخصوصًا في الفترة الأخيرة حين اختلطت رائحته بروائح البول والبراز، لكنّها لم تكن تملك سوى الخضوع لرغبات زوجها وأنين حماتها. وفي النهاية لم تكتفِ بإحراق قشر الليمون كلّه، بل صار دخول الحمضيات إلى البيت مشكلة، وهذا هو السبب الذي جعل ميليا تطبخ الكبّة أرنبيّة عندما كانت في العاشرة. ثم صارت سيّدة الطبخ وسيّدة النكهة، وأخذت معها كلّ شيء إلى الناصرة لتجد نفسها بعد عشرة أشهر من الزواج مضطرة للخضوع لقرار الرحيل. لم يتسنَّ لميليا الوقت الكافي كي تتعلّق بالناصرة. المدينة البيضاء أو زهرة الجليل التي تطلّ على مرج ابن عامر، بأحيائها الثلاثة: حي الروم وحي الموارنة وحي اللاتين، كانت مضمخة برائحة البخور والشعر. وهي على أي حال لم تعرف مدينة أخرى غير بيروت،

حتى بيروت لم تكن تعرف منها سوى الحي الذي تقيم فيه، والشارع الذي تسكن فيه جدَّتها ملكة، والفرن الذي خرجت منه قصة حب عاثرة، والبحر الذي أخافها قبل أن يدخل في مناماتها في وصفه بابًا لاكتشاف العوالم البعيدة. لم تكن ميليا تمانع في السفر إلى يافا لولا خوفها على الجنين في بطنها. صحيح أنَّها أقامت علاقة حميمة بين حملها وبين المكان، لما في الناصرة من قدسية، ولما في مناماتها من تجليات المرأة الزرقاء، ولما في لقائها بطانيوس من نكهة اكتشاف الأماكن الخفيَّة. لكنَّها كانت تعرف أنَّ على المرأة أن تتبع زوجها في النهاية، وتذهب معه إلى حيث يريدها أن تذهب. لكنَّه الخوف، وتداعيات الموت، ووجوه الرجال الشقر في كنيسة يافا، ورائحة البرتقال المليئة باحتمالات الموت. أرادت أن تروي لمنصور منام التابوت كي تمنعه من الهجرة، لكنَّ الرجل لم يعد يصدِّق مناماتها. التفّت بحزنها، واقتبلت غضبه، وعاشت شهري حملها الأخيرين شبه وحيدة.

رأت جدتها حسيبة في المنام، رأتها في الناصرة وإلى جانبها الضابط الفرنسي. كان الضابط يمدّ يديه إلى المرأة المتَّشحة بالسواد، والمرأة تقف في البعيد ولا تقترب. ميليا اقتربت من الضابط كي تقول له إنَّ حسيبة تزوَّجت ونسيته، وإنَّها لا تستطيع أن تقترب منه لأنَّها مقعدة في الفراش، وصارت عاجزة عن الكلام. لكنَّ الضابط لم يسمعها، كأنَّه لا يسمع أو كأنَّه لا يفهم ما يُقال. لم يسبق لميليا أن حلمت الجدّة أو ضابطها الفرنسي في بيروت. ماذا أتى بهما إلى الناصرة؟ ميليا كانت متأكِّدة من أنَّ الضابط لا وجود له. مجرد حكاية اخترعتها حسيبة كي تبرِّر تأخرها في الزواج، ورفضها للعرسان، وانطواءها على نفسها. حلمت نفسها صغيرة في غرفتها في الناصرة، وكانت الجدّة

تنام على سرير ميليا، والفتاة تنظر من النافذة حيث ترى فردينان في البعيد مادّاً يديه، ينحني ثم يسقط. وميليا تخاف. منصور ليس هنا كي يحميها من كائنات الليل.

قال لها عندما تزوّجها إنَّ فلسطين أرض محكومة باللعنة والخطأ.

«الحقّ على الله»، قال.

«لا، يعني معاذ اللّه أن أكفر، لكنَّ البشر لم يستوعبوا معنى إعلان اللّه أنَّ مدينة واحدة من بين آلاف مدن العالم له وحده، وأنّ بلادًا صغيرة بحجم حبّة قمح صارت أرضًا لابنه الوحيد. كلّ الحروب جرت وتجري هنا منذ بدء الخليقة. عندما اكتشف أخناتون المصري الإله الواحد، توجَّهت كلّ الأنظار إلى أرض كنعان لأنَّها أرض اللّه. وبدأت الحروب التي لا نهاية لها. الحرب لن تتوقف حتى يقرّر اللَّه التخلّي عن مدينته أو المجيء إليها. لكنَّه لن يفعل. لا تخافي، أنا معك ولن أسمح لشيء بأن يمسّك. هذا البلد مقبل على حروب كثيرة، لكنَّنا سنعيش بعيدًا عن الحرب. لن يجرؤ أحد على إشعال الحرب في الناصرة. سوف نكون أنا وأنت وفوقنا السلام».

لم تصدّق ميليا حكاية السلام هذه، لكنَّ الرجل كان يطويها بكلماته. تشعر حين تستمع إليه أنَّه يأخذها، وأنَّ الأشعار التي يرويها ترفرف حول عينيها وتضمهما في عالم سحري يصنعه صوت الرجل. قالت إنَّها تحب صوته، بحّة خفيفة مصنوعة من مزيج التبغ والقهوة، وانحناءة حنان موقّعة على بحور الشعر العربي، وخفوت مبطّن بما يشبه المخمل. تجد نفسها محمولة على الصوت، سابحة في عوالمه التي تأخذها إلى البعيد. وفجأة تكتشف أنَّ الرجل يخبّئ سرّاً كبيرًا، وأنّه

جاء إليها كي يحتمي بها. وعدها بالحماية لكنَّه أراد في الحقيقة الذهاب إلى عوالمها كي يتجنَّب الخطر الذي يحوم فوق يافا.

«أنا ما عندي مانع نروح على يافا أو محل ما بدّك، بسّ أنا حبلى وما بقدر هلّق».

كانت ميليا مستعدة أن تتفهَّم وضع مشغل الحديد في خدمة الدفاع عن المدينة، التي نمت على كتفها مدينة جديدة تسعى إلى ابتلاعها تدعى تل أبيب، كي يتسنَّى لليهود احتلال البلاد كلّها. لكنَّها تكره العنف وتكره الدم وتخاف على ابنها.

ألم يقتل جدها والدها؟

لماذا تقول ذلك على الرغم من أنَّها تعرف أنَّه لم يقتله.

«بسّ كان ناوي يقتله»، قالت سعدى لابنتها، «ولولا رحمة الله وطهارة قلب أمه كان راح الصبي».

هل قتل الرجل ابنه أم رماه بالحجر لأنَّه لم يعرفه كما ادّعى؟ بعدين مش مهمّ، ما علاقة ميليا بجدّتها وهذه الخرافة التي تحوَّلت ذاكرة ملفوفة بمنامات غامضة؟

الحكاية عادت بعد موت أمين، حين احتلّت أشباح يافا حياة ميليا، في شهري حملها الأخيرين.

«أنا ما بيهمني»، قالت له.

بدل أن يعود منصور من يافا في اليوم التالي، مثلما وعدها، رجع بعد ثلاثة أيام. قال إنَّه اضطرَّ إلى البقاء ولم يجد وسيلة ليخبرها بذلك. قرأ في عينيها الشك، تلعثم وهو يقول إنَّه كان مضطراً.

«بس أنا ما بيهمني، خلص حكي الله يخلّيك».

سمعت نتف كلام حماتها عن زواج منصور. قالت الأم إنَّه كان من الأفضل عدم التسرُّع في الزواج، «إيش بدنا نعمل بالمرا والأولاد»؟ وفهمت أنَّها كانت تتمنَّى أن يتزوَّج منصور أرملة أخيه، مثلما يحصل عادة عند موت الأخ، لكنَّ الأمر لم يعد ممكنًا الآن.

«يللي ضرب ضرب، ويللي هرب هرب»، قالت بلهجتها اللبنانيَّة.

«إيش عم بتقولي»؟ سألها منصور.

«قلت لك أنا ما فرقاني معي، كون مطرح ما بدّك بس ما تشغلّي بالي هيك، أنا مش ستي، وما رح صرّخ وما رح قول شي، أنا بيكفيني هالولد».

لا، ميليا لم تقل هذا الكلام، والحماة لم تتمنَ أن يكون ابنها الثاني عازبًا كي يتزوَّج من أرملة شقيقه، ميليا تخيَّلت هذه الأشياء حين كانت تنتظر زوجها. قبَّلها وقال إنَّه تعبان ويريد أن ينام. «يا ريت بقدر نام وما إصحى»، قال الرجل. «بعيد الشرّ عن قلبك»، أجابت ميليا، وعضّت على شفتها السفلى وأحسَّت بطعم الدم.

تقلبت ميليا في فراشها، سمعت صوت منصور يناديها من بعيد، حاولت أن تفتح عينيها، أرادت أن تقول خلص، حين مزَّق الزجاج شفتيها. كانت جالسة على الأرجوحة، والهواء يتطاير من حولها، وهي تطير. الأرجوحة الخشبيَّة المستطيلة مربوطة بحبلين طويلين، نظرت إلى الأعلى فلم ترَ شجرة التين. أين هي الآن؟ كانت أرجوحة ولم تكن شجرة، والحديقة تشبه حديقة بيتها الجديد في الناصرة. من أتى بالأرجوحة إلى هنا؟ قرَّرت أن تقف، أمسكت بالحبلين وارتفعت على

قدميها الرفيعتين، أحنت ركبيتها كي تعطي نفسها مدى للانطلاق، ووقفت وهي تشدّ إلى الأمام وطارت. ارتفعت إلى الأعلى، وفي الأعلى لم يكن سوى الأعلى، كانت السماء رمادية، وكان الخوف. سقط قلبها، نظرت فلم ترَ سوى سماء رماديَّة ملطَّخة بالغيوم، وفجأة ارتخت قبضتاها عن الحبلين، كأنَّ شيئًا قذفها إلى الأعلى، كانت كالمصلوبة، يداها ممدودتان، وكفاها تقبضان على لا شيء، ثمّ بدأت تهوي، سمعت صراخًا وانتشر طعم الدم على لسانها.

فتحت عينيها فلم تجد أحدًا في الغرفة، قلبها يرتعش، والطنين يملأ أذنيها، قرَّرت أن تنهض من السرير فاكتشفت الألم، الألم ينتشر على بطنها، يأتي ويذهب في موجات صغيرة متلاحقة، عضّت على شفتيها وأرادت أن تشرب فلم تجد كوب الماء إلى جانب سريرها. أغمضت عينيها ورأته، كان نجيب يقف مغطًّى بالغبار، اقترب منها وجلس إلى جانبها في السرير وبكى.

«ليش عم تبكي؟ شو جايي تعمل هون؟ يلله قوم روح عند مرتك، أنا خلص صرت هون وإنت هونيك».

مدَّ يده، أمسك يدها، فأحسَّت نبضات قلب الرجل في أطراف أنامله. أرادت أن تبكي لكنَّها لم تسأله لماذا فعل ذلك، ولم تقل له إنَّ قلبها انكسر. كيف تشرح له أنَّ القلب يمكن أن ينكسر، وأنَّ ترميم القلب أكثر صعوبة من ترميم الزجاج. قالت إنَّها تركت قلبها المكسور هناك في بيروت، وإنَّها وجدت هنا قلبًا جديدًا، «لا، لا تستطيع أن تكسر لي أكثر من قلب واحد، حرام يا زلمي». سحبت يدها من يده وفتحت عينيها، فرأت منصور يغطِّيها بالحرام.

«أيمتى رجعت»؟ سألته، «هلّق» «بحطّلك العشا».

«لا . إنتِ ارتاحي».

«أنا رايح إنده لندرة»، قال منصور.

«بس ندرة ماتت»، قالت ميليا .

«هيدي مرا»، قال يوسف.

حين كان يوسف يرى ندرة بفستانها القصير الذي يكشف عن فخذين سمراوين مكتنزتين، يجمد في مكانه ويبحلق بعينين نهمتين. مع والدها رأت ميليا كيف تصير العينان كرتين من نار، وكيف يصبح جسد الرجل امتدادًا لشهوة غامضة تلبسه. وفي النهاية لم يمت يوسف إلاّ على يديّ الداية الممتلئة الجسم التي اشتهاها كلّ حياته.

سقط الرجل أرضًا وجمد في مكانه. الممرّضة ندرة وصفت كيف سقط ومات، رغم أنّها لم تكن هناك، وصارت حكايتها عن موته هي الحكاية. قالت إنّه عاد إلى البيت متعبًا ولم يكن أحد، الأولاد في المدرسة وسعدى في الكنيسة. عاد الرجل إلى البيت لأنّه شعر بصداع حادّ في رأسه، شرب كوبًا من ماء الزهر ممزوجًا بالماء الساخن والسكّر، يطلق عليه أهل بيروت إسم القهوة البيضاء، ثم مشى متثاقلاً إلى الليوان حيث سقط وفقد الوعي. عاد الأولاد ليجدوا والدهم مرمياً على الارض، ركض سليم إلى منزل ندرة، وركض نقولا إلى الكنيسة. وصلت ندرة قبل أن تصل سعدى، تعاونت مع سليم ونقولا على حمل الرجل ووضعه في السرير، وقالت فالج لا تعالج، لا أمل. وعندما وصلت سعدى أخبرتها ندرة كيف وصل الرجل إلى البيت متعبًا، شرب قهوة

بيضاء وسقط مغشيّاً عليه. طلبت سعدى من ابنها الكبير استدعاء الطبيب، ركض سليم إلى الطبيب وركض نقولا إلى الكنيسة. وصل الطبيب والراهبة معًا. فحصه الطبيب، جس نبضه وأخذ ضغط دمه، وحاول إيقاظه من دون جدوى. نظر إلى سعدى والراهبة وقال فالج، إن شاء الله ما يطوّل، ويتعذَّب ويعذّبكم، وخرج من دون أن يأخذ أجره. قالت الراهبة إنّها ستجلب الكاهن من أجل المناولة الأخيرة، وامتلأ البيت برائحة البخور. لكنَّ الرجل لم يمت، بقي أربعة أيام ممدَّدًا في فراشه، تأتيه ندرة كل صباح، تبلل إصبعها بالماء وترطّب بها شفتيه. في اليوم الرابع جاءت ندرة وقالت انتهى. وهكذا مات.

«مات على إصبعك»، قالت سعدى.

«الله يرحمه ويرحمنا»، قالت الممرضة وهي تشرق بالدمع.

«كانت تحبُّه»، قالت سعدى.

«لا، هيدول ما بيعرفوا شو يعني الحب، ما بيعرفوا إلاَّ هيديك الشغلة»، قالت الراهبة.

من أتى بندرة إلى هنا؟

قالت ميليا لموسى أنّها صارت تخاف من الداية. «إجت وجابت الموت معها».

كانت ندرة تحمل وعاءً مليئًا بالماء يخرج منه البخار، شمَّرت عن ساعديها وبدأت تسعل، سقطت السيكارة من فمها في الوعاء، سمعت ميليا صوت زرزور السيكارة ينطفئ، وامتلأ المكان بالدخان.

«ما بدّي»، صرخت، وفتحت عينيها.

رأت منصور يقف حدّ السرير، ومعه عمته. «يللا يا حبيبتي لازم نروح عالمستشفى». أمسكتها العمة من يدها وساعدتها على النهوض من الفراش.

«مش اليوم»، قالت ميليا، «خلّوني إرجع نام».

«أكيد اليوم»، جاوبت العمة.

«قديش اليوم بالشهر»؟ سألت ميليا.

« ٢١ » قال منصور.

«لا مش اليوم، أنا ما رح خلّف اليوم، قال لي الحكيم أنَّه الولادة رح تكون ليلة ٢٤ كانون الأول».

جلب منصور شنطة صغيرة وطلب مساعدة العمة على توضيب أغراض ميليا. نظرت ميليا إلى وجهها في المرآة، كان كلّ شيء فيه منتفخًا، وبياض وجنتيها يميل إلى الاصفرار، ورأت دوائر سوداء تحت عينيها، وجاء المغص من جديد، وتأوهت بالألم. ركض منصور، أجلسها على طرف السرير، «يللا لازم نمشي»، إلتفت صوب العمّة فرآها ضائعة في الجوارير، «شو إحنا عم منضبّ جهاز يا عمتي، قميص نوم وغيارين بيكفي، بعدين أنا بشوف».

وجدت ميليا نفسها في السيارة، منصور يجلس إلى جانب السائق، وهي في المقعد الخلفي إلى جانب العمة، عبرت السيارة شارعًا صغيرًا مزدحمًا، ثم استدارت إلى اليمين، وبدأت في تسلُّق التلّة الموصلة إلى المستشفى الإيطالي. التمعت السماء، وبدأت حبال المطر تتساقط،

ارتجفت ميليا وقالت إنَّها بردانة. خلعت العمة معطفها وغطَّتها به، بدت السيارة كأنَّها لا تستطيع صعود الشارع، جعرت كأنَّها تستغيث، وانزلقت دواليبها معلنة عجزها عن التقاط الإسفلت.

«الدواليب»، قال السائق، «العجل مش عم بيلقّط على الأرض».

رفع السائق الكابح اليدوي، وضع الأول وداس على البنزين، أصدرت السيارة صوتًا غريبًا كأنَّه انين حيوان جريح، وبدأت تصعد وهي ترتعش.

«شو القصة»، سألت ميليا.

«ولا إشي»، أجاب السائق.

وعندما وصلت السيارة إلى آخر الطلعة وبدأت تتهادى فوق برك الماء، انطفأ المحرِّك، ولم يعد يسمع سوى شنين المطر.

«إيش رح نعمل»، سأل منصور.

«ما فيناش نعمل إشي»، أجاب السائق.

فتح منصور الباب كي ينزل من السيارة، فسمع ميليا تصرخ «دخيلك ما تنزل». أغلق منصور باب السيارة وبدأ يرجو السائق أن يفعل شيئًا. «المرا رح تخلّف هون، خلينا نتحرَّك»، إنفتح البابان الأماميان وخرج منصور والسائق. رأت ميليا الرجلين يختفيان خلف غطاء محرِّك السيارة المفتوح. إلتفتت إلى العمَّة التي تجلس إلى جانبها فلم تجدها، أغمضت عينيها على بدايات العتمة التي كانت تتسلَّل من بين زخات المطر، وسمعت والدها يقول، «تلج، الدنيا عم تتلج».

«وين رحت يا منصور»؟ صرخت. منصور ليس هنا، وهي وحدها في السيارة تتغطّى بمعطف بني وترتجف بردًا.

عاد الرجلان إلى السيارة، يد العمة امتدَّت إلى جبينها كأنَّها تتحسَّس حرارتها، إلتفت إليها منصور وطلب منها أن تتماسك، قالت إنَّها لم تعد تشعر بالمغص، لكنَّها خائفة من كثافة الضباب. «ما فيش ضباب»، قال لها، لكنَّها رأت الضباب ورأت الثلج المنهمر ورأت رجلاً في البعيد يحمل طفلة صغيرة ويركض بها تحت الثلج. ماذا أتى بوالدها إلى هذا الطوفان؟ ولماذا يحملها وسط الثلج المنهمر؟ كان يوسف يحمل ابنته ويركض بها إلى عيادة الدكتور نقفور. سحبها من السرير بينما كانت الراهبة تتلو الأدعية فوق رأسها وتبخّرها وتطلب منها أن تفتح فمها كي تبتلع القطنة المغمسة بالزيت. يوسف خطف ابنته من الراهبة، لفَّها بالحرام الصوفي البني، وركض إلى عيادة الطبيب. انهمر الثلج في ذلك العام في بيروت. ميليا لا تذكر الثلج، لكنَّها تذكر الحرام الصوفي ولهاث والدها. كانت الفتاة في الرابعة من عمرها، تذكر البكاء حول سريرها، وأنَّها كانت تطفو فوق جسمها المشتعل. هل سمعت كلمة موت؟ لا تدري، بلى، ربما بعد ذلك، حين روت لها جدّتها الحكاية، أحسَّت كيف اقترب الموت منها على شكل حمّى نهشت جسمها الصغير طوال عشرة أيام. قالت ملكة إنَّها اطمأنَّت حين أيقظت الفتاة من قلب الحمّى وسألتها ماذا تحلم، وإنَّ عينيّ الفتاة المحرورتين انشقّتا كي تجاوب جدتها بأنَّها لم تحلم شيئًا. قالت ملكة إنَّها اطمأنت في تلك اللحظة، لأنَّ الموت يحتاج إلى منام طويل، وإنَّها قالت لابنتها سعدى أن لا تخاف وعادت إلى منزلها.

«لا يا بيّي ما بدّي»، صرخت ميليا وهي تحاول أن تتفلت من بين يديّ والدها، حركت يديها فانزاح الحرام الصوفي، وبللتها ندف الثلج. «آخ»، صرخت كأنَّ الثلج أوجعها. «خلّينا نرجع على البيت يا بيّي»، لكنَّ يوسف لم يبالِ. ركض والدموع تتساقط من عينيه، «إنت حبيبتي يا حبيبتي»، ركض تحت الثلج المنهمر، ثم وقف أمام باب كبير أسود وقرع. انفتح الباب، توقَّف سقوط الثلج، وغطى الظلام عينيّ الفتاة. وانطفأت الذكريات.

أشعل السائق سيكارة وبدأ يدخِّن بعصبيَّة، «بلاش تدخين الله يخلّيك»، قال منصور، «مش شايف المرا حبلى لحلقها». فتح السائق نافذة السيارة كي يلقي السيكارة إلى الخارج، فدخلت ريح باردة أطارت المعطف الذي يغطيها، شهقت ميليا وأحسَّت أنَّ الجنين يرتجف في بطنها. «يا عدرا»، صرخت، فسمعت صوت محرِّك السيارة يعمل من جديد، ورأت نفسها تقف أمام باب المستشفى.

قال الطبيب الإيطالي الذي فحص ميليا أنَّ لا شيء اليوم، ربما غدًا. وطلب من منصور أخذ زوجته إلى البيت ومراقبة حالتها، «عندما يتتابع المغص، ويتصاعد الألم، عد بها إلى المستشفى، الآن لا لزوم».

قالت نعم، ووقفت، «يللا على البيت»، قالت لزوجها، الذي لم يصدّق عينيه وهو يرى كيف انزاح خيط الألم عن عينيها. كأنَّ كلمات الطبيب كانت دواء سحريّاً كشح التقلصات عن الوجه الأبيض، فامحت الخيوط السوداء التي كانت تقفل العينين، وعاد ذلك الصفاء الحليبي الذي يصنع تموُّجات الخدَّين.

قالت يللا على البيت ومشت. توقف المطر، واخترقت أشعة الشمس الحجب الرماديَّة التي غطَّت سماء المدينة.

«لوين، انطريني حتى إنده للسائق».

«لا بدّي روح مشي»، قالت، ومشت.

«بيسوى تمشي يا حكيم»، سأل منصور.

لكنَّ الطبيب اختفى، ولم يبقَ في الغرفة سوى ممرضتين متشابهتين، واحدة صبية والثانية كهلة، الأولى شقراء والثانية سمراء. اعتقد منصور أنَّ الشقراء إيطاليَّة فحاول أن يسألها بالإنكليزيَّة، ابتسمت الممرضة مشيرة إلى أنَّها لا تفهم ما يُقال. إلتفت إلى السمراء وسألها بالعربيَّة، ابتسمت هي أيضًا كأنَّها لا تفهم، وأشارت بحاجبيها إلى الأعلى. خرج منصور من المستشفى ليكتشف أنَّ ميليا لم تكن هناك. وقف أمام طلعة المستشفى الطلياني كالتائه، المدينة مليئة بالأزقة والمنحدرات وهو لا يدري في أي اتجاه يمضي كي يلحق بزوجته. رأى عمته تقف إلى جانب السائق في انتظاره أمام السيارة الأميركيَّة، ركب في السيارة إلى جانب السائق وطلب من عمته الصعود في المقعد الخلفي.

«بدّنا نرجع على البيت»، قال للسائق.

«وميليا»؟ سألت العمة.

«بعدين»، أجاب منصور.

مشت ميليا. كأنَّ الألم ومشهد والدها يحملها بين ذراعيه وهي تطلب منه أن ينزلها أرضًا لأنَّها تريد أن تمشي، حرّكا فيها رغبة في لقاء ذلك الرجل كي تقول له إنَّها وصلت الآن إلى النهاية، وإنَّها تستعد للرحيل إلى مدينة بعيدة.

قالت ميليا إنّها تذكر حين مشت أول مرة في حياتها. قالت إنّ والدها كان يحملها بين ذراعيه، وإنّها بكت. «صرت شدّ نزول بس بيّي ما فهم، سمعت أمي عم تطلب منه ينزلني على الأرض، وقتها ما كنت أعرف إحكي بس كنت إفهم، وشفت حالي عم بنزل من مطرح عالي، حطّني على الأرض على بطني، كان مفكّر إنّي بدّي دبدب، شدّيت حالي، تهدّيت بإجر الكرسي، وقفت وبلّشت إمشي. وصارت الدنيا تبرم فيّي، وسمعت أمي عم بتقول مشيت البنت، وبلّشت تزغرد، ومن وقتها ما وقّفت المشي، كنت ضلني أبرم بالبيت، كأنّي اكتشفت العالم، العالم من فوق غير شكل».

«بتتذكري هالإشيا»؟ سأل منصور.

«طبعًا بتذكّر».

«بس الإنسان ما بيتذكر قبل ما يصير عمره تلات سنين».

«بس أنا بتذكّر».

«طيّب طيّب»، قال ، ولم يكمل جملته. منذ حادثة الكأس المكسورة، صارت عبارة طيِّب طيِّب شكلاً مهذّبًا كي يقول إنّها تكذب. كان يستمع إلى حكاياتها، وفجأة تلتمع في ذهنه فكرة أنّها تكذب، «إنت عم تكذبي عليّي يا ميليا»، يقول. وتتزاح أشباح كلماتها من أمام عينيه، ويبتسم. ولم تكن تجاوب. اعتادت ميليا على هذه العبارة. أمها كانت تقول، والراهبة تقول، وأخوتها يقولون. وحده موسى كان يصدّقها ويؤمن بها. مرة قال لها إنّه يؤمن بها، فقالت لا، «الواحد ما لازم يآمن بالناس، الواحد بيآمن بالله وبس».

«بس أمي بتآمن بالراهبة».

«أنا ما بحب الراهبات».

«بس هي قدّيسة».

متى كان هذا الحوار؟ هل قال لها موسى إنَّه يؤمن بها، أم أنَّها تمزج بين مناماتها والحقيقة؟

قالت لموسى إنَّه لا يعرفها، لا، لم تقل. كانت تعتقد أنَّ موسى لم يرها مرة واحدة. كيف يستطيع أن يراها إذا لم يدخل إلى مناماتها ويرى الفتاة السمراء التي تركض بين الأشواك ولا تشعر بالألم. لكنَّه في ذلك اليوم، عندما جلب الصورة الفوتوغرافيَّة وعلّقها على الحائط، شعرت بالخوف من الضوء الذي شعّ من العينين. رآها، لكنَّه لم يتنبه إلى الحقيقة التي تكشفت له من دون أن يسعى إليها.

«لشو الصورة»؟ قالت وهي تتراجع إلى الوراء، «شيلوها من هون».

«حتى تضلّي معنا»، قال موسى، «هيك ما بشتقلك لمّن بشتقلك».

تمشي ميليا وحيدة، الجنين يستعد للخروج من بطنها، والحزن يغطيها، والخوف. «تسعة أشهر من الخوف»، قالت ميليا لطانيوس. من أين جاء هذا الكهل الغامض الذي يشبه أنبياء العهد القديم؟

ميليا تذكر الكأس، أعطاها كأسًا مليئة بالنبيذ الأبيض المائل إلى الإصفرار، لا لم يعطها الكأس، تركها عند النافذة. كانت ميليا وحدها في البيت، منصور في يافا. سمعت قرعًا على النافذة، تغطَّت باللحاف وقالت إنَّها لن تفتح عينيها. اختلط خوفها من المنام بخوفها من الليل، شدَّت عينيها المغمضتين، برمت إلى الجهة اليمنى، وسمعت

طنين أذنيها. تراخت مستسلمة للطنين والنعاس، سمعت الصوت فارتعش الجنين في بطنها وبدأت الركلات تضرب سقف أحشائها.

فتحت النافذة فرأته يتسلَّل بين الأشجار. «عمي طانيوس»، صرخت. أمسكت الكأس الموضوعة على حافة النافذة، كان ماؤها كالذهب. أدنت الكأس من شفتيها وشربت قطرة واحدة جعلتها تنتشي. وضعت الكأس على الطاولة إلى جانب السرير وغرقت في نوم عميق.

كيف استحال النبيذ الأبيض نبيذًا أحمر في الصباح؟ ولماذا لم يرَ منصور النبيذ؟ ولماذا لون الدم الذي صبغ أطراف أصابعها، ولم تستطع إزالته بالماء والصابون؟

كان طانيوس هو العلامة. رجل كهل لا عدد لسنوات عمره، يلبس مسوحًا سوداء كالرهبان، لحية بيضاء وطويلة ومشعثة، وعينان غائرتان في محجريهما كنقطتي ضوء يخبو، وصوت يشبه الحشرجة يخرج من أعماق البطن.

قال منصور إنَّه لم يرَ هذا الرجل في حياته.

«مبلى، راهب»، قالت ميليا.

«الراهب ما بيدور بالطرقات»، قال منصور، «أنا ما شفتوش ولا مرة، وعمتي يللي صار لها عشرين سنة عايشة هون ما سمعت فيه، بعدين ما فيش حدا من بيروت هون بالبلد، البيارتة بيشتغلوا بطبرية وحيفا، خلص عاد يا مرا، بكرا إنشالله بتخلِّفي وما بتعودي تشوفي منامات».

كان منصور مقتنعًا بأنَّ الأشياء الغريبة التي تراها زوجته في مناماتها ناجمة عن حبلها وشعورها بالوحدة. أمه قالت له إنَّ المرأة

عندما تحبل تصبح غريبة الأطوار، وإنَّ بعض النساء ينمن النهار كلّه، وبعضهن يأكلن التراب، وبعضهن يا لطيف. وإنَّها عندما حبلت به، كانت لا تتوقف عن أكل الليمون الحامض، حتى احترقت معدتها. «لا لزوم للخوف يا ابني هذا من عوارض الحمل». على الرغم من اقتناعه برأي أمه، وأمله في أن تتوقَّف ميليا بعد الولادة عن تصرُّفاتها الغريبة وسرحانها اليومي في أزقة المدينة وشوارعها، كان منصور على اقتناع بأنَّ المشكلة هي الناصرة. هذه مدينة مجنونة قال لزوجته. قال إنَّه اكتشف هذه الحقيقة لحظة دخولهما إلى البيت. كأنَّ شيئًا انقلب في عينيّ ميليا ولم يعد قادرًا على تمييز مشاعرها انطلاقًا من ظلال عينيها. كان منصور يعرف كلّ شيء عن هذه المرأة لحظة ينظر في عينيها، «هذا هو الحب»، قال لها، «أنا أقرأ عينيك وأعرف، العاشق هو الوحيد يللي بيقدر يقرأ العيون، هذه علامة الحب، وهدا يعني أنِّي بحبك».

«بسّ أنا ما بعرف أقرأ هيك»، جاوبته، «هل هيدا يعني أنَّك بتحبني أكتر ما بحبك».

«أكيد»، قال لها، «يللا تطلعي بعيوني واتعلّمي تقري»

كانا في حديقة البيت العتيق، مدَّ منصور يده كي يمسك يدها، فلم تعطه سوى رؤوس أناملها، واصطبغت وجنتاها باللون الأحمر، تهدلت رموشها فوق عينيها، وقالت إنَّها تقرأ.

«بس إنتِ مغمضة عيونك»، قال.

«بقرأ أنا ومغمضة» جاوبته.

لم تكذب ميليا على منصور، فهي تقرأ الآخرين عندما تغمض عينيها. لكنّ ما أثار حيرتها أنّها لم ترَ منصور مرة واحدة في مناماتها. أقلقها هذا في البداية، وشعرت أنّها ليست مخلصة للرجل الذي تزوّجته، وأحسَّت بعقدة ذنب لكنَّها لم تخبره. هل تستطيع المرأة أن تخبر زوجها بأنَّها تخونه؟ من المؤكَّد أنَّه سيغضب في البداية ثم عندما يعرف تفاصيل هذه الخيانة الغريبة سوف يضحك ويقول إنَّه يعرف كلّ شيء وليس في حاجة إلى اعترافاتها.

ميليا كانت تعرف أنَّ أوان مناماتها عن منصور لم يأتِ بعد، وعندما أخبرها طانيوس أنَّه ينتظر مولودها كي يمضي، وأنّه أحبَّها كثيرًا ويريد أن يأخذها معه، شعرت بالصقيع في باطن قدميها.

قالت لا، قالت إنَّها لا تريد أن تذهب معه، وإنَّها تحب أن تبقى في الناصرة، وإنَّها ابنة نجّار، وستفتح لابنها دكانًا هنا، كي يتعلَّم كار المسيح. ابتسم الرجل الكهل وقال لها إنَّ ابنها سوف يعيش في مكان بعيد، وإنَّها منذورة كي ترى أشياء لم يرها أحد قبلها، وإنَّها ستتعرَّف على منصور دفعة واحدة، لأنَّ الزمن لا معنى له إلاّ بالنسبة للناس الذين لم يعطوا نعمة الرؤيا.

«بس أنا بعرفه، ما هو زوجي»، قالت.

«لا، لا، رح تتعرفي على إشيا هو ما بيعرفها»، قال.

«بس أنا ما خصّني»، قالت.

«كل شي بأوانه»، أجابها الراهب الكهل.

عندما دخلت إلى هذه المدينة، كان سؤالها الأول أين يقع منزل المسيح. رأى منصور كيف تغيَّر كلُّ شيء في هذه المرأة. غامت عيناها وتشكَّلت من حولهما هالات لا تشبه تلك الظلال التي كان يراها في بيروت، ولعن الساعة التي قرَّر فيها أن يعيش في هذه المدينة.

شعر منصور أنَّ ميليا تنزلق من بين يديه إلى أمكنة مجهولة، لكنَّه لم يكن يعرف كيف يلحق بها أو يلتقطها، وأخافته جولاتها على الكنائس وإصرارها على البحث عن البيت الذي عاش فيه المسيح.

«ما حدا بيعرف البيت، بعدين يمكن هيدي أسطورة، يمكن المسيح ما عاش هون، يمكن الناصرة كانت بمحل تاني».

منذ زواجه اكتشف منصور أنَّه بدأ يكره هذه البلاد الذي يعيش فيها، «حدا بيعيش ببلاد مليانة أساطير وخرافات وأنبيا، هيدي بلاد بتجنن كل يللي بعيشوا فيها، البلاد يعني بلاد. الواحد ما في يمشي على دعسات القديسين، لأنَّه بيصير مرعوب وبيخاف من خياله. هالمرا دخّلت الخوف بقلبي، نحن هون ما عنّا هالحركات، هيدي للسياح والمجاديب، نحن عايشين هون كأنَّه ما فيش إشي».

«بس في إشيا كتير»، قال طانيوس، عندما أسمعته ما سبق لها أن سمعته من زوجها.

من هو طانيوس؟

ما هذه الحكاية اللبنانيَّة التي سمعتها منه؟

عندما قالت لزوجها إنَّ الذين أسَّسوا الناصرة الحديثة لبنانيُّون بعث بهم الأمير فخر الدين في القرن السادس عشر للعمل كمرابعين

في دير الفرنسيسكان، وإنَّ هؤلاء الرهبان كانوا أول من بنى في هذا المكان الذي كان خرابًا، ضحك عليها.

«إيش لبنانيِّين وغير لبنانيِّين هيدي بلاد الشام، اللَّه يرحمك يا فيصل الأول». ذكّرها بصورة الملك النحيل في فندق «مسابكي»، وبدأ يحكي عن معركة ميسلون وكيف مات يوسف العظمة وزير دفاع البلاد السورية محتضنًا بارودته وهو يحاول صدّ زحف الجيش الفرنسي على دمشق، وأن وأن وأن»...

«بس أنا مش عم بحكي بالسياسة»، قالت، «عم خبّرك أنَّ أهل الناصرة نصهم لبنانيِّين، الموارنة واللاتين، بعثهم فخرالدين حتى يشتغلوا عند الرهبان، وبعدين إجوا الروم من حوران ومن منطقة رام الله، وكلّ الناس فتَّشوا على بيت المسيح وما لاقوا شي، والوحيد يللي بيعرف موقع البيت هو الراهب طانيوس».

«مين خبَّرك هالخراريف»؟ سألها.

«الراهب طانيوس»، قالت.

«من فين هالراهب، أنا ما شفتوش ولا مرة، ولا حد شافه بالبلد».

«أنا شفته»، قالت.

عندما جاء منصور حوراني كي يقيم في الناصرة، لم يخطر في باله أنَّه آتٍ إلى مدينة المسيح. أهل الناصرة تمايزوا منذ البداية عن الحكاية المقدسة بأن أطلقوا على أنفسهم اسم النصراويِّين، بدلاً من إسم النصارى الذي اختاره القرآن للدلالة على اتباع يسوع الناصري. من أين تأتي هذه المرأة بالحكايات الدينيَّة التي تحوِّل حياته جحيمًا؟

تعرَّف منصور إلى الجو الديني الذي كان سائدًا في منزل آل شاهين في بيروت، لكنَّه لم يقبضه جداً. عزاه إلى هستيريا سعدى التي حدَّثته عنها ميليا، معتبرًا تديُّن الأم وتعلُّقها بأذيال الراهبة جزءًا من سن اليأس التي تجنّن النساء حين يتوقَّف الحيض، وتضربهن الهبات الساخنة الآتية من أعماق الرحم التي تجفّ ماؤها. قال لميليا إنَّ وضع سعدى أفضل من وضع أمه. سعدى تفشّ خلقها بتبويس الأيقونات، وابتلاع القطن المغموس بالزيت، أما أمه فطلع معها جنون التسلُّط على المعمل وعلى ابنيها، وهي تعتقد أنَّها أهمّ من الحاج أمين الحسيني، لأنَّها تصلّح بعض البواريد الصدئة. لكن ماذا يجري الآن؟ لماذا يشعر أنَّ شبح الراهبة القديسة يسكن معه في البيت، وأنَّ هذا الرجل الذي يدعى طانيوس، والذي يدّعي أنَّه لبناني الأصل وأنَّ أجداده جاؤوا من قرية بيت الدين في بلاد الشوف كي يعملوا فلاحين عند الرهبان الفرنسيسكان، صار شبحًا يحوم حول حياته وحياة زوجته.

«إنت بدّك تهرب من الناصرة»، قالت ميليا، «بس أنا بدي ضلّ هون، ما بعرف شو اللّه حاشرك، شغلك ماشي والحمداللّه، وأمك فيها تدبّر حالها، مش إنت قلت لي أنَّ أمّك بتفضّل تدير المعمل لحالها؟ أنا بحسّ إنَّك هربان من شي ما بعرفه، يمكن معك حقّ، يمكن هيدي رؤيا، هيك عمل يوسف، هرب من هون على مصر وكان معه حقّ».

«مين يوسف»؟

«يوسف النجار»، قالت.

«وهيدا كمان منين بتعرفيه»؟

«هيدا بيّ المسيح».

«بتحكي عن مار يوسف كأنَّه صاحبنا! أنا ما حبّيت يوسف النجار، هادا أبو قرون، كلّ الأنبياء كانوا يحبُّوا النسوان، من إبراهيم لنوح لداوود إلى آخره، آدم قولي لي ليش آدم انطرد من الجنة مش منشان شجرة المعرفة، شو مفتكرا المعرفة، المعرفة هي حوا يعني النيا..ك...»

«اللَّه يخلّيك ما تقول هالكلمة».

«وإنت كمان ما تتهبلي».

«بس مار يوسف ما كان متل ما عم بتقول، مار يوسف شاف الملاك بالمنام، والمنام قال له كل شي».

«رجعنا على قصة المنامات، يا ميليا يا حبيبتي أنا ما عندي شي ضدّ مار يوسف، يصطفل، بس خبريني كيف وافق»؟

«وافق على شو»؟

«إنَّه بيّ الصبي وهو مش أبوه، وما حدا عارف مين البيّ الحقيقي».

«لأنَّه قدّيس».

«الله يطعمنا القداسة».

«يعني إنتَ ما كنت قبلت».

«أكيد لا، بعني يا الولد ابني يا مش ابني، دخيلك بلا هالقصص، يعني واللّه شي بيكفّر».

كيف صدّق الرجل الكهل الحكاية التي أخبرته إيَّاها زوجته الصغيرة؟ هل هي من أخبره الحكاية أم أنَّ الملاك جاءه في المنام كما كتبت الأناجيل، يعني معقول الواحد يصدّق مناماته؟

«كل الأنبيا كانوا هيك»، قالت الراهبة القديسة، «بس كمان يمكن هيدا الشيطان»، وبدأت تتمتم بالأدعية وسعدى تمسح جبين ميليا الصغيرة بمنديل مبلل بالماء البارد. ميليا لا تذكر الحكاية لكنَّها لم تنسَ المنام. عندما تروي الأم الحكاية لابنتها تشعر ميليا بالغربة عن نفسها. كانت في العاشرة عندما أصيبت بالحمى للمرة الثانية واقتنع الجميع، بمن فيهم الراهبة القديسة أنَّ الفتاة سوف تموت. جاء الطبيب وقال أن لا أمل إلاَّ بالله. الله كان يعني لسعدى شيئًا واحدًا هو الراهبة. ركضت إلى دير الملاك ميخائيل وأمسكت بطرف ثوب الراهبة التي لم تلتفت إليها لأنَّها كانت تصلي.

حين تقف ميلانة خلف كتاب «التريودي» المفتوح وتبدأ في قراءة الصلوات والأدعية، خصوصًا في صلاة الغروب حين تصلي للنور المسائي، ينهمر الحزن على جميع الواقفين في الكنيسة ويضربهم خشوع يشبه النعاس. صوت الراهبة يتحوَّل أرجوحة لآذان المصلين تخطفهم إلى منعرجات الملكوت. يستمعون إلى أصوات غريبة، ويرون كيف تكتسي أجسام القدّيسين، المرسومة على الأيقونات البيزنطيَّة، بالريش. لم تكن الراهبة ميلانة تسمح بإضاءة الكهرباء في الكنيسة، وكان هذا سبب خلافها المزمن مع المطران جراسيموس، الذي كان يجبر الراهبات على إضاءة الثريات الكهربائيَّة حين يشاركهن الصلاة. القديسة كانت ترى في ذلك كفرًا، لأنَّها تعتقد أنَّ الملائكة لا يحبون الكهرباء، وأنَّ ضوءهم يكفي. لكن سيّدنا المطران كان يصرّ على رأيه، ويهزأ من خرافات الراهبة وادّعائها القداسة، ويبهدلها أمام الراهبات وجمهور المؤمنين بها.

لا، الكهرباء لم تكن سبب الخلاف، ميلانة وجدت حلاً للمسألة بأن طلبت من الراهبات إغماض عيونهن حين تضاء الكهرباء. «نحن منغمّض والملائكة بتغمّض وما بيتغيّر شي علينا». المسألة كانت في تلك المرأة صاحبة الجمال الشيطاني التي تدعى ماريكا إسبيريدون.

ماريكا هي الحكاية التي أثارت الكثير من اللغط والقيل والقال في بيروت في تلك الأيام. هل كانت عشيقة المطران كما أشيع، أم أنّها مجرد نسخة جديدة من القديسة مريم المصريّة، التي بدأت حياتها كعاهرة ثم تابت على يد القديس أنطونيوس الكبير؟ مريم المصريّة تابت عن مهنتها القديمة، أما هذه الماريكا فلم تتب، تأتي إلى الكنيسة صباح كل أحد وبرفقتها ثلاث نساء يونانيات، يحضرن القداس ويتناولن، ثم يعدن إلى شارع الخطأ الذي أطلق عليه اسم شارع المتنبي، حيث يتابعن عملهن.

ما أثار غضب الراهبة ليس هذه الحقيقة التي يعرفها كلّ الناس، «اللّه يعلم ما في القلوب وهو الذي يحاسب»، كانت تجيب عندما تُسأل عن «الشرموطة يللي لاحقة سيّدنا وعم تدفع تبرعات للكنيسة، واشترت أضخم تريا ببيروت وهديتها لكنيسة مار جريس». القديسة لم تكن تسمح لأحد باستخدام كلمة «شرموطة» أمامها، كانت تفضّل استخدام كلمة «بنات الخطأ»، وتدعو اللّه كي يستر على جميع عباده. لكنَّ الأمور لم تعد تحتمل المزيد. والحكاية أنّه قيل، واللّه أعلم، إنَّ سيّدنا استصدر تصريحًا خاصًا لماريكا وبناتها بالتجوّل في بيروت يوم الأحد. وهذا كان ممنوعًا منذ صدور القانون العثماني الذي يحرّم على العاهرات مغادرة منطقة السوق العمومي. يبدو أنَّ محافظ بيروت الذي

عيَّنته سلطات الانتداب الفرنسي، وكان من عائلة بسترس التي تنتمي إلى طائفة الروم الأرثوذكس وافق كرمال المطران، أو لأنَّه كان زبونًا عند الست. المهم أنَّه مع هذا التصريح صار بإمكان ماريكا أن تذهب إلى الكنائس التي يصلي فيها المطران نهار الأحد. صحيح أنَّ السيِّد جراسيموس كان يقدِّس أغلب الآحاد في كاتدرائيَّة القديس جاورجيوس، التي كان الذهاب إليها مسموحًا لماريكا لأنَّها قريبة من السوق العمومي، لكنَّه ولأسباب رعائيَّة، كان يقيم القداديس في كنائس بيروت المنتشرة في المصيطبة والأشرفية والمزرعة وراس بيروت. هكذا لم تعد ماريكا تفارق المطران أيام الآحاد. وهذا ما سمح للراهبة القديسة برؤية هذه المرأة الشيطانيَّة التي جعلت ميلانة تفقد توازنها أمام الناس وتستخدم الكلمة التي منعت الجميع من استخدامها.

«سيدنا جايي وجايب الشرموطة معه، أنا مش رح قدّس اليوم»، قالت للراهبات، وانسحبت من الكنيسة إلى قلايتها.

ماذا جرى في القلاية حين دخل المطران وأمر ميلانة بالنزول إلى الكنيسة؟ لا أحد يدري. لكنَّ الناس رأت كيف ركعت ماريكا أمام الراهبة وكيف بادلت الراهبة المرأة اليونانيَّة ركوعًا بركوع، وكيف سمع الجميع بكاء الراهبة الذي لم يتوقف طوال القداس.

الحكاية سوف تروى بعد أربعين سنة، لكن لم يجرؤ أحد على نشرها في الصحف. إسكندر شاهين، الابن البكر لموسى شاهين، سوف يصاب بلوثة الأدب، وسوف يشتغل في الجورنال الذي أسَّسه سعيد الصبّاغة مع آخرين، وكان يدعى «الأحرار». والفكرة من تأسيس هذه الجريدة كانت إنشاء وسيلة لنشر أفكار الحركة الماسونيَّة التي كانت

ناشطة في سورية ولبنان، وتدعو إلى الأفكار العلمانيَّة وتسخر من رجال الدين.

إسكندر عثر على خبطة صحافيَّة لا مثيل لها. تعرف من طريق الصدفة على امرأة كهلة تعيش في فرن الشباك، قرب كنيسة مار الياس، وتتلقى عطفًا خاصًا من الخوري سمير أبو حنا. كان الشاب العشريني يتردَّد على منزل الكاهن لأنَّه عشق ابنته الوحيدة فوتين، التي سترفض حبّه وتحرق قلبه لأنَّها قرَّرت أن تصير راهبة، وهذه حكاية أخرى. اكتشف الشاب أنَّ هذه المرأة هي ماريكا إسبيريدون سيِّدة السوق العمومي التي تمضي أواخر أيامها في الصلاة والتوبة.

عندما زار الفتى المرأة الكهلة متسلِّحًا بمعلومات عن علاقتها بالمثلث الرحمات المطران جراسيموس، أخبره إيَّاها الخواجة سعيد الصبّاغة، وجد نفسه أمام حكاية عمته ميليا وأمام تفاصيل لا تصدَّق عن الأعجوبة التي صنعتها الراهبة من أجل إنقاذ ميليا التي أصيبت بالحمّى عندما كانت في العاشرة.

ماريكا لم تبخل بالمعلومات على الفتى، أخبرته كلّ ما أراد، وقالت له إنَّ علاقتها بالمطران لا تشبه أي علاقة أقامتها مع الرجال الآخرين.

«أنا يونانيَّة»، قالت، «نحن شعب منتشر في كلّ مكان، عيلة إسبيريدون عيلة يونانيَّة أبًا عن جدّ، نحن أصلنا من اسطمبول، وأنا ما جيت على الكار حيالله، هيدي مهنة توارثناها من زمان، أمي كانت هيك وستي وام ستي. بس وقتها ما كان في مشكلة، أمي تزوَّجت متل كلّ نسوان العالم، ما بعرف شو صار بعقول الناس، وكيف صارت الشرموطة منبوذة، لو بتعرف يا ابني شو مرق عليّي، لولانا كيف كانت

العيل بتستر. إنت بتعرف إنّو الرجال كلاب، الرجّال ما بيقدر، هيك اللّه خلقه، آدم عليه السلام خان مرته حوا لمن ما كان في بالدني نسوان غيرها. ما تسألني كيف دبّر حاله وشو عمل، إسأل سيّدنا المطران. هو قال لي، إنت مين باعتك لعندي يا ابني»؟

أخبرها عن الخواجة سعيد فانقلبت على ظهرها من الضحك، «سعيد ما غيره ابن نعمة، اللّه يوفّقه شو كان كريم، بس كان جبان، أنا كان عمري شي خمس وأربعين سنة لمن فتحته، إنت مفتكر إنّو بس المرا بتتفتح، لا يا حبّوب، الشاب كمان، ويا إلهي كيف بدّي أوصفلك، جنّ جنونه، لمّن الواحد أول مرة وبيكون خيره فيه، بدّا نكزة وبيخلص، أنا حبّيته للشاب، نكزته وقبل ما يفوت خلص، إجا بده يفلّ قلت له لا، الأول للشيطان، يلله قرّب، والتاني كمان، يا حرام ما استفتح، شي فات خلص، قلت له خلّيك، واللّه شفقت عليه، شاب متل طربون الحبق ومبيّن ابن عيلة، وبتالت مرة حسّيت كيف انفتح، وصار رجّال، يا عيني ما أحلاه، قلت له هلق صرت تعرف، تبقى رجاع لعندي. وحياتك أنا وقتها جيت، يمكن لأنّه كان شاب وأعذر، ليش عم تضحك يا ابني، مش أعذر هو مذكر عذراء. أنا بالعادة ما بجي مع حدا، مبلى مع سيّدنا يعني، كان اللّه يرحمه ويحسن إليه يهلكني، كان رجّال ختيار وعمره شي خمسة وستين سنة، لحيته بيضا وطويلة. يعني بتعرف كيف، يمكن كان مستحي، يمكن ما بعرف، رفض يشلح تيابه من فوق، قلت له ماشي يا سيّدنا، بس أنا شلحت وقرّبت، وكان يا حرام مرتخي، يعني ما كان يقدر يفوت، صار أحمر متل البندورة، حتى لحيته البيضا احمرّت. قال لي بلاها يا بنتي هيدا من الدوا، قلت له بلا دوا بلا تجليط، أنا ماريكا يا سيّدنا، وهجمت وشلّحته تيابه وبلّشت الشغل، ما تسألني شو عملت

لأنّي عملت كل لعبة الحمبلاسة، وبلّش يتحرًّك، وبلّش يمشي الحال، وسمعته عم يصرخ هلليلويا هلليلويا، قلت له يوطّي صوته، عيب يا سيّدنا نحن بالقلاية وبرّا في ناس ، بس هو ما كانت فرقانة معه وصار يسمّيني ماريكا العجائبيًّة. لا أنا ما كنت حبّه، مبلى يعني كنت أشفق عليه، الشفقة كمان هي أحد أبواب الحب. الحب يا ابني هو السرّ، وعنده مليون باب، وإذا حدا قلّك أنّه بيعرف شو هو الحب، قل له كذّاب، ما حدا بيقدر يستوعب الأعجوبة يلّي بتصير بين الرجّال والمرا ويمكن كمان بين الرجّال والرجّال والمرا والمرا. انا لمّن ركعت الراهبة ميلانة قدامي بالكنيسة وركعتلها حسّيت بشي غريب، اللّه يلعن الشيطان يا ابني، أنا ما بحطّ بدمتي، بس المرا كانت قدّيسة عن جدّ، وأنا بعرف، بكفّي العجيبة يللي عملتها مع أمك ميليا لمن كانت صغيرة».

«ميليا عمتي مش أمي».

«عمتك، أمك، كلّه منيح. إي وين كنّا؟ كنّا مع المطران، لمن سيّدنا بعد المجهود الكبير يلّي كنت أعمله يصير متل الرجال ويهجم عليّي بالهلليلويا كنت خاف. كان يسمّيني المائدة، وياكلني أكل، يعني شو بدّي خبرك، تطلع منه ريحة البخور والعسل ويصير متل شي إله، هو قال لي إنّه هيك الإنسان بيتأله، وأنا دوب بين إيديه. هو إسم اللّه كان ناصح وأنا متل منك شايفني رفيعة، بس لمّن إشلح كان ينصدم، يرجع لورا ويقللي منين جايبي هالأغراض، أنا وراكي عراض ومليانين، بس ما بيبيّنوا تحت الفستان. يمكن لأنّي كنت خاف منه، لا الحقيقة كنت خاف عليه، ومنشان هيك يمكن كنت انبسط معه. أنا رحت لعنده حتى أعترف، ركعت على الأرض، غطّى راسي بالبطرشيل وبلّشت إحكي، أنا

قبل ولا مرة اعترفت، يعني مبلى ليلة عيد الفصح كنت روح على الكنيسة، وأوقف مع الواقفين قدّام الهيكل وكان الخوري يرفع إيده ويباركنا، ويمشي الحال، مدري شو قال لي عقلي يومها رحت على الكنيسة بكيّر وكانوا بصلاة السحر، قرّبت من كرسي المطران، قام سيّدنا مدلّي إيده، يمكن كان مفكّر إنّي بدّي بوس إيده متل ما بيعملوا كلّ الناس، أخدت إيده وبستها، وقرّبت ووشوشته إنّي بدّي أعترف، تطلع فيّي بعيون غريبة، وفهمت. سمعت كيف رجف صوته وهو عم بقول إنتِ! وقام وركّعني على شمال الهيكل وكان ما كان».

اسكندر شاهين كتب كل كلام ماريكا عن المطران وعن سعيد الصبّاغة بعد تغيير إسمه، طبعًا، وعن الراهبة القدّيسة التي كانت تشفي المرضى، وعن وله ماريكا بالراهبة وكيف جنّ المطران وأمر بنفي ميلانة إلى دير مهجور في الكورة، وكيف هناك في مكان شبه خرب تحوّلت الراهبة إلى قدّيسة قرية بكفتين، عاشت وحدها في البداية ثم التحقت بها ثلاث راهبات من دير الملاك ميخائيل من أجل القيام على خدمتها. هناك فقدت الراهبة بصرها، وبدأت قدراتها العجائبيّة تتجلّى، صارت عندما تصلّي يخرج البخور من فمها، ولم تعد في حاجة إلى القطن المغموس بالزيت المقدس من أجل شفاء المرضى، إذ صارت مسحة يدها كافية كي تفوح رائحة الزيت وتخرج الشياطين من المرضى وهي تولول. العجائب تضاعفت في أيامها الأخيرة. صارت، وهي الكسيحة، تنتقل من مكان إلى آخر في الدير من دون الحاجة إلى مساعدة أحد. وقبل موتها بثلاثة أيام رضيت أن تقبل توبة المطران جراسيموس الذي جاء إليها باكيًا ومستغفرًا وطالبًا ان تحلّه من خطاياه.

ماريكا أخبرت الفتى أنَّ جدته سعدى واظبت على زيارة الراهبة في دير مار يوحنا المعمدان في قرية بكفتين في بلاد الكورة حتى وفاتها، وأنَّ هذه الزيارات كانت تعزيتها الوحيدة في مواجهة الكارثة التي حلَّت بالعائلة.

اسكندر فوجئ بالخواجة سعيد الصبّاغة يأخذ المقال ويضعه في الجارور ويقول للصحافي الشاب إنَّه يقدِّر المجهود الكبير الذي بذله في كتابة مقاله الشيِّق، لكنَّه لن يستطيع نشره، لأنَّ في ذلك إساءة لذكرى المطران بما يحمله هذا من احتمالات الفتنة الطائفيَّة في بلد كلبنان، ثم حين طالب باستعادة مخطوطة المقال اكتشف أنَّ الخواجة سعيد أضاعها أو ادّعى ذلك. وهكذا لم يبقَ من حكاية ماريكا في الذاكرة سوى اسمها الذي يثير الرغبة والذكريات وخصوصًا في العلاقة السحريَّة التي تقيمها الألف مع الكاف، كأنَّهما ترسمان الرغبات المكبوتة وتقدِّمان صورة للكيفية التي تعشّق بها الحروف بعضها بعضًا.

عندما سأل الشاب والده موسى عن عمته ميليا وحكايات الراهبة والمطران سالت الدموع من عيني الوالد الكهل. الوالد الأسمر الذي تغطّى رأسه ببياض الشيب لم يقل كلمة واحدة. ربما لم يسمع سؤال ابنه، دموعه انهمرت بصمت واختنق صوته بمجرد أن سمع اسم شقيقته.

أمسكت سعدى بطرف ثوب الراهبة التي كانت تصلّي للنور المسائي وصرخت: «يا والدة الإله خلصينا، ميليا يا أم النور، دخيلكم ميليا عم بتموت».

التفتت الراهبة إلى مصدر الصوت، شدَّت طرف ثوبها من يديّ سعدى وطلبت منها أن تذهب إلى البيت، «ميليا ما إجت ساعتها بعد، ويا ويلك يا سعدى حين تأتي الساعة. روحي على البيت وأنا بلحقك بعد شوي وإنشالله ما في شي».

صَدَقت الراهبة، وعبرت ميليا وادي الموت محمولة على ذلك المنام الغريب الذي انحفر في قلبها. نسيت ميليا أيام ذلك المرض الذي أصابها، نسيت كيف تحلَّقت أمها ونساء الحي حول سريرها يبكين الفتاة التي تموت، نسيت الهذيان والجسد الذي ينحلّ ويصير كالخيال، لكن ذلك المنام الذي عبر بها الموت بقي عالقًا في ذاكرتها، كأنَّها حلمته بالأمس، أو كأنَّها رأته مرات لا تحصى، وها هو المنام ينتصب أمام عينيها وهي تستمع إلى منصور يحكي بهذه الطريقة عن يوسف النجار. ربما كان منصور على حقّ، فهذا القديس الذي أعطى المسيح نسبه الملوكي الداودي، مهمَّش في شكل كامل في الكنيسة. لا عيد له ولا عجائب تنسب إليه، حتى إنَّنا لا نعرف تاريخ موته، هل مات قبل صلب المسيح ومتى؟ وإذا مات بعد ذلك فلماذا لم يكن مع مريم تحت الصليب؟ كأنَّه مجرد أداة هامشيَّة للإرادة الإلهيَّة، ليس نبيّاً ولا قدّيسًا لكنَّ ميليا تحبّه، لأنَّه هرب بابنه إلى مصر عندما شعر بالخطر، ورفض أن يضحّي بابنه مثلما فعل إبراهيم، السلام على اسمه، وأغلب الظنّ أنَّه لو كان حيّاً لمنع يسوع من دخول أورشليم راكبًا على جحش بن أتان ومعلنًا نفسه ملكًا، في تلك المغامرة التي قادته إلى الصليب.

كانت في مكان غريب، تستلقي وحيدة فوق حقل من العشب الأخضر. لا تستطيع المرأة وهي تستعيد ذلك المنام الغريب أن ترى

صورتها فيه. من المرجح أنَّها لم ترَ نفسها على شكل تلك الفتاة الصغيرة. في العادة ترى ميليا تلك الفتاة وتتماهى معها معتقدة أنَّها هي. أما في هذا المنام الغريب فقد رأت كلّ شيء من دون أن ترى نفسها. ربما كان هذا سبب خوفها وصراخها الهذياني الذي جعل النساء المتحلّقات حول سريرها يعتقدن أنَّ الفتاة في النزع، وأنَّها تشاهد أشباح عالم الموتى المغطاة بالتراب. ميليا صرخت أنَّه التراب. هي لا تذكر الصراخ والخوف، تذكر فقط ذلك الطفل المغطّى بالتراب والذي كان يستلقي إلى جانبها. شفتاها متشققتان بالعطش والعشب الذي مال لونه إلى الإصفرار يعريش على عينيها. كان العشب يتسلّقها، وهي تصرخ أنَّ الطفل في حاجة إلى الماء. وفجأة جاء ذلك الرجل، من هو هذا الرجل الذي يلبس معطفًا ويقفز فوق ميليا كي يحمل الطفل ويرميه في النار؟

«ليش قتلته»؟ أرادت أن تصرخ، لكنَّ صوتها ضاع، النار التهمت صوت الأم قبل أن تلتهم جسد الصبي.

رأت نفسها تطير بلا جناحين، كانت على قمة منحدر صخري يقود إلى وادٍ سحيق مليء بالأعشاب اليابسة والعلّيق. رأت الرجل يحمل الطفل ويرميه في الوادي، مدَّ الطفل ذراعيه كجناحين كي يصير مثل الطائر، لكن لم ينبت الريش على الذراعين. «أين الريش»؟ صرخت ميليا.

تقف في الأعلى والحرّ يخنقها ورائحة الحرائق تحوط بها، أرادت أن تمسك شيئًا، رأت حبلاً فتعلّقت به، لكنَّه كان عشبًا يابسًا يتفتت في يديها، ورأت نفسها تهوي إلى قعر الوادي، ورأت الطفل يفتح ذراعيه المحطمتين كأنَّه ينتظرها، وصرخت.

في تلك اللحظة، فتحت ميليا عينيها فرأت الراهبة تحتضنها وتمسّد شعرها اليابس، وتطلب من الأم أن تجلب كوب ماء لابنتها.

«البنت شفيت بإذن الله»، قالت الراهبة. «جيبولها كباية مي وعملولها ليموناضة، خللوها على السوايل تلات أيام وبعدين بتشوفوا أنّها رجعت طبيعيّة».

الأعجوبة التي صنعتها الراهبة عندما مدّت ذراعيها وأنقذت ميليا من السقوط في الوادي، هي آخر ما فعلته الراهبة من أجل الفتاة. «شفتها عم توقع، تركت الصلاة وركضت لعندكم على البيت، ولولا رحمة الله يمكن ما كنت وصلت بالوقت المناسب، مدّيت إيديّي وحملتها، وبهيديك اللحظة فتحت عيونها وسلمت من الموت، هيدي تاني مرة، أول مرة كانت وقت خلقت، جيت وسحبتها من الرحم. والرحم هو رمز القبر، الإنسان لمّن بيولد بيكون عم يتمرّن على القيامة، ولمّن بيتعمّد ومنغطسه كلّه بالمي من راسه لكعب إجريه، منكون عم ندفنه بالمي حتى يموت الإنسان العتيق ويقوم إنسان جديد. أنا سمعت صوت مار الياس الحي، كنت واقفة عم صلّي وفجأة سمعت صوت طالع من الأيقونة، كان مار الياس راكب على مركبة من نار وعم بيحلّق بالسما، قال لي أركضي يا ميلانة على بيت سعدى واحملي البنت قبل ما توقع بالوادي، وقولي لأمّها هيدي آخر مرة، لأنّه بالمرة الثالثة إنت ما رح تكوني هون وهي ما رح تكون هون، وما رح يكون إلها شفيع إلاّ الابن».

هل قالت الراهبة هذا الكلام بعدما سمعت سعدى تروي حلم ابنتها؟

«الراهبة كذابة»، قالت ميليا، «أنا ما بصدّق ولا كلمة، قعدت حدّي وسمعتني عم بحكي إنّي وقعت، أنا وعيت لأنّه قلبي وقع، لمن الواحد بيوقع، بيوقع قلبه قبله، قلت لها أنّه قلبي وقع لأنّي كنت عم بوقع بالوادي، فركّبت كل هالقصة، بعدين مين قال أنّه الرحم قبر، هيدا كفر، صاحبتكم الراهبة بتكرهني، مش هي قالت يا أمي عن مناماتي أنّها من الشيطان، ولازم إجي على الكنيسة معك وصلّي حتى صير إنسى مناماتي».

لم تنسَ ميليا مناماتها، لكنّها نسيت كلام الراهبة عن أن لا شفيع لها سوى الإبن. واليوم يقف هذا الرجل الذي صار زوجها ليشتم الراهب الذي روى لها حكايات الناصرة وأخذها إلى الخربة قرب كنيسة البشارة، وطلب منها أن تنحني في مطانيّة كاملة قبل أن تدخل لأنَّ السيِّد عاش مع أمه ووالده في هذا المكان السرّي الذي لم تطأه قدم إنسان. هنا تعلّم المشي، وهنا جاءته الرؤيا بأنَّه ابن اللّه الوحيد.

قادها إلى قرب جذع زيتونة يابسة، وقال لها إنَّ الشجرة يبست بعد اعتقال الرومان ليوسف النجار. يبدو أنَّ الرجل اختفى وقتل قبل صلب ابنه بعشر سنين، ولو بقي حيّاً لما سمح لأحد بأن يصلب ابنه.

هنا تحت هذه الشجرة، وعندما كان المسيح في الثانية عشرة من عمره، جاءته الرؤيا بأنَّه ابن اللّه الوحيد. كيف لطفل أن يستوعب معنى كلام الملاك الذي سمعه في المنام. عندما استلقى تحت هذه الشجرة، سمع خفق الأجنحة، وأبصر ملاكًا من ذوي الستة أجنحة يرفرف حوله ويعمي بصره ببياضه الملتهب. ثم سمع الصوت يقول له إنّه مسيّا المنتظر، وإنَّ اللّه اختاره ابنًا له منذ الأزل وإنّه سيعطيه عرش جده داود ويجعله ملكًا إلى الأبد.

استيقظ الطفل خائفًا وعطشان، وبقي ثلاثة أيام أخرس لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة. كان كالذاهل، يشرب ولا يرتوي. أمه حدست بأنَّ هناك رؤيا استولت على ابنها، وتذكَّرت كيف خرس زكريا حين أخبره الملاك نبأ حمل زوجته، لكنَّها لم تقل شيئًا لزوجها. فهي منذ الرحلة إلى مصر، بل منذ حملها ومحاولاتها أن تخبر زوجها بالحقيقة تعيش مع هذا الرجل في الصمت. كلَّما حاولت أن تفتح فمها كي تحكي، يسكتها بإشارة من يده ويهزّ رأسه كأنَّه يقول أن لا لزوم للكلام، وأنَّه يعرف كل شيء. وحين عاد من الزيتونة مع ابنه حاولت أن تحكي معه، أشاح وجهه عنها، اقتربت من ابنها وسألته ماذا يجري، فقال لها ابعدي عنّي يا امرأة. الإنجيل أخطأ حين أشار إلى أنَّه زجر أمه في عرس قانا الجليل حيث تمّت أعجوبته الأولى التي حوّلت الماء خمرًا. لا، في قانا قبَّل يد أمه واحتضنها قبل أن يقيم أعجوبته لأنَّه كان يعرف أنَّ ساعة إعلان نفسه قد أتت. لكنَّه هناك، كان ممتلئًا بالخوف، ولم يرد أن يتكلَّم مع هذه المرأة التي كتمت سرَّ ابنها عن ابنها.

ذهب مع يوسف النجار إلى الزيتونة وأخبره الرؤيا التي أتته في المنام. فبكى الوالد الكهل كالطفل بين يديّ ابنه، وأخذه بين ذراعيه وقبَّله، وقال له إنَّه صار في استطاعته اليوم فقط أن يمشي مرفوع الرأس. اليوم فقط تيقّن من أنَّ مناماته لم تكن أوهامًا، وأنَّ اللَّه جرّبه كما لم يجرِّب أحدًا من أنبيائه. قال إنَّ اللَّه جرّبه في كرامته، وإنَّه صبر اثني عشر عامًا في انتظار هذه اللحظة المباركة، جثا على الأرض وطلب من ابنه أن يجثو إلى جانبه، وقال: «مبارك هو الكبش الذي أرسلته يا اللَّه، لقد جنبتني تجربة إبراهيم الذي أراد أن يقتل ابنه من أجل إسمك القدوس. مبارك

أنت يا إله إبراهيم واسحق ويعقوب لأنَّ هذا هو ابني الذي يصير ملكًا في عينيك ويحمل إسمك ويكون قدوسًا إلى الأبد. مبارك أنت يا إله الكلّ لأنك جعلتني شريكًا لك في أبوة هذا الطفل، من الآن سوف أكون أخا الرب، وسوف أجلس في حضن إبراهيم خليلك وصفّيك».

روى الراهب الكهل أنَّ جدَّه الكاهن كان يملك مخطوطًا سريّاً سرقه من الأباتي الإيطالي بوجي، رئيس دير الفرنسيسكان، وفيه الحكاية كلّها عن يوسف النجار. وقال إنَّ هناك طائفة سريّة تقدّس هذا الرجل، الذي تعتبره صنوًا للنبي الياس الحي، وأنَّ اللّه رفعه إليه قبل الصلب بعشرة أعوام.

قال إنَّ يوسف النجار أخرج من الحكاية لأنَّ بولس الذي كتبها لم يفهم العلاقة بين الإبن والأب، ولم يفهم بكاء يوسف وهو يخطف إلى السماء لأنَّه رأى بعينيه ماذا سيحلّ بابنه الوحيد.

أخذها طانيوس إلى جميع أحياء الناصرة. رسم خطًا بين ناصرة المسيح وناصرة الفرنسيسكان الذين أسّسوا المدينة في القرن السادس عشر، وروى عن جدّه صاحب المخطوط العجيب الذي يكشف سرّ يوسف النجار.

«أنتَ قريت المخطوط»، سألته.

«لا، المخطوط مكتوب بالسرياني، وأنا ما بعرف سرياني، بس جدي كان يحكي ويقرأ لغة المسيح، وهو خبّرني».

«وليش جدّك بطّل لاتيني وعمل روم؟»

«لأنّه عشق المرا الحورانيّة، اكتشف أنّه اللّه ما بيتجلّى إلاّ بالحب، ولمّن راح عند رئيس الدير وخبّره جنّ جنونه وبلّش يلعن النسوان، وفرض على جدّي يقعد شهر بالمحبسة حتى يتطهر من الخطيّة. بس جدّي ما أخطأ، كلّ ما في بالأمر أنّه شاف البنت قدّام النبع حدّ الدير، وانسرق قلبه، وما عاد يقدر يفكر بشي تاني، راح عند رئيس الدير منشان يستشيره فكان الجواب هو الحبس والتعذيب والضرب. وهونيك سمع صوت الملاك وظهر عليه مار يوسف. هو بالأول افتكر أنّه يوسف بن يعقوب، الشاب الحلو يللي حاولوا إخوته يقتلوه، ويللي عشقوا كلّ النسوان. قال هيدا اللّه عم يهديني، ركع قدام مار يوسف حتى يطلب السماح على الخطية يللي ارتكبها بالفكر، فسمع القديس عم بيوشوشه وخبّره عن المخطوط الموجود بخزانة رئيس الدير، قال له يقرأ المخطوط وساعتها بيفهم كلّ شي.

بعد شهر خرج جدّي من المحبسة ووجد طريقة وسرق المخطوط وساعتها انكشفت الحقيقة وقرّر يشلح التوب ويتزوّج وصار أرثوذكسي».

«بس مار يوسف ما كان...».

«شو بدّك بهالحكي، إنشاللّه مصدّقة القصص الكاذبة يللي اخترعها بعض رجال الدين المكبوتين، وأنّه لا سمح اللّه كان مار يوسف عاجز جنسيّاً وأنّه حصلت معه حادثة وهو عم يشتغل بالنجارة وفقد رجولته. هيدا كذب، ما في ولا قديس عاجز جنسيّاً، وخصوصًا السيّد المسيح له المجد. أوعا يا بنتي تصدّقي هالكلام، الزلمة كان أرمل وعنده خمس أولاد وقصة زواجه من ستنا مريم بتاخد العقل، إسمعي يا بنتي إسمعي».

وبدأ يتلو كأنّه يقرأ نصّاً مفتوحًا أمامه.

«وكانت مريم ابنة يواكيم وحنة منذورة للهيكل منذ ولادتها، تعيش في التقوى وتخيط الخيمة البرفيريَّة وتصلّي، وتكبر في القامة والنعمة. ولما بلغت، تشاور شيوخ الهيكل فيما بينهم، وقرّ رأيهم على أنَّ الفتاة يجب أن تخرج من الهيكل وتتزوَّج. وكان بين رجال الهيكل شيخ بار يدعى يوسف ويلقب بالنجّار، يوسف اقترح على الرجال المجتمعين في الهيكل أن يصلوا إلى اللّه ويطلبوا منه علامة. وعند خروجهم في المساء، وبينما كانوا يأخذون عصيهم الموضوعة أمام الباب شاهدوا زهر البنفسج وقد نبت على عصا يوسف، فصرخوا بصوت واحد، إنَّه هو. أنا؟ قال يوسف، من أين لي أن آخذ هذه الفتاة العذراء، وكيف لي أن أتزوَّجها وهي في عمر أبنائي وأنا شيخ أرمل أعدّ أيامي المنتهية، لأنَّ الرجل الحكيم هو من يعرف أنَّ عمر الإنسان يذبل كأزهار الحقل، وأنَّ جسده ينحلّ في التراب، وأنَّ الحياة هي الخسارات التي تتوالى في انتظار الخسارة الكبرى. لكنَّ حكماء الهيكل بعدما رأوا الأعجوبة التي صنعتها العصا قرَّروا ولم يكن لقرارهم ردّ، فأخذ يوسف المرأة وعقد عليها وقبل أن يبني بها اكتشف أنَّها حبلى، فبكى بكاءً شديدًا... وبعدين خبرتك بقية القصة».

«شو يعني برفير»؟ سألت ميليا.

«يعني أحمر»، قال الراهب.

«بس ليش عم تحكي كأنَّك عم تقرأ، ما إنت قلت لي أنَّ الكتاب بالسرياني، كيف حفظته بالعربي الفصيح»؟

وبدل أن يحتضن لحيته بيديه ويغمض عينيه قبل أن يجاوبها، نظر إليها طويلاً وقال، «طوبى لمن آمن ولم يرَ، أنا خايف عليك يا ميليا، تعي معي، أنا عم عدّ الأيام لأنّي ناطرك، رح أمسك لك إيدك حتى تقطعي الوادي من دون ما يمسّك سوء، شو بتقولي»؟

وقبلَ أن تقول شيئًا اختفى الرجل عن عينيها، كأنَّه التفّ بكتلة من الغبار حملته إلى البعيد.

قالت ميليا للطبيب الإيطالي إنَّها خائفة. كان الرجل الكهل الذي يلبس قميصًا أبيض ينحني بين ساقي ميليا المرفوعتين فوق نصف السرير الذي طلبت منها الممرضة الاستلقاء فوقه. خرج الطبيب من الغرفة وبقيت المرأة وحدها، شعرت أنَّ الألم خفّ إلى درجة أنَّه لم يعد موجودًا، وتنفست بعمق، كأنَّها لم تعد حبلى، عادت إليها روحها الخفيفة وانقشع السواد عن عينيها. أرخت أجفانها كي تستريح، عندما رأته.

كيف دخل الراهب إلى غرفة المستشفى؟

كان مليئا بالغبار، كأنَّه قادم من مكان بعيد، اقترب منها حاملاً مبخرة طويلة يخرج منها دخان أبيض يعمي الأبصار. رأت من خلال الدخان فتاة صغيرة تتسلق الهواء وتذوب. «لا، هيدي مش بنتي، أنا رح خلّف صبي مش بنت»، قالت. ثم اكتشفت أنَّ الفتاة التي تراها هي ميليا، «يا لطيف شو صعبة الولادة يا أم النور، هلّق صرت أفهم قدّيش تعذبتِ، بتبطّل الواحدة تعرف حالها». تلاشت الفتاة في الدخان، وتكاثف البخور الأبيض، ولم يبقَ سوى الراهب الكهل.

«حلّ عنّي اللّه يخلّيك، هلّق بدي خلّف، أرجوك ما بيسوى تجي لهون».

وسمعت صوتًا يخرج من الدخان.

«دخيلك يا عدرا قولي له خلص».

لكنَّه تابع كلامه، رفضت العذراء أن تتدخل وتركت ميليا لمصيرها. وسمعت الحكاية. هذه ليست المرة الأولى التي تستمع فيها إلى هذه الحكاية. من أخبرها حكاية حواء؟ تذكر أنَّها قالت «شو هالتفنيص»، لكنَّها لم تعد تذكر متى وأين. بلى، بلى، إنَّها الراهبة ميلانة، ماذا أتى بها إلى هنا، ولماذا يبدو الراهب الشحاذ كأنَّه لبس صورتها.

هل؟ لا! لا يمكن. لكنَّه شحاذ. عندما رآته للمرة الأولى ترك الكأس على نافذتها واختفى، لكن في المرات الكثيرة التالية، كانت تطعمه وتعطيه النقود، إنَّه مجرد شحاذ يدّعي أصلاً لبنانياً كي يتقرّب منها.

«الله يخلّيك روح هلّق، بعدين بعد ما خلّف بطبخ لك أطيب أكل، هلق بدي كون لوحدي».

زوجها كان مقتنعًا أنَّ نصّابًا يضحك على ميليا ويسحب منها المصاري، وأن لا أحد في الناصرة سمع بوجود راهب لبناني الأصل يدعى طانيوس ويعيش وحيدًا في المدينة. «يا مرا كبّري عقلك ما في دير للروم هون بالبلد، في المسكوبية، ورهبانها روس. كيف يعني راهب وعايش لوحده، وبيعرف وين بيت المسيح، دلّيني على البيت وأنا بعمل ثروة، يعني بكون أهمّ مزار بالعالم كلّه، يللا قومي وفرجيني وين البيت».

أرادت أن تقول له إنَّ مكان البيت هو سرّ ائتمنها عليه الراهب، وإنَّها لا تستطيع البوح به لأحد، لكنَّها وجدت نفسها تمشي في الأزقة الضيّقة وتبحث عن شجرة الزيتون والخربة التي إلى جانبها ولا

تجدهما. أين منصور؟ خرجا من البيت معًا، لكنَّه اختفى، وهي تمشي وحيدة ومتعثّرة بخطاها، تبحث عن جذع الزيتونة اليابس كي تضع عليه رأسها المتعب وتستريح، لكنَّها أضاعت المكان.

قالت ميلانة إنَّ يوسف النجّار اعتراه الذهول حين رأى كيف أنجزت القابلة عملها بسرعة في تلك المغارة الصغيرة التي عثروا عليها في بيت لحم. قالت الراهبة إنَّ المرأة التي وجدها يوسف على باب المغارة كانت تقف هناك في انتظاره، ركعت تحت مريم ومدَّت يدها، فخرج الصبي في ثوانٍ. «العذراء تألمت»، قالت ميلانة، لأنَّه لا يمكن للمرأة أن تلد بلا ألم، وذلك بسبب الخطيئة الأصليَّة، لكن الألم كان خفيفًا ويكاد لا يذكر، ذلك لأنَّ المولود لم يكن ابن الخطيئة مثل أمه، بل كان آدم الجديد الذي لم يطرد من الجنة، لذا كان لا بدّ من أن تأتي حواء القديمة وتركع أمام حواء الجديدة، ستنا مريم هي حواء الجديدة، التي سجد الكون كلّه لها. وعندما تكلم الغلام في المهد شكر القابلة التي سحبته من بطن أمه وسمّاها حواء. مريم سمعت الإسم لكنَّها لم تجرؤ أن تقوله لزوجها، خافت أن يعتقدها تهذي، أو أن لا يصدّقها. هي أخبرته رؤيتها، لكنَّ الرجل قطّب جبينه ومنعها من أن تكمل الحكاية، موحيًا أنَّه يعرف كلّ شيء، لكنَّه لم يكن يعرف شيئًا، ولن يعرف إلاَّ حين سيروي له الصبي حلمه، عندها سوف يسجد الرجل الكهل أمام زوجته العذراء التي لم يقربها لأنَّه شكّ في إخلاصها له، وسوف يقترب منها مثلما يقترب الزوج من زوجه ولكن بعدما فات الأوان، ومسح العمر الرغبات محوّلاً إيَّاها لطفًا وحنانًا.

لم تروِ الراهبة الحكاية هكذا، قالت إنَّها عندما أتت راكضة إلى منزل آل شاهين، ورأت اللون الأصفر يغطّي سعدى، أمرت القابلة بأن

تسحب الطفلة من بطن أمها، وفي تلك اللحظة رأت امرأتين، الأولى تتحني وتسحب الطفل من بطن أمه، والثانية تقف إلى جانبها مغطاة بالأرجواني والأزرق. قالت إنَّها حواء القديمة التي صارت منذ تلك اللحظة المباركة شفيعة القابلات، بل القابلة التي يرسلها الروح من أجل إنقاذ النساء من موت الولادة. قالت ميلانة إنَّها عندما رأت اجتماع المرأتين أيقنت أنَّ اللَّه يريد لهذه الطفلة أن تحيا كي تشهد له.

لكنَّ طانيوس سخر من ميليا حين أخبرته أنَّ حواء حضرت مولدها، «هيدا مش معقول يا بنتي، اللّه بعت حوا حتى تشوف أنَّ آلام الولادة ممكن تزول مع زوال الخطيّة، أنا مش عم قول شي، ممكن الراهبة كانت قدّيسة وممكن شافت رؤيا، بس بمغارة بيت لحم ما كان هيك، حوا بنفسها إجت وركعت وسحبت يسوع. هيدا قرار أخذه أبو عيسى شخصياً، وهيدا أجبر يوسف يسكت ١٢ سنة وما يقول شي، لأنَّ حوا ما حكيت إلاَّ جملة واحدة. سألها مين إنتِ وحاول يعطيها فلوس، رفضت الفلوس بإشارة من كفّها، وقالت له أنا حوا واختفت. بس القصة مش هون، القصة قصة المسيح مع السمكة. لمّن المسيح عليه السلام مشي على وجه المي، إجت السمكة لعنده، وكانت حاملة رسالة من مار يوسف. الناس بتسمّي سمك بحيرة طبرية المشط أو سمك بطرس، بس هيدا مش إسمه الحقيقي، هيدي السمكة إسمها مار يوسف، وما حدا بيعرف الإسم إلاّ السمكة ومار يوسف واللّه. وقفت السمكة حدّه وقالت له ما تروح على القدس، لأنَّهم رح يقتلوك هونيك. المسيح بارك السمكة وقال لها ما تخاف، قال أنَّ الموضوع ما عاد عنده علاقة بالسمك، وأنَّ بيّه رح يبعت الخروف».

«والسمكة»؟ سألت ميليا، «كلّ هالحكي عرفت السمكة تحكيه بالسرياني»؟

«طبعًا، ما السمك بيحكي، بس الإنسان نسي لغة الحيوانات وقت صارت هيديك القصة مع سيِّدنا إبراهيم عليه السلام».

«أي قصة»، سألت ميليا.

...

«إنت قصدك قصة الخروف، مش هيك».

...

«يعني بيدبح ابنه، حدا بيقتل ابنه»؟

...

«صحيح ما هو كان آخد ابنه حتى يقتله، اللَّه أمره يقتل ابنه، وما كان عنده حلّ تاني. لا، الخروف ما معه حقّ يزعل، مبلى طبعًا، يعني مش ممكن الواحد يموت بلا ما يزعل، بس شو كان في يعمل، يعني يا بياكل ابنه يا بياكل الخروف».

...

«بدك تقللي أنَّه إسحق قعد مع أبوه وأكلوا الخروف، لا أنا هالقصة مش رح صدّقها».

...

«يا ويلك من اللّه، ليش عم تحكي هيك».

...

«مبلى كان عنده ولدين، الكبير رماه بالصحرا هو وأمه هاجر، والتاني أخده حتى يقدّمه ضحية».

...

«يا دلّي مدري شو عم قول، يا ربي تسامحني، يمكن القصة هلّق ما إلها علاقة بالماضي، معك حقّ، بس ليش انقتل أمين بيافا، وأنا شو بدّي روح أعمل هونيك، دخيلك قول لمنصور ميليا حزينة وبدّها تعيش حدّ الزيتونة هون وما فيها تتحمل».

...

«أنا ما بحب هالقصص، خلّينا نرجع لقصة السمكة، خبّرني لمّن نقلت السمكة رسالة يوسف للمسيح، شو جاوبها»؟

...

«اللّه يخلّيك بدي ارجع على البيت، ضيّعت طريق بيتنا، وهلّق منصور بيكون انشغل باله، وأنا بهالحالة، خدوني على البيت».

عندما استمع منصور إلى صراخها بأنّها تريد العودة إلى البيت، أصيب بشعور فادح بالعجز. بدأ هذا الصراخ يحتلّ نوم ميليا منذ مقتل شقيقه في يافا. كأنّ المرأة كسرت تقاليد نومها ودخلت في صراع غامض مع العالم. أيقظها في المرة الأولى ليقول لها إنّ الطريق إلى لبنان مليء بالمخاطر لكنّه مستعدّ للاتصال بالصليب الأحمر من أجل أن يؤمّن لها الذهاب إلى بيروت كي تلد هناك. «بس أنا ما فيي إجي معك، الوضع صعب وما بقدر أترك أمي وحدها هون، إيش رأيك يا حبيبتي»؟

نظرت إليه بعينين وسنانتين، تقلّبت في فراشها، برمت إلى جنبها الأيمن وغرقت في النوم من جديد.

لم يعد منصور يعرف كيف يتعامل مع هذه المرأة، فلقد تغيَّرت عاداتها منذ مقتل شقيقه، لم تعد تنهض باكرًا من النوم، يغادر إلى عمله وهي نائمة ويعود منه فلا يجدها في البيت. تعلّم أن لا يبحث عنها في طرقات المدينة لأنَّها كانت تزعل منه وتتهمه بأنَّه يعاملها كأنَّها فتاة صغيرة. صار يعود من عمله ويجلس في انتظارها والقلق يفترسه. وحين تدخل إلى البيت تتصرَّف وكأنَّ لا شيء، تذهب إلى المطبخ وتسخّن له الطعام، وتجلس صامتة لا تأكل ولا تحكي.

وحين يسألها شيئًا تغرورق عيناها بالدموع وتقول إنَّها تعبانة وتريد الذهاب إلى الفراش.

«بس وين بتضهري كلّ يوم، اللّه يرضى عليك يا ميليا هيدا ما بيسوى عشان الولد، دخلت بشهرك والحكيم قال إنَّك لازم ترتاحي».

«ما أنا عم بضهر منشان الولد».

«كيف يعني»؟

«شو بدّي فهّمك والمسألة مش بإيدك، أنا ما بدّي روح على يافا، أنا بدّي ضلّ هون».

«بس إنت بتعرفي ليش لازم نروح».

«بعرف وما بعرف، بسّ أنا خايفة على ابني».

«هيدا حكي مجانين، لازم تشوفي طبيب».

رفع كأسه ونظر في عينيها وقال:

«فكأنَّها وسنانُ إذ نظرت
أو مدنفٌ لما يفق بعدُ

برموشِ عينٍ ما بها رمدٌ
وبها تداوى الأعينُ الرمدُ

معاكِ حقّ، واللّه الحق عليّي، أنا تغيَّرت وإنت إيش ذنبك، بس «مشيناها خطىً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطىً مشاها». خلّينا نرجع زي أول، وين اللبن أمه أنا اشتقت آكل لبن مطبوخ، بكرا اطبيخي لبن. منحط كاس ومنقول شعر زي زمان».

مدّ يده كي يتحسَّس الجنين في بطنها فانتفضت إلى الوراء، «لا اللّه يخلّيك»، قالت.

«بس بدي إسمع صوته بايدي»، قال منصور.

لم يفهم منصور سبب خوفها، عندما سمعها تصرخ في الليل بأنَّها تريد الذهاب إلى البيت، وعدها بتدبير أمر إرسالها إلى بيروت، لكنَّها جفلت وقالت لا. قالت إنَّها لا تريد الذهاب إلى بيروت، وإنَّها جاءت إلى الناصرة كي تبقى، وإنَّها صارت تخاف منه لأنَّه يسمع مناماتها، وعندما يستطيع شخص أن يستمع إلى منامات شخص آخر فهذا يعني أنَّه يسيطر عليه.

منذ موت شقيقه صارت أم أمين امرأة أخرى. فجأة ومن دون مقدِّمات انتقلت إلى التعلُّق بمنصور. قالت له إنَّها ترى فيه صورة شقيقه، وإنَّها لم تنتبه في السابق إلى أنَّهما متشابهان كقطرتي دموع.

هل استخدمت هذه العبارة؟ أغلب الظنّ أن لا. هذه طريقة ميليا في الكلام. حين تنهض من النوم، يكون كلامها مليئًا بالطراوة، قالت له إنّ الكلام كالندى، وإنّ الندى يأتي في اللحظة التي تفصل الليل عن النهار، وإنّها تشعر بنكهة هذه اللحظة في فمها حين تنهض من النوم. قال إنّه يحب أن يقبّلها في الصباح، لأنّ طعم شفتيها يكون كطعم الحبق الطري. كانت إذا حكت في الصباح تستخدم كلمات طازجة يتأرجح فيها النعاس، لم يسبق لمنصور أن سمع مثلها إلاّ في الشعر العربي القديم.

لماذا يمزج منصور بين كلام أمه وكلام زوجته؟

هل لأنّ الرجل لا يحب إلاّ امرأة واحدة في حياته هي أمه ويمضي حياته باحثًا عنها؟ منصور لم يكن هكذا، قال لميليا إنّه يكره تولّه أمه بشقيقه. لم يفهم كيف نظّمت الأم الحياة من حولها، بحيث صارت محور البيت ومحور المعمل. كانت اسمى زوجة أمين كالزائرة في بيتها، لا تستطيع أن تقوم بأيّ شيء، ولولا أنّ اللّه جعل من ثديي المرأة منبعًا لغذاء الاطفال، لوجدت المرأة نفسها بلا عمل.

مات ابنها فصارت المرأة كالتائهة، انهارت عيناها المتسلّطتان، ولبسها خفر لا عهد لها به. أما الزوجة فحكاية أخرى. المرأة التي كانت ملتفة بنفسها كأنّها محجوبة عن الأنظار ومحجّبة بالحياء، صارت امرأة جديدة. انجلى جمال عينيها السوادوين وتجلّى، وصارت سيّدة المكان، وانقلبت الأدوار في لحظة واحدة. قال منصور لميليا إنّه فوجئ بجمال أسمى، «وين كانت مخباية كلّ هالحلى، يعني معقولة المرا تحلت لمن مات زوجها، من زمان كانوا يدفنوا المرا مع زوجها، لأنّه موت الرجال بيعني أنّ حياتها انتهت، هلق شوفي كيف اتحلت»؟

«ما بقدر أترك أمي لحالها»، قال منصور.

«هلّق صرت تحب أمك؟ شو بدّك ياني قول، رح يصير متل ما بدّك، بسّ أنا خايفة عليك وعلى ابني، يعني نحن مش مضطرين نموت متل ما مات خيّك».

من أين أتى منصور بهذه اللغة الجديدة، وقف في المطبخ، وحدثها عن الشاعر الفارس عبدالرحيم محمود:

«سأحمل روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدى»

«هيدا مش شعر»، قالت ميليا، «يعني بدّك تقول أنَّ هيدا بيتقارن بشعر المتنبي:

«إذا غامرت في شرف مرومٍ
فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعم الموت في أمرٍ صغيرٍ
كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ»

«لا، لا، هاي أحلى»، قال:

«وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف
كأنّك في جفن الردى وهو نائمُ

تمـرّ بـك الابطـال كـلـمـى هـزيمـةً

ووجــهـك وضــاحٌ وثـغــرك باسـمُ»

«بس أنا بحب هالبيتين»، قـالت:

«وان رحـيــلاً واحــدًا حــال بيننا

وفي الموت من بعـد الرحيل رحيلُ

ألـم يرَ هـذا الليل عــينيك رؤيتي

فــتظهــر فــيــه رقــةٌ ونحــولُ».

«هلّق مش وقت الغزل»، قال، اسمعي:

«ولا تحـسبنّ المجـد زقًـا وقـينةً

فـمـا المجدُ إلاَّ السيف والفتكة البكرُ

وتضــريبُ أعناقِ الملوكِ وأن ترى

لك الهبواتُ السودُ والعسكرُ المجرُ».

«جبلي شعر متل هيدا، جبلي شاعر متل المتنبي، ساعتها بروح معك محل ما بدّك، ساعتها بكون طعم الحرب من طعم الشعر وبكون طعم الشعر من طعم الحب، بس بهيدي، تبع يلّي بده يحمل روحه..»

«هيدا شاعر عظيم، ما اكتفى بالكتابة، حمل سلاح وراح على الحرب ومات، وسمى ابنه الطيّب حتى تصير الناس تنده له أبو الطيّب».

«الشهيد على راسي، بسّ شاعر هالبلاد بعد ما خلق، ولمّن رح يجي وقته رح تعرفوا أنتم الفلسطينيِّين أنّ هالبلاد ما بتتصنع إلاّ بالشعر، هالبلاد مش أرض، هيدي كلام معجون بالقصص، من وقت

ما مشي المسيح على الارض صار التراب مصنوع من أحرف وكلمات، «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند اللّه، وكان الكلمة الله»، يعني هو الكلمة، والشعر هو أعلى درجات الكلام، وبكرا يا حبيبي بعد شي خمسين سنة لمن بيولد بها الأرض شاعر عظيم ساعتها بتصيروا تعرفوا أنَّ الحرب ما رح تريحُوها إلاّ بالكلمة يلّي هي أقوى من السلاح».

«أولاً ما تقولي أنتم، ليش إنتِ مش إحنا».

«معك حقّ يا حبيبي، بعتذر. أنا صرت نحنا، ولمن بحكي عنكم بكون عم بحكي عن نحنا».

«وتانيًا مش رح ننطر خمسين سنة حتى يظهر الشاعر تبعك، رح نحارب بالشعر يللي منعرف نكتبه، ورح ننتصر».

«هيك ما بعرف»، قالت.

«بتعرفي ما بتعرفي أنا ما خصّني، لأنّه تالتًا كل شي بعرفه أن خيّي مات وما فيّي أترك أمي لوحدها».

«إنت منتبه على حالك كيف صاير تعمل حركات متل أمك، بتتاوب متلها، وبتمص شفافك لّمن تزعل متلها، وبتطعج المخدة تحت راسك وقت تنام متلها، يا لطيف شو عم تتغير».

«أنا كلّ عمري هيك».

«يمكن، بس أنا ما كنت شايفة، كأنّك ابنها، مدري ليش ما انتبهت من الأول».

«ما أنا ابنها، بس أنا ما بشبهها متل ما عم تقولي، أنا عم أقوم بواجبي نحو أمي ونحو ولاد خيّي ومرته».

«نشكر اللّه أنَّك مش مسلم، يمكن كنت تزوّجت مرت خيّك وجبتلّي ضرة، ما دام بلّشت تكتشف أن المرا حلوة».

...

«ما تزعل مني، كنت عم بمزح، بس شو بيعرفني».

قالت «شو بيعرفني» كي لا تقول أنَّها رأته في المنام مع تلك المرأة، حين صار منصور يشبه نجيب.

ولا مرة اختلط زوجها بصورة الرجل الذي خرج من حياتها كأنَّه ما كان. في العادة يمتزج منصور بموسى، ترى موسى في مناماتها وتفهم أنَّ الرسالة عن منصور تمر عبر شخص آخر. منصور لن يدخل سوى إلى المنام الأخير، حين ستكتشف المرأة أنَّ نهاية الأشياء تشبه بداياتها.

المكان يشبه حديقة البيت العتيق، لكنَّه ليس في بيروت. إنَّها يافا، رائحة البحر تختلط برائحة البرتقال، ونجيب يقشّر برتقالة ويقف إلى جانب امرأة متوسطة الطول، ممتلئة الجسم، لكنَّها ليست سمينة. «هل أنت نجيب»؟ أرادت الفتاة أن تسأل الرجل؟ ومن هي هذه المرأة؟ ماذا أتى بأسمى إلى هنا؟

ميليا تختبئ خلف ياسمينة تتفرع جذوعها الصغيرة وتلتفّ حول بعضها، لكنَّها لا تشم رائحة الياسمين، البرتقال وملح البحر والرطوبة تحتلّ مسامها. الرجل الذي يشبه نجيب يلاعب البرتقالة بيديه ثم يمدّ يده اليمنى إلى صدر المرأة ويُخرج منه برتقالة ثانية، والمرأة تتأوه.

السكين في يده اليمنى، نجيب يمدّ يده اليسرى إلى صدر المرأة، يسحب برتقالة ويبدأ في تقشيرها، المرأة تبكي كأنّها تتألّم، والرجل يلتهم البرتقالة، ألقى السكين جانبًا، اقترب من أسمى، أو من هذه التي تشبه أسمى، وضع شفتيه على صدرها الذي صار نصف برتقالة وبدأ في تقبيله.

«شو عم تعمل هون يا نجيب، مش قلت لك ما بقى بدّي شوفك»، قالت الفتاة الصغيرة التي خرجت من خلف الياسمينة حاملة السكين بيدها.

«إنت مين»؟ سألها الرجل الذي تغيَّرت ملامحه فجأة.

...

«لا مش ممكن تكوني ميليا، وين عيونك الخضر»؟

كيف عرف هذا الرجل الذي يشبه نجيب لون عينيها.

«إرجعي على بلادك يا بنت وحلّي عنّي».

انحنى الرجل على صدر المرأة من جديد وبدأ اللون البرتقالي يتساقط من فمه.

في تلك اللحظة اختفيا، لا تدري ميليا أين أخذ الرجل المرأة.

استلقت على العشب، وكان الرجل يشبه منصور.

المرأة تبكي، كأنَّ هذا الرجل الذي يحمل سكينًا في يده يضربها، سمعتها تتوسّل إليه لكنَّها لم تكن قادرة على فهم كلامها، كأنَّها تتكلَّم لغة لا تعرفها ميليا، مبلى يمكن عم تحكي ألماني، بس الألماني مش هيك

أنا ما بعرف الماني، نحن بلبنان علّمونا فرنساوي بالمدرسة، لا هيدا مش الماني، كأنّه عربي، بس مش عم بقدر أفهم ولا كلمة. يعني عربي مش مفهوم. «مبارح كنت عم تحكي عبراني، ليش إنت بتعرف عبراني»؟

«أنا»!

«أنت، لكن مين».

«وين»؟

«مش مهم، بس بحب أعرف».

«لا أنا ما بعرف عبراني، بعرف كلمتين تلاتة، بسّ خيّي كان يعرف».

«يمكن هيدا خيّك».

«شو قصة أخي اللّه يرحمه».

«ولا شي، إنسى».

«المهم تروقي وتبلّشي تضبّي الأغراض، المفروض ننقل على يافا بعد ما تخلّفي».

«لا منعمّد الولد هون وبعدين منروح إذا بدّك».

«تكرم عينك، يعني بعد أربعين يوم، منشان هيك لازم نرتّب حالنا من هلّق».

«مش مهم»، قالت.

بكت المرأة، اختفت بين يدي نجيب أو هذا الذي يشبهه، وغرقت في دموعها. ميليا المختبئة خلف الياسمينة رأت ولم ترَ. حين تحاول أن

تتذكَّر هذا المنام لا تعثر إلاّ على صورة غامضة لرجل أشعث الشعر يحمل برتقالةً وسكينًا، وامرأة مغطاة بالخوف والدموع. ثم ظهرت تلك المرأة الثانية. حملت والدة منصور مقصًا وبدأت تشحّل الياسمينة. ميليا الصغيرة ترتجف تحت الشجرة حيث اختبأت، والمقص يقترب من شعرها.

لم تروِ الحلم لمنصور لأنَّها لم تجد الكلمات. ماذا أتى بأسمى إلى البيت العتيق في بيروت؟ وماذا يريد نجيب بعد كلّ هذا العمر؟ القصة انطوت، وذلك الشعور بالفراغ الداخلي الذي ضربها بعد هرب نجيب وزواجه، انتهى الآن. الفجوة التي انفتحت في داخلها ردمتها الأيام. منصور كان رسول النهاية، فلماذا يفتح اليوم فجوة جديدة في أعماقها ويجعلها عاجزة عن التمييز بين الهجرة إلى يافا والخوف من شبح الفقدان الذي زرعه نجيب في قلبها. ماذا تريد حماتها من المقصّ؟ «يريدون قتلي»، صرخت ميليا وقفزت من الفراش لتجد منصور جالسًا إلى جانبها مشعلاً سيكارته ووجهه مغطى بالالم.

قالت لا لاقتراح منصور بالإقامة في منزل العائلة في العجمي.

«هيدا بيت أبوك وجدك، ونحن حرمتين وولدين وين بدّك تروح فينا، بتجي إنت ومرتك وبتعيشوا هون، البيت واسع وما في مشكلة، وهيك بتهتم بأولاد أخوك. إنت الرجّال».

عندما قال لميليا إنَّه الرجل وعليه أن يتصرَّف كالرجال، نظرت إليه المرأة من أسفل عينيها. كان منصور يرتبك حين يرى هذه النظرة ويفهم أنَّ عليه أن يسكت. تنحدر الأجفان إلى الأسفل، ثم تبدأ النظرة في الارتفاع من خلال زاويتين صغيرتين يرسمها البؤبؤان العسليان، قبل أن

يستقرا على عينيّ منصور. هذه هي النظرة التي سحرته في البداية، كانت مزيجًا من الخجل الذي يتشكل لونًا زهريّاً على خدي الفتاة، والرغبة التي لا تعبر عن نفسها إلاّ في شكل موارب. لكن مع الأيام بدأت معاني الأشياء تتغير، وبدأت هذه النظرة تحفر الخشية في قلب الرجل.

استمع إلى نظرتها واستدرك قائلاً إنَّ هذا مجرد ترتيب موقت. «مستحيل يا حبيبتي إنّي أعيش كلّ حياتي مع تلات نسوان، أنا بمرا واحدة مش مخلّص».

...

«طبعًا طبعا يا حبيبتي، بس عاوزين شوية وقت، وبعدين لمن بيمشي الشغل واللّه بيفتحها بوجهنا منتقل، الخطة اشتري بيت لأمي وللأولاد، وهيك بيعيشوا لحالهم ونحن منسكن ببيت العيلة».

...

«لا، أنا ما بحب بيت العيلة، ما أنا هربت منه على الناصرة، نحن منشتري بيت بأحلى حي، إنت اختاري وأنا بنفّذ، بكرا بس ننتقل ليافا ما فيش أهون منها، إنت قرري وأنا ولا يهمك».

...

«لا بدّنا شوية وقت سنتين زمان فيكي تقولي».

...

«أعطيني تسعة أشهر، منحسب أن البيت بدّه قد الولد، وبعدين ما تخافي عندنا حياتنا المستقلة، يعني بالأول بتتفرّغي للولد، أمي

واسمى بيطبخوا وبينفخوا وإنتِ بتعيشي ملكة، وبعدين منمشي على بيتنا، البيوت صعبة بيافا، يافا مدينة كبيرة زي بيروت، ومش بالهيّن يلاقي فيها الواحد بيت محترم، يعني بدّها شوية صبر، وبعدين بيحلّها الحلال».

منذ لقائها بالراهب اللبناني تغيّر كلّ شيء. كانت، حين تزعل في الماضي وتصرخ، تشعر أنَّ الصوت الذي يخرج من حنجرتها هو صوت أمها، وكانت تكره نفسها. فتاة صغيرة وجدت نفسها مسؤولة عن عائلة كاملة مؤلَّفة من أربعة رجال وراهبة، الأم كانت الراهبة المريضة، بلباس مدني، التي على الجميع الوقوف على خاطرها كل الوقت. وعندما صرخت ميليا بشقيقها الكبير سليم أنَّها ليست خادمة، وسمعت صوت أمها يخرج من فمها علقت الكلمات في حنجرتها كأنَّها تخنقها. لا تذكر ميليا ماذا جرى بالضبط، حتى أنَّها لا تذكر سبب الخلاف مع شقيقها وماذا كانت تقول حين غصّت بصوتها ولم تعد قادرة على الكلام. وقرَّرت، تقول الآن إنَّها قرَّرت بينها وبين نفسها، أن لا تعود إلى تقليد صوت أمها أو حركاتها. صارت هادئة، تتقبَّل كلَّ شيء. لكن في الأيام الأولى من إقامتها في الناصرة بدأت تستمع إلى صوت أمها قادمًا من الذاكرة. ذاكرة الأصوات مخيفة. لا، في المنام إنت لا تستمع إلى صوت من يتحدَّث إليك، يأتي الكلام بلا صوت، وهذا هو سرّ المنامات وسحرها، أما حين يتفتق صوت شخص بعيد أو ميت من الذاكرة، وتستمع إليه بأذنيّ رأسك فإنَّه يصيبك بالذهول. ذهول ميليا وهي تكلِّم أمها وتستمع إليها تحوّل خوفًا، لأنَّها اكتشفت أنَّ هذه المرأة التي جسّدت بالنسبة لابنتها الوحيدة الغياب، والشعور باليتم، كشفت

عن حضور غير منتظر. في الناصرة لم تكره ميليا نفسها بسبب حضور أمها، لكنّها اكتشفت أنّ الأم، حتى حين تكون غائبة، ضرورة لغوية. تصرخ يا أمي لا لأنّك تفكّر بالمرأة التي أنجبتك، بل لأنّ شفتيك في حاجة إلى الألف التي تضمّ الميم وتنحني على الياء. ميليا التي سوف تصرخ في لحظة الوجع في المستشفى الإيطالي في الناصرة بهذه الكلمة السحرية قبل أن يستمع منصور إلى بكاء الطفل الخارج من رحم أمه، لم تكن ترى أمها أو تشعر بحضورها، بل كانت ترى الدنيا وقد اتّشحت ببياض يشبه الضوء.

ميليا أحسّت كيف ضاع صوت منصور في صوت أمه، وقالت له ذلك، صحيح أنّه ادّعى عدم المبالاة وقال أنّه كلّ عمره هكذا، لكنّه بدأ ينتبه إلى حركاته، وصار يتفادى تقليد أمه، واستغنى عن التثاؤب بفم مفتوح وصوت مرتفع، مثلما تفعل الأم مردّدة يا اللّه.

لكنّه لم ينتبه إلى أن زوجته فقدت صوتها ولبستها طريقة الراهب اللبناني في الكلام. كانت حين تحكي تشعر أنّها تلبس صوت ذلك الرجل الغريب الذي حاول منصور إقناعها بأنّه ليس موجودًا، وأنّها قامت بتأليفه.

في ذلك اليوم، وبعد عودة ميليا إلى البيت منهكة، وآلام الوضع مرتسمة على وجهها، كان منصور يجلس وحيدًا في الدار وأمامه كمشة من القضامي الصفراء.

«أكيد جوعان»، قالت. وركضت إلى المطبخ كي تعدّ الطعام.

«لا مش جوعان، تعالي إقعدي جنبي بدّي إحكي معك».

جلست إلى جانبه وروى لها عن طانيوس الراهب. قال إنَّه يعتذر منها، لكنَّه يستغرب أن تكون قد التقت بالراهب. فالرجل طرد من دير الفرنسيسكان منذ عشرين سنة، وهو يعيش في البراري، ويشاهد بين وقت وآخر في مرج ابن عامر، ولا يأتي إلى الناصرة إلاَّ نادرًا حيث يصلّي في مغارة يعتقد أنَّ العائلة المقدَّسة سكنتها في الماضي. وحين يشاهده الرهبان يطردونه عبر رشقه بالحجارة.

قال إنَّه خاف عليها وذهب للبحث عنها في الدير. قرع طويلاً على الباب قبل أن يفتح له راهب كهل يتكلَّم اللغة العربيَّة بصعوبة. «سألته عنك، فجاوبني باستغراب أنَّ النساء لا يدخلن هذا المكان، وأراد أن يغلق الباب في وجهي، فرجوته أن يستمع إلى طلبي، وسألته عن الراهب اللبناني، تردَّد قبل أن يجاوب، رسم إشارة الصليب مرات عدة وسألني إذا كنت أحد أقربائه. كذبت عليه وقلت نعم، قال إنَّه اعتقد ذلك من لهجتي اللبنانيَّة، ما بعرفش كيف فكّر أنَّ لهجتي لبنانيَّة، يمكن هادا من تأثيرك يا ست ميليا، هيك ما بقاش فيك تقولي لي أنِّي بحكي متل أمي، مزبوط أنا لهجتي لبنانيَّة»؟

«إيش بيعرفني».

«وإنت كمان صارت لهجتك فلسطينيَّة، ما هو إحنا منحكي زي بعض. المهم أنَّ الرجل روى لي الحكاية كلّها. الراهب طُرد من الدير لأنَّه ادّعى أنَّه وجد إنجيلاً كتبه أحد تلامذة يوسف النجار، وأنَّ هذا الإنجيل المكتوب بالسريانيَّة، يروي حكاية المسيح بطريقة مختلفة عن الأناجيل الأربعة التي كُتبت باليونانيَّة، وينسب إلى يوسف رفضه فكرة صلب المسيح، وأنَّه أراد أن يقوم بما قام به إبراهيم عندما طلب منه اللَّه أن

يقدِّم ابنه الوحيد ذبيحة، وهرطقات لا حصر لها تجعل من يوسف النجار في مرتبة إيليا النبي. قال الراهب الكهل إنَّ طانيوس مجنون ومن المرجَّح أن تكون الشياطين ركبته، لذا تمّ طرده من الدير. الرجل ذهب بعد ذلك إلى موطنه في لبنان، ويقال إنَّه حاول أن يبشر بدعوته في الوادي المقدَّس الذي يسكنه الرهبان الموارنة. كان يعتقد أنَّ الموارنة لا يزالون أمناء على العهد لأنَّهم يستخدمون في صلواتهم اللغة السريانيَّة التي لم يتكلم المسيح لغة غيرها، لكنَّ الرهبان في وادي قاديشا سخروا منه، بل قاموا باستدراجه إلى وادي المجانين، حيث قيّدوه بالحديد ورموه في مغارة معتمة بلا ماء أو طعام. يقول إنَّ اللَّه كان يرسل له الطعام مع نسر كبير يحجب الفضاء بجناحيه، وإنَّ اللَّه أرسل له ملاكًا على هيئة نمر قام بفك قيوده. لكن كلّ هذه أكاذيب، الرجل مجنون، رئيس الدير شرح لنا أنَّ هذا النوع من الجنون شائع في هذه البلاد التي أنجبت جميع الأنبياء، وأنَّ هذه الأرض تشهد صراعًا مستمرًا بين اللَّه والشياطين، وأنَّ الأمور تلتبس عند الكثيرين فلا يستطيعون التمييز بين صوت اللَّه وصوت الشيطان، وأنَّ الراهب اللبناني هو ضحية عدم قدرته على التمييز فصار ألعوبة في يد الشيطان».

«وإنت صدّقته»؟

«مش مهم، المهم أنّي اقتنعت معك، بالأول كنت مفتكر أنَّ الراهب هلوسة بلا معنى، بس يا حبيبتي مش لازم تصدّقيه، هادا شيطان مش قديس متل منّك فاكرة».

«شو بيعرفني»، قالت ميليا.

لا تعرف المرأة كيف تروي لزوجها متى رأت الراهب اللبناني، هل حلمت به قبل اللقاء أم العكس؟ لا يفتح عالم المنامات أبوابه كلّها إلاّ في تلك الساعة الرهيبة، حين يبطل العالم ويذوب كلّ شيء في كلّ شيء، مثلما كانت تصرخ الجدّة مستعيدة كلمات سليمان الحكيم: «باطل الأباطيل كل شيء باطل». «عندها»، قالت الجدة، «يدخل كل شيء في النور ونرى ما لم تره عين، ونتعرّف على كلّ الناس الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم».

هل كانت الكأس التي وضعها الرجل على حافة النافذة منامًا أم حقيقة؟ كيف عرفت الرجل حين التقت به في الشارع أمام نبع العذراء. تذكّر أنّه اقترب منها وقال لها أن تتبعه، «المطلوب واحد يا مرتا، يللا الحقيني». وتبعته.

قالت لمنصور إنّها تريد أن تنام، لأنّ الأشياء اختلطت في ذاكرتها. منصور تغيّر، وهي تغيّرت. سنة واحدة كانت كافية من أجل أن يتدحرج العمر أمامها، وتشعر أنّ كلّ شيء يكتهل في أعماقها، وأنّها تعبت من الحياة، ومن تقلّبات الزمن. «لأنّ ألف سنة في عينيك يا رب كمثل أمس الذي عبر أو كهزيع من الليل».

حين ترى صورة حماتها أو صورة أسمى تصاب بالحزن. كيف يعني، لماذا امتلأ البيت بالصور؟ عندما تزوجا وقف المصور في البيت والكنيسة أمام العروسين يلتقط الصور ويطلب من ميليا التي كانت الدموع عالقة في عينيها أن تبتسم. ظلّ ثقب الكاميرا والفوطة السوداء التي اختبأ المصوّر خلفها في ذاكرة ميليا. المرأة خافت من أن يسرق المصور لون عينيها مثلما فعل المصور الزحلاوي الذي جلبه موسى إلى البيت، فأغمضتهما، مما جعل المصور يرجوها بكلمات رقيقة في البداية،

ثم بغضب، أن تفتح عينيها كي يدخل الضوء إلى الصورة. لكن حين مرّا في بيروت، في طريقهما إلى الناصرة، رفض منصور أن ينتظر «كمان يومين بس، كي تجهز الصور». طلب من موسى أن يرسل له الصور إلى الناصرة. وكان ما كان من انقطاع الطريق، ولم ترَ ميليا صور عرسها.

في الحقيقة لم يرَ أحد تلك الصور، لأنَّ المصوّر قام في نوبة غضب بتمزيقها. قال لموسى الذي جاءه إلى دكانه أنَّه مزّق الصور لأنَّها لا تليق بسمعته. «العروس ما فتحت عيونها ولا مرة، طالعة كأنَّها نايمة».

سعدى غضبت، ثم طلبت من ابنها أن يكتب لأخته كي تجلب معها فستان العرس عندما تزور بيروت مع زوجها، «وبيتصوروا عن جديد، شو عليه، ما بيصير الواحد ما يكون عنده صورة عرسه».

ميليا لم تعرف ماذا جرى لصور عرسها، ومنصور لم يسأل عن الصور. وضع في البيت مرايا عدة، واحدة كبيرة في الصالة، وواحدة في غرفة الطعام ومرآة في غرفة النوم. ميليا لم تعترض إلاّ حين حاول أن يضع مرآة في المطبخ. قالت لا، «هيدا مش معقول، حدا بحط مراية بالمطبخ». قال إنَّه يريد للبيت أن يمتلئ بصورة واحدة يراها في كل مكان. «لا أريد أن أرى سواكِ يا حبيبتي»، وكان هوسه أن يوقف ميليا في الصباح أمام المرآة كي يبرهن لها أن لا شيء يشعل جمال المرأة مثل الحب.

«شايفي قدّيش تحلّيتِ، هيدا من الحب. إنت ونايمة، كنتِ سخنة متل الخبز الأبيض الطري، كنتِ اليوم رائعة، برمتك على ضهرك وكان حلو كتير، كانت أحلى مرة».

«بلا هالحكي».

«يعني رأيك مش متل رأيي أنَّها كانت أحلى مرة».

استبدل منصور الصور بالمرايا، ترك حيطان البيت عارية إلاّ من المرايا، قال لأمّه التي عاتبته مرة لأنَّه لا يضع صورة المرحوم والده في الصالون، مثلما يفعل جميع الناس، إنَّه يكره الصور. «الصورة بتجمّد الإنسان، وبتسوّيه زي الميت، أنا بحب احتفظ بصورة الوالد زي ما هي في ذاكرتي».

«بس أبوك ميت»، قالت الأم.

أشار بيده رافضًا، كي يقول أنَّ الإنسان لا يموت، نحن نميته حين نعلّق صورته على الحائط، وأنَّ والده يعيش في ذاكرته، ولا يريد أن يقتله.

«ليش قتلتها يا موسى»؟

فجأة امتلأ البيت بالصور، في البداية علّق صورة كبيرة لأخيه متّشحة بالسواد، ثم جلب صورة أبيه، وصور أولاد شقيقه، وبعدها جاءت صورة الأم، ومعها صورة الأرملة تقف إلى جانب زوجها بفستان العرس. صار يدحش الصور على أطراف براويز المرايا المنتشرة في البيت، صور صغيرة وصور كبيرة، حتى أنَّه جاء مرة من يافا حاملاً صورة مجعلكة شبه ممحوة، قال إنَّه سيبحث عن مصوِّر من أجل تزبيطها لأنَّها صورة نادرة للمرحوم مع المجاهدين.

«ليش قتلتها يا موسى».

لم تشعر ميليا بالغيرة، «أنا الغيرة ما دخلت قلبي ولا مرة، حتى مع نجيب، ما حسّيت بالغيرة».

«معك حقّ تغاري، بكرا جايي المصوِّر حتى ياخدلك صورة وحطها بالدار».

«أنا ما بدّي أتصور».

«بدي صورة متل صورتك ببيت أهلك».

«ليش قتلتها يا موسى»؟

كانت ميليا الصغيرة تقف وحيدة بين المرايا، تنظر إلى نفسها في عتمة أول المساء، وترى صور الشارع الضيق الذي ينعكس على المرآة الكبيرة الموضوعة في الدار، حين رأت موسى يدخل من المرآة إلى البيت حاملاً صورة كبيرة لامرأة مرسومة بالأسود والأبيض على خلفية بيضاء تميل إلى الاصفرار. عندما رأته الفتاة هربت واختبأت تحت الصوفا، في انتظار أن يأتي باحثًا عنها مثلما كان يفعل دائمًا. غير أنّ الشاب الأسمر الذي يلبس قميصًا أبيض، لم يلتفت إلى أخته، أخرج من صندوق صغير قدّومًا ومجموعة من المسامير وبدأ يدقّ الصورة بالمسامير على المرآة الكبيرة التي دخل منها. وضعت ميليا يديها على أذنيها كي لا تستمع إلى تكسّر المرآة تحت المسامير الكبيرة التي حوّلت الضوء المنبعث من المرآة شظايا.

أرادت ميليا الخروج من تحت الصوفا كي تمنع الرجل من الاستمرار في تحطيم المرآة. كانت تعلم أنّ المرايا المحطّمة في المنام نذير شؤم. زحفت تحت الصوفا لتجد نفسها في العراء. صارت في الظلام وأحسّت بالخطر، لا تدري أين هي، لكنّها تعلم أنّ الوادي أمامها وأنّها لا تجرؤ على التحرّك من مكانها خوفًا من أن تبتلعها العتمة. كانت أصوات القرع تُحدث صداعًا رهيبًا في رأسها. أرادت أن تصرخ يا موسى فسمعت نفسها تصرخ يا منصور، أغلقت فمها بيديها خوفًا من أن يستيقظ زوجها النائم إلى جانبها ملتفًا بنفسه.

«وينك يا أخي»؟

ضاع صوت الفتاة في العتمة وقرّرت أن تفتح عينيها. لن تسمح لهذا المنام بأن يستمرّ، ولن ترى المرآة محطّمة في بيتها. «يا دلّي يمكن هيدا معناه أنّه منصور رح يلحق أخوه ويموت، وهيك منصير أرملتين بالبيت مع الختيارة، وأنا شو بدّي أعمل هون لحالي، والصبي، يمكن يقتلوه من بعد ما قتلوا أبوه، مش هيك عملوا بالمسيح، قتلوا أبوه يوسف النجار، أو خطفوه شو بيعرفني، وبعدين صلبوه».

«الله يخلّيك وقف دقّ المسامير يا خيّي».

رأت نفسها تنهض من السرير وتذهب حافية إلى الدار. العتمة تغمر المكان، وضوء ليلي شاحب يتسلّل إلى البيت من النافذة، وميليا الصغيرة تمشي على شظايا الزجاج، والدم يرتسم فراشات على البلاط.

كانت المرآة معلقة على الحائط، أرادت أن تقول الحمد لله لأنّ المنام فشل في تكسير المرآة، لكنّ قلبها وقع، وأحسّت أنّها ستفقد وعيها. رأت صورتها معلّقة داخل ارتجاج ضوئي يخرج من المرآة. الصورة التي علّقها موسى على حائط الليوان في البيت الكبير فوق السرير الذي ولدت فيه، تظهر هنا وقد اختلط بياضها بالسواد. وحدهما العينان المفتوحتان، كانتا خارج البقع السوداء التي انتشرت على الأنف والشفتين والذقن والجبين. ولم ترَ الشعر الطويل الذي امتدّ على المساحة الخلفيّة كأنّه نهر يتلون بالأسود والبني.

«وين شعرها»؟ سألت بصوت منخفض.

نظرت حولها لتجد موسى جالسًا على الصوفا التي اختبأت الفتاة تحتها، لابسًا طربوش والده، يحمل في يده سبحة سوداء.

«من وين المسبحة يا بيّي»؟

قالت له يا بيّي ولم تنتظر الجواب، لأنّها كانت تعرف أنّ هذا الجالس على الصوفا يتأمل الصورة في المرآة ليس والدها، بل شقيقها الصغير الذي كانت تبدّد خوفه من العتمة بلمسة من أصابعها.

«شو جابك على الناصرة»؟ سألت.

«جايي آخد الصبي»، قال.

«لا هيدا ابني، لا ما رح خلّيك تعمل يللي عمله بيّك فيك لمّن لحقته لعند المصريّة، وضربك بالحجر حتى يقتلك».

لماذا يختلط عليها الناس بهذه الطريقة؟ هذا ليس والدها، تعرف ذلك، لأنّ سماره الزيتوني لا يشبه البياض الباهت الذي كان يلوّن بشرة يوسف. لكن لماذا أتى من أجل أن يأخذ الصبي الذي لم يولد بعد؟ ولماذا يدّق المسامير في المرآة؟ إنّها تسمع إيقاع الصلب، الراهب اللبناني قال لها إنّ الألم الأكبر الذي عاشه المسيح في لحظاته الأخيرة كان ألم الأصوات. «حين دقوا المسامير في يديه وقدميه، صارت الأصوات تكبر، وصار جسده كله مثل أذنين كبيرتين تنقلان الأصوات. كلّ شيء كان يقرع، هل تستطيعين تخيّل صوت النبضات حين تفلت من بين الأضلع. الصلب يا ابنتي هو صوت هذا القرع العنيف الذي يحوّل الجسد كلّه إلى صدى. أصرخي أمام الوادي واسمعي، تخيّلي جسمك هو الوادي ومئات المسامير عم تصرخ فيه».

عاد موسى طفلاً صغيرًا عليها أن تنحني وتمسح دموعه بأصابعها وتنهضه من الطفولة إلى الرجولة.

حين انحنت ومدَّت يدها، أزاحها بعنف وانتصب أمام الصورة.

نظرت إلى حيث ينظر، ورأت صورة منصور منعكسة إلى جانب صورة ميليا المسمّرة على المرآة. وبدلاً من أن تسمّي زوجها باسمه، صرخت: «ليش قتلتها يا موسى».

في ذلك اليوم، عندما تركت زوجها مع الطبيب الإيطالي في المستشفى، وغادرت إلى حيث تقودها قدماها، بحثت ميليا في الشوارع والأزقة عن الراهب اللبناني، من دون أن تعثر له على أثر. جلست على حافة حجريَّة أمام عين العذراء، أغمضت عينيها ورأت.

لا تسألوها ماذا رأت لأنَّها لا تستطيع أن تحكي. هذه هي الأعجوبة التي انتظرتها منذ المنام الغامض الذي يشبه الرؤيا، الذي قادها إلى مصيرها في الناصرة. ألم يروِ لها طانيوس أنَّ النجار فقد القدرة على الكلام عندما دخل على زوجته العذراء فوجدها حاملاً، حاول أن يسأل فصار لسانه مثل قطعة من الخشب في فمه، وبدل أن يعبِّر عن الغضب أو الألم دخل في ما يشبه الغيبوبة التي جلبت له الملاك حيث سمع بداية الحكاية التي لن يفهمها إلاّ تحت الزيتونة حين رواها له الصبي.

قال طانيوس إنَّهم كانوا يسمّون يوسف النجّار القديس الأخرس. صحيح أنَّه نطق عندما أخبره ابنه القصة، لكنَّه عاش طوال ما تبقّى له من حياة على هذه الأرض شبه أخرس. لا يقول من الكلام سوى أقله، كأنَّه فهم أنَّ كلامه لن يقال إلاّ في النهاية، حين سيذهب للبحث عن الصبي قبل أن يخطف إلى فوق.

هل صحيح أنَّ ميليا رأت الراهبة القديسة؟

تجلس متعبة، تتحني على آلامها، تحاول أن تحكي فلا تستطيع. يحار الطبيب الإيطالي في أمر المرأة، قبل أن يلتفت إلى الممرضة ويقول كلامًا باللغة الإيطاليَّة، التي لا تفهمها المريضة، وتبدأ الرحلة إلى داخل عالم الولادة المليء بالاسرار.

غاب الكلام وظهرت الراهبة، وكانت تحكي بصوت طانيوس، وتقول للمرأة أنَّ عليها أن تمنع منصور من أخذ ابنه إلى يافا.

أرادت ميليا أن تقول «دخيلك يا حاجة ميلانة»، فسمعت صوت أمها المليء بالخوف. لم تكن المرأة الجالسة على حافة النبع تملك خيارًا آخر سوى متابعة الرجاء. «دخيلك يا حاجة ما بدّي صير متل أمي»، قالت بالصوت نفسه الذي كانت تقوله كأنَّها تستمع إليه.

«دخيلك يا ماسور ليش صوتك متل صوته؟ وين الأبونا طانيوس؟ هو قال أنَّه بدّه يخبِّرني السرّ، واختفى، وهلق جيتي إنت بداله، وأنا بخاف منك، من أنا وصغيرة بخاف منك، وما بدّي كلّ هالقصة، أنا مش أمي، أمي نص راهبة وأنا غير شكل، أنا بس خايفة على الصبي، كلّ شي بدّي ياه من الّله أنَّه يحلّ عنّي، دخيلكم حلّوا عن ضهري، رح روح على يافا، خلص أنا تعبت، بس قولي لطانيوس بدّي شوف وجهه قبل ما خلّف، بدّي يباركني وخلص، بعدين خلص ويصير يللي بدّه يصير. وين طانيوس»؟

«أنا طانيوس».

سمعت ميليا صوت طانيوس في جسد الراهبة. هل كان كل ذلك وهمًا؟ ولماذا أخبرها منصور أنَّه ذهب إلى الدير وألّف لها قصة كاملة عن الراهب اللبناني؟ من أخبرها عن يوسف النجّار؟ هل كان ذلك مجرد منام طويل؟

نهضت متثاقلة ومشت إلى البيت. نكست رأسها كي لا ترى أحدًا، وحين دخلت إلى الدار، رأت صورتها معلّقة على المرآة. أرادت أن تسأل منصور لماذا ومن أين جلب الصورة، فاكتشفت أنّها فقدت صوتها، مشت إلى السرير، وضعت رأسها على المخدة، وذهبت في نوم عميق.

جاء موسى لأنّها أرادته أن يأتي.

كانت وحدها في البيت، عتمة كانون الأول تنتشر فوق برودة الغرفة. لبست قميص نوم أزرق ودخلت في بياض الشرشف وأغمضت عينيها، وقالت لموسى أن يأتي.

قالت له إنّها في حاجة إليه، وإنّها تريد أن تروي له الحكاية. لم تجرؤ أن تقول إنّها سمعت الحكاية من الراهب اللبناني. لم تعد متأكّدة من أي شيء. الراهب اختفى في ثوب ميلانة الأسود الطويل، وهي لا تحب الراهبة ولا تريدها.

منصور يجلس وحيدًا في الدار في انتظار الإشارة الأولى التي حدّثه عنها الطبيب، وميليا تستلقي على جنبها الأيسر في السرير. قالت لموسى إنّ بطنها صار بحجم العالم. لم يكن موسى، لكنّها أرادته، كانت تريد أن تخبّر الحكاية، ولم تجد أذنين للسمع. لم يعد يهمها أن تبرهن أن ما رأته كان حقيقيّاً. أحسّت بالتعب، وطلبت من شقيقها الصغير أن يأتي. كان يصدّق كلّ شيء تقوله، ينظر إليها بمزيج الحسرة والحب، ويشرب كلامها. حتى في تلك اللحظات الصعبة حين اختفى نجيب، وتفككت العائلة، كان وحده من رأى الأسى في عينيّ شقيقته، وصدّق كلّ كلمة قالتها أو لم تقلها. يومها لم تخبر ميليا أحدًا عن حكاية

حبها الغامضة. الأم قالت إنَّ الحقّ على الفتاة: «ليش تركتيه يطير من إيدك، هاي تاني مرة يا بنتي، وديع فهمنا كان بخيل، بس هيدا شو بيشكي، كيف هلّق بعد فيّي دبرلك عريس».

في ذلك الزمان مرضت ميليا، أصيبت بصداع غريب لا تفسير له. احتار الجميع في أمرها. كانت تربط صدغيها بمنديل مبلل بالماء كي تخفف آلامها، ثم صارت تقشّر رؤوس البطاطا النيئة وتقطعها وتضعها على جبينها وتربطها بالمنديل المبلّل. لماذا نسيت حكاية الأصوات التي كانت تعشش في أذنيها وتجعلها عاجزة عن الكلام؟ ولماذا محت من ذاكرتها الغيبوبة القصيرة التي لا تعلم كيف أنقذها اللّه منها؟

تقول الحكاية إنَّ ميليا كانت وحدها في البيت حين وقعت. كانت تقف في المطبخ تحرّك اللبن المطبوخ في طنجرة كبيرة وضعت على بابور كاز مشتعل. كان موسى أول العائدين، رأى أخته ممدَّدة على ظهرها ورائحة اللبن المطبوخ بالكزبراء، وأقراص الكبّة المسلوقة التي تسبح فيه، تملأ المكان. حاول إيقاظها بأن رشّ ماء الزهر على وجهها، لكنَّ الفتاة بدت مستغرقة في نوم عميق. حملها بين ذراعيه إلى سريرها، وذهب راكضًا لينادي الطبيب. رجع إلى البيت مع الدكتور نقفور ليجد أنَّ أخته استعادت وعيها، وأنَّ الراهبة تمسك مبخرتها النحاسيَّة وتدور من حول سرير الفتاة متمتمة الأدعية.

الطبيب لم يفعل شيئًا، اكتفى بتقبيل يد الراهبة التي قالت له إنَّ كلّ شيء على ما يرام، ومضى. انحنت الراهبة على أذن ميليا ووشوشتها. وبعد ذلك بيومين ظهر منصور وبدأت حكاية الحب التي قادت ميليا إلى الزواج.

تقـول الحكاية إنَّ مـيليـا رأت في تلك الليلة المنام الذي حـدَّد مستقبل حياتها. هل رأت المرأة الزرقاء حين سقطت فـي المطبخ؟ أم رأتها وسط البخور؟ أم أنَّ المسألة كلّها كانت بتدبير من الراهبة؟

إنَّهـا قصـة حب من النظرة الأولى، سوف يروي منصـور لأمّـه وشقيقه، أما حكاية علاقة صونيا رحال بالمسألة فلا أهمية لها. بعد نهار متعب أمضاه في سوق الطويلة من أجل اختيار الأقمشة الملائمة لمحله الجديد في الناصرة، قبل منصور دعوة صديقه التاجر سمير رحّال إلى العشاء. وهناك سوف تتباسط زوجة التاجر السيدة صونيا في الحديث معه، وستنصحه بالزواج، وستشير عليه أن يخرج إلى الحديقة كي يرى أجمل فتاة في بيروت.

هكذا بدأت الحكاية، كانت ميليا تقف بين أغصان شجرة اللوز المزهرة، فاختلط بياضها الحليبي ببياض زهر اللوز، واشتعل قلب الرجل القادم من الناصرة بالحب.

«مش مهم إذا كانت صونيا صاحبة الراهبة، الراهبة ما خصّها، وأنا ما شفتها الا بالعرس. لا، الراهبة ما خصّها، أنا حبّيتك من النظرة الاولى، وانتهى الموضوع».

أغمضت ميليا عينيها، ولم تفتحهما إلاّ حين غرقت في الماء. التفتت صوب منصور، لكنّه لم يكن إلى جانبها في السرير.

صرخت إنَّه الماء، فرأت منصور ينهضها من السرير ويساعدها على ارتداء ملابسها، ويمضي بها إلى المستشفى.

الليلة الثالثة

أغمضت ميليا عينيها ورأت.

كان كلّ شيء أبيض، وصوت الطبيب يأتيها ملفوفًا بالقطن.

ممرضتان واحدة تمسك يد ميليا اليمنى والثانية تقف عند قدميّ المرأة الحامل المتباعدتين، الأولى كهلة والثانية صبية. امرأتان متشابهتان كنقطتي ماء.

الأولى قصيرة والثانية قصيرة، الأولى محدودبة الظهر، مقوّسة القدمين، والثانية محدودبة الظهر، مقوّسة القدمين.

ماذا أتى بوديعة إلى هنا؟

الأم وابنتها كتوأمين، تحاصران ميليا وتصدران إليها الأوامر. الصوت نفسه، مرة يأتي من جهة اليسار، ومرة يأتي من الأسفل. والمرأة الحامل تستمع إلى ما يشبه صوت الأمواج الآتية من أعماق بطنها. كأنّ الطفل الذي أنزل رأسه إلى الأسفل وصار مستعداً للهبوط إلى العالم يستخدم، للمرة الأخيرة، لغة الرحم التي سينساها. ميليا تستمع إليه وتريد أن تقول له أن لا يخاف.

صوت الممرضتين يأتي حاسمًا، ومن خلفه ترى شبحًا مغلّفًا بالضباب. إنّه الطبيب، لا. إنّه الخواجة مسابكي، ماذا أتى به وبوديعتيه إلى هنا؟

الخواجة مسابكي يقف أمام الصوبيا المشتعلة، يفرك يديه بوهج النار، يصفّر عينيه كأنَّه العريس، والمرأتان، الأم وابنتها، تقفان في انتظار إشارته.

تذكر أنَّها كانت نائمة، تذكر أنَّها صرخت قائلة إنَّه الماء، ثم لفّها الضباب. «يا منصور ما بدّي روح على شتورة يا حبيبي، بدّي روح على البيت».

منصور يحمل بيده شمعة مشتعلة، ويمشي أمام السيارة. «منين جبتيلي حكاية الشمعة، صحيح أنا نزلت حتى إمشي قدّام السيارة، بس حدا بيحمل شمعة بهالريح والتلج والبرد، ولو ما مشيت قدّام السيارة ما كناش وصلنا على الأوتيل».

لا تريد ميليا مناقشة الرجل، سئمت من تزييط الذكريات، «الذكريات ما بتتزيط، إنت بتتذكر شكل وأنا شكل وبالأخير مش مهم، إنت بدّك ياني إتذكر زيّك، تكرم، بس خلص، اللّه يخلّيك قول للشوفير يروّج، أنا تعبانة».

كانت نائمة والسيارة تتمايل على صوت العاصفة الثلجيّة التي تضرب ضهر البيدر، السائق يرجوها أن تساعده في إقناع المجنون بضرورة العودة إلى بيروت.

«ليش عم تحكي هيك»؟

«العريس مجنون يا مدام، دخيلك ساعديني، يلعن رب هالعلقة، أنا ما بدّي كفّي هالمشوار، شو الواحد ما في يتزوّج إلاّ بشتورة، ساعديني، دخيلك».

ماذا يقول هذا الرجل؟

«أنا وين يا الله»، «بدّي إرجع على البيت، وينك يا منصور»؟

ركعت أمام باب الحمّام، وسمعت الحشرجة، قرعت، رجته أن يفتح لها، قالت إنّها ستطلب من الخواجة مسابكي أن يستدعي الطبيب.

لكنّ منصور رفض. خرج صوته من تحت السعال كي يقول لها أن تنتظره في السرير. قال إنّها الجبنة. «ما تاكليش جبنة، هيدي جبنة فاسدة. قومي من هون وروحي نامي وأنا لاحقك، ما تخافيش».

لم تقل، لكنّها كانت خائفة. كانت تحلم أن يكون حلمها مختلفًا. «الزواج»، قال نجيب، «يجعل المرأة مثل العجين، بدّي إعجنك وإخبزك، قرّبي لعندي أكتر».

كانا في الحديقة، ظلال المساء ترتطم بشجرتي زهرة الفتنة المنحنيتين على مدخل الحديقة.

«أنا بحب زهرة الفتنة، بتعرفي ليش إسمها فتنة؟ لأنّها متل المرا، بتفتن وبتخلي الرجّال يفقد عقله».

...

«لأنّها من برّا بيضا ومن جوّا صفرا، وفيها ريحتين واحدة لكلّ لون، ولمن بيختلطوا بصيروا فتنة، شو رأيك بهالتفسير»؟

...

«قرّبي لخبرّك رأيي».

التصقت بالشجرة، كان ظهرها مستندا إلى الجذع المائل، ذراعها اليمنى مرفوعة، ويدها تلامس غصنًا مثقلاً بالأزهار.

«أنا هيدا يللي بيجنني»، قال مشيرًا إلى ذراعها، بس بدّي حط شفافي هون».

«أوعا تقرّب دخيلك هلّق بشوفونا».

«قلت لك إنتِ متل الفتنة، بوسة واحدة وبس».

وبقفزة واحدة أمسكها من خصرها وشدًّها إليه.

«آآخ»، صرخت».

«صرخي إذا بدّك»، قالت الممرضة.

فتحت ميليا عينيها ورأت شاشة البياض، وقالت إنّها تختنق من الرائحة. «ليش صارت ريحة الفتنة هيك»؟ قالت.

«غمّضي عيونك وشمي، هيدا كلوروفورم حتى يخفّف الوجع»، قال الصوت الذي لا تعرف من أين أتى.

اختفى البياض، ركضت ميليا الصغيرة في شوارع العتمة، الصوت الذي يخترق ليلها صار متقطّعًا، وصار جوابه أنينًا خافتًا يخرج من حنجرة المرأة، ثم يختفي، وسمعت الطبيب يأمر الممرضتين بالتراجع إلى الوراء.

«سيبوها ترتاح».

من أين جاءت أصوات الأجراس؟ «هيدي عروس لبنة يا خالي، شيل إيدك عنّي وخلّيني آكل».

تعرف ميليا أنّ حكاية خالها متري يجب أن لا تُروى، فالشاب الوحيد بين شقيقتين مات مشنوقًا بجرس الكنيسة، ولم يجرؤ أحد على

سحب الجثة التي كانت تتأرجح مربوطة إلى حبل الجرس الطويل، إلى أن جاء نخلة راكضًا من البيت. رأى جثة ابنه المعلّقة، فصرخ إنَّهم قتلوه، وطلب من شبان الحيّ مساعدته على فكّ الحبل عن عنق الشاب الذي صار رفيعًا مثل خيط من المصيص.

نزل متري من الصورة الكبيرة المعلّقة على الجدار الأبيض في منزل نخلة شلهوب. رأته ميليا ينزل، كأنّ الصورة المحوطة بإطار خشبيّ مذهّب، صارت نافذة. الخال بطربوشه الأحمر والعباءة الحريريّة البيضاء التي تغطّي بطنه المستدير، وقضيب الخيزران في يده، يعبر الإطار الخشبي وينزل إلى الدار. يقترب من ميليا ويحتضنها فتطلع رائحة اللبنة والبصل. تشعر الفتاة الصغيرة أنّ الرجل يأخذها إلى البعيد. متري يحملها ويدخل برواز الصورة. يمدّ قدمه اليمنى ويقفز كأنّه يعبر نهرًا.

«انتبهي يا بنت أوعا توقعي بالنهر بتغرقي».

«بسّ ما في مي يا خالي».

هدير الماء يصعد إلى أذنيها الصغيرتين، «ليش النهر أخضر؟» سألته.

«النهر مش أخضر، عيونك خضر، ومنشان هيك بتشوفي كلّ شي أخضر».

«الله يخلّيك نزّلني»، صرخت.

ندهت لشقيقها موسى، لكنّ موسى كان يقف على الضفة الثانية من النهر ويلوّح لها بيديه.

«أنا ما بدّي روح معه».

وبدأت الفتاة تركل الرجل، لكن من دون جدوى. أمسك بها متري من خصرها، وأجلسها على كرشه الكبير ومشى على الماء من دون أن يغرق.

«شايفي كيف بقدر إمشي على وجه المي، لو كانوا أولاد زريق عارفين مين أنا ما كانوا عملوا فيّي يلّي عملوه».

«شو عملوا»؟

«قتلوني»، جاوبها.

«خمسة شباب اجتمعوا عليًّ بباحة الكنيسة، وكان الجرس عم يدقّ، كانوا حاملين سكاكين مطبخ، هجموا بدّهم يضربوني بالسكاكين، وأنا ما كنت عمّ بسمع إلاّ صوت الجرس، صار الجرس يطنّ ببطني وعيوني وإيديّ وإجريّي، وقتها فهمت شو يعني الموت. الموت أصوات، إنت وحظك، أنا حظي كان مع جرس الكنيسة».

«وكيف قتلوك»؟

«الجرس قتلني، تعمشقت بالحبل وطرت، صار الحبل يلفّ على رقبتي، وأنا طير لأعلى، كانوا واقفين تحت متل المجاديب، عم بيلوّحوا بسكاكينهم بالعالي حتى يخوفوني، وأنا من شو بدّي خاف، ما أنا كنت عم طير».

«وبعدين ليش متت»؟

«متت لأنّي متت، وبعدني لهلّق عم بسمع صوت الجرس عم يدقّ، منشان هيك بنزّل طربوشي على دينيّي، بسّ أمي كانت تضل تقول إرفعه لفوق. شو عرفها شو كنت عم بسمع، وعلى كلّ حال هي مش أمي، كنت

عيطلّها أمي لأنَّها هي كان بدّها هيك. لمن تزوجها بيّي وإجت على البيت قلت لها أهلاً يا خالتي ملكة، قالت ما تقول خالتي، كلمة خالة بتخلخل أساس البيت، عيطلّي أمي. بس كيف يعني أمي، ما هي من عمري تقريبًا، لا مش قدّي، يمكن أكبر منّي بعشر سنين، بس شكلها كان متل بنت صغيرة. تزوَّجت وخلَّفت وبدال ما تكبر صارت تصغر، خلّفت أختي سعدى وبعدها بخمس سنين إجت أختي سلمى. كان بطنها أنجأ يكبر، وما يبيّن عليها أنَّها حبلى. رفيعة وقصيرة وحلوة،. كان عمري خمستعشر سنة لمن بيي تزوج، قلت له أنَّ مرته حلوة وصغيرة كتير، كيف فيك يا بيّي... معها، تطلع فيّي بالورب وقال لي برّا. طردني من البيت، لا يعني ما طردني طرد، بس فهّمني أنّي ما قرّب، وأنا دبّرت حالي. عمّرت عرزال بشجرة الكينا الكبيرة بالجنينة، وصرت نام فيه كلّ الوقت. أمي ملكة كانت وقت تشتّي الدنيا توقّف تحت الشجرة وتترجّاني إنزل، وفوت على البيت. كنت أسمع كلمتها وفوت، ولمّن يشوفني بيّي يطّلع فيّي بالورب وحسّ حالي غريب، أنا عشت كلّ عمري غريب ببيت بيّي، ولو ما ملكة كانت تحنّ عليّي وتطعميني كنت متت من الجوع، يا عيني ما أحلاها. أنا بالحقيقة زعلت كتير، ما كان مرّ على موت أمي شهرين حتى بلّشت إسمع الوشوشة، قال لازم الرجّال يتزوج حتى ينستر. يا حرام يا نسمة، كان إسمها نسمة، وكانت رقيقة متل نسمة الهوا، وماتت مدري ليش، وعيت عبكرة وما كانت قادرة تفتح عيونها، سمعتها عم بتقول لبيّي أنَّها مش عم تقدر وأنَّها ما عم بتشوف، وطلعت حرارتها، وبقيت هيك يومين، وبعدين ماتت. طلبتني، كلّهم قالوا لي أنَّ أمي بدّها ياني، رحت وقعدت حدّها، مسكتلي إيدي وشدّت، وحسّيت كأنّي ماسك لوح تلج، بس ما تحرّكت من مطرحي، بعدين

سمعت النسوان عم بتولول، وقالوا أنّها ماتت. حاولت إسحب إيدي من إيدها بس ما قدرت، كانت إيدها متل الخشب البارد، وما كان فيّي أعمل شي، سمعت النسوان عم بيقولوا ليكوا هالصبي شو بيحب أمه، مش عم يقبل يترك لها إيدها. وبعدين فات بيّي، قال لي يللا يا حبيبي قوم من هون. قرّب بيّي مني ومسكني من كتفي وسحبني، وبلّش الصريخ، ما بعرف شو صار، يلّي صار أنّ أمي انجرت معي.

تركلها إيدها صرخ بيّي.

أنا ما قادر إحكي من الدموع، أفظع شي لمّن الواحد بيبكي من زلاعيمه، بينزلوا الدموع على الحنجرة وبيتجمّعوا هونيك وما بيعود الحكي يطلع.

مسكلي بيي إيدي وشدّ، وأمي انشدّت صوبي، والولولة زادت، وفجأة ما بعرف منّين طلع صوتي، قلت: آخ يا إيدي، وشفته كيف حاول يفتح أصابيعها، وكيف صار يشهق متل الولد الصغير ويقول سامحيني يا مرتي. وبعدين إجت ملكة وصارت أمي».

«وإيدك، كيف شالولك إيدك من إيدها»؟

«صوت الجرس بضل يطنّ بدينيّ، قوليلهم يا ميليا يا حبيبتي يوقّفوا الدقّ بدّي ارتاح».

«طيّب نزّلني».

«ما فيّي نزّلك، إذا نزّلتك بتموتي».

«بدّي موت»، صرخت ميليا.

وقف منصور إلى جانبها في السرير، سمع كلمة بدّي موت فهرع صوب الممرضتين اللتين كانتا تتسامران في الممرّ في انتظار الطبيب الإيطالي.

«دخيلكم ميليا عم بتموت».

نظرت الممرضة الأولى إلى شبيهتها وابتسمت قبل أن تلتفت إلى منصور وتقول له أن لا يخاف، «كلهم بيقولوا هيك، بعدين بيمشي الحال».

رأى منصور كيف غطّى العرق عنق زوجته، أمسك يدها وطلب منها أن تفتح عينيها، التفتت المرأة صوب مصدر الصوت، انشقّت عيناها قليلاً وأشارت بيدها إلى منصور أن يذهب. افترّت شفتاها عن كلمة واحدة، «عطشانة». ركض منصور صوب الممرضتين وقال لهما إنَّ زوجته عطشانة ويريد أن يسقيها ماء.

«لا ما بيسوى» قالت الممرضة الثانية، «خللي هالشوية البنج ياخدوا مفعولهم حتى يقدر الحكيم يشتغل».

قال إنَّه عطشان، «الموت بيعطّش»، قال إنَّ حبل الجرس ارتفع به فجأة، وإنَّ الموت جاء مثل إغماءة طويلة، وإنَّه رأى مار الياس بعربته النارية، وخاف منه، وإنَّه أراد أن يعود إلى أولاد زريق ويقول لهم خلص يا شباب، بلعناها، بدّكم نبلعها رح نبلعها، وخلّينا نرجع أصحاب.

نخلة شلهوب كان وحده في باحة الكنيسة. قال لزوجته ملكة إنَّه لم يرَ أحدًا، «كلهم اختفوا». وفي اليوم الثالث بعد دفن ابنه الوحيد، صالح عبدالله زريق وأولاده. قيل إنَّه قبض ديّة القتيل، لكنَّه قال لزوجته إنَّه لم يقبض شيئًا.

تقول الحكاية إنَّ متري مات مشنوقًا بجرس الكنيسة، وإنَّها حالة الموت الأولى منذ نجاح المطران مسرة في الاستحصال على فرمان من الباب العالي سمح له بوضع الأجراس في ساحات الكنائس. في الماضي كان الناس يقرعون النواقيس، ولم تأتِ الأجراس إلاّ بسبب تدخل القنصل الروسي الذي أقنع والي بيروت العثماني بالسماح للروم الأورثوذكس بنصب الأجراس في كنائسهم. يومها احتجَّ الكثيرون، لأنَّهم اعتقدوا أنَّ هذه العادة الإفرنجيَّة سوف تبعد الناس عن الصلاة، وتفسح في المجال كي تتحوَّل باحات الكنائس ساحات يتبارى فيها الشبان على القفز بحبال الأجراس، لكن لم يخطر في بال أحد أن يتحوَّل حبل الجرس مشنقة، فيلاقي متري شلهوب وجه ربِّه مشنوقًا على حبل يحمل الطنين إلى أذنيه.

كان الشاب البيروتي، على خلاف مع أولاد زريق بسبب مزحة. بدأت المزحة في مرفأ بيروت حيث كان يعمل الجميع حمّالين. نخلة يعمل مع ابنه الوحيد عتالين في وكالة الخواجة جرجي الجاهل التي كانت تستورد الأجواخ، وعبدالله زريق يعمل مع أولاده الأربعة في وكالة السيِّد محيي الدين الداعوق التي كانت مختصة باستيراد الخشب. بدأت المزحة بشتيمة، والجميع يعرف أنَّ أهل بيروت فنانو شتائم. إلى درجة أنَّ الشتيمة دخلت في جميع فروع أحاديثهم، يحبون شتمًا ويكرهون شتمًا ويتصادقون ويتعادون بالشتائم. فالشتيمة لا معنى لها، على المستمع أن يستنبط المعنى من خلال لهجة الشاتم وإيقاع شتيمته.

الشتيمة التي أودت بحياة متري مبتكرة وغامضة. سميح الإبن البكر لعبدالله زريق نطق بها وهو يحمل على ظهره لوحًا خشبيّاً ثقيلاً. مرّ به متري فرآه متعبًا، مدّ يده لمساعدته وهو يقول له «شو طحّلت»، لكن

ابن زريق صرخ به، «إيدك عن الخشب»، ولمّا أصرّ متري على المساعدة انطلقت من بين شفتيّ سميح شتيمة لم يكن أحد قد سمعها من قبل: «شيل إيدك قبل ما ردّك على كسّ أمك». ويبدو أنّ الفتى انتشى بعبارته فردّدها أكثر من مرة وهو ينغّمها في شكل إيقاعي. هنا بدأت المشكلة، هجم متري على سميح وبدأ يضربه، سميح أنزل لوح الخشب عن ظهره، وبدلاً من أن يدافع عن نفسه صرخ بشتيمته بصوت مرتفع. اجتمع العمّال على الشابين من أجل تفريقهما، لكنّ سميح لم يتوقف عن ترداد جملته، مما جنّن متري فقال تلك الجملة التي لم يجرؤ أحد على قولها في المرفأ. «روح يا ابن لور اللّه يرد عن كسّ أمك يللي مفرعن».

متري قال لوالده أنّه لم يقصد شيئًا، لكنّه أراد الردّ على الشتيمة بشتيمة موازية، فقال الذي لا يقال. أولاد زريق رغم بأسهم، وبأس والدهم الذي اشتهر بشاربيه الكبيرين المعقوفين، كانوا يُعرفون بأولاد لور، لأن الست لور، كانت الكلّ بالكلّ، ويقال واللّه أعلم أنّها كانت زبونة الخواجة ناجي فرعون مدير المرفأ، وأنّ زوجها كان يعلم لكنّه أدار أذنًا صمّاء. الفرعنة مضافًا إليها عبارة ابن لور، حوّلت الخلاف إلى ما يشبه المذبحة، إذ اجتمع أولاد زريق الخمسة كأنّ الأرض انشقّت عنهم وبدأوا في ضرب الجميع، هنا وجد متري طريقه إلى الهرب تاركًا حقل المعركة للمتعاركين، الذين سرعان ما اكتشفوا أن متري اختفى، فانفكّ الاشتباك، وسمع شباب الحي أولاد زريق يقولون إنّهم سيعيدون متري إلى كسّ أمه.

أصيب متري برعب شديد، الست ملكة قالت إنّ الفتى نام ثلاث ليال متتالية في البيت، اعتزل العرزال ولم يذهب إلى العمل في المرفأ، وأنّ والده جاء في صبيحة اليوم الرابع وطمأنه، قال إنّه تكلّم مع

عبدالله زريق وإنّ المسألة ما بتحرز، وكلّ شيء رجع صافي يا لبن. لكن متري لم يقتنع، قال لملكة إنّه رأى أمّه في المنام، وإنّ المرأة النحيلة ضمّته إلى صدرها، وإنّه رأى العتمة وخاف.

«حلم الجرس يللي شنقوه فيه»؟ سألت ميليا.

«لا، حلم أمه، وكانت يا ربي تتجينا، وبتعرفي شو، سألني إذا كنت عم شم ريحة الكولونيا تبع أمه، وقال إنّ أبوه ما اشترى فرشة جديدة لمن تزوّجني، ضحك عليّ وقال أنّه اشترى تخت جديد، بس الحقيقة أنّه دهن التخت القديم وما غيّر الفرشة. ومن يومها ما عدت أقدر اغفى، صرت قوم بالليل وامشي بالبيت كأنّي شبح. نخلة فكّر انّي ما عم بقدر نام من الحزن. بعد ما مات الصبي بأسبوع صرخت وقلت لزوجي يا بتغيّر التخت والفرشة يا برجع عند بيت أهلي».

سعدى لم تأتِ على ذكر أخيها الميت، قالت إنّ أمها ملكة تعذّبت كثيرًا من أجله، وإنّها لبست الحداد أربعة أعوام، وقرّرت أن تفعل مثل جميع الثكالى وتبقى في الأسود حتى نهاية عمرها. لكنّ زوجها منعها، قال لها «إنتِ ما خصّك، هيدا مش ابنك هيدا ابن أمه»، وأجبرها على خلع الثياب السوداء.

ابن أمه مات مشنوقًا. قال سميح زريق إنّه جاء مع إخوته إلى باحة الكنيسة من أجل أن يساهموا في قرع الجرس، وإنّهم نسوا القصة بعد الاعتذار الذي قدّمه نخلة شلهوب نيابة عن ابنه، لكنّ متري الذي كان متمشقًا بالجرس ما إن رآهم حتى بدأ يطير إلى الأعلى. لم يفهموا كيف استطاع الفتى تسلّق الحبل، كان يعلو والجرس يعلو به مصدرًا رنينًا لم يسمعه أحد من قبل. قال سميح إنّهم رأوا الشاب

يطير، وإنَّهم لم يستوعبوا ماذا جرى إلاّ حين بدأ صوت الجرس في الهمود، عندها رأوا متري معلّقًا من عنقه، يفرفر مثل عصفور ذبيح. قال سميح إنَّهم تعمشقوا بالحبل من أجل إنقاذه، لكن حين وصلوا إليه كان الأوان قد فات، لأنَّ العنق صار أرفع من الحبل، وضرب الوجه لون أزرق فاتح. نخلة لم يقتنع بالكلام، لكنَّه لم يكن يمتلك خيارًا آخر. فالحرب مع أولاد زريق سوف تعني موته المحتَّم، والثأر لن يعيد الفتى الذي ذهب إلى رحم أمه، مثلما تنبأوا له.

«يعني وقت الواحد بيموت بيرجع على بطن أمه»؟ سألت ميليا جدّتها ملكة.

«شو بدّك بهالحكي يا بنتي، متل ما قلت لك، الموت منام، الواحد بضلّ مطرحه وبسافر، وما بيرجع إلاّ لمّن بشوف النور».

«بس ليش قتلوه يا ستي»؟

«ما حدا قتله يا بنتي، ما تصدّقي حكي جدّك، طلعت خرفته على الدموع، ودموعه خلّوه يخترع قصة أنَّ أولاد زريق شنقوه بالجرس، الصبي يا دلّي عليه مات من الخوف، ما في شي بيجيب الموت إلاّ الخوف من الموت. جدّك ختيار، لمّن تزوّجته كان أكبر منّي بعشرين سنة، وليكي هلق كيف صار، صار أكبر مني بأربعين سنة ويمكن أكتر، الله يصبّرني عليه، أنا قلت له ما يحكي بهالقصة مع الأولاد، بس الإنسان لمّن بيكبر بيرجع متل الولد الصغير، وما بيعود يعرف يحكي إلاّ مع الأولاد، إنسي القصة يا بنتي، القصة مش قصة متري القصة قصتي أنا، أنا يلّي تعتّرت وما بعرف كيف قبلت أتزوّج واحد أرمل».

كان زواج ملكة هو المفاجأة الكبرى. فتاة في العشرين تتزوّج رجلاً أرمل تجاوز الأربعين. هل يعود السبب إلى ثراء الرجل؟ صحيح أنّ الحكاية التي انطبعت في ذاكرة ميليا جرت حين كان نخلة يعمل مع ابنه الوحيد عتالين في مرفأ بيروت. لكنّ نخلة لم يكن عتالاً، ولن يموت فقيرًا. كانت تلك فترة المحل مثلما سمّاها، حين صار دود الحرير بشعًا مثل الدود، ودخل لبنان في أواخر القرن التاسع عشر بدايات المجاعة التي ستلتهمه خلال الحرب العالميّة الأولى وتقضي على ثلث سكانه، بينما التهمت الهجرة الباقي ولم يبقَ سوى من ضاقت بهم السبل.

ضاقت السبل بنخلة ووجد نفسه عاطلاً عن الحياة. في تلك المرحلة، وكان ذلك حوالى عام ١٨٩٠ قرّر الرجل إقفال دكان الحرير الذي يملكه في شارع عبد الملك، والتشمير عن قمبازه والذهاب إلى العمل مع ابنه. الحقيقة أنّ متري كان هو العتّال، أما والده فكان يدير أعماله. لكنّ الأمور عادت واصطلحت، قال نخلة إنّ الخواجة أفتيموس دفع ديونه، وإنّ مشكلته وجدت حلاً، وعاد إلى العمل في دكانه الصغير بعدما فات الأوان.

الأوان فات لأنّ متري مات مشنوقًا، والعمر ضاع لأنّ الرجل لم يجرؤ على المطالبة بثأر ابنه القتيل. ومنذ تلك اللحظة، أي منذ لحظة موت متري إنقلب البيت رأسًا على عقب وتسلّطت ملكة على كلّ شيء.

لماذا روت ميليا هذه الحكاية لمنصور. هل كانت تحاول إقناعه بعدم الذهاب إلى يافا، أم كانت تحاول أن تجد علاقة بين جدّها سليم وعشيقته المصريّة وبين منام خالتها الذي غيّر حياتها؟ سمعت ميليا إسم أفتيموس مرة واحدة على لسان جدّتها ملكة، كانت ملكة تتكلّم مع ابنتها سعدى،

وقالت شيئًا عن لحظة الإنفراج عندما دفع أفتيموس، فسألت سعدى، «أفتيموس ما غيره، مبيّن طلعلي الخواجة سيرجيوس وين ما كان». وعلقت العبارة في ذهن الفتاة، وها هي تعود الآن ممتزجة بصوت الجرس.

أرادت أن تقول «أنا ما خصّني»، أرادت أن تقول أنَّها هي، «أنا أنا، أنا مش ستي ولا ست ستي، يا إلهي كيف اختلطوا الناس فيّي، وما بقى أعرف مين أنا».

«هو هيك»، قال الراهب طانيوس، «هو ورايح على الصليب، حسّ أنَّ هو مش هو، حسّ أنَّ كلّ الناس صاروا جزء منه، حاول يتذكر الإشيا فشاف كلّ شي، صار هو الأم والأب والست والسيد والخروف، من شان هيك ما عاد يقدر يحكي، إذا حكي شو بيقول، وإذا قال مين رح يفهم عليه، وإذا حدا فهم مين رح يصدّق»؟

كانت ميليا تمشي على منحدر العين، حين سمعت هذا الكلام، أحسَّت أنَّ السماء انفتحت أمامها، وفهمت أنَّها أتت إلى هنا كي تحمي متري من الموت. أطلقت على الصبي إسم متري بينها وبين نفسها، لا الحقيقة أنَّ الإسم الأول الذي خطر في بالها كان عيسى، أرادت أن تسمّيه عيسى على الإسم العربي للمسيح، وأرادت من الناس مناداتها أم النور، تيمُّنًا بالسيدة العذراء، لكنَّها لم تجرؤ على إعلان ذلك حتى لزوجها، فسمَّته متري خوفًا عليه، أرادت أن تحميه من الجرس، وتمنع أولاد زريق من قتله. لكن قلبها امتلأ خوفًا، لأنَّ والده سيأخذه إلى يافا، وهناك لن يجد في انتظاره غير الحرب والموت. لم تخف من الولادة مثلما اعتقد زوجها، كانت متيقّنة من أنَّها تستطيع أن تستند إلى جذع نخلة وتلد، وأنَّها لن تحتاج إلى الراهبة ميلانة كي ترفع الصبي وترسمه

على حائط المستشفى الأبيض مثلما ارتفعت هي في سماء البيت البيروتي العتيق.

قال منصور إنَّ إسمه أمين، فجأة تغيَّر إسم الصبي، وأحسَّت ميليا بالوحشة. تعوَّدت أن تحكي معه باسميه، اسمه العلني الذي قرّ الرأي بعد طول جدال على أن يكون الياس، تيمُّنًا بالنبي الياس الحي الذي حفظت ميليا سرّه منذ زيارتها له في معرة صيدنايا قرب دمشق، حيث نامت في مغارته، وشعرت بطعم الأبديَّة الذي امتزج بنكهة عسل التين البعلي الشامي الذي أكلته، واسمه السرِّي الذي كان متري، من أجل خالها الوحيد الذي لم تلتقِ به إلاّ في مناماتها. مات الإسمان دفعة واحدة بعد موت أمين في يافا، وصار عليها، في شهرها السابع أن تتعوَّد على إسم جديد وطفل جديد.

عندما جاءها منصور بنبأ الإسم الجديد، قالت مستحيل. «ما حدا بيغيِّر إسم ابنه، تغيير الإسم فال».

قالت إنَّ إسمه الياس، وبكت. لكنَّ منصور لم يلتفت إلى بكائها.

ماذا جرى، وكيف؟ في العادة كان منصور ينقلب راسًا على عقب حين يرى دموعها، يرجوها أن لا تبكي، ويقول متل ما بتريدي، ينحني على دموعها ويلتقطها برؤوس أصابعه، ويهدِّئها بالشعر الذي يجري من شفتيه مثل ماء يبلسم جروحها. تغيَّر منصور، صار رجلاً آخر لا تعرفه، أرادت أن تقول له إنَّها ما عادت تعرفه، لكنَّها لم تقل، بلى قالت وندمت.

كانت تلك المرة الوحيدة التي تندم فيها على منامها. في العادة كانت تأخذ المنامات كما هي، فالمنام مثل القدر. لم يسبق لها أن ناقشت

مناماتها، فالمنام نافذتها على روحها وارواح الآخرين. تحلم وتحيا، هكذا قالت له عندما أبدى عجبه من كلامها بلغة المنامات.

«ما تصدّقي مناماتك»، قال لها.

«إذا ما صدّقتهم مين بصدّق»؟

«صدّقيني أنا».

«إنت أكيد، بس المنامات بتخبّرني شو عم بيصير».

«المنامات أوهام»، قال لها.

«والشعر يلّي بتضلّك ترندحلي ياه مش أوهام»؟

«الشعر حقيقة، موسيقى الكلام والمعاني، هو يلّي بيعطي معنى للإشيا؟ بتتذكري كيف كنت أقضي وقتي مسافر عشانك، كنت أتذكّر بيت شعر لابن عبدربه وقول هيدا أنا، إسمعي:

الجسمُ في بلدٍ والروح في بلدِ
يا وحشَةَ الروحِ بل يا غُربة الجسدِ»

«الشعر منام، ما بقدر أتخيَّل الشاعر إلاّ واحد شاف منام وكتبه».

قالت له إنَّ الشعر يهبط على الشعراء مثل الوحي، لأنَّه من فصيلة المنامات، ودعته إلى التأمُّل في حياة الأنبياء والقدّيسين، لأنَّ اللَّه يخاطب الناس بواسطة المنام.

«هيك حكي مع يوسف النجار، قال له أنَّ مرتك حبلى، وكان الزلمة نايم».

«بس أنا ما حدا حكي معي هيك، انتِ قلتِ لي أنَّك حبلى ومشي الحال».

«بس انا شفت حالي حبلى بالمنام»... لم تكمِّل ميليا جملتها، خافت أن يعتقد منصور أنَّها مجنونة، كيف تخبره عن منام الطفل، وكيف تقول له إنَّها متيقّنة من أنَّ ولادتها لن تحصل في الناصرة، بل سيضطرّ زوجها إلى أخذها إلى بيت لحم، مثلما فعل يوسف بامرأته.

في تلك الليلة أوقفت منامها في منتصفه، كان منصور يقف في المطبخ وينظر إلى النافذة، رأته من الخلف وخافت من صلعته. كان شعر منصور كثيفًا، قال لها إنَّهم في العائلة لا يصابون بالصلع، لكنَّه يشبه السائق. اعتقدت في البداية أنَّ من تراه أمامها هو سائق السيارة التي أقلتهم إلى شتورة، ورأت نفسها تقف على رؤوس أصابعها كي تتفرَّج على صلعته، متسائلة ماذا أتى به إلى هنا. لكنَّها سمعت الصوت، وكان صوت منصور. قال لها إنَّها هي أيضًا تغيَّرت كثيرًا، «كأنِّي ما بعرفك، ليش صرتِ هيك، كأنَّك مغطاية وجهك بحجاب».

لم تجاوب، شعرت بقشعريرة برد، وقرَّرت أن توقف هذا المنام، اختفاء شعر رجلها لا يعني سوى الموت، «إذا الواحد حلم أنَّ شعره هرّ فلازم يقول يا ربي تنجّينا، لأن هيدا معناته موت حدا»، قالت جدّتها ملكة. «ليلة يلّي مات فيها متري حلمت أنَّ خصل شعري عم تهرّ، كنت واقفة قدَّام المراية عم بتمشّط، وصار شعري يهرّ خصل خصل، وفجأة شفت حالي صرت صلعا، صرخت، وكانت هيدي صرخة موت الصبي».

فتحت عينيها، فرأت نفسها من دون غطاء، تغطَّت بالحرام الصوفي وقالت للمنام أن يتوقف، وعادت إلى النوم، لكنَّها رأته من

جديد، كان في المكان نفسه. صلعته مليئة بالقشور البيضاء، وسمعت صوته: «كأنّي ما بعرفك». فتحت عينيها من جديد. كانت تعلم أنّها لن تستطيع العودة إلى النوم، فالمنام الذي يتكرّر ثلاث مرات يصير حقيقة. قرّرت أن تنهض من السرير وتذهب إلى المطبخ من أجل إعداد فنجان يانسون. فهي منذ طفولتها تحب اليانسون، والدها يوسف كان يعدّ اليانسون الساخن المحلّى بالسكر يوم الأحد ويتركه يبرد. وظهرًا عندما تجتمع العائلة حول مائدة الكبّة النيئة، ويسكب لنفسه كأس عرق، يسكب لأولاده ما سمّاه عرق الشباب، كؤوس صغيرة مليئة باليانسون البارد، يقرع كؤوسهم الصفراء بكأسه البيضاء، ويشرب ويشربون. ثمّ اكتشف الأولاد أنّ طعم العرق يشبه طعم اليانسون، وصاروا يشربون العرق المصنوع من سبيرتو العنب واليانسون على ذكرى والدهم. حاولت ميليا في الأيام الأولى أن تشرب مع زوجها كؤوس اليانسون الباردة، لكنّه رفض اللعبة، «يعني أنا بشرب وإنت بتتفرّجي عليّي، مستحيل». ولم يقتنع بفضائل اليانسون إلاّ بعد حمل ميليا، حين أفهمه الطبيب الطلياني أنّ الخمر يضر بالجنين، فعادت ميليا إلى عرق الشباب.

دخلت إلى المطبخ في تلك الليلة من أجل أن تشرب يانسونًا ساخنًا، وحده اليانسون الساخن يردّ الروح. صحيح أنّها تعلّمت هنا شرب الشاي، كأنّه قهوة، لكنّ الشاي بقي بالنسبة لها علاجًا من الرشح والحرارة.

«حدا بيستبدل القهوة العربيّة بالشاي؟ بس إحنا هيك». شرح لها منصور أنّ شيوع الشاي ناجم عن الأثر المباشر للاستعمار البريطاني، وأنّ هذا بداية الهزيمة، «نستبدل قهوتنا بشايهم، هل تعرفين أنّ العرب كانوا يطلقون على الخمر إسم القهوة، وعندما جاءتهم القهوة

وتوطنت في بلادهم سمّوها خمرًا، لأنَّها شراب روحي، بس صرنا نشرب الشاي وتعوَّدنا عليه، وصار كأنَّه مشروب قومي فلسطيني، التاريخ كذبة كبيرة. والعرق، بتعرفي أنَّ العرق تركي مش عربي، إنت مفتكرا أنَّ العرق مشروبنا الوطني. هون ببلاد الشام، كلُّنا مفتكرين هيك، بس العرق مش عربي، بكلّ شعر الخمريَّات ما فيش ولا كلمة عن العرق، الخمر يعني النبيذ، بس إحنا من قلة عقلنا نسينا، وصرنا نحكي عن العرق كأنَّا اخترعناه».

لم تشعل الضوء حين دخلت إلى المطبخ، كان الليل مضاء، وضعت الركوة على النار ووقفت تنتظر، لكنَّ الماء رفض أن يسخن. كان كل شيء غريبًا في المطبخ، ضوء القمر الذي اخترق النافذة وغلّف المجلى بأشعته الفضيَّة الباذخة، صوت الزيزان التي يصمّ هسيسها الآذان، بلاط المطبخ المعرّق الذي يشعّ كأنَّ الضوء يخرج منه، واليانسون الذي صار لونه أزرق. وضعت ميليا يديها على أذنيها كي توقف الأصوات عندما رأته. فجأة جاء الرجل من لا مكان، كان منصور يقف إلى جانب النافذة مديرًا لها ظهره.

«عم بعمل يانسون، بعملّك فنجان معي»؟ قالت.

فجأة رأت صلعة الرجل، وأحسَّت أنَّ ركبتيها لم تعودا قادرتين على حملها.

«وأنت كمان تغيّرتِ»، قال منصور.

«باسم الصليب العلي العظيم»، صرخت ميليا، ورأت نفسها في السرير ملتحفة الغطاء والظلمة في كلّ مكان.

لكنَّها أصوات الأجراس، من أين تأتي الأجراس، ولماذا لا ينزلون الفتى الميت عن حبل جرس الكنيسة؟

حملها متري، ومضى بها إلى داخل صورته المعلقة على الحائط. كان طويلاً وأسمر ومفتول الذراعين، هكذا تخيَّلته، وهكذا رأته في منام قضيب الخيزران وعروس اللبنة، لكنَّه لم يكن.

ملكة قالت في وصف ابنها الذي لم تلده أنَّه كان رفيعًا وأبيض البشرة، وطربوشه الأحمر مائل إلى الأمام، ولا يفارق قضيب الخيزران يده. لكنَّه هنا، طويل وأسمر، عباءته البنية تغطّي قمبازه الأبيض، ويداه ممدودتان، اليمنى تحمل قضيب الخيزران، بينما تمسك اليسرى بخصر الفتاة الصغيرة.

«تركني، الله يخلّيك، هلّق بجبلك عروس اللبنة، ما بدّي فوت على الصورة، بيكفيني صورة واحدة».

صرخت لا وفتحت عينيها، وشمّت رائحة المستشفى، ورأت منصور يقف إلى جانبها، محاولاً الامساك بيدها.

«إنتِ عرقانة كتير»، قال لها، «الله يخلّيكِ روقي، كل شي رح يمضى على خير». أخذ منشفة صغيرة، التقط حبات العرق التي تتلألأ على جبين زوجته ويديها.

ابتسمت ميليا، ورأته. كان يشرب العرق ويقول الشعر، وكان حرّ تموز.

«حدا بيشرب عرق بهالشوب»؟ قالت.

«إسمعي»، قال، هيدا أحلى بيت للملك الضلّيل:

«وأنَّك قسّمتِ الفؤاد فنصفه

قتيلٌ ونصفٌ بالحديدِ مكبّلِ»

«مش حلو»، قالت ميليا. «أنا ما بحب ينحكى عن الموت بهالطريقة، كأنَّه الموت كلمة متل أي كلمة تانية، لا الموت مش هيك، الكلام بيقتل، وما بيصير ينحكى هيك بالطالع والنازل. كمان ما بقى حب التشابيه والاستعارت، الشاعر بيتخيل وبعدين بينسى، وإنت بتصير ترندح، وبعدين بتفوت تنام متل القتيل»...

«لا، عم تنسي نقطة مهمة، قبل ما نام، بولع»...

«إنت ما في براسك إلاّ هيديك الشغلة، أنا عم بحكي جدّ، كنت عم قول أنَّك أنت والشاعر بتنسوا يلّي قلتوه وبتروحوا تتاموا، وأنا بشوفهم بالمنامات، وبخاف، شو هالقصة، تخيّل لو هالحكي بيصير حقيقة، لو الناس بتعيش متل بالروايات والأشعار، كان كلّ الناس صاروا مجانين، إذًا لشو هالحكي، لا هيدا مش حلو».

«إنت الحلو يا حلو»، ونهض نحوها وبيده محرمة ورقية، كي يمسح نقاط العرق المتلالئة التي كانت تنحدر من إبطها العاري.

«بتتذكّري»؟ سألها.

قالت إنَّها تتذكَّر كي تسكته وتوقف بحر الذكريات عن زمن عشقه البيروتي الذي لم تعرفه إلاّ من خلال كلماته. غريب أمرها مع ذاكرة الحب التي يصرّ منصور على تأسيسها. قالت له إنَّها صدّقت

ذكرياته، «متل يعني كيف بدّي قول، متل لمّن أمي بتخبّر قصص عنّي لمّن كان عمري سنتين، وبتضلّ تعيدهم، أكتر شي بتحب تعيد القصص ذاتها. وكانت كلّ مرة تحكي نفس القصة كأنًّها عم تحكيها لأول مرة، حتى بالآخر صدّقنا، وصارت كأنًّها قصصنا، وإنت هيك يا حبيبي رح تخلّيني صدّق كلّ شي، ولمّن أسمعك حسّ أنّي عم بتذكّر، مش عم بسمع».

كانت تجلس في ظلال شجرة التين الضخمة، شمس تشرين تتسلل من ثنايا الأوراق الخضراء، تاركةً بقعًا ضوئيًّة متفرقة على زنديها العاريين. وفجأة ظهر منصور. كانت ميليا تعيش لحظة الخوف التي تسبق الزواج. في زمن علاقتها بنجيب قرًّرت أنًّ الزواج سوف يكون لحظة لقائها بالحقيقة، سوف تخرج من بيت الأوجاع الذي صنعته أمها، وتبتعد عن ظلال الراهبة، وعن عائلتها، وتبدأ حكاية جديدة لا علاقة لها بعالم القديسين. لكنًّها تجد نفسها اليوم مع رجل لا تعرف شيئًا عنه، سوى أنًّه يحبُّها. هل يكفي أن يشعر المرء بذبذبات حب الآخر له كي يسقط في الحب؟ أحبًّت حب منصور، واقتنعت أنًّه قدًّرها، ثمّ جاء ذلك المنام الذي حسم المسألة. منصور سوف يكون منامها الكبير، وسوف تعيش حكايتها معه، مثلما عاشت كلّ حكاياتها السابقة.

فجأة ظهر منصور، ووقف يتأمًّلها. لم يقل كلمة واحدة، كان ينظر إلى حبّة عرق تسقط بطيئة من ابطها.

«أيمتى جيت»؟ سألته.

...

«شو باك مش عم بتجاوب»؟

...

نهضت كي تدخل إلى البيت، فسمعت صوته يرجوها أن تبقى جالسة على كرسي القش الصغيرة التي وضعتها تحت شجرة التين.

«ما تقومي، اللّه».

«شو في»؟ سألت.

«خلّيكِ قاعدة، بدّي أشوف لوين بدّها تروح هالنقطة». وأشار إلى اللؤلؤة التي تتساقط ببطء على باطن ذراعها.

نظرت بعصبية إلى العرق المتساقط من إبطها، مدَّت يدها كي تمسحه، فسمعت صوته يصرخ بها أن لا تفعل.

وقفت، مسحت العرق عن ذراعها ودخلت إلى البيت. تبعها وهو يقول لها إنَّها لا تفهم معنى الحب.

«شو هو الحب»؟ قالت.

«الحب أنّي أحب كلّ شي فيكِ، حتى اللولو».

«ما تقول لولو، بس الدموع إسمها لولو».

لا تدري كيف تطور الحكي، لكنَّه يقف هنا، كي يلتقط حبات العرق التي تتساقط من زندها المنتفخ بالحمل، معيدًا حكاية نسيتها، أو لم تحصل قط.

قال إنَّها أرادت الدخول إلى البيت، لكنَّه أمسك بها من زندها، تملصت من يده وسقطت بين ذراعيه. وعندما انحنى كي يقبّل زندها، شعر أنَّها ترتجف، «كنتِ زي العصفور».

«ما تقول زي العصفور، قلت لك أنا ما بحب التشبيه، لأنَّه التشبيه مش صحيح، ما في شي بيشبه شي، ومنشان هيك ما بفهم عليك».

تذكرت أنَّه سألها بماذا تفكّر، وأنَّها أجابته لا شيء، لكنَّه أصرّ، فوجدت نفسها مضطرة إلى إخباره حكاية ما. عندما يجدها ساهمة، يسألها بماذا تفكّر، وعندما لا تجيب، يغضب، فتضطر إلى إخباره أي شيء يخطر في بالها كي توقف قلقه.

يومها أخبرته عن زيارتها إلى مغارة مار الياس. قالت إنَّها هناك وجدت الطمأنينة، عندما فتح لها الكاهن باب المغارة الحديدي المقفل، ودخلت منحنية كي تستلقي في الموضع الذي كان ينام فيه الياس النبي، هربًا من إيزابيل وزوجها الملك آخاب. هناك، في مغارة صغيرة لا تتسع لأكثر من إنسان واحد، دخلت ميليا واستلقت، بينما كانت الراهبة ميلانة تقف في الخارج مشعلة البخور ومردِّدة الأدعية.

استمع منصور إلى الحكاية وقال إنَّه لم يفهم شيئًا. «أنا بحكيك عن الحب وإنت عم بتفكري بالقديسين! مش ممكن».

لماذا ذهبت إلى معرة صيدنايا قرب دمشق، ونزلت ذلك الدرج الطويل الذي لا ينتهي كي تصل إلى تجويف صخري يمتد من التلة إلى الوادي، كأنَّه منحوتة هائلة صنعها اللّه في الصخر؟

قالت الراهبة إنَّه يجب الذهاب إلى صيدنايا، «أنا ندرت البنت، ولازم آخدها، قومي يا سعدى معنا».

لكنَّ سعدى كانت مريضة وعاجزة عن القيام برحلة طويلة إلى الشام، فقرَّرت الراهبة أن تأخذ ميليا وتذهب.

وهناك، في الطريق إلى دمشق، رأت ميليا ضهر البيدر للمرة الأولى. أرادت الراهبة أن تأخذ ميليا إلى مغارة مار الياس في التاسع

عشر من تموز، أي ليلة عيد النبي الذي صعد إلى السماء بعربة نارية، حيث يشعل الناس نيران الفرح ويأكلون التمرية ويهزجون الليل بطوله، تحية لأكثر القديسين شعبية في بلاد الشام.

كانت ميليا في الحادية عشرة. هزيلة من الحمّى الطويلة التي أصابتها، وخائفة من النبي الذي ستزوره. قالت لها الراهبة إنّ مار الياس أنقذ حياتها، وإنّ مستقبلها مرهون بهذه الزيارة، «إسمعيني يا بنتي منيح، لمّن بتوصلي لعنده لازم تحكي معه، حياتك كلّها مرهونة بهالزيارة، مار الياس خلّصك من الموت، لأنّه هو القديس الوحيد يللي ما مات، وما بيحبّ الموت، اللّه بعتله عربية من نار واخده على السما، وهو فوق، عايش معهم، هو الوحيد يللي بعده حيّ».

«وما بيخاف»؟ سألت ميليا.

«من شو بدّه يخاف يا بنتي».

«من الميتين، ما هو عايش مع الميتين».

ضحكت الراهبة من سذاجة هذه الفتاة التي لا تفهم معنى الأشياء، أرادت أن تشرح لها أنّ النبي يعيش الآن مع الشيروبيم والسيرافيم، لكن من أين لها أن تفهمها أنّ هاتين الكلمتين المعقدتين تشيران إلى الملائكة، أو أنّ اللّه ترك نبيه حيّاً من أجل المسيح، كي يجد السيد أحدًا في استقباله عند مجيئه الثاني.

«ما تحكي هيك يا بنت»، قالت الراهبة، «هيدي إشيا نحن ما منفهمها، الإيمان أهمّ من الفهم، بس توصلي لعنده حطّي قلبك بين إيديه».

في ضهر البيدر رأت ميليا الضباب للمرة الأولى في حياتها. كان سحاب أبيض خفيف ينتشر فوق الهضاب ويلامس الأرض. سوف تقول

لشقيقها موسى أنَّ روح النبي تحوَّلت سحابًا لامسها وهي صاعدة إليه. وعندما وصلت إلى دمشق ودخلت في سحر روائح المدينة، واستمعت من الراهبة إلى حكاية بولس الرسول الذي اهتدى هنا في الطريق إلى دمشق، أحسَّت أنَّها تتمنَّى البقاء. كانت الأنَّهار السبعة التي يسمّونها بردى تخترق المدينة من كلّ النواحي، جاعلة منها سفينة تطفو على عطر الياسمين. مشت الفتاة الصغيرة في ظلّ الراهبة، وذهبت معها إلى صيدنايا، ودخلت إلى الشاغورة، ورأت في تلك الغرفة التي تضيئها الشموع، كيف تنحني الأيقونات فوق بعضها البعض، وتتداخل صور القديسين بظلال الجموع الراكعة في الصمت والعتمة. أمرتها الراهبة أن تسجد، فسجدت. أمرتها أن تقبِّل أيقونة العذراء الخشبيَّة العتيقة، فقبّلتها. أمرتها أن تتمتم الصلاة الريانيَّة، فتمتمتها. أمسكت يدها، أوقفتها وخرجت بها إلى باحة الدير، وسألتها إذا كانت قد رأت اللَّه.

لم تفهم الفتاة ماذا عليها أن ترى، اعتقدت عندما دخلت إلى تلك الغرفة المنخفضة المليئة بالأيقونات أنَّها وصلت إلى مغارة مار الياس، وأنَّها أوفت نذورها، وتستطيع العودة الآن إلى بيتها، لكنَّ الراهبة لم تسمح ليد الفتاة بأن تفلت من يدها، وأفهمتها أنَّ الرحلة لا تزال في بداياتها.

وقفت أمام منحدر صخري يمتدّ من أعلى التلة إلى قعر الوادي، ورأت اللَّه. كانت السماء موشَّحة بما يشبه ريش العصافير، وكان الأفق اللامتناهي، وكانت المغارة. تذكر ميليا كيف نزلت الدرجات الحجريَّة المئتين، تذكر كيف كانت تلهث هابطة، تذكر أنَّها أحسَّت بالدوار، تذكر كيف أمسك الشيخ ذو اللحية الطويلة يدها وطلب منها أن تنام ولا تخاف. لكنَّها لا تذكر كيف صعدت تلك المسافة في طريق عودتها إلى

بيروت. قالت الراهبة أنَّها اضطرت إلى حملها، لأنَّ الفتاة بدأت تلهث وتسعل، لكنَّ ميليا لا تتذكر.

رأت رجلاً يفتح باب المغارة، ويقول للراهبة ميلانة أنَّه وافق على فتح باب المغارة الحديدي إكرامًا لها، لأنَّ سيِّدنا المطران أمر بأن لا يدخلها أحد.

«فوتي»، قالت الراهبة.

مشت الفتاة بخطوات متردِّدة، ورأت نفسها تنحني وتدبدب على الأرض، ورأته. لحية طويلة بيضاء تلتهم وجهه وصدره، يقف في مواجهتها والنار حوله. حاولت أن تتراجع إلى الوراء خوفًا من اللهب المشتعل، فسمعت صوت الراهبة يأمرها بالبقاء في مكانها.

«نامي على ضهرك مطرح ما كان ينام».

برمت ميليا كي تستلقي على ظهرها، فرأته يستدير، يضرب عباءته بالصخر، ويمضي. الصخرة تنشقّ والماء يتدفق. الماء يطفئ اللهب المشتعل، ميليا في الماء، هواء لطيف بارد يغمرها، والرجل الكهل يمضي إلى الأعلى. تمدّ يديها كي تلتقط أطراف الرداء، لكنَّ الرداء المتطاير في الهواء يفلت منها.

اختفى الرجل الكهل، وشعرت الفتاة بالخوف. نظرت إلى الباب الذي دخلت منه، فوجدته مقفلاً، ولم تكن الراهبة.

«ليش نمتي جوّا، المفروض أنّك تصلّي، كان لازم يسمع مار الياس صوتك إنت وعم تتشكريه، فوّتناك لجوّا، محل ما كان ينام لمّن هرب من الملك، هون كان يجي طير من السما ويجبله أكل، وإنت بدال ما تصلّي نمتِ، يا لطيف».

أرادت ميليا أن تقول للراهبة إنَّها لم تنم، أرادت أن تروي لها أنَّها رأت كيف انبجس الماء من الصخر، وأنَّ مئات الطيور فردت أجنحتها كي تحمل الرجل الشيخ وتمضي به إلى الأعلى، كانت ممتلئة برائحة البخور، وتشعر أنَّها صارت تنتمي إلى عالم آخر. صحيح أنَّها أغمضت عينيها، لكنَّها لم تغمضهما كي تنام، بل من أجل أن ترى، ورأت. أرادت أن تقول لنبي النار شيئًا واحدًا، قالت إنَّها تريد أن تصبح صبيّاً، وسمعته يتأفف ويقول إنَّ كلّ البنات يردن الشيء نفسه لأنَّهن لا يعلمن، إذ لو عرف الناس لتمنى الجميع أن يكونوا نساء. أخبرها عن مريمتين: المجدلية والعذراء، وقال لها إنَّ كلّ النساء يستطعن أن يصبحن إما هذه وإما تلك. وإنَّ المرأة وحدها تستطيع أن تمتلك الشعورين المتكاملين: الحب والأمومة، «وإنت رح يكون عندك الإتنين يا ميليا، ما تخافي».

سألت الراهبة عن مريم المجدلية، أشاحت ميلانة وجهها كأنَّها لم تسمع، حملت ميليا على الدرج الحجري الطويل وهي تلهث وتتأفف.

سألها منصور بماذا تفكّر فأخبرته عن زيارتها إلى مغارة مار الياس في معرة صيدنايا، وسألته عن معنى الكلام الذي سمعته.

«مار الياس قال لك أنَّك رح تكوني المريمتين»؟

«هيك سمعته عم بيقول».

«اللَّه ينجّينا»، قال.

«من شو»؟ سألت.

«من النسوان»، أجاب.

«مش عم بفهم شي»، قالت.

«ولا أنا»، قال.

لم تفهم شيئا، لكنَّها تجد نفسها الآن معلّقة على نصف سرير، ومنصور يقف إلى جانبها.

قالت إنَّها ترى العصافير على سطح الكنيسة، وإنَّ الجرس، الجرس الذي يحمل عنق متري الطويل الرفيع، الجرس وحوله عصافير مار الياس. قالت لسعدى إنَّ العصافير حملت مار الياس، وإنَّ الراهبة على خطأ. قالت إنَّها رأتها، «اتطلعي على الأيقونة يا أمي، هيدول مش أحصنة من نار، هيدول عصافير».

من أين أتت العصافير، كي تملأ المكان بأصوات الأجراس؟

كانت تريد أن تقول إنَّها لا تحب أصوات الأجراس، ولا تحب العصافير، وإنَّها اشتاقت إلى الشعر. لماذا توقف منصور عن قول الشعر. أرادت أن تقول له إنَّها غيَّرت رأيها، وإنَّها تحب الاستعارات والتشابيه، وإنَّه أفضل للإنسان أن يستمع إلى الكلام من أن يكون هو الكلام.

لا، ليس الحقّ عليها، قال لها إنَّه تعبان، وإنَّه لم يعد يستطيع احتمال الوضع. وكانت تريد أن تفهم، لكنَّها لم تستطع. الحقّ على أسمى زوجة شقيقه أمين الذي مات، لا الحقّ على أمين، لا الحقّ على الأم. أمه لم تحبَّها يومًا، كانت تعتقد أنَّ منصور تغيَّر بسبب ميليا، والحقيقة هي العكس، منصور ذهب إلى ميليا لأنَّه تغيَّر، لكن كيف يمكن إقناع الأم بأنَّ الحقّ على ابنها؟ الأم عمياء لأنَّها لا ترى. قال لها منصور إنَّ أمّه عمياء، «إنتِ ما الكيش علاقة، بس هي ما بدّها تشوف إنِّي هربان منها ومن أمين». لكنَّ ميليا ترى، منذ مقتل أمين وهي ترى كيف تغيّر كل شيء.

اختفى الشعر واختفت حكاية موت المتنبي عائداً إلى مدينته، لأنَّ خادمه قال له وهو يفرّ هارباً من خال ضبّة الذي كمن له في البادية أنَّه «لا يجوز أن تهرب وإنت القائل:

«الخيلُ والليل والبيداء تعرفني
والسيفُ والرمح والقرطاس والقلمُ».

«يعني قتله شعره»، قالت ميليا.

«شو كان في يعمل»؟ سأل منصور.

«أهبل، حدا بيصدّق حاله؟ أهبل لأنَّه صدّق حاله».

«بالآخر الواحد لازم يصدّق، هيدا هو الموت، الموت هو لحظة الصدق الوحيدة في حياة الإنسان»، جاوبها.

أرادت أن تسأله لماذا اختفى من ليلها؟ لم تقل لكن الكلام خرج من عينيها. فجأة اختفى الشعر واختفت رغبة منصور. شرب قهوته على عجل، وقال إنَّه خارج من البيت، لكنَّه تسمّر في مكانه، اقترب منها، وضع يده على خدها وقال إنَّها أوامر الحكيم.

«الحكيم قال إنَّه ابتداء من الشهر السابع لازم وقّف».

«ما فهمت»، قالت.

«ولا شي قال، يلله بخاطرك».

قال لها طانيوس إنَّ موت الأطفال هو العلامة. كان الراهب الأشعث الشعر يقف في البعيد ويشير لها أن تقترب منه.

«الله يخلّيك روح من هون، أنا رايحة على يافا مع زوجي، وخلص».

«شو في بيافا»، سألها.

أدارت وجهها وفتحت عينيها، فرأت منصور يقول لها أن تهدأ، «روقي يا حبيبتي، قال الحكيم أن لازم ننطر ساعة زمان، بعد ساعة كله بيزيط».

نظرت ميليا إليه وسألت عن الطفل.

«لسه يا حبيبتي، لازم ننطر».

وفهمت، قالت إنَّها تريد أمها، قالت عن الألم، قالت إنَّ كلّ شيء فيها يتألم، وبدأت ترتجف، وصارت أسنانها تطقطق.

ركض منصور إلى الممرضتين، وعاد بهما.

نظرت الطويلة إلى المرأة الممددة على السرير، وقالت إنَّها ذاهبة لاستدعاء الطبيب. «إجا الوقت»، قالت.

اقتربت القصيرة من ميليا وامسكت يدها، أخذت منديلاً ومسحت العرق عن جبينها، وقالت لها أن لا تخاف.

«إنت برّا»، قالت لمنصور، «وإنت يلله يا حبيبتي ساعديني وساعدي حالك».

وبدأ موج الألم. احسَّت أنَّ كلّ شيء فيها يتفتق، وأنَّها تريد أن تصرخ، وأنَّها وحدها.

«تعي يا أمي شوفي شو عم يعملوا فيّي». صرخت، ورأت كلّ شيء يدور، واجتاحتها الظلمة.

وقف ورأسه يتدلى إلى الأسفل. «أنا شايف الولد»، قال طانيوس.

«لا دخيلك ما تجيب سيرته».

«أنا بحب الاولاد»، قال، «وبحب المرا الحبلى، مقياس جمال المرا هو الحبل، إيَّاك تصدّقي قصص النسوان، بيقولوا أن يلّي بتحبل بصبي بتتبشّع ويلّي بتحبل ببنت بتتحلّى، مش مزبوط، هيّاك حبلت بصبي وصرت أحلى. المرا الحلوة بتتحلّى لمن بتحبل، ممكن يعني تكون مريم العدرا تبشعت لمن حبلت بالمسيح؟ أنا قلت للراهبة ماري في شي غلط، العزوبية للرجال مستحبة، لأن المسيح مات أعزب، كانوا كلّ نسوانه إلهم إسم واحد، كان يسمّيهم مريم حتى ما يغلط بالأسامي، بيحكي مع واحدة كأنَّه عم يحكي مع الكلّ، اللّه يسامحني، لا.. أنا مش قصدي، بس لمّن شفتك واقفة هيك لوحدك، قلت هيدي مريم يللي اللّه بعتلي اياها، أنا لازم أروح على القدس، قلت باخدك معي، بس إنت لا، إسمك مش مريم، لازم غيّرلك إسمك».

رأته يقترب، «ما بدّي غيّر إسمي اللّه يخلّيك».

قال للراهبة إنَّ العزوبيّة مقبولة عند الرجال، لأنَّ المسيح عليه السلام لم ينجب أولادًا، أما النساء فشيء آخر، المرأة التي لا تمتلك تجربة مريم، أي التي لا تنجب لن تفهم سرّ الحياة.

أرادت ميليا أن تسأله عن سرّ الحياة، حين بدأ الرجل يقترب منها، أرادت أن تقول له إنَّها متزوجة، وإنَّ هذا لا يجوز، وإنَّها حبلى، لكنَّه صار إلى جانبها في السرير.

لماذا يقترب الراهب منها، ثمّ من أين أتى هذا الرجل إلى ليلها؟ أرادت أن تقول له إنَّ منصور على حقّ، وإنَّه رجل مجنون، وإنَّ الراهبات لا يعترفن بأنَّه راهب، حين رأت نفسها تغفو على سرير ضيِّق في بيت

حجري عتيق مبني فوق تلة شاهقة، وأحسَّت الراهب يقترب منها، اختلط نعاسه بنعاسها، وتسلَّقت أنفاسه الحارة عنقها. رأت نفسها في العراء، وأحسَّت ملوحة العالم، وشعرت به، قالت له أنَّه لا يجوز، «الحكيم قال يا منصور، إنت قلت لي يا حبيبي أنَّ الحكيم قال»، فأسكتها بكمّه الأسود، وشعرت أنَّ المياه تتدفق.

فتحت عينيها لتجد الفراش مبلولاً، التفتت إلى سرير منصور، فرأته محمولاً على أنفاسه العميقة، أرادت أن تنهض من السرير كي توقظه، فأحسَّت أنَّ الماء لا يزال يتدفق، وشعرت بالخجل، أغمضت عينيها كي تعود إلى النوم، فرأته يقترب وينام بكلّ ثقله على صدرها. صرخت به أن ينهض لأنَّه سوف يقتل ابنها، وسمعت منصور يلهث أمام سريرها وهو يسأل ماذا يجري.

«المي»، قالت، «كلّني مي».

«مية الراس، لازم نروح على المستشفى».

«لا .. مش اليوم»، قالت، «أنا رح خلّف بكرا».

انهضها من السرير، وقال لها إنَّه سيذهب لإحضار سيارة.

«اليوم لا، «قالت»، أنا مش رح خلّف اليوم، بعدين الدنيا عم بتشتّي».

«البسي بسرعة، وحضّري حالك، أنا رايح أجيب السيارة».

وكان الحقّ مع ميليا، المطر لم يتوقَّف عن الهطول، لكنَّها كانت تعرف أنَّها ستلد ابنها ليل الرابع والعشرين من كانون الأول، وأنَّ العلامة التي أحسَّت بها لم تكن مياه الرأس، بل كانت مياهًا أخرى.

هذا ما قاله الطبيب في المستشفى الطلياني. أعادها إلى البيت وطلب منها أن تنتظر الماء.

«بس المي يا دكتور، المي كانت كتيرة».

ابتسم الطبيب وقال لمنصور أن لا يخاف، وحذّره من النوم مع زوجته في أيام حملها الأخيرة.

«والله ما عملت اشي»، قال منصور.

أبدى الطبيب استغرابه، وقال إنَّ المعاينة التي قام بها تشير إلى أنَّ الرحم كانت نشيطة ليلة امس، «لكن لم يكن ذلك ربما سوى منام، الحمل يجلب المنامات عند النساء، وأن لا لزوم للخوف».

كانت نائمة في السرير عندما اقترب منها وطبع على جبينها قبلة، ثمّ مضى إلى سريره. رآها تجلس في سريرها، النور يشعّ من شعرها، والزيت يرشح من عنقها.

«تعا لحدّي»، قالت.

رأى نفسه ينهض من سريره، ويأتي ليجلس إلى جانبها.

«جيب قطن»، قالت.

نهض وذهب إلى درج الخزانة الخشبيَّة، أخرج لفافة قطن، وعاد.

«امسح الزيت عن رقبتي بالقطن، وخبّيهم للصبي»، قالت.

مسح الزيت، لكنَّ الزيت لا يتوقف عن التدفُّق، صارت لفافة القطن تخبّ كلّها بالزيت.

«بجيب بشكير»، سألها.

«ما في لزوم للمنشفة»، قالت، «بسّ لازم تعرف أنَّ هيدا الزيت للصبي، إذا دهنته بهالزيت بتحميه من الأمراض».

رأت شبحه في ظلام البيت في يافا. حماتها قالت أنَّ إقامتهم في بيت العائلة سوف تكون دائمة، «هدا بيت أبوه، حد بيترك بيت أبوه»، وشرحت لها أنَّ أسمى زوجة أمين سوف تبقى مع أولادها في غرفتها، لأنَّ الأولاد سوف ينتقلون من غرفة منصور إلى غرفة والدهم، وأنَّ ميليا وزوجها وابنتها سوف يقيمون في غرفة منصور، وأنَّ لا لزوم لبناء غرفة إضافية.

جاوبت ميليا «متل ما الله بيريد»، ونظرت إلى حماتها وقالت «صبي يا مرت عمي، يللي ببطني صبي مش بنت».

كانت ميليا متيقّنة قبل أن تحمل أنَّ الطفل سيكون صبيّاً، قامت بهذه الرحلة الطويلة من أجله، وحاولت أن تُفهم منصور بشتى الطرق أنَّ حبَّها له هو حب للطفل الذي في بطنها، وأنَّ المرأة لا تعيش في النهاية، إلاَّ قصة حب واحدة، هي حبّها لطفلها، لأنَّ العلاقة السريَّة التي تنشأ بين المرأة ورحمها لا تشبه أي علاقة أخرى.

لكنَّها تراه، يقف في الظلّ، في الممرّ المعتّم الذي يصل غرفة الطعام بالمطبخ في البيت اليافاوي، يقف واسمى تلتصق به، كأنَّه يحتضنها. المرأة القصيرة السمراء بجسدها المبروم الممتلئ، تتعلَّق بعنق منصور كأنَّها تتسلقه، ومنصور ينحني عليها ويغرق في عنقها. اقتربت منهما، سعلت كي تشير إلى أنَّها هنا، وأنَّ على منصور أن يتوقف، لكنَّه لم يسمع، صارت خلفه تماماً، ورأت كيف انقلبت عينا أسمى الصغيرتان المفتوحتان، كأنَّهما ذهبتا إلى مكان بعيد. رأت نفسها تمرّ بينهما، كأنَّها

شبح يستطيع اختراق الأبواب والأجساد، تستدير وتنظر إلى حياتها وهي تتلاشى من جديد مثلما تلاشت في منام نجيب، حين رأته يحتضن المرأة الأخرى، وفهمت أنَّ الرجل سوف يتركها.

قالت لهما إنَّه عيب، «الزلمة صار له شهر ميت، ما بتستحوا على حالكم»؟

كانا لا يسمعان أو يريان، كأنَّهما غرقا في بحر اللذات والأسرار، استدارت حتى صارت خلف منصور، أمسكت كتفيه وهزّتهما. ومن البعيد برز ثلاثة صبيان، إثنان متشابهان كمرآتين متواجهتين، والثالث أسمر بشعر مجعَّد وعينين خضراوين، اقترب الفتية الثلاثة من الرجل الذي يحتضن المرأة، وغابا بين الأقدام الأربعة المنشبكة. ركضت ميليا صوب الطفل الأسمر، كان منطرحًا على الأرض، والدم يسيل من عينيه. «يا ويلك من الله»، صرخت بمنصور، «مش شايف الصبي»، انحنت كي تحمل ابنها وتهرب به فصار كلّ شيء أسود، ورأت نفسها تسبح في مياه لزجة، والطفل الصغير الأسمر يفرفر كأنَّه يختنق. سمكة صغيرة يلتمع جلدها الرصاصي بالماء والملح، تشهق بالاختناق، تفتح عينيها وتغلقهما كأنَّها تطلب النجدة. ميليا تأخذ السمكة الصغيرة بين يديها، تسبح وسط أمواج عالية، ترى منصور يسبح حاملاً السمكة، وهي تقف على الشاطئ الصخري، وتحاول أن تغطي ثدييها الصغيرين بيديها. صرخت بشقيقها الصغير أن يأتي، «ما تتركه يا خيّي، هيدا ابني وأنا سمَّيته عيسى، وأنا لوحدي يا خيّي، روّج قبل ما يختنق الصبي». موسى اختفى، السمكة تصل إلى حيث تقف ميليا، السمكة تتَّخذ ألوانًا أرجوانية يتخلَّلها البياض، ترتفع إلى الأعلى ثمّ تطفو على وجه الماء.

اقترب منصور، أمسك السمكة الميتة ورماها في البحر. التفت صوب ميليا وأمرها أن تأتي معه إلى البيت في يافا.

«بس نحن بيتنا بالناصرة»، قالت.

«بيتنا صار بيافا، حملي أغراضك والحقيني».

فتحت ميليا عينيها على صوت الممرضة القصيرة، التي وقفت في مواجهتها، وسمعت صوت الممرضة الثانية من خلف ظهرها تقول إنَّ الولادة عسيرة، وإنَّ على الطبيب أن يفعل شيئًا.

«زيحوا عنها»، قال الطبيب، وسمعت صوتًا مبحوحًا خارجًا من أسفل الحنجرة، «ما تخافيش يا بنتي، أنا هون حدّك».

جاءت الراهبة، كانت الحاجة ميلانة كهلة وعمياء، جسدها يفيض من ثوبها الأسود، وأمامها ركعت امرأة ناصعة البياض، تلبس ثوبًا طويلاً أبيض، شعرها الأشقر يلتمع بأضواء الشموع، الراهبة تمسح رأس المرأة والمرأة تبكي، فيتناثر من عينيها ما يشبه اللؤلؤ الذي ينفرش على أرض الباحة الحجريَّة في كنيسة سيدة الرجفة.

ميليا الصغيرة تقترب وتقف خلف المرأة الجاثية، تنحني على اللؤلؤ تحاول التقاطه، والحبات الناصعة البيضاء تنزلق من يديها.

وخرج صوت الراهبة خشنًا، «ميليا يا حبيبتي، وين الصبي، لازم تكوني بالمستشفى، شو عم تعملي هون يا بنت»؟

«أنا بالمستشفى، منّك شايفتيني قدّيش عم بتوجع، بس إنتِ شو عم تعملي هون، ومين هي هالمرا الراكعة».

«هيدي المرأة الخاطئة يللي ركعت وغسلت إجرين المسيح بالعطر، وهي ناطرتك وناطرة ابنك».

«ناطرتني أنا»!

المرأة الشقراء تقف وتتقدَّم من سليم الجدّ، تأخذه بين ذراعيها، الراهبة تتلاشى كأنَّ صورتها امَّحت في الماء.

الجدّ الذي لم تره ميليا في حياتها، ينسلّ من بين ذراعي عشيقته، ويقترب من الفتاة الصغيرة ويحملها بين ذراعيه.

وقفت الراهبة ميلانة، مدّت يديها كأنَّها تتهدّى بالهواء، المرأة الشقراء تلبس مسوحًا سوداء، تقترب من ميليا وتبدأ في ضربها. أمسكت بشعر الفتاة القصير المجعّد، فاستطال الشعر، وصارت خصله تتناثر على الأرض. أحسَّت الفتاة أنَّ المرأة تريد أن تنزع شعرها كلّه بيديها.

«دخيلك يا حاجة ما بدّي موت».

وقفت الراهبة تتفرَّج، وبدأت ميليا الصغيرة تتدحرج على الأرض، وسمعت صوت القهقهة يخرج من حنجرة الراهبة، وصرخت «يا أمي دخيلك».

«إفتحي عيونك»، قال الطبيب.

فتحت ميليا عينيها لترى طانيوس، يمسك يدها ويقودها إلى العين.

«هون عين السيدة»، قال. «إشربي».

انحنت ميليا وشربت، شربت كثيرًا ولم ترتوِ، رفعت رأسها عن يدها المكوّرة بالماء الذي يتساقط من بين أصابعها، وقالت إنَّها لا تزال عطشانة.

«إشربي قد ما بدّك، بس رح تبقي عطشانة، لهون إجت مريم بعد ما صلبوا ابنها، وقفت مطرح ما إنتِ واقفة، وبكيت، ومن دموعها طلع النبع، انحنت فوقه وشربت من دموعها، وما كانت ترتوي، حدا بيرتوي من الدمع».

قالت الممرضة القصيرة إنَّ المرأة تبكي، وإنَّ دموعها تغطّي وجهها.

قالت لطانيوس إنَّها لا تبكي، «ليش بدّي إبكي، أنا عطشانة وعم بشرب، بسّ من شو هالعطش يا أبونا»؟

«هيدا عطش الحب، الحب بيعطّش، المرا بتعطش لأنَّها ما بتعود ترتوي قدّام ابنها، حدّ الصليب اكتشفت مريم العدرا العطش، وضلّت كلّ حياتها تشرب مي، كان عطشها بلا نهاية، لأنَّها ندمت».

«على شو ندمت»؟ سألت ميليا.

«ندمت لأنَّها لما مات يوسف النجار فكرت مرق القطوع، ما بقى في خطر، يوسف كان عايش بالمنامات والرؤى، قال لها أنَّه هو متل إبراهيم عليه السلام، وأنَّه رح يأسس شعب جديد. هيك مكتوب بالإنجيل السرياني يللي ورثته. الحقيقة مش عندي، الحقيقة بالكتاب، وصار لازم فرجيك الكتاب، بكرا مرّي عليّي على المغارة، وبقرالك».

«بس أنا ما بعرف سرياني»، قالت.

«مش مهم»، جاوبها طانيوس، «المهم أنَّ الكتاب بيقرا حاله، أنا هيك قدرت أقرأ كلّ شي. لمّن مات يوسف ارتاحت، بس المسكينة ما كانت عارفة، عرفت بالآخر، وكان يللي رح يصير صار».

ميليا لم تصدّق منصور حين أخبرها أنَّ الراهبات طردن الراهب اللبناني من الدير والكنيسة، «يعني معقولة يا مرا أنَّ راهب يعيش بين الراهبات، الراهبات ما بيشوفوا رجال إلاّ برّات الدير».

«بس هو قديس»، قالت ميليا.

«متل الراهبة يلّي خبّرتيني عنها، ويلّي دمَّرت حياة أمك، هيدي مش قديسة».

«لا هي قدّيسة، بس أنا ما بحبها، الواحد مش مجبور يحب كلّ القديسين، اللّه ترك له حرية الاختيار».

يقف الراهب إلى جانب نصف سرير حيث رفعت امرأة بيضاء قدميها، وحولها ممرضتان، وطبيب أشيب الشعر. ميليا الصغيرة تقف إلى جانب الراهب وتسأله من تكون هذه المرأة، وماذا يجري لها.

«هيدي إنتِ يا ميليا، لمّن تكبري رح تروحي على الناصرة، وتخلّفي ابنك الوحيد بالمستشفى الطلياني».

«بس بدّهم ياخدوني على يافا، وأنا ما بدّي روح».

«ما رح تروحي ما تخافي».

«وابني رح يضلّ معي»؟

«الله يحمي ابنك».

رأته، كان يمشي إلى جانب والده في أزقة الناصرة، فتى في الثانية عشرة، أكلت الرؤيا عينيه، يرتجف بالخوف وهو يستمع إلى والده يروي له حكاية إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسحق.

قال يوسف النجار إنَّ اللّه أراد أن يجرّب عبده إبراهيم، وعندما أطاع العبد أنقذ اللّه الابن من الموت. «وأنا أيضًا أراد اللّه أن يجرّبني بك، سمعت صوتًا يقول لي أن أقتلك، أنت لست ابني، فابن من تكون؟ أردت أن آخذك إلى الجبل وأقدّمك أضحية للّه، فإذا بالمنام يأتي ويقول لي إنَّ الملاك نفخ في أمك روحًا من اللّه».

في ذلك اليوم أحسّ يسوع الناصري أنَّه نجا من تجربة إسحق. كان يصاب بالعياء عندما يصل إلى حكاية إبراهيم وابنه الذبيح، ولم يكن قادرًا على تصديق الحكاية التوراتيَّة، بل كان يشعر في قرارة نفسه أنَّ الأب أخذ ابنه إلى الجبل وكبَّله وذبحه محرقة لإلهه، وأنَّ انبياء اليهود أعادوا كتابة الحكاية من أجل إنقاذ الفتى من والده.

قال منصور إنَّه لا يحب حكايات المسيح، «بزهق لَمّن بسمع الحكاية نفسها، شوفي الفرق مع الشعر، البيت فيك تعيده إلى ما شاء الله، وكلّ مرة بتنطرب، بسّ القصة ما فيك تسمعها إلاّ مرتين، تلاتة، وبعدين بتزهق، أنا قصص المسيح بتزهّقني، بس شو بدّي أعمل، خلقت مسيحي وهيّاني. والله لَمّن إجيت أسكن بالناصرة ما فكرت بالموضوع، بس خلص، ما في الواحد يعيش بمدينة الله. إحنا رايحين على يافا، المدينة يللي زارها أمير الشعراء، أحمد شوقي، وقعد بالمنشية، وحوله وجهاء المدينة وهو عم بيقول شعر.

قالت إنَّ الشاعر العربي القديم امتلك إلى جانب قصائده حكاية كانت أحد أسباب خلوده. قالت إنَّ الشعر لا يكتمل من دون حكايات الشعراء. «خود امرؤ القيس مثلاً، بشعره ما منعرف أنَّه ملك ابن ملك، وأنَّه مات منشان بنت القيصر يللي عشقها، وأنَّهم سمّوه أبو القروح، وأنَّه وأنَّه».

«من وين هالقصص كلها»؟

قالت إنَّها كانت تدرس في كتاب موسى كي تدرّسه، وإنَّه كان الأمل الوحيد، كان لازم ينجح بالبكالوريا حتى نقدر ناكل، نقولا وعبدالله تزوَّجوا اختين قالوا إنَّهم أمرا من آل أبو اللمع، اللَّه لا يورجيك ياهم، وما كان في إلاّ موسى، وأنا كنت حدّه كلّ الوقت، أحفظ وأدرس معه، حتى اللّه فتحها واشتغل بأوتيل بطبرية سنة كاملة قبل ما يلاقي وظيفة بشركة «شلّ»، ببيروت».

عندما أخبرته أنَّ موسى عمل في طبرية لمدة سنة، صار يغلي من الغضب، قال أنَّه اكتشف الآن أنَّه كان مخدوعًا، وسأل لماذا لم يخبره موسى بحكاية إقامته في فلسطين.

«شو بيعرفني»، قالت ميليا، «كلّ شي بعرفه أنَّ الصبي تغيَّر كتير بعد هالسنة يلّي قضاها هونيك، رجع وصار مدري كيف، وما عدت اقدر أحكي معه، وجن جنونه على خيّي سليم وقال أنَّه رح يقاطعه كلّ حياته».

لا تدري ميليا ماذا جرى لشقيقها هناك، كلّ ما تعرفه أنَّه اشتغل محاسبًا في فندق «الشاطئ» قرب بحيرة طبرية الذي يملكه لبناني من آل سلهب، وأنَّ الراهبة ميلانة أتت إلى المنزل بعد عودته كي تسأله إذا كان قد تذوَّق سمك المشط الذي كان يصطاده المسيح مع تلاميذه.

حكت الراهبة عن مذاق سمك لم تأكله، وعن عذاب الغربة الذي عاشه شاب في الثامنة عشرة من عمره، وفجأة وقفت وقالت أنَّها تشمّ رائحة الخطيئة. «مرّ عليّي على الدير يا ابني حتى تعترف».

من أين عرفت الراهبة بحكاية الفتاة الأميركيَّة التي عشقها موسى؟ قال موسى أنَّ القصة كلّها من اختراع الراهبة، «أنا لا عشقت ولا شي، كلّ ما في بالأمر أنّي متل كلّ الشباب».

الحكاية التي صدّقها الجميع لم تكن صحيحة، ميليا وحدها تعرف، ائتمنها موسى على سرّه وعليها أن تحفظ السرّ، ولن تبوح به لأحد. عندما استمعت إلى حكايته مع سوزان ابنة القسيس يعقوب جاموس، شعرت كيف تصير الكلمات كائنات حيَّة ترتجف بالرغبة، ويشتعل فيها الوجد.

حدّثها عن الغرام، فقالت له أنَّ هذا ليس غرامًا، إنَّه مزيج من العشق والوجد، وروت له عن الشاعر جميل بن معمر الذي غيّر إسمه ليصير إسم حبيبته لقبه، فصار يدعى جميل بثينة لأنَّه كان يعتقد أنَّ عشقه لن يموت بموته، وأنَّ صداه سيتبع شبح محبوبته بعد موتهما.

«بس أنا مش هيك»، قال موسى، «أنا مش مجنون متل الشاعر تبعك. في متل حريق بقلبي، تركت طبرية ونسيت القصة، حتى شكل البنت ما بقى أتذكَّره، بس الحرقة بعدها هون، بتطلع من قلبي على حنجرتي وبحس أنّي رح اختنق».

روى لها عن فتاة نجلاء العينين في السابعة عشرة، كانت تأتي إلى فندق «الشاطئ» ظهر كلّ يوم أحد، وتتغدّى مع والدها القسيس سمكًا مقليّاً. القس الذي يعتمر طربوشًا أحمر، ويلبس فوق قميصه الأبيض ياقة سوداء للدلالة على رتبته الدينيَّة، يشرب النبيذ الأبيض المثلج، ويستغرق في الحديث مع ابنته، ولا يزيح نظراته عن عينيها البنيتين.

عندما رآها موسى للمرة الأولى افتتن بها. كانت كل فساتينها بنية أو تميل إلى اللون البني، ممشوقة القوام، رفيعة الخصر، أنفها صغير ومنمنم، وشفتاها رفيعتان، وتتلفت طوال الوقت كأنَّها تبحث عن شخص تنتظره.

اهتدى القسيس يعقوب جاموس إلى المسيحية في اميركا. فهو ينتمي إلى عائلة يهوديَّة أقامت في صفد منذ أواسط القرن التاسع عشر، عشق سائحة أميركيَّة تكبره خمسة عشر عامًا ولحق بها إلى مدينة بورتلاند، حيث تزوَّجها في كنيسة بروتستانتيَّة تتبع طائفة السبتيين، وهناك اعتنق دينه الجديد ودرس اللاهوت، واشتغل في التجارة والتبشير مع شقيق زوجته. عاد الرجل إلى بلاده بعد وفاة دورثي زوجته. جاء مع ابنته الوحيدة سوزان ليعيش على المساعدات التي كانت ترسلها بعثة الأدفنتست الأميركيَّة التبشيريَّة، لأنَّه صار قسيسًا بلا رعية ولا كنيسة. أقرباؤه تبرأوا منه، والعرب لم تفوهم مسيحية تقدّس يوم السبت مثل اليهود. المجموعة الأورثوذكسيَّة في طبرية التي تحوَّلت إلى البروتستانتيَّة كانت تتبع المرسلين الأميركيين وكنيستهم المشيخية. وكان على رأس تلك الكنيسة في طبرية قسيس سوري الأصل يُدعى عبدالله صايغ عُرف بتعصُّبه للعرب وكرهه للهجرة اليهودية. قاد القسيس عبدالله حملة شعواء على القسيس يعقوب متهمًا إيَّاه بالشعوذة ومنع أفراد رعيته من التكلُّم معه لأنَّه ليس مسيحيّاً، بل لا بدّ أن يكون جاسوسًا صهيونيّاً يعمل من أجل تمزيق الطائفة المسيحيَّة الفلسطينيَّة.

رعيته الوحيدة كانت ابنته الجميلة التي لم تكن تتكلَّم سوى الإنكليزيَّة.

لم يتسنَّ لموسى أن يتكلّم مع سوزان كي يكتشف أنّها لا تعرف العربيّة، كان يراها كل أحد، ويتعمّد أن يتّخذ لنفسه طاولة تسمح له بأن يكون في مواجهتها. يطيل النظر في عينيها البنيتين، وحين ترفع نظراتها إليه يبدأ معها حوارًا سريّاً صامتًا. فتنة الفتاة كانت في ابتسامتها الشاردة، كأنَّ الابتسامة تفرّ من شفتيها من دون إرادتها، وحين تستعيدها تقفل حاجبيها، وتنظر إلى الأرض، وتتوقف عن الأكل.

والدها كان مختلفًا. الرجل المنبوذ في بيئتيه القديمة والجديدة لا يبالي، يحشو فمه بسمك بحيرة طبرية، ويدردش مع الجميع، وحين لا يردّ عليه الناس يتابع حديثه المنفرد معهم بلكنته الفلسطينيّة الغريبة.

موسى لم يكن مهتمًا بسمعة الرجل الغامضة، وتهمة الجاسوس التي التصقت به، كان مأخوذًا بطلة الفتاة، التي ما إن يسمع حفيف قدميها على أرض المطعم حتى يبدأ قلبه في الخفقان. كان ينتظر يوم الأحد من أجلها، يعدّ أيام الأسبوع، وحين يصل إلى ليلة السبت يبدأ في عدّ الساعات. يسهر في انتظارها، وينام من أجل أن يستعجل الصباح، وحين تأتي مع والدها يحار ماذا يجب أن يفعل من أجل أن يستحوذ على انتباهها. يجلس في مواجهتهما، يطلب سمك مشط مقلي مع فطائر الزعتر الأخضر، يصب كأسًا من العرق يمزمزها على مهل، ويسبح في عينيّ الفتاة، ولا يأكل. ومرت الأيام، ولم يجد موسى وسيلة للكلام مع حبيبته، إلى أن وجد القسيس يعقوب الحلّ.

بعدما فرغ من التهام طبق سمك المشط أمامه، وتحلّى بدبس الخرنوب الممزوج بالطحينة، التفت القسيس إلى الشاب اللبناني وسأله لماذا لا يأكل، وقبل أن يستمع إلى الجواب نهض القسيس من مكانه،

واقترب من طاولة موسى، أمسك سمكة بيده وباركها وأمره أن يأكل. «الآن يا ابني تستطيع أن تأكل كما تشاء، فالطعام لن ينضب، لأنَّ أدوناي عليه السلام بارك هذا البحر الذي اسمه بحر الجليل بقدميه المقدستين، هل تعرف أنَّ أدوناي مشى هنا على وجه الماء ولم يغرق، مشى ومشت الأسماك حوله، كان المسيح يمشي على الماء وهو ينحني على السمك ويباركه، لذا لن يفرغ بحر الجليل من الأسماك حتى نهاية الدهر».

تكلَّم القسيس وأكل، وطلب من ابنته أن تجلس معه إلى طاولة موسى. جلست الفتاة ونظرت إلى الأعلى كأنَّها ليست من هذا العالم. واكتشف موسى السرّ. قال لشقيقته إنَّ الفتاة لم تكن من هذا العالم. قال إنَّه قابلها ثلاث مرات بعد لقائه القصير بها في المطعم. ذهب إلى أمام منزلها وانتظرها. وعندما مشت مشى خلفها، ثم اقترب منها، ومشى إلى جانبها. ردَّت الفتاة على تحيته بإحناء رأسها. قال لها عن جمالها، وسألها إذا كانت على استعداد لتأتي وتعيش معه في لبنان، قال إنَّه أحبَّها من النظرة الأولى، وقال إنَّه يعرفها من صوت حفيف قدميها على الأرض. رفعت يدها إلى الأعلى مودعة واختفت في دهليز صغير يوصل إلى حمّام النساء. بعد يومين من هذا اللقاء، وبينما كانت الفتاة تجلس إلى مائدة والدها في فندق «الشاطئ» امتلك موسى الجرأة كي يتقدَّم مادّاً يده اليمنى إلى القسيس، ثم التفت إلى الفتاة ومدَّ يده، واصطبغ وجهه باللون الأحمر وهو يسألها عن رأيها في الحمام التركي الذي ذهبت إليه. سوزان لم تجاوب، لكنَّ القسيس ألقى محاضرة عن أهميَّة الحمامات العربيَّة في صوغ الثقافة الأندلسيَّة، وقال إنَّ اليهود والعرب المسلمين كانوا يتحممون معًا في قرطبة وغرناطة، وإنَّ التسامح هو الماء، لذا فإنَّ جوهر المسيحيَّة هو المعموديَّة، المسيحيَّة الكاثوليكيَّة لم تفهم هذا،

لذا قام القشتاليون بتدمير الحمّامات وإحراق الكتب، بعد احتلال الأندلس. «هذه هي الهمجيَّة يا ابني لماذا لا تأتي للصلاة في كنيستنا»؟

المرات الثلاث التي رأى فيها موسى حبيبته الغريبة كانت متشابهة، بحيث لم يجد ما يرويه لشقيقته. يتبعها، يمشي إلى جانبها، يحكي ولا يستمع إلى جوابها ثم تختفي في الزقاق الموصل إلى الحمّام.

اختفت سوزان.

صار القسيس يعقوب يأتي وحده إلى المطعم، وبدل النبيذ الأبيض صار يشرب العرق. ضحكته المجلجلة اختفت، وارتسمت على وجهه خيوط الأسى. موسى ينهض ويقترب من طاولة القسيس كي يسلّم عليه، لكنَّ القسيس لا يرفع عينيه عن السمك المقلي في صحنه. يمضغ السمك ويشرب العرق وتتغضّن عيناه كأنَّه على وشك البكاء.

لم يجرؤ موسى أنَّ يسأل عن حبيبته. اختفت الفتاة ولم يعد الانتظار أمام البيت مجدياً، وبدل أن يكون يوم الأحد يومًا لفرح اللقاء، صار مشهد السمك المقلي يثير في نفس موسى شعورًا بالخوف والتقزز. توقف عن أكل سمك المسيح، وصار يكتفي بالجلوس في مقهى فندق «الشاطئ» وتأمل مياه بحيرة طبرية الساكنة، والشعور بالوحدة.

القسيس روى له.

اقترب القسيس من طاولة موسى واستأذن بالجلوس، وبدأ يحكي. سأل موسى لماذا لم يسأل عن سوزان التي يحبها. تلعثم موسى ولم يدرِ ماذا يقول، فأخبره القسيس أنَّ الفتاة عادت إلى أميركا، وأنَّها لم تستطع أن تتأقلم مع الحياة في الأرض المقدَّسة. رفضت أن تتعلم العربيَّة، أما

الكلمات العبريَّة التي تعلَّمتها في أميركا فقد نسيتها. قالت لوالدها إنَّها منذ أن وطئت قدماها هذه البلاد وهي تشعر بالخوف. قالت إنَّها لا ترى في مناماتها سوى كوابيس عن الموت، وإنَّها تكره هذه البلاد، وتريد أن تهرب منها وتعود إلى بورتلاند. قال القسيس إنَّه حاول أن يقنعها بالبقاء بشتى الوسائل، وإنَّه حدّثها عن موسى. «قلت لها إنَّك بتحبها وإنَّ الحب هو باب الحياة»، لكنَّ الفتاة كانت مصممة، وأنا لا أعرف ماذا سأفعل بحياتي هنا، العرب ينظرون اليّ بوصفي يهودياً واليهود يقولون إنَّني خنت دين أجدادي، أنا أيضًا سوف ألحق بابنتي وأعود».

قال موسى إنَّه أصيب بالذهول عندما استمع إلى اقتراح القسيس بأن يأتي معه إلى بورتلاند، «الشغل كتير بأميركا، بتدخل معنا بالكنيسة، وبتصير واحد من الأخوة وبزوّجك سوزان، شو رأيك»؟

احتار موسى ماذا يقول، هل يقول إنَّه فهم الآن أنَّ الفتاة لم تفهم كلامه، وأنَّها سافرت من دون أن تدري كم أحبَّها، أم يقول إنَّه لا يحب هذه الأديان الجديدة، وإنَّه يكفيه من دينه حبوب القطن بالزيت التي أجبرته أمه على ابتلاعها صغيرًا، أم يقول إنَّه لا يحب سمك المشط، وإنَّه لم يحبه مرة، بل كان يأكله من أجل القسيس وابنته، لأنَّ السمك الحقيقي هو «السلطان إبراهيم»، سمك ملوّن بالمرجان والشمس والملح، وأن لا شيء يعلو سمك البحر المالح، وأنَّ هذه البحيرة التي شهدت حكاية المسيح صارت مملة، وأنَّه يريد العودة إلى بيروت حيث ينام ملء جفونه لأنَّ رطوبة البحر ورائحة الملح تحمله إلى النوم الحقيقي.

قال موسى إنَّه أحسَّ بالخديعة، ورأى نفسه في صورة مغفّل سحرته فتاة أميركيَّة برائحة اللون الأبيض الذي يشع من ذراعيها. قال إنَّه

نظر في عينيّ القسيس المغمضتين، كان القسيس يغمض عينيه حين يتكلم، كأنّه يستدعي الشياطين التي كانت توشوش في أذنيه، فأحسّ بالخديعة. كأنّ الفتاة الجميلة التي أغوته برائحة الحمّام لم تكن إلاّ وهمًا.

سأله القسيس لماذا حاول أن يفضّ بكارة ابنته؟

قال إنّ الفتاة أصيبت بصدمة بعد لقائها بموسى، وإنّها أحبّته، قالت لوالدها إنّها عشقت الشاب اللبناني الذي كان يقف طوال النهار على المنعطف في انتظارها، لكنّه لم يتكلّم معها. «كأنه اغتصبني»، قالت الفتاة لوالدها، «أتى إلى البيت، أنا دعوته إلى هنا، إلتقيت به ثلاث مرات، كان يرافقني إلى الحمّام، ويجلس على حافة الشارع في انتظاري، وعندما أخرج يقرب وجهه من شعري ويشمّ الرائحة كأنّه يتنفسني، ثم يمضي. في المرة الثالثة وبعدما شمّ رائحة شعري وبرم ظهره استعدادًا للعودة إلى الفندق حيث يعمل، أمسكته من يده وجرّيته معي إلى البيت، كان كالخائف، وكاد أن يقع أكثر من مرة. لكن ما إن دخل إلى البيت ورأى أنّك لم تكن هنا حتى هجم عليّ يريد تمزيق ثيابي. كنت أريده، فلماذا فعلها بهذه الطريقة، أحسست أنّني أنجرح وأنّني أريد أن أبكي، احتضنني ثمّ فرّ هاربًا، أنا لا أفهم، أحسست أنّني أكرهه، وأنّني لا أريد البقاء هنا لحظة واحدة».

«أنا لا»، قال موسى، «هي اخترعت القصة، والقسيس بدأ يصرخ في مطعم الفندق حتى فضحني».

لم يروِ موسى إلاّ شذرات من حكايته لشقيقته، كان كمن أصيب بفقدان الذاكرة، لا يذكر من الحكاية إلاّ أنّه لم يكن يعرف أنّ الفتاة لا تتكلم العربيّة، «الحقّ على بيّها، كان يقعد معي على الطاولة هو وبنته،

وكنّا نحكي عربي، صحيح هي ما كانت تحكي، بس كانت كأنّها عم تفهم، تهزّ راسها وتضحك لمّن بيّها يضحك، كأنّه كلّ شيء على ما يرام، ولمن مشيت معها كانت تهزّ راسها كأنّها عم تفهم كلامي بس ما كانت تحكي، قلت يمكن هي هيك، هيدول المتجدّدين والسبتية وهالشيع الدينيّة يللي جايتنا من أميركا، يمكن عندهم المرا ما بتحكي مع الرجّال إلاّ لمن بيتزوجه، اللّه أعلم، بس هو مجنون، البنت هربت منه مش مني.

مدير الأوتيل اللبناني الخواجة سلهب قال لي إنّه قرّر يمنع القسيس يجي على المطعم، لأنّه صار كل أحد يسكر ويتخانق مع الزبائن، بعدين مش حلو هيك، رجل دين وسكران، لا أنا ما بدّي ياه عندي، هلّق بيني وبينك كيف طعمة البنات الأميركان»؟

قال موسى أن لا أحد صدّقه، كلّهم ادّعوا أنّهم صدّقوه، لكنّه قرأ الغيرة في عيونهم، كأنّه نام فعلاً مع الفتاة، وانتهى به الأمر إلى تصديق الحكاية، بل إنّه سيقوم بروايتها إلى ابنه اسكندر، الذي يعمل محرّرًا في جريدة «الأحرار» البيروتيّة، حين كان موسى قد صار في السبعين. سأل الابن والده عن حقيقة علاقة ماريكا بالمطران، فما كان من موسى، إلاّ أن بدأ في رواية حكاية إقامته في طبرية حين كان في الثامنة عشرة، روى كيف احتضن الفتاة الأميركيّة التي لم تقل كلمة واحدة، ثم شعر بالهرب. قال إنّه لم يقرّر مغادرة المكان، بل رأى نفسه هاربًا لأنّه لم يكن مستعداً لما حصل. «توقعت كلّ شيء إلاّ هذا، رأيت نفسي من دون أن أدري وقد صرت في داخلها، وأصبت بالرعب، لا أذكر سوى خوفي وشعوري بالوحدة وأنا أستمع إلى صوت استغاثتها».

«يعني القصة مزبوطة»، سأله الابن.

«ما بعرف، أكيد القسيس ما قال الحقيقة، لا مش هيك، بعدين اكتشفت كيف بتكون الإشيا، رفضت روح مع الشباب على تل أبيب، قالوا هونيك البارات والحريم، أنا ما رحت ولا مرة، بعدين تعلَّمت الإشيا ببيروت مع واحدة حلبية، ما بتذكر إسمها، بس هيك كانت الدنيا على أيامنا، كان الواحد ما في يعمل شي إلاّ بسوق الشراميط، هونيك تعلّمنا، بس البنت الأميركانيّة بطبرية كانت قصة حب، وهي نزعتها، يمكن هي ما خصّها، أبوها مجنون وهو اخترع قصة الاغتصاب وما إلى ذلك، بس المشكلة كانت الراهبة، الراهبة قالت أنَّها شمّت ريحة الخطية، وأمي اللّه يرحمها صار بدّها ياني روح على الكنيسة وأعترف، وأنا ما كان عندي شي حتى أعترف فيه، شو بدّي قول، المهم أنَّه الوحيدة يلّي وقفت معي وقالت لأمي تحلّ عنّي كانت أختي ميليا».

نظر موسى إلى الصورة المعلَّقة على الحائط، وبدأت دموعه تنهمر على خديه.

«ليش عم تبكي يا موسى يا حبيبي»، صرخت ميليا.

كانت المرأة المستلقية على ما يشبه السرير تئنّ. الممرضتان تقفان حولها، والطبيب يتأفَّف.

«هيك مش رح يمشي الحال» قال الطبيب.

قالت الممرضة الأولى إنَّ هناك مشكلة.

قالت الممرضة الثانية إنَّ وجه المرأة يتلّون بالأزرق.

اقترب الطبيب الإيطالي من النافذة، شقّ الزجاج واستنشق الهواء. سألته الممرضة الكهلة ماذا عليها أن تفعل، لكنَّه بدل أن يجاوبها

التفت إلى الممرضة الثانية وقال بصوت منخفض إنَّه لا يفهم ماذا يجري. اقتربت الممرضة الصبية وسألته ماذا قال، فأجاب لا شيء.

لم يكن الطبيب إيطالياً مثلما اعتقد منصور. لقب الطلياني علق به لأنَّه درس في إيطاليا، وعاد مع زوجة إيطاليَّة جميلة سلبت لبّ سكان الناصرة، وكانت ريتا تُعتبر رمز الجمال في المدينة الصغيرة المكتظة بالأديرة والكنائس والرهبان والراهبات. فصار غسان الحلو يسمّى الطلياني نسبة إلى زوجته الغريبة الأطوار التي كانت تحمل مظلة بيضاء صيفًا وشتاءً، وتمشي في ازقة الناصرة باحثة عن أعجوبة الحمل. بقيت أربعة أعوام من دون أن تحبل وفي العام الخامس سافرت إلى بلادها ولم تعد. لكنَّ الطبيب لم يعترف بحقيقة أنَّ زوجته لن تعود. كان يتكلَّم عنها كأنَّها سافرت في زيارة قصيرة إلى أهلها، وستعود في الأسبوع المقبل. وبقي ينتظرها أو هكذا ظنَّ الجميع، ومرت الأشهر والأعوام، وظلّ الرجل يردّد الكلام نفسه كلَّما سئل عن زوجته الطليانيَّة التي تقوم بزيارة قصيرة إلى والدتها المريضة. صار الطبيب يمشي في شوارع المدينة حاملاً مظلة زوجته البيضاء، يمزج العربيَّة بالإيطاليَّة ويتابع عمله كأول طبيب نسائي عرفته الناصرة.

انحنى الطبيب على الممرضة الصبية التي سمّتها ميليا وديعة الثانية فخرجت من فمه رائحة السجائر، أشاحت الممرضة وجهها، التفتت إلى الطبيب ورفعت إصبعها في وجهه كي تقول له أنَّ عليه أن يتوقف عن التدخين. حين سمعت ما يشبه الأنين، انحنت على المرأة الحامل فسمعتها تتكلَّم شيئًا عن البكاء.

«شو القصة يا حكيم»، قالت.

«والله ماني عارف»، أجابها، «غريب، كلّ شيء طبيعي، كأنّها خايفة».

«يلله يا حبيبتي راح الكتير وما بقى إلاّ القليل»، قالت الممرضة.

انشقت أهداب ميليا، وخرجت دمعة جانبيّة من عينها اليسرى، وقالت لموسى أن لا يبكي.

«ما تبكي يا حبيبي، هيدا منام، بس تفتح عيونك بيرجع كلّ شي لمطرحه، وبتكتشف أن ما في شي بيخوّف».

لكنَّ موسى لم يفتح عينيه، كان الفتى الصغير يتململ في الفراش إلى جانب أخته، والمنامات ترفرف حول عينيه. رأته قادمًا في الظلام، كان موسى الصغير يجرجر قدميه الحافيتين على بلاط الليوان، ويتقدَّم صوب سرير شقيقته. بيجامته الخضراء المقلّمة تتمايل تحت ظلال القمر الفضيَّة التي تتسلَّل من النافذة، يمشي كأنَّه يدفع جذعه إلى الأمام. أفسحت له ميليا مكانًا إلى جانبها في السرير، مدّت ذراعها اليمنى كي يضع رأسه عليها ويستسلم للنوم، لكن الفتى ارتمى على سرير شقيقته، تقوقع على نفسه وغرق في النوم. سحبت ميليا ذراعها، برمت إلى الجهة اليسرى، أغمضت عينيها، ورأت نفسها تتسلَّل إلى منام شقيقها.

كان موسى جالسًا في حديقة المنزل ينفخ دخان سيجارته ويفكّر في الحكاية التي لم يعرف كيف يرويها لأحد. شعر بعد عودته من طبرية أنَّه لم يعد يعرف ماذا يريد من هذه الحياة. أمه سعدى تئن بالأوجاع، لكنَّها بعد زواج ابنتها وسفرها إلى الناصرة صارت مضطرة للاهتمام بالبيت والعائلة. سليم ذهب إلى حلب آخذًا معه نجيب إلى ضيافة النجار الحلبي الذي تخلّص من ابنتيه دفعة واحدة. نقولا

وعبدالله حوّلا دكان الوالد إلى معمل للتوابيت، تزوّجا شقيقتين من آل أبي اللمع، ويتصرفان كاميرين أحمقين، لأنّهما يصاهران عائلة ورثت لقب الامارة من الزمن العثماني، لكنّها تعيش في فقر الكبرياء. فهم أنّ الوالدة المريضة سوف تكون من نصيبه، لأنّ أشقاءه غادروا البيت. كان موسى على اقتناع بأنّ انهيار العائلة تمّ بسبب حماقة سليم وخبث أمه. لم يصدّق أنّ أمّه كانت بريئة من تلك اللعبة التي قام بها سليم بحيث أضاع حظ شقيقته في الزواج حين أقنع نجيب بأنّ زواجهما من الشقيقتين الحلبيتين الغنيتين هو الحلّ لمشكلة الفقر التي لا مخرج منها. عندما انتفض نقولا وقال إنّه سيقتل شقيقه الكلب، نظر موسى إلى امه كأنّه يتّهمها. الأم قالت إنّها لم تكن تدري، لكنّ موسى كان متأكّدًا من أنّها باركت خطوة ابنها البكر. وفي النهاية، وبعد زواج موسى من أدال نعمة وإقامته في البيت العتيق، قرّرت الأم أن تنتقل للإقامة وحدها لأنّ أدال لم تستطع أن تحتمل لعبة المرض الدائمة، ولأنّ سعدى كانت لا تريد لنفسها أن تنتهي مثلما انتهت حسيبة، وسط الكراهية والخوف وفقدان الذاكرة. استأجر موسى لأمّه شقة قريبة من الدير حيث أقامت وحدها في صحبة القديسة التي بدأت المياه الزرقاء تأكل عينيها، فصارت تسبح في عالم البخور الأزرق الذي جعلها تشعر أن القديسين يحوطون بها من كلّ جانب.

أرادت سعدى أن تأخذ معها صورة ميليا إلى بيتها الجديد، لكنّ موسى رفض، الحقيقة أنّه لم يرفض، قال «تكرم عينك يا أمي»، أنزل الصورة من مكانها في الحائط وأعطاها لسعدى. انحنت سعدى على الصورة ولفّتها بأوراق صحف قديمة، وكان موسى يبحلق في الفراغ الذي

ارتسم على الحائط ويبكي. نظرت إليه أمه مستغربة، «قول أنَّ ما فيك تفارق الصورة، لا يا حبيبي ما بدّي ياك تبكي، أنا ما بقى بدي الصورة، إذا كنت رح تزعل بها الطريقة». انحنت الأم على الصورة المغطاة بأوراق الصحف وفكّتها. تسلّقت السرير من أجل أن تعيدها إلى مكانها.

«إنزلي، إنزلي»، صرخ موسى، «أتركيها على التخت».

تركت سعدى الصورة على السرير، وغادرت إلى منزلها الجديد.

لم يقل موسى لأمّه أنَّ ما أبكاه لم يكن إنزال الصورة ولفّها بورق الصحف. لقد وعد ابنتيه أنَّ غرفة الليوان، سوف تكون لهما. وكان مقتنعًا بأنَّ الفتاتين المراهقتين سوف تملآن حائط الليوان بصور عبد الحليم حافظ وداليدا وغيرهما من الفنانين الذين اجتاحوا مخيِّلة أبناء مدينة دخلت في الحداثة وفي العادات الجديدة من دون مقدّمات. وكان من الطبيعي بالنسبة إليه أن تنزل صورة ميليا عن الحائط. لذلك عندما طلبت الأم الصورة شعر بالارتياح، أنزلها بطيبة خاطر وأعطاها لأمه التي لفّتها بأوراق الصحف. لكنَّه حين نظر إلى الفراغ الأبيض الذي تركته الصورة شعر بالخوف. رأى ما يشبه صورة شقيقته مطبوعًا على الحائط، ارتسمت العينان اللوزيتان بظلال الضوء الذي يشع منهما، وتحوَّلت ملامح الوجه نُتفًا صغيرة رمادية تنتشر فوق الحائط المتقشر.

«الصورة التصقت بالحائط»، أراد أن يقول لأمّه. لكنَّها لا ترى، ولا تريد أن ترى. فلماذا يقول؟

«الحقّ على خيّك سليم»، قالت سعدى.

أراد موسى أن ينفجر صارخًا في وجه هذه المرأة التي حوَّلت حياته وحياة زوجته جحيمًا بطقوسها الدينيَّة اليوميَّة التي لا تطاق، لكنَّه

لم يصرخ، ولم يقل لها أنَّ الحقّ عليها وأنَّه لولا تواطئها مع سليم لما حصل ما حصل. لم يكن الابن البكر شجاعًا بما فيه الكفاية كي يتَّخذ قرار الهجرة إلى حلب والتخلّي عن دراسة الحقوق في الجامعة اليسوعية، لولا تشجيع أمّه. هذا هو افتتاع موسى الذي لم يتغير.

جاء سليم لزيارة أمه بعد عشرة أعوام، فقالت الأم عفا اللّه عمّا مضى، دعت أولادها إلى مائدة كبيرة أقامتها على شرف سليم وزوجته السمينة. بكى الجميع وهم يعانقون شقيقهم الكبير الذي لم يصبح محامياً بل عاد إلى مهنة أبيه. كلُّهم سامحوه ما عدا نقولا. حتى موسى غفر واستغفر وبكى. وجده نقولا بطربوشه الأحمر وجسده الضخم وعينيه الجاحظتين رفض تقبيل شقيقه.

قالت الأم إنَّها عودة الابن الضال، «إذبحوا العجل المسمّن يا أولاد وتعالوا إلى مائدة المحبة».

لكنَّ سليم جاء إلى بيروت من أجل أن يبحث أمر عودته إلى العمل مع شقيقيه نقولا وعبدالله، قال إنَّ الشغل ليس ماشياً في حلب، وإنَّه يتمنّى العودة للعمل في دكان والده.

«يعني جايي بعد هالعمر تطالبنا بالورتة»، صرخ نقولا، «يا عيب الشوم، دبحتنا ودبحت أختك، وهلّق جايي تطالب، إمشي من هون».

سليم لم يمشِ، وقف نقولا وغادر المكان، التفت إلى أمه وقال، «من وقت ما راحت ميليا ما عدنا أكلنا أكل بينبلع عندك».

موسى لم يهتمّ بحديث الدكان والدين، كان ينظر إلى شقيقه الكبير كالمشدوه. كانت ملامح وجه سليم قد استطالت، وغزا الشيب

رأسه، وصارت شفتاه رفيعتين، بينما غارت عيناه في محجريهما. صار نسخة عن أبيه، من يشاهده اليوم يشعر أنَّ يوسف عاد إلى الحياة من جديد. نقولا حسم النقاش رافضًا عودة أخيه للعمل معه في الدكان، عبدالله كان مرتبكًا كأنَّه لا يفقه ماذا يجري وموسى كان يتأمَّل كيف تحوَّل شقيقه الكبير نسخة طبق الأصل عن والده، وسمع الجميع صوت سليم المتحشرج وهو يقول: «الحقّ عليكِ إنتِ يا أمي، إنتِ قلتِ لي روح ولا يهمك، وميليا اللّه بيدبّرها».

فجأة خيّم الصمت على الجميع، كأنَّ كلمات سليم التي جاءت بصوت يشبه الهمس انفجرت في المكان.

«إنتِ! إنتِ هيك قلتِ لسليم»؟ سأل موسى.

«أنا لا، أنا ما بتذكّر».

«إنتِ! إنتِ يللي شحّرتِ البنت، وبعتيها على بلاد عم تحترق»؟ قال موسى.

بكت سعدى، وارتفع الشجار، عبدالله شتم أمه وأخاه الكبير وقال إنَّهما حطما حياة شقيقته من أجل لا شيء.

وبدأت عوارض المرض، احمرّ وجه سعدى، صارت عاجزة عن التنفُّس، عبدالله ركض كي يستدعي الطبيب، بينما دخل موسى إلى غرفته وأقفل الباب، وقرَّر أن لا يتكلم مع أمه بعد اليوم.

لكنَّ هذا النوع من القرارات العائليَّة سرعان ما سوف يتلاشى، سليم عاد إلى بيته في حلب وانقطعت أخباره من جديد، وها هو موسى يساعد أمه على ضبّ أغراضها من أجل الانتقال إلى البيت الذي

ستموت فيه، وصورة ميليا سوف تبقى معلّقة في مكانها لأنّ الحائط رفض أن يتخلى عنها.

«تعا يا موسى يا حبيبي، تعا نام حدّي وما تبكي».

رأته، كان موسى يتململ في فراشه، وظلال المنام يحوم على عينيه، يجلس وحيدًا على حافة بحيرة طبرية. فجأة قفز الموج إلى عينيه، صعد بحر الجليل إلى الأعلى، وغمر بياض الزبد الأفق، وارتفعت الأمواج، وبدأ المطعم يتهاوى تحت ضربات الأمواج العاتية. موسى في قارب صغير يتلاعب به الموج والريح، وفي البعيد وقفت ميليا. الطفلة الصغيرة تمشي على مياه البحيرة. تمشي فوق الماء وتمدّ ذراعيها، تبدو من البعيد مثل عصفور صغير يفرد جناحيه كي يطير، لكنّه يتخبّط في الأمواج، يعلو ويهبط، يظهر ويختفي، يقترب ويبتعد. ميليا الصغيرة تترنح تحت شهقة الموج، حبيبات المياه البيضاء تغطيها. منصور يمسك بمجذافي القارب ويحاول أن يجذف بكلتا يديه من أجل أن يصل إليها. بدأت الفتاة تبتعد، ابتلعها الماء، ولم يستطع صوت موسى أن يأمر البحر بالسكون. جلس موسى وحيدًا في الجانب الغربي من مطعم فندق «الشاطئ»، كان وحده وسط الأرض الخشبيّة التي تمتدّ كلسان في البحر، وتجعل الجالس في المطعم يشعر كأنّه في سفينة بلا أشرعة. المكان فارغ، لا صوت سوى هدير موج خفيف يضرب الأعمدة الخشبيّة التي ارتفع المطعم فوقها. أخذ موسى لقمة من سمكة مشط عريضة مبتلة بالملح والليمون، وبدأ يمضغها، وأحسّ بالدوار، ورأى كيف تساقطت أسنانه. لم يشعر بها إلاّ وهي تنهار دفعة واحدة. اعتقد في البداية أنّ فمه امتلأ بالحسك، احنى رأسه فوق الصحن وبصق، لكنّه

شعر بخديه كأنَّهما يتلاصقان، وصار فمه مثل فجوة مفتوحة، ورأى. نظر موسى إلى الصحن فرأى كيف تساقطت أسنانه كلّها، مدَّ يده، التقط الأسنان وبدأ يحاول إعادتها إلى فمه، وشعر بالألم. صار فمه كتلة من الأوجاع، أراد أن يصرخ، نظر إلى ماء البحيرة كي يقول لميليا إنَّه يشعر بألم فظيع، فلم يجد البحيرة، اختفى الموج، ورأى نفسه في العتمة. كلّ شيء غارق في ظلام الليل، والليل يلتصق بجسمه. حاول أن يفتح عينيه، فلم يستطع، كانت عيناه مغلقتين بما يشبه الشمع، وشمّ رائحة البخور. انتفض الرجل، رسم إشارة الصليب على جبينه. نهض من سريره مثلما كان يفعل صغيرًا وذهب على رؤوس أصابعه كي ينام إلى جانب شقيقته.

«ما تخاف يا حبيبي، ما أنا حدّك».

أرادت أن تروي لشقيقها أنَّ أبونا طانيوس اختفى. هل صحيح أنَّ جثة الراهب اللبناني وجدت مرمية قرب عين العذراء؟ عندما سألت منصور عن تفاصيل الحكاية أنكر الرجل معرفته بها.

«ما إنت خبّرتني يا حبيبي».

«أنا»!

«مبارح قلت لي أنَّهم لاقوا الجثة ومش عارفين شو بدّهم يعملوا فيها، كان الراهب متل كأنَّه مصلوب، حدا قوّصه بتمّه وصلب إيديه على الأرض، والراهبة الفرنساويَّة، رئيسة الدير، قرَّرت تسكّر على الموضوع، لفّت الراهب بشرشف أبيض وقالت إنَّه رح يندفن بلبنان، وما حدا لازم يحكي عن الموضوع».

«أنا»!

«طبعًا إنت، ليش أنا عم شوف حدا غيرك بهالبلد».

«قلت لك إمشي نروح على يافا، هونيك عنَّا عيلة كبيرة، قلتِ أنَّك ما بتتحركي من هون قبل ما تخلّفي وهيّاني ناطر، ما تقوليش أنَّك ما بتشوفي حدا، إنت هيك بدك.» أجابها منصور.

«بس مش هيدا هو الموضوع»، قالت.

أرادت العودة إلى جانب موسى كي تعيد الأسنان إلى فمه. ميليا تعرف، جدتها ملكة أخبرتها أنَّ هناك منامين ينذران بالموت، قصّ الشعر وتساقط الأسنان. قالت ملكة إنَّ كلّ المنامات الأخرى هي رحلات يقوم بها الإنسان إلى عوالم بعيدة، لأنَّ روح الإنسان لا تطيق المكوث في الجسد، تتركه نائمًا وتمضي، وحين تعود خفيفة بالأشياء التي رأتها، ينهال عليها الجسد ضربًا. يشبه النوم حلبة صراع بين الروح والجسد. قالت الجدة إنَّ الإنسان لا يشعر بروحه في اليقظة. ولكن حين يأتيه ملاك النوم، وتسبح روحه فوق الأزمنة والأمكنة، عندها فقط يتيقن من أنَّه يتألف من شيئين منفصلين اتصلا بإرادة الخالق عزّ وجلّ، وهذه هي الأعجوبة، إذ كيف يمكن للماء والنار أن يجتمعا. الإنسان هو اجتماع عنصرين لا جامع بينهما: التراب والهواء. جسد ترابي وروح هوائيَّة. لا يشعر الإنسان بسموّ روحه إلاّ في المنام، عندما تسافر الروح وتترك التراب في انتظارها، عندها فقط نفهم المعنى الخفي للحياة، وتتمرَّن الروح على مغادرة الجسد، وتكتشف أنَّها تمتلك حياتها الخاصة.

«يعني أنا اتنين يا ستّي»؟ سألت ميليا بخوف.

«طبعًا يا حبيبتي، مش إنتِ حلمتِ خالتك سلمى قبل ما تموت، وشفتي كيف كانت عم تحلم حالها عم بتطير».

«أنا»!

«منشان هيك خالتك ما ماتت. روحها فهمت أنًّ ما في لزوم للجسم، بس الجسم ما بيقدر يستوعب، فبيعمل مشاكل وبيصير يتوجع حتى تتوجع الروح وما تسترجي تتركه، يا حرام شو تعذًّبت سلمى، بتتذكري يا ميليا قدّيش تعذبت خالتك»؟

«ما بعرف»، قالت الفتاة وهي ترتجف خوفًا. أحسًّت أنًّ روحها سوف تغادر جسمها، وشعرت بالرعب، نظرت إلى عينيها في مرآة البركة الصغيرة حيث كانت تمضي معظم أوقاتها في الحديقة تلعب بالماء، وأرادت أن تسأل جدتها إذا كانت العيون جزءًا من الجسد أم من الروح.

«العيون جزء من روح الإنسان»، قالت الراهبة. «تطلّعي بعيون مار الياس، ليكي كيف عيونه عم تلمع بالنار، ليش نمتِ يا بنتي، أنا جبتك على مغارة مار الياس منشان تشوفيه ويشوفك، هيك بيتذكرك، وما بينساك، أنا يا بنتي رح موت، وما بقدر ضلّ أعملّك واسطة معه، اتطلعي بعيونه منيح، وقولي له أنًّك بتحبيه».

خرجت عينا النبي الذي لم يمت من محجريهما وصارتا معلقتين على الحائط المنحني الذي يسوّر المغارة، رأت ميليا أضواء العيون في كلّ أنحاء المغارة المدورة التي لا تتسع لأكثر من جسد إنسان ممدًّد. لم يكن النبي قادرًا على الوقوف في مغارته المنخفضة السقف، كان يدبدب من أجل الوصول إلى المكان الذي يضع فيه رأسه. خرجت عيناه من الأيقونة

الحمراء والزرقاء الموضوعة قرب الحجر الذي جعله وسادة، وصارتا في كلّ الأمكنة. خافت ميليا من عيونه المنتشرة، أرادت أن تشكره لأنَّه أنقذها من المرض، وأن تقول له أن لا ينساها، فرأت نسرًا. كيف دخل النسر من هذه الفتحة الصغيرة الموجودة في سقف المغارة؟ ميليا رأته، كأنَّ عينيها امتلكتا القدرة على عبور الحيطان المتداخلة والوصول إلى الفضاء الفسيح، هناك كان يحوم فوق المكان فاردًا جناحيه الكبيرين، معانقًا الغيوم الشحيحة التي توشح السماء، يدور ويدور باحثًا بعينيه الثاقبتين عن فتحة المغارة. فجأة أغلق النسر جناحيه وبدأ يهوي، صرخت به ميليا أن يفتح جناحيه، «هلّق بتموت، الله يخليك ما تموت، بعدين مين رح يجيب أكل لمار الياس؟» لكنَّ النسر لم يسمعها، تابع سقوطه العمودي كأنَّه قرَّر الموت، وفجأة وأمام فتحة المغارة نشر جناحيه من جديد، وبدأ يتداخل بنفسه، حتى صار طائرًا صغيرًا بحجم قبضة اليد. وصل إلى داخل المغارة، فرد جناحيه الكبيرين، وبدأ يضرب الحيطان كأنَّه يريد توسيع المكان. كانت ميليا تجلس في حفرة مار الياس عاجزة عن الحركة، رأت نفسها تنجذب بقوة لا تردّ إلى مخالب الطائر، النسر يقبض عليها ويطير بها إلى الفضاء. ميليا في الأعلى، الدوار والخوف، ورأت وجه خالتها سلمى يلوح في البعيد، سألتها سلمى عن إبراهيم حنانيا، وكانت تبكي.

«ليش عم تبكي يا خالتي، الموتى ما بيبكوا وما لازم يبكوا».

لم تسمع ميليا جواب خالتها سلمى، الخالة اختفت، ورأت الفتاة الصغيرة نفسها ملقاة على الرصيف العريض أمام كنيسة البشارة في الناصرة. كان بطنها منتفخًا، ويداها مصلوبتين على الأرض.

ورأتهما، كانا يقفان في مواجهتها تمامًا، ولم تستطع تمييزهما. الراهبة القديسة تمسك بيد طانيوس كأنّهما رجلان كهلان تفترس التجاعيد وجهيهما، وسمعت صوتًا قادمًا من بعيد يطلب منها أن تشدّ.

أحسّت يدًا تهزها بعنف من كتفيها، «إفتحي عيونك يا بنتي وشدّي، يللا خللينا نخلص، راح الكتير وما بقي إلاّ القليل».

فتحت ميليا عينيها ببطء، وكان الضوء. شمس باهرة اخترقت المكان، المطر توقف عن الهطول وجاءت الشمس، وخلف ذلك الضوء وقف الطبيب الطلياني الكهل، وقال للمرأة المستلقية أن تساعده، «يا بنتي كل شي منيح وإنشالله منخلص بالسلامة، بس إنتِ لازم تساعدينا شوي».

ابتسمت ميليا، وأحسّت منشفة إحدى الممرضتين تمسح العرق البارد الذي يتساقط على عينيها، وسألت عن منصور.

وقف منصور إلى جانبها، كانا في بهو فندق «مسابكي»، وكانت الصور. أرادها أن تقف تحت صورة تجمع الشيخ بشارة الخوري، رئيس جمهورية الاستقلال في لبنان، إلى جميل مردم بيك، رئيس الحكومة السورية. شرح لها كيف يلخّص هذا الحائط المليء بالصور تاريخ سورية ولبنان وفلسطين.

«غريب»، قال، «كأنّ تاريخنا لم يجد سوى هذا الحائط في مدينة صغيرة على طريق بيروت دمشق كي يكتب عليها حكاية هزائم العرب».

«دخيلك أنا ما بحبّ السياسة، من وقت ما جينا على هالأوتيل وإنت ما بتحكي إلاّ عن الملك فيصل وميسلون وإشيا من هالشكل، صار يوجعني راسي».

تركت يده والتفتت إلى جانب آخر من الحائط حيث وجدت قصيدتين متجاورتين موضوعتين داخل إطارين.

اقترب منها منصور وقرأ:

«طعمنا في المسابكي ما اشتهينا

إلى ما لذّ من وتر وكاسِ

وقد حسن المكان وخفّ ظلاً

كأنّ على الشراب ابو نواسِ»

«هدا أمير الشعراء، شوقي كان يجي دايمًا على الأوتيل، ومعه محمد عبد الوهاب حامل عوده، عم بيلمّ الكلمات يلّي عم بيقولها شوقي ويلحنها. وهون شاعر القطرين خليل مطران».

«بس المسيح شو دخله بهالقصة، أنا ما بحبّ هالشعر».

اقترب منصور من الإطار الثاني وقرأ:

«هلعت تفتش مريم عن ابنها

يسوع في ذاك الفضاء الواسعِ

ناديتها يا مريم خلّ الأسى

يسوع عند مسابكي لا تجزعي».

«شو عم يعمل المسيح هون، لا مش هيك الشعر يا حبيبي».

في ذلك اليوم، وكان اليوم الثاني للزواج، أدرك منصور أنّه لن يستطيع القبض على هذه المرأة التي صارت زوجته. قال لأمّه انّه أحبّها لأنّها امرأة. جسد طويل ممتلئ ووركان مكتنزان، وخصر ضامر، كأنّ

بياضها طالع من بياض دعد في «الدرة اليتيمة». ارتسم جسدها الممتلئ الرشيق في خياله من خلال عشرات القصائد التي تغنّت بالحب جاعلة من جسد المرأة المشتهاة جداول من الرغبات والانحناءات التي لا عدد لها.

أين ذهبت الرغبة؟ ولماذا يشعر منصور بوحدة قاتلة؟ منذ موت شقيقه وهو يعيش دوامات من القلق والخوف. لم يكن خائفًا من يافا ولا من الحرب. اتَّخذ قراره بالعودة إلى مدينته لأنَّه يجب أن يعود، وأحسَّ أنَّ أسمى، الأرملة الصغيرة، صارت مسؤوليّته. بل إنَّه حلم مرة بأنَّه صار زوجًا لامرأتين، أسمى وميليا. لمَ لا؟ وشعر برغبة جنسية لا تقاوم. ميليا استدارت بأشهر الحمل الثمانية، تنام وتفرش شعرها الطويل على الوسادة، وهو يجلس وحيدًا في الصالون، يحتسي كباية شاي ويدخّن. رأى نفسه بين المرأتين، وأحسَّ نبضًا في عروقه، وشعر كيف امتلكته الرغبة، كأنَّ يدًا قويَّة قبضت على خصيتيه وشدّتهما.

وجد نفسه يتعرّى في الغرفة، ويندسّ في الفراش إلى جانب ميليا، اقترب منها وقبض على خصرها، تململت المرأة في الفراش، برمت له ظهرها وغاب وجهها خلف شعرها المفرود على الوسادة، برم صوبها كي يأخذها، وضع يديه على نهديها وتسلقت شفتاه عنقها، وفي اللحظة التي قرَّر فيها أن يدخلها تلاشى كلّ شيء فيه. اختفت الرغبة، كأنَّ ماءً باردًا انسكب وأطفأ النار. أحسَّ أنَّ روحه خبت، وحاصره الاختناق. ابتعد، استلقى على ظهره، وضربه الخجل. كان منصور مقتنعًا أنَّ ميليا ليست نائمة وأنَّها ترى الآن خيبته. منذ البداية، أي منذ الليلة الأولى في «مسابكي»، لم يقبض حكاية أنَّه يضاجع امرأة نائمة. لكنَّ

اللعبة أعجبته، كأنَّها حررته وجعلته سيد السرير، كأنَّ ميليا تعطيه ما يشاء وساعة يشاء من دون حساب. أحبَّ هذه اللعبة التي أشعلت عظامه برغبة لا ترتوي، وصار نوم المرأة القلق إلى جانبه المتعة الكبرى التي يستعيد القصائد من أجلها. لم يدرِ ماذا يجب أن يفعل، وكيف ينسحب من حلبة الفشل التي سقط فيها.

نهض من الفراش، لبس ثيابه الداخليَّة على عجل، لبس بيجامته، وسمع صوتها.

«شو باك يا حبيبي»؟

لم يجاوب، دخل إلى الحمّام وأغلق الباب.

نهضت ميليا من فراشها، قرعت باب الحمّام، وسألته إذا كان مريضًا، وسمعت صوته المتحشرج يقول «ما فيش إشي يا حبيبتي»، طالبًا منها أن تنتظره في السرير.

«وينك يا أمي»؟ صرخت المرأة المستلقيَّة على سرير الوجع في المستشفى الطلياني في الناصرة.

وقف طانيوس الراهب في مواجهتها، امتدَّت يداه نحوها كأنَّهما تستعدان لالتقاط المولود.

«ما بدّي روح على يافا، بدّي آخد الصبي وروح على بيروت، اللّه يخلّيك يا أبونا طانيوس، قول لأمي تجي تاخدني من هون، لا، قول لخيّي موسى يجي حتى نهرب من هون».

قال طانيوس أنَّ السيِّد عليه السلام ذهب إلى موته بإرادته. فتح الكتاب وبدأ يقرأ، لم تفهم ميليا الكلمات السريانيَّة التي تفوَّه بها

الراهب اللبناني، لكنَّها رأته يمشي في شوارع القدس على طريق الجلجلة حاملاً صليبًا خشبيّاً كبيرًا، والجنود يحوطون به، يمشي والسوط يمزّق ظهره، ينظر فلا يرى سوى وجه مريم المجدليَّة وقد صار يشبه وجه أمه، يتَّكئ على آلام جسمه الذي جرحته السياط، ينظر إلى البعيد، ويرى إبراهيم الخليل سائرًا خلف ابنه، إسحق يحمل على ظهره الحطب الذي أعدّه الأب من أجل الأضحية، والابن ينحني بالطاعة.

«هل علم بنية والده، أم أنَّ الأب أخفى الحقيقة عن ابنه»؟

هذا هو السؤال الذي طرحه يسوع الناصري على والده يوسف النجار حين جلسا معًا وتصالحا، بعدما اعترف الأب لابنه بأنَّه كان يريد قتله، لكنَّه فهم الآن أنَّها إرادة الله.

«يعني إنت متل إبراهيم»، قال يسوع. «إنت كنت ناوي تقتلني متل ما كان هو ناوي يقتل ابنه ويقدمه ضحية لإلهه».

«البي ما بيقتل ابنه يا ابني»، قال يوسف وقد ارتسم الأسى في عينيه، «أنا كنت متردِّد كأنَّه كان في غيمة سودا على عيوني، وهلّق انتهى الموضوع، إنت إبني الوحيد حدا بيقتل ابنه الوحيد»؟

«وهو»؟

«ما بعرف، بفتكر أنَّ إبراهيم ما كان عارف أن في خروف، سمع أمر اللّه بالمنام، وما كان بيقدر يعمل شي تاني».

«عم بسألك عن إسحق».

لا، القصة ليست هكذا، من أين جاءت حكاية هرب الأب، أبونا طانيوس أخبرها الحكاية في شكل مختلف، لكن لماذا ترى الإبن واقفًا

أمـام النار والسكين في يده، من أين جـاءت النار؟ مـريم ارتجـفت أمـام جـبل القـفـزة في الناصـرة، ولم ترَ النار. رأته وكـانوا يريدون رمـيـه في الوادي، وقفت أمـام الوادي وبدأت ترتجف. هنا أمـام باحة الكنيسة التي أطلقوا عليها إسم سيدة الرجفة، التفّت المرأة الحبلى الآتية من بيروت بالعـتـمـة، وارتجـفت من البـرد. سـألهـا الراهب طانيـوس لماذا أتت إلى الكنيـسة بقـميص النوم، فقـالت أنّهـا لم تتنبـه، «أنا نايمة يا أبونا وعم بحلم، هيدا منام مش حقيقة، شو جابك على مناماتي، هلّق بفتح عيوني وبلاقي حالي بالبيت وإنت بتختفي».

«لا ما تفتحي عيونك»، قال طانيـوس، «في شي مهم بدّي خبّرك ياه».

قرأ الـراهب حكاية خليل الرحمن مع ابنـه، «بتعرفـي ليش إسمـها مـدينة الخليل، لأن هونيك قبـره، وهو إسمـه الحـقيـقي خليل لأنّه كـان صديق أبو عيسى».

«مين ابو عيسى»، سألت ميليا.

«هيئتك ما بتقـري كتب يا بنتي، يمكن مـعك حقّ ما تعـرفي، هيدا مكتوب بكتـاب رح ينكتب ببيروت بعـد خمسين سنة، كيف بدّك تقريه إذا بعد ما انكتب»؟

«وإنت كيف قدرت تقرأ شي مش مكتوب».

«لأنّي بقرا العيون، وإنتِ كمان يا ميليا، رح تقري الإشـيا قبل ما تنكتب، رح تقريها باللحظة يللي رح يوقف فيها رجّال ختيار قدّام تختك بالمستشفى الطلياني ويقول: الآن تطلق عبدك أيُّها السيد».

«يعني إنتَ رح تموت لمَن خلّف ابني»؟

«مش بس أنا».

«لا أنا ما بدّي ابني يموت»، صرخت. «معقول يصير هيك، معقول بي يقتل ابنه»؟

فتح الراهب الكتاب وبدأ يقرأ:

«ربط إبراهيم ابنه بالحبال ووضعه أمام كومة الحطب، وجلس ينتظر، وفجأة التمعت السماء بالنور، ورأى إبراهيم ثلاثة ملائكة يحملون كبشًا أبيض تفوح منه رائحة الماء ويضعونه على الحطب.

جثا النبي على ركبتيه وبدأت دموعه تنهمر، اقترب من ابنه، فكّ قيوده، وأزاحه جانبًا. وقف إسحق، واقترب من الكبش الأبيض، وضع يده على رأسه وسمع أنينًا يخرج من بطن الحيوان الصغير المرتجف. ركض وقطع عشبًا أخضر من البرية، اقترب والعشب في يديه كي يطعم الكبش. مرّغ الكبش وجهه بالعشب وانهمرت دموعه. امتلأت يدا إسحق بالدموع، إلتفت إلى الوراء فرأى والده يقترب والسكين في يده.

«لا يا أبي»، صرخ الغلام.

دفش إبراهيم ابنه، أمسك رقبة الكبش وذبحه وهو يصرخ مهللاً، وانفجر الدم، ملأ الدم الوادي، وسمع الفتى صوت الدم. طنّ الصوت في أذنيه، شخب الدم أمامه وتلوى باحثًا عن فجوة في التراب. وعلا الصراخ.

عندما ذبح إبراهيم الكبش، وشمّ الرجل وابنه رائحة الموت، انفجرت فيهما شهوة الدم، تراجع إبراهيم إلى الوراء ونظر إلى السماء

طالبًا من اللّه أن يعبر به هذه التجربة. نظر إلى ابنه، فرأى الغلام منحنيّاً فوق الكبش المذبوح الذي يتخبّط بدمه، يحاول الإمساك بآخر نبضات الحياة التي تختلج فوق الصوف الأبيض الملطّخ بأحمر الذبيحة.

أمر ابنه بأن يحمل الكبش ويضعه فوق كومة الحطب.

امتثل الغلام، حمل الكبش مقتربًا من كومة الحطب وشعر بنصل السكين خلف ظهره. شمّ الفتى رائحة والده، وكانت مزيجًا من الدم والروث، وشعر بالخوف، رمى الكبش والتفت إلى الوراء، فرأى النصل يلتمع في يد والده وركض هاربًا. ركض الأب خلف ابنه وهو يرجوه أن يعود، لكنَّ الإبن كان متيقنًا من أنَّ عودته سوف تعني سقوطه تحت مبضع السكين.

حاول الأب اللحاق بابنه، لكنَّه لم يستطع، عاد إلى كومة الحطب، أشعل النار وقدّم الذبيحة، ثم جلس في العراء حاملاً السكين في يده.

وبقي الأب جالسًا في مكانه لا يتحرَّك، في انتظار مجيء الخروف الحقيقي».

«يعني المسيح كان عارف أنّه رح يندبح»؟ سألت ميليا.

«أكيد»، أجاب الراهب.

«طيّب ليش رجع»؟

«لأنَّه لازم تخلص القصة».

«بس أنا ما بدّي تخلص القصة»، قالت.

«ما في قصة ما بتخلص»، أجابها.

«مش مزبوط، ولا قصة بتخلص، القصص ما بتخلص، وأنا ما بصدّق أن البي قعد ألف سنة ناطر ابنه يرجع حتى يقتله».

قالت ميليا أنَّها تعبت، وأرادت أن تفتح عينيها.

«ما تفتحي عيونك»، صرخ الراهب، بعد في قصة بدّي خبرك ياها».

«تعبت منّك ومن قصصك، القصة مش هيك، المسيح كان عارف أنَّه في خروف. إبراهيم أخد ابنه غصب عنه، ما كان بيقدر يعصى أمر الله، أخده على التلة وكان عم يتخزّق من جوا، بس ما كان في يعمل شي، وهونيك ربطه ورفع عيونه لفوق، وصرخ وصار يبكي، ساعتها إجا الخروف، شاف إبراهيم الخروف وفهم أنَّ اللّه كان عم بيجريه حتى يتأكّد من إخلاصه، ركع واستغفر، عبط ابنه وصاروا يبكوا مع بعض، وبعدين دبحوا الخروف ورجعوا على البيت، كأنَّه ما صار شي. المسيح كان يعرف هالقصة عن الغايب، قراها شي الف مرة، منشان هيك لمّن حكموا عليه بالصلب ما خاف، كان عارف أن بيّه يللي بعت الخروف حتى يخلص إسحق من الموت مش ممكن يتخلّى عن ابنه».

«بس ليش تخلّى عنه»؟ سأل الراهب.

«ما بعرف، إنتَ عم تسأل؟ إنتَ لازم تجاوب».

«لأنَّه متل ما قلت لك، كان بعده ناطره من هيديك الأيام».

«بس هو ما كان عارف، لا ما تقول أنَّه كان عارف، هو كان مفكر أنَّه في خروف وإلاّ ما راح».

«ما بعرف»، قال الراهب.

قالت ميليا إنَّها لا تريد أن تستمع إلى هذه الحكاية من جديد. كان الوجع يجتاحها من رأسها إلى قدميها، حاولت أن تئنّ، لكنَّها أحسَّت أنَّ يدًا تقبض على فمها، وتمتدّ إلى أنفها وتخنقها. «أنا عم موت»، أرادت أن تقول، لكنَّها لم تستطع، إنَّه الموت، تموت عندما لا تستطيع أن تقول إنَّك تموت، لا أنا ما بدي موت، على مين بترك ابني، بركي أخدوه على يافا. أرادت أن تفتح عينيها كي تعود إلى سريرها، قالت للراهب اللبناني إنَّها تستطيع أن تفتح عينيها ساعة تشاء، وعندها سوف يجد نفسه خارج عالمها، لأنَّها سوف تكون وحيدة في سريرها.

انشقت عيناها فسحقهما الضوء، ورأت نفسها في سرير ليس سريرها، ممدَّدة فوق كومة من الحطب، ورائحة الدم. مدّت يدها إلى أسفل بطنها فأحسَّت دمًا متخثّرًا وماء، هذا هو الزواج، قالت وأغمضت عينيها من جديد.

عندما رأته فهمت أنَّ هذه الشمس الصفراء التي تجتاح عينيها وتغمضهما، آتية من الهالة التي تحوط برأسه. لذا يسمّونه شمس العدل، إنَّه الشمس والعدل ذاهبين معًا إلى الموت. مشى يسوع وحيدًا نحو الجلجلة، وتذكّر والده وكيف افترسه الخوف من الحكاية قبل أن يطمئن إلى أنَّ الحكاية الحقيقيَّة هي حكاية الخروف الذي يأتي من ناحية الشمس من أجل أن ينقذ الابن من الموت. السياط تضربه في كل أنحائه، يمشي وابتسامة الظفر ترتسم على شفتيه، يرى وجهه يرتسم في عيون مريماته، ويشعر بألم النشوة. يمشي والخروف يحوم حوله. لم يرَ الخروف أحد آخر سوى أمه، وكانت حين تقترب من الحيوان الأليف وتمدّ يدها كي تمسك رأسه، تشعر أنَّها تقبض على الفراغ. نظرت إلى

ابنها كي تتأكَّد من أنَّ ما تراه ليس وهمًا، فأشاح بصره عنها قائلاً: «إذهبي يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد».

الدم في الشوارع، المدينة لبست الدم، واتَّشحت بالخراب. أين اختفت رائحة عطر البرتقال التي تنتشر على مدى الشاطئ الأبيض.

مرة واحدة قبلت ميليا أن تذهب مع منصور إلى يافا. قال لها «إنتِ بس تعالي مرة واتفرّجي». قالت إنَّها ذهبت ورأت ولا لزوم للذهاب مرة ثانية. أجابها أنَّها ذهبت خلال مآتم أمين، وفي المآتم لا يرى الإنسان شيئًا. قالت إنَّها تكره هذه المدينة، أجابها إنَّ يافا عروس المتوسط، «حدّ بقول يافا، الدلجنصات والبحر والشط الأبيض، والنبي روبين، ودعدع». قال إنَّ أطيب شواء وحمّص نجدهما في مطعم المعلم دعدع على شاطئ الشباب في الجبيلة. قال إنَّه سيأخذها لترى جامع حسن بك، والتلة الحمرا، وحي الرشيد، وسيطعمها فولاً مدمسًا في مطعم فتح الله. قال وقال، وكانت تستمع إليه وتريد أن تقول له إنَّها مستعدة للانتقال من الناصرة ولكنَّها لا تريد يافا، تريد بيت لحم.

«أنا بعرف»، قالت، «بدّهم يشلّحوني ياك، وبعدين ياخدوا ابني، وبعدين مدري شو بدّه يصير، أنا عم شمّ ريحة الحرب والموت، مبارح حلمت...»

«الله يخلّيكِ بلا مناماتك».

قال لها بلا مناماتك كي يجبرها على الذهاب معه، ماذا جرى للرجل؟ أرادت أن تشرح له أنَّ الموت مش مشكلة، وأنَّ الميت ينام ويحلم، وأنَّ مناماته لا تنتهي، لكنَّه لم يعد قادرًا على فهم كلامها. هل فهم شيئًا

في الماضي؟ أم أنَّه كان لا يريد سوى السباحة معها في السرير. عندما استخدم كلمة السباحة كان يرندح أشعار امرئ القيس، ويروي لها أنَّ الملك الضلّيل ضاجع امرأة كانت ترضع طفلها. «بكرا هيك بدّي أعمل زي الشاعر، أكيد كان إشي بيجنّن». وعندما لم تجاوب قال لها إنَّه عندما ينام معها يشعر أنَّه يسبح.

ذهبت معه، وشمّت رائحة البرتقال، كلهم، كلّ الناس يحبون رائحة البرتقال، ويسكرون برائحة زهر النارنج. وميليا أيضًا تحب هذه الرائحة التي تشبه المخمل، لكنَّها هنا في يافا شمّت رائحة الدم. قالت له إنَّ مدينته تشبه طرابلس في شمال لبنان.

«يافا أخت طرابلس الشام»، قال.

قالت إنَّها ذهبت مرة واحدة إلى طرابلس، شقيقها الكبير سليم أخذها إلى هناك، كانت في السابعة، قالت إنَّها لا تذكر شيئًا، لكنَّها شمّت رائحة زهر النارنج.

«كأنّي بطرابلس» قالت له، «ساحة الساعة هنا تشبه ساحة التل هناك»، وأنَّها لا تحب المكان، لأنَّها تشمّ رائحة غريبة، رأت كيف أدارت تل أبيب ظهرها للبحر، وفتحت فمها من أجل أن تفترس يافا.

قالت لمنصور إنَّ يافا سوف تغرق في البحر. كانا يجلسان معًا على الشاطئ ويأكلان اللحم المشوي، منصور يشرب العرق، وميليا تنظر إلى الفضاء الأزرق الذي يمتدّ إلى آخر العين، حين روت له أنَّها حلمت ليلة أمس كيف اجتاح البحر المدينة. قالت إنَّ حي العجمي امتلأ بأناس يتكلّمون اللهجة العراقيَّة، وإنَّ المراكب تبحر في شارع الملك فيصل، وإنَّ الناس يتجمَّعون في حي الرشيد الذي امتلأت شوارعه بالمياه المالحة.

ميليا ممدَّدة في سيارة متوقِّفة في وسط الشارع، والجموع تتدافع في شكل وحشي من أجل الوصول إلى الشاطئ.

«يا الله، ما هو قال لي أنَّه مش رح ياخدني على يافا قبل ما ولّد، شو عم تعمل يا منصور على سطح البيت بحيّ العجمي»؟

أصوات القذائف في كلّ مكان، أسمى تحمل طفلاً رضيعًا وأم أمين تجرّ وراءها ولدين صغيرين، والموج البشري ينحدر صوب الميناء. الناس يتدافعون، ينظرون بعيون لا ترى، وغبار كثيف يغطي كلّ شيء. مجموعة من الرجال يندسّون بين النساء، يخلعون ثيابهم العسكريَّة على عجل ويتراكضون، ومنصور يجلس على سطح البيت حاملاً بندقية إنكليزيَّة.

«ليش عم يهربوا»؟ سألت ميليا.

«هدول المتطوعين العراقيِّين، زتّوا سلاحهم لأن قائدهم انطرد، وقال ما بياخدوا أوامر إلاّ من الحاج مراد اليوغوسلافي».

«عم بسأل عن الأولاد»، قالت.

منصور ينحني بمعطفه الطويل مع الهواء العاصف الذي يضرب المدينة. تراه يمشي على حافة السطح، في يده شمعة مضاءة يحجبها الضباب، وميليا تشعر بالبرد، الوديعتان تجلسان إلى جانبها في المقعد الخلفي من السيارة الأميركيَّة. ميليا تريد أن تفتح عينيها، لكنَّ الشمس تحرق كلّ شيء، وهي تحترق، ومنصور يحترق. سمعت صفّارة السفينة، كانت السفينة اليونانيَّة الواقفة في ميناء يافا تستعّد للإبحار، منصور يقف إلى جانب رجل كهل. الكهل يقول أنَّ لواء يافا ـ اللد تفكّك، وأنَّ من تبقّى من المجاهدين شردوا إلى الميناء.

«وين ميشال عيسى»؟ يسأل منصور.

وجه مستدير أبيض، شاربان أسودان يغطّيان الشفة السفلى، وثياب مبلّلة بالماء. وقف ميشال عيسى وسط القذائف التي تتهال على المدينة من كلّ جانب وشعر أنّه فقد صوته. قال لمنصور عندما التقيا في السفينة اليونانيّة إنّه فهم أنّه لم يعد قائدًا لحامية المدينة عندما لم يعد صوته يطيعه، وإنّ المعركة انتهت، وإنّ رجال جيش الإنقاذ المئتين شرّدوا بين الشاردين.

منصور على سطح السفينة، يتغطّى بمعطفه، ويستمع إلى الصفارة الأخيرة التي تطلقها السفينة قبل أن تقلع في طريقها إلى بيروت.

أسمى تقف بثوبها الأسود في حديقة المنزل في يافا، وتصرخ بمنصور «يا روبنّي يا طلقّني».

«أيمتى تزوّجتها يا منصور»؟

لم يسبق لمنصور أن أخذ أحدًا إلى موسم النبي روبين. يذكر الموسم في طفولته، يذكر الخيام المنصوبة وحلقات الذكر، والعلم الأبيض الذي كُتب عليه: «لا إله إلاّ اللّه وروبين نبي اللّه»، يذكر المسيرة التي تنطلق من الجامع الكبير في وسط المدينة إلى العجمي، يذكر النساء يتروبنّ في الخامس عشر من أيلول، لكنّه لا يعرف من هو هذا النبي الذي يملك نهرًا صغيرًا إلى الجنوب من يافا. لم يفهم لماذا يمضي أهل يافا شهرًا كاملاً في خيام روبين حيث يستعدون لاستقبال الخريف.

قال لها منصور إنّ الدنيا حرب، وإنّه سيروبنها في العام المقبل. لكنّ المرأة القصيرة الممتلئة لم تفهم، كانت تريد روبين الآن.

«ما لازم تبكي»، قال الطبيب الطلياني، «شدّي بعد شوي هيّانا رح نخلص وكلّه تمام».

ارتفعت صافرة السفينة، سفن شركة «غرغور» غادرت الميناء. المدينة فارغة، أخذ البحر الناس، أين الناس؟

رجل طويل القامة يسمّونه البيروتي، عطاالله بيروتي يقف بين يدي القائد العسكري البريطاني وضابط من الهاغاناه معلنًا يافا مدينة مفتوحة.

السفينة تصفّر، واليهود يستعدون لدخول المدينة، جامع حسن بك في أيديهم، العجمي في أيديهم، والحارات تنحني على الحارات. لا صوت سوى ريح تضرب البيوت.

«ما تنسى مفتاح البيت»، صرخت ميليا.

منصور يرمي بندقيته، ينزل عن السطح مسرعًا، ويهرول في اتجاه الباخرة اليونانيّة في الميناء. الدخان يرتفع، صوت المحرّك يهدر، منصور يركض، يلوّح بيديه، يصرخ بالقبطان أن ينتظره، يتعثّر ويسقط، منصور يقف، يخلع المعطف الذي يعوق حركته، يرميه أرضًا، ويركض.

السفينة في عرض البحر، منصور يجلس على سطح السفينة، ويافا تبتعد.

«لماذا تركت المدينة»؟ يسأله بحار يوناني شاب.

الخيام في كلّ مكان.

«ما هذا»؟ تسأل ميليا. لماذا نصبتم الخيام هنا؟

قالوا لها إنَّه موسم النبي روبين، قالوا إنَّ يافا تنصب خيامها على الضفة الجنوبيَّة للنهر وتذهب كلّها إلى هناك.

«وين النبي روبين؟»

قالوا إنَّ النبي روبين يجلس وحيدًا في انتظار الناس. أخذوا الخيام ومضوا، ولم يبقَ سوى رائحة الدم.

الدم في الشوارع. وقف منصور أمام معمله المهدّم، الآلات الحديديَّة معجونة بالدم والأشلاء، وصمت وحشي يهزّه من جذوره، «وينك يا ميليا»، صرخ منصور، «أنا عم موت».

«ما تبكي يا حبيبي أنا هون»، تمتمت المرأة المستلقية على سرير المستشفى.

ومشى منحنيّاً، يسوع الناصري ينحني تحت ثقل الصليب، يمشي في شوارع المدينة الضيّقة، والتعب يهدّ جسمه. لم يسبق للرجل الثلاثيني أن شعر بمثل هذا التعب، في دكان والده كان يحمل جذوع الأشجار الضخمة ولا يحسّ بالتعب. كان الفتى النحيل ذو العينين الخضراوين والشعر الأسود المجعَّد والجبين الكبير العريض، يمشي كأنَّه لا يلمس الأرض بقدميه، ويعمل كأنَّه لا يعمل. كأنَّ قوة غريبة تعشش بين ضلوعه، وعندما حاول أن يخبِّر والده حكايته، لم يسمح له يوسف بأن يكمل. ما إن بدأ يحكي عن منامه الغريب حتى أخذ والده الكلام منه.

الأمر نفسه تكرَّر مع الصيادين في بحر الجليل، ما إن مشى على وجه الماء وأمر العاصفة بالسكون، وأراد أن يحكي، حتى بدأ الصيادون في الكلام، وقالوا إنَّهم فهموا الرسالة.

وعندما وقف على جبل الزيتون يخاطبهم لم يستمعوا إليه، كانوا مسحورين بالضوء الذي يخرج من عينيه محيلاً الأرض حقلاً من الزيتون.

عندما قال للناس أن يتركوا المرأة تغسل قدميه بالعطر وتنشفهما بشعرها الأسود الطويل الذي يصل إلى كاحليها، انحنوا على قدميه ولم يتركوا له أن يقول لهم إنَّه الحب، وأنَّ شعر المرأة المفروش هو وسادة العالم.

وعندما قال لأمه إنَّه ذاهب إلى القدس، وإنَّ عليها أن لا تأتي معه، لم تتركه يكمل جملته، وضعت يدها على رأسه، وقالت إنَّها آتية لأنَّها تعرف أنَّه الملك.

وعندما حاكموه، ووجد نفسه وحيدًا بين أيدي الجلادين، وأراد أن يشرح لهم حكايته، صفعوه بأسئلة تشبه الأجوبة.

ابتسم للمجدلية عندما سألته لماذا لا يحكي، وقال إنَّه الكلمة. طلبت منه جوابًا عن سؤالها.

«الحقّ الحقّ أقول لك إنَّ الكلام مثل سنابل القمح، لا يملك أحد الكلام، لأنّ الكلام مجرد أصداء للكلمة التي ارتسمت على الصليب».

أحسّ بثقل الصليب الذي أجبروه على حمله، وخاف. لا لم يخف، لكنَّه فوجئ، كأنَّ القوة التي في داخله خرجت منه، وشعر بالضعف والهزال.

بقي أربعين يومًا صائمًا وعندما دعا تلامذته إلى العشاء وسقاهم أفضل خمور فلسطين لم يأكل إلاَّ كسرة خبز واحدة، عافت نفسه الطعام وامتلأ شوقًا إلى والده.

وسط الضعف والهزال، وسط السياط والمهانة، تذكّر الخروف، وابتسم.

«لماذا كلّ هذا النور، اللّه يخلّيكم أطفئوا الضوء».

الوجع في العينين، والألم. ماذا تفعل حبيسة هنا، ولماذا توقفت الساعة. خصل الشعر الأبيض ملقاة على الوسادة، المرأة الكهلة تحاول أن ترفع رأسها ولا تستطيع، ميليا الصغيرة تقف إلى جانب جدتها. الجدة تقول إنّ كلّ الساعات في البيت توقفت، تحاول أن ترفع يدها عن الوسادة فتسقط اليد قبل أن ترتفع. وميليا إلى جانبها، لا تدري ماذا تفعل.

بدأت الفتاة تركض في البيت، صار البيت مثل دائرة، الفتاة تدور وتدور، وكلّ ساعات البيت توقفت عند الثالثة صباحًا.

«دوّر الساعة يا موسى يا حبيبي».

يأتي موسى مسرعًا وثيابه مليئة بالوحل، والدم يخرج من ركبتيه المشققتين.

«ليش الدم يا حبيبي، ما قلت لك أنّ منام الدم مش منيح، ليش عم بتخلّيني أحلمك مغطّى بالدم، أنا سافرت من هون لبيروت، نعم سافرت بهالحشرة، قلت لإبني ينطر ببطني، قلت له شو عليه كلّها كم ساعة، لازم روح على بيروت، خالك موسى عم يحلم منام بشع، لازم روح لعنده، وجيت لعندك، وإنتِ جايي وكلّك دم، بيكفّي دم، نجّنا من الدماء يا اللّه، مش هيك الراهبة كانت تصلي دايمًا، توقفنا قدّام أيقونة العدرا يللي حاملة ابنها وتصرخ: نجنا من الدماء يا اللّه إله خلاصي لكي يسبّح

فمي بعدلك، وتطلب منّا نقول وراها ونحن نقول. وين الحاجة ميلانة؟ ليش قاعدة لحالها هونيك وما حدا عم بيردّ عليها، قالت أنَّها عم بتشوف كل شي أسود وبقلب الأسود في بخور، قالت أنَّها ما بقى تقدر تشوف أجسام الناس، وأنَّها عايشة مع أرواحهم. ليش الراهبة لوحدها، ليش ما فيها تقوم عن التخت، ومن وين إجت الريحة، معقول نترك القديسة هيك، ما حدا عم يهتم فيها، ما حدا عم بينضّفها، وينك يا سعدى يا أمي؟

تقف سعدى إلى جانب سرير حديدي في غرفة معتمة. تشعل الضوء، تأمرها القديسة بأن تطفئ النور، «الضو بوجّعلي عيوني وما بيخلّيني شوف». سعدى لا تطفئ الضوء، تقول أنَّها جاءت إلى هذا الدير البعيد، من أجل أن تحمم الراهبة، وهي لا تستطيع من دون ضوء. البخار يتصاعد من وعاء نحاسي مليء بالماء الساخن، والراهبة تصرخ أنَّها لا تريد أن تتحمم، «أنتِ جايي تقتليني متل ما قتلتِ بنتك»، تصرخ ميلانة، «اطلعي لبرا، اطفي الضو واطلعي لبرا».

«بس يا حاجة أنا جايي حتى حمّمك، ليش تركوكِ هيك، ليش ما بتعملي عجيبة وبتقومي، شو هالريحة، يلله خلّيني شلّحك تيابك، هلّق بحمّمك وبفرك جسمك بالكولونيا وبتشوفي كيف رح تصيري».

اقتربت سعدى من الراهبة كي تساعدها على خلع ثيابها، غطّت الراهبة عينيها بيديها وبدأت تئنّ. انتفضت الراهبة في سريرها وصرخت أنَّها تشمّ رائحة الشيطان. «إنتِ باعتك الشيطان يا سعدى، ليش من وقت ما جيتِ لعندي اختفت ريحة البخور، وين البخور؟ البخور بيهرب من الضو، وإنتِ شعّلت الضو، شو بدّك فيي، أنا بعرف إنتِ

جايي تقتليني، إنتِ قتلتِ بنتك، وأنا شفتها، شفتها يا حرام، شفت كيف صار كلّ جسمها أخضر متل كأنّه نبت عليه الحشيش، قدوس قدوس قدوس، كانت نايمة وعم تحلم، الحكيم صرخ فيها وطلب منها تفتح عيونها، حاولت تفتحهم، بس الضو، طلبت منهم يطفوا الضو، بس ما حدا سمعها، وبلّش جسمها يرجف، متل ما عم يرجف جسمي هلّق، هي شافت كل شي، شافتك يا سعدى، وشافت الشيطان قاعد على كتفك اليمين، اطلعي لبرا، أنا ما بدّي موت».

حاولت ميليا أن تفتح عينيها، فرأته، كان يجلس تحت صورتها في الليوان، يتأمّل الوجه نصف الممحو ويعبّئ فراغات الكلمات بخط صغير. فتى أسمر الوجه ذو شعر قصير مجعّد، يجلس في شعاع الضوء البرتقالي الذي يتسرّب من النافذة، يحمل قلمًا ويكتب. أرادت أن تسأله من هو، ولماذا يجلس تحت صورتها؟ اقتربت منه، كانت تلبس فستانها البني الطويل الذي يغطي ركبتيها، وتنظر إلى الأعلى، حيث السرير النحاسي المرتفع. تنظر الفتاة الصغيرة إلى هذا الفتى الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وهو يقترب من الصورة المعلّقة على الحائط ويتمعّن في عبارة وضعت داخل إطار أسود تحتها. العبارة التي كتبت بالخط النسخي، تتألّف من سطرين متوازيين وبينهما فراغ يحاول الفتى أن يملأه بقلمه. «لم تمت الصبية لكنّها نائمة». الصبية في الصورة تغمض عينيها، والفتى الجالس تحتها يسمع صوت والده يدعوه إلى مائدة الغداء. موسى يدخل إلى الغرفة، رأسه يفيض شيبًا، وعيناه مغطاتان بحاجبين كثيفين أبيضين. يجلس موسى إلى جانب الفتى الذي يشبهه، يرفع إصبعه إلى العبارة المرسومة تحت الصورة ويقرأ بصوت

خفيض. تقترب ميليا، تحاول أن تستمع إلى كلامه، فلا تستطيع، تحاول أن تقرأ الحكاية التي يكتبها الفتى بين السطرين المتوازيين المنحنيين بالخط النسخي، فلا تستطيع، تقرّر أن تفتح عينيها كي تغادر هذا المنام وتعود إلى سرير المستشفى الإيطالي حيث ينتظرها ابنها. تمدّ يدها إلى الأسفل فتصطدم بيد مليئة بالماء، يد غريبة تمسك يد ميليا وترفعها إلى الأعلى، وصوت يشبه صوت الممرضة يقول شيئًا لم تسمعه.

رأت الخروف، خروف طالع من الشمس، خروف صغير يقترب منها، يتسلّق صدرها ويمدّ لسانه. الخروف الصغير يقف فوقها كأنّه يضمّها إليه، ترى دموعًا في عينيه نصف المغمضتين، تحاول أن تزيحه قليلاً، فيفتح عينيه، لماذا يصرخون؟ طانيوس يقف في الضوء البرتقالي الذي يغطّي المكان. يلبس عباءة سوداء موحلة، يقترب من السرير، يرفع راحتيه إلى الأعلى كأنَّه يصلي، يفتح فمه فيخرج منه ما يشبه البخور.

«الآن تُطلق عبدك يا سيِّد حسب قولك بسلام، لأنَّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدّام وجه جميع الشعوب، نور إعلان للأمم، ومجدًا لشعبك».

الضوء البرتقالي يتلاشى واللون الأبيض يغطي المكان، طانيوس يتداخل بالأبيض، يتراجع إلى الوراء، ويختفي.

صرخت ميليا أنَّها صارت تعرف القصة الآن.

هناك حين علّقوه على الصليب وسقوه خلاً، هناك حين طعنوه بحربة، هناك حين وقفت أمه ومريماته والضباب يغطي وجوههن. هناك نظر إلى الأعلى في انتظار الخروف. والخروف لم يأتِ. بحثت عيناه

عن أبيه، والأب لم يأتِ. أغمض عينيه كي يتذكّر، فخانته ذاكرته، ولم يرَ سوى البياض.

موسى يرفع صورة ميليا عن الحائط، ويلفّها بورق أبيض ويضعها في الجارور، النقاط السوداء ترسم على الحائط صورة مصنوعة من فجوات الغبار. الفتى ذو العينين الخضراوين والشعر القصير المجعّد يمسك فرشاة ويدهن الحائط باللون الأبيض.

كلّ شيء مرسوم بالأبيض، الأبيض فوق الأبيض. ميليا تتململ في فراشها، يجتاحها العطش، تمدّ يدها إلى الماء فلا تجد الماء، ترفع رأسها كي تسنده إلى الحائط خلفها فلا تجد الحائط. الخروف الصغير يزحف على صدرها، تغمض عينيها فترى ميليا الصغيرة السمراء تنحني فوق ميليا الصبية البيضاء المستلقية فوق سرير المستشفى تئنّ بالألم. ميليا الصغيرة تنحني فوق المرأة الحبلى وتقبّلها على جبينها البارد، تمسك بيدها وتهمس لها أن تأتي معها.

«شدّي»، يصرخ الطبيب.

«شدّي بعد»، تصرخ الممرضة الأولى.

«شدّي أكتر»، تصرخ الممرضة الثانية.

ترفع ميليا يدها كي تزيح الخروف الصغير، تسمع ما يشبه الزغرودة. صوت بكاء، وكلمة مبروك. أبواب تفتح وأبواب تتصفق، أين الهواء، تريد أن تقول لهم أن يفتحوا النافذة، تقول لميليا الصغيرة أن تساعدها كي تستيقظ من هذا المنام الطويل.

تسمع أصواتهم، ماذا يفعل منصور هنا، لماذا يناديها بصوت مبحوح، أين اختفت ميليا الصغيرة، ولماذا حين تحاول أن تفتح عينيها لا ترى؟

يجب أن أستفيق من هذا المنام.

«خلص»، همست.

حاولت أن تفتح عينيها.

الخروف الصغير على صدرها، والصورة صارت سوداء.

حاولت أن تفتح عينيها.

حاولت أكثر.

الخروف الصغير على صدرها، وصوت بكاء طفل يأتي من البعيد.

حاولت أن تفتح عينيها، لكنَّ المنام لا يتوقف.

حاولت أن تفتح عينيها، لم تستطع، فعرفت أنَّها ماتت.

للمؤلف

روايات

- عن علاقات الدائرة، ١٩٧٥
- الجبل الصغير، ١٩٧٧
- أبواب المدينة، ١٩٨١
- الوجوه البيضاء، ١٩٨١
- المبتدا والخبر (قصص)، ١٩٨٦
- رحلة غاندي الصغير، ١٩٨٩
- مملكة الغرباء، ١٩٩٣
- مجمع الأسرار، ١٩٩٤
- باب الشمس، ١٩٩٨
- رائحة الصابون، ٢٠٠٠
- يالو، ٢٠٠٢
- سينالكول ٢٠١٢

دراسات

- تجربة البحث عن افق، ١٩٧٤
- دراسات في نقد الشعر، ١٩٧٩
- الذاكرة المفقودة، ١٩٨٢
- زمن الاحتلال، ١٩٨٤

تصميم الغلاف محمد شبارو

انشقت أهدابه قليلاً عن عينين يغطيهما النعاس
فقررت أن تغمضهما من جديد وتتابع المنام.
رأت شمعة صغيرة بيضاء، يرتجف نورها الشاحب
في الضباب.
منصور يحمل الشمعة ويمشي أمام سيارة الشاكي
والهواء يضرب معطفه الطويل، لكنها لم تستطع
أن تتبيّن ملامح زوجها.
مدّت يدها إلى كوب الماء الذي تضعه في
العادة على الطاولة إلى جانب سريرها فلم
تجد الماء.



ولد الكاتب اللبناني الياس خوري في بيروت عام ١٩٤٨.

درّس في جامعتي كولومبيا ونيويورك في الولايات المتحدة، وفي الجامعتين اللبنانية والأميركية في بيروت.

ترجمت رواياته إلى الفرنسيّة والإنكليزيّة والألمانية والايطالية والسويدية والنروجية والعبريّة والهولندية. والكاتالانية والبرتغاليّة والاسبانيّة.



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-015-9
9 789953 890159